

د. محمد حناوي

النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والظوائف



طوفان الأقصى



النظام العسكري بالأندلس
في عصري الخلافة والطوائف

د. محمد حناوي

النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف

الكتاب: النظام العسكري بالاندلس في عصري الخلافة والطوائف

المؤلف: محمد الحناوي

الحقوق: جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التصنيف والإخراج الفني : دار أبي رقرق للطباعة والنشر

المطبعة : فيديبرانت

الطبعة الأولى: 2003

رقم الإيداع القانوني

2003/1750

ردمك

9954-423-23-0

دار أبي
رقرق
للطباعة والنشر

10 شارع العلويين رقم 3 حسان الرباط

الهاتف : 037 20 75 83 - الفاكس: 037 20 75 89

البريد الإلكتروني : E-mail : editbourg@aim.net.ma

طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

المقدمة

يُعتبر القرنان الرابع والخامس للهجرة (X / XI م) من الفترات الهامة في تاريخ الغرب الإسلامي عامة وفي التاريخ الأندلسي خاصة، وذلك لاعتبارات عديدة، منها أن القرن الرابع الهجري تميز بقيام سلطة مركزية بقرطبة تمكنت من إرساء بنيات سياسية واقتصادية وعسكرية قوية زادت من إشعاع دورها في مجالات مختلفة داخليا وخارجيا. لقد عملت الخلافة على بناء نظام عسكري مستقر ومتميز كانت الكور المجندة بالأقاليم تشكل نواته الأولى، وكذلك جند الحضرة المركزي بقرطبة، إضافة إلى الأسطول الحربي الذي امتدت قواعده على طول السواحل الأندلسية، وكان أداة فعالة في تثبيت نفوذ الخلافة.

أما القرن الخامس الهجري فشهد، على عكس سابقه، تحولات عميقة في البنيات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي أسستها الخلافة طيلة القرن الرابع. إنه يقدم نموذجا دالا لمعاينة ورصد مختلف التطورات والتحولات في المجال العسكري والحربي بالأندلس. إن البحث في التاريخ العسكري الأندلسي هو في واقع الأمر دراسة في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لأن المجتمع والسلطة والاقتصاد مقولات لها وجه عسكري يعكس بشكل من الأشكال مستوياتها وأهميتها. وقد عبر الحكماء القدامى من العرب والعجم عن هذا المعنى حين قالوا: «المُلك بناء والجند أساسه، فإذا قوي الأساس دام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء، فلا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل...» (1).

يتضح إذن أن دراسة النظام العسكري لا يعني، كما يتبادر إلى الأذهان، الوقوف عند المعارك وتعدادها وأعداد الجند المشارك فيها والانتصارات التي حققها أو الهزائم التي مني بها، وغير ذلك من الجوانب "الحدثية" في الموضوع، والتي لا تفيد إذا انتزعت من السياق أو الإطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي أنتجها. نعم إن الحروب وجه من أوجه الأنظمة القائمة في ميادين متعددة، ولذلك قيل: «...» (...) والحرب في جوهرها (...)

أداة عنيفة من أدوات السياسة. والسياسة ذاتها وثيقة الصلة بالاقتصاد الذي يتمحور حول

(1) - الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد الفهري): سراج الملوك. تحقيق: فتحي (محمد أبو بكر)، الدار المصرية اللبنانية، 1994، ج. ص. 215، 216.

نشاط الأمم..ومن هذه العلاقة جاءت أهمية الحرب كظاهرة اجتماعية⁽¹⁾». وقد سبق لابن خلدون⁽²⁾ في «فصل الحروب ومذاهب الأمم» أن حلل بعمق أهمية الحروب باعتبارها أمراً طبيعياً في البشر مبيناً أسبابها المتباينة والمرتبطة بالانتقام أو الغيرة أو المنافسة أو العدوان أو الجهاد. ودون الدخول في التفاصيل ذات الطابع النظري، نقول: إن على التاريخ العسكري أن يتخطى عتبة تمجيد الماضي والوقوف عند بطولاته، إلى الاهتمام بالنظم والبنى التي تثير قضايا متعددة.

لاشك أن التاريخ العسكري للمشرق الإسلامي قد حظي باهتمام الباحثين منذ مدة؛ في الوقت الذي لم يحظ بالاهتمام ذاته في الغرب الإسلامي. فلم تفرد له، فيما نعلم، دراسة عربية مستقلة⁽³⁾. إن ما كتب في موضوع الجند الأندلسي يدخل في إطار دراسات تُعنى بمواضيع أخرى. بل كثيراً ما يتم التركيز على المعارك أو العناصر العرقية أو الإثنية التي يتكون منها الجند، وذلك تبعاً للفترات التاريخية المدروسة.

لقد شاع الاعتقاد أن المصادر المتداولة لا تسمح بالكتابة في التاريخ العسكري نظراً إلى العمومية أو الغموض اللذين يطبعان مادتها. وكثيراً ما تمّ التذرع بذلك للقول إن التاريخ العسكري، شأنه شأن التاريخ السياسي، لا يعدو أن يكون تاريخاً للبلاط والبطولات.

(1) - الموسوعة العسكرية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1977، ج 1، المقدمة.

CONTAMINE (Ph); L'Histoire militaire et l'histoire de la guerre dans la France médiévale depuis trente ans. Dans : **Tendances, perspectives et méthodes de l'Histoire médiévale. Actes de 100è congrès national des sociétés savantes, Paris, 1977 T1, p.71-79.**

(2) - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة، تحقيق: وافي (عبد الواحد)، القاهرة لبنان، 1401 هـ، ج 2، ص. 715.

(3) - نلاحظ أن التأليف الأوربي في مختلف جوانب التاريخ العسكري الفيوذالي قد نشط منذ السبعينيات، مما أدى إلى تعدد الأبحاث الجزئية في الموضوع، وساهم في خلق تراكم معرفي تاريخي هام، شكل أرضية صلبة لمدرسة تاريخية تعنى بالبحث العسكري. ومن أهدافها وضع أسس علم تاريخي مستقل يهتم بالحروب ومظاهرها ودلالاتها النفسية والاجتماعية والاقتصادية. إنه علم يعرف "بالبوليمولوجيا" (Polémologie)، ويسعى إلى المساهمة الفعالة في بناء ما سماه F.BRAUDEL أحد أقطاب مدرسة الحوليات، "بالتاريخ العميق" أو "الطويل المدى"، الذي يتجاوز الأحداث السطحية المتكررة والمتشابهة، ليرصد البنى والنظم والتحويلات العميقة التي تصاحبها عبر حقب تاريخية طويلة.

نعتقد أن دراسة النظام العسكري الأندلسي يطرح مجموعة من القضايا الأساسية، خاصة تلك المرتبطة بالمقولة الثلاثية السالفة الذكر، والتي يتقاطع فيها الملك (السلطة السياسية)، والجند (أداة السلطة)، والاقتصاد (البنية المادية للسلطة والجند). أي أن دراسة النظام العسكري الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف تمر عبر فهم طبيعة السلطة السياسية القائمة بقرطبة والأقاليم، وكذا الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي يؤثر فيها الجند أو يستفيد منها بشكل من الأشكال. يبدو أن إحدى الخصائص الأساسية التي يتميز بها التاريخ الإسلامي الوسيط، تكمن في طبيعة السلطة السياسية وعلاقتها بالجند⁽¹⁾. فلا شك أن السلطة أو الدولة سواء كانت قوية ونافذة - كما هو الحال في عصر الخلافة، أم ضعيفة كما حدث خلال الطوائف، أثرت بشكل من الأشكال في بنية الجند ونسجت معه علاقات مختلفة حسب طبيعتها.

ومن القضايا الهامة الأخرى التي تثيرها دراسة النظام العسكري الأندلسي ما يفرضه موقع الأندلس كمجال جغرافي وبشري يقع في أقصى غرب ما كان يُعرف "بدار الإسلام" أي جوار المسيحيين، وما يلزم ذلك الجوار من خصوصيات في الثغور؛ وظاهرة العمران العسكري أو العمارة الحربية وأشكالها ومميزاتها. ناهيك عن طبيعة الأسطول الحربي الذي تطور بالأندلس منذ فجر الخلافة. ونشير في هذا الباب إلى غياب الدراسات العربية التي تهتم ببنية الأسطول خلال عصري الخلافة والطوائف؛ ولذلك عمدنا إلى إثارة العديد من القضايا والتساؤلات المرتبطة بدور الصناعة ومواد الإنشاء وأنواع السفن، ورجال الأسطول. وقد حاولنا تتبع مجموعة من المعطيات والإشارات التي ميزت الأسطول الحربي من التجاري منذ عصر الخلافة، أي قبل القرن الخامس الذي انقلبت فيه الأوضاع لصالح المسيحيين في مجال البحار. إلى جانب ذلك رصدنا قضايا أخرى لا تقل أهمية

(1) - لقد حدث العكس في أوروبا الفيو دالية حيث، لما كانت السلطة السياسية قوية ومركزية خلال العصر الكارلنجي (VIII - IX م)، لم تكن الأوضاع الاقتصادية والعسكرية في مستوى النمو والقوة التي كانت عليها خلال الفترة اللاحقة أي إبان قوة الفيو دالية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين (X - XI م)؛ وهي المرحلة المعاصرة للخلافة والطوائف بالأندلس. إنها الفترة التي تجزأت فيها السلطة السياسية على المستوى الإقليمي، في الوقت الذي تألفت فيها فئات الفرسان، وشكلت "نظاماً" خاصاً أو قوة اجتماعية واقتصادية وعسكرية تصدرت الواجهة واعترف بها الجميع بما في ذلك الكنيسة والسلطة السياسية نفسها.

كالرباطات البحرية وجهاد العلماء والفقهاء والقضاة بالثغور، والطرق التي كانت تسلكها الحملات العسكرية والمسافات التي تقطعها في البر والبحر، والأوقات التي تحتاجها وتختارها في ذلك، والأسلحة المستعملة في الحروب؛ أنواعها ووظائفها ومواد وطرق صناعتها واستخدامها إلى غير ذلك من المواضيع التي تثير جوانب متعددة من التاريخ العسكري الأندلسي. ففي مجال الثغور مثلاً اعتمدنا منهجية تسعى إلى إبراز خصوصياتها العسكرية وعلاقتها بالسلطة المركزية بقرطبة خلال الخلافة، ثم إبان عصر الطوائف، حيث استقرت بها بعض الأسر والدويلات المعروفة. لقد كانت الخلافة بقرطبة تخضع للثغور، وكانت في الآن نفسه تنهج سياسة خاصة اتجاهها باعتبارها أقاليم أو مناطق حربية دائمة تقف في مواجهة المسيحيين. إنها سياسة مبنية على نوع من الازدواجية، مما جعلها تختلف تماماً عن تلك التي كانت تسلكها مع باقي الكور والأقاليم. وتغيرت سياسة الثغور في الميدان العسكري خلال العصر الطائفي. إن السياسة التي اتبعت في الثغور المناخمة للمسيحيين طيلة القرنين الرابع والخامس للهجرة تقضي إلى إثارة قضايا هامة مثل وظائف الحصون والقصبات أو العمران الحربي بتلك المناطق، وكيفية النظر إلى مقولتي "دار الإسلام" و "دار الحرب"، في إطار علاقات سياسية وعسكرية معقدة، إلى غير ذلك من القضايا. وفيما يتعلق بالعمران الحربي بأندلس الخلافة والطوائف نلاحظ الغياب المطلق للدراسات والأبحاث العربية في الموضوع. إن أغلب ما أنجز من تلك الأبحاث لم يراوح النظرة، إن لم نقل، "النظرية" السياسية أو العسكرية التقليدية⁽¹⁾ التي تعتقد أن الحصون والقصبات والأبراج والأسوار ما هي إلا مؤسسات حربية ذات طابع دفاعي محض يتحصن فيها الأمراء والزعماء تحسباً أو درءاً لأخطار الغزو أو الثورات المحلية. انطلاقاً من ذلك حاولنا النظر إلى التحصين الأندلسي خلال الخلافة والطوائف باعتباره بنية عسكرية وعمرانية هامة له علاقة مباشرة بالمجال الطبيعي والبشري والاقتصادي وبالسلطة السياسية. وبناء على ذلك أبرزنا أهمية الحصون أو المعمار العسكري عامة

(1) - لقد سادت هذه النظرة السياسية أيضاً في الأبحاث الأجنبية المهمة بالأندلس إلى بداية الثمانينيات حيث انطلقت أبحاث خاصة في الميدان الأثري والطبوغرافي ساهمت إلى حد كبير في دراسة ما يُعرف "بالسكن المحصن" وتعدد وظائف التحصينات.

وظائفه في الأرياف كما في المدن في عهد الخلافة، ثم التحولات الكبرى التي طرأت على تلك الأهمية والوظائف خلال الطوائف. وبتعبير آخر، بعد القيام بعمل توثيقي مصدري يهدف إلى رصد وجرد لوائح لأهم مواقع الحصون والقصبات والأبراج والأسوار، حاولنا إجراء قراءة متأنية، ما أمكن، في وظائف العمارة الحربية من خلال ربطها بمتغيرات ثلاثية السلطة والمجال والإنسان.

فهل تسعف المادة المصدريّة المتوفرة في تحليل ودراسة القضايا السالفة الذكر؟
تجدر الإشارة إلى أن المكتبة الأندلسية تمتاز بثروة مصدريّة هامة ومتنوعة على الرغم من أن العديد من مصنفاتها قد أصابه التلف مثل: كتاب المتين لابن حيان أو تاريخ ابن حيان، وكتاب ابن عاصم المتوفى 449 هـ (1058 م) المخصص للمأثر العامريّة خاصة غزوات المنصور بن أبي عامر الكثيرة وأوقاتها، وكتاب أحمد بن محمد التاريخي في مسالك الأندلس ومراسيها ومدنها وأجنادها الستة، وكتاب الملك الطانقي بن هود المعروف ب: يقظة الناعس وتدريب المجاهد الفارس، إلى غير ذلك من المصنفات التي سيؤدي العثور عليها⁽¹⁾ إلى تعميق الكثير من القضايا المرتبطة بالتاريخ العسكري الأندلسي؛ إن لم نقل تغيير بعض التصورات السائدة حوله. إضافة إلى غنى المكتبة الأندلسية، يمتاز التاريخ الأندلسي كذلك بمصادر معاصرة للمرحلة التاريخية التي تُعنى بها هذه الدراسة. يكفي الإشارة إلى مصنفات ابن حيان السالف الذكر (ت 469 هـ / 1076 م)، والبكري (ت 487 هـ / 1094 م)، وابن بلقين الأمير عبد الله⁽²⁾ الذي كتب في الأحداث العسكرية من الفترة العامرية إلى آخر أيام الطوائف، وغيرهم.

(1) - من حسن الحظ أن بعض المصادر سواء المعاصرة للفترة أم المتأخرة قد احتفظت بنصوص هامة من المصنفات المفقودة كإبن بسام مثلاً في "الذخيرة" أو ابن الخطيب في "أعمال الأعلام"، اللذين اعتمداً نصوصاً عديدة من كتاب المتين لابن حيان مثلاً. وربما من المفيد للغاية إجراء قراءات واسعة في مختلف متون المصادر قصد جمع وترتيب تلك النصوص بهدف إعادة بنائها وفق شكل قريب من الأصل.

(2) - يجمع الباحثون على أن كتاب "التبيان" للأمير عبد الله بن بلقين، من المصادر الفريدة في التاريخ الأندلسي، وذلك لاعتبارات متعددة منها: أنه على شكل (سيرة ذاتية) كتبها أحد الزعماء الذين جربوا ومارسوا السلطة السياسية والعسكرية التي عاشها المؤلف بغرناطة خلال الطوائف. إنه وثيقة تكشف بدقة مجموعة من القضايا العسكرية يمكن من خلالها قراءة التحولات التي طرأت على جند الحضرة في دولة غرناطة القرن الخامس الهجري، وعلى وظائف الحصون والقصبات مع مطلع القرن ذاته.

إن إجراء قراءة واسعة في المصادر المخطوط منها والمطبوع خاصة تلك التي لها صلة مباشرة بالموضوع والاستفادة منها بدرجات متفاوتة حسب مضامينها والمراحل التاريخية التي تناولتها، دون إغفال مظان أخرى تبدو أحياناً ثانوية، من شأنه أن يفيد في إعادة قراءة جوانب متعددة من التاريخ العسكري في الغرب الإسلامي عامة، وفي الأندلس خاصة، كما يؤدي إلى تبديد الاعتقاد أو التصور السائد والقاتل بأن المصادر تقف عند التاريخ العسكري ذي الوجه الحدثي السياسي.

انطلاقاً مما سبق استفاد هذا البحث من مادة مصدرية متنوعة تمّ بناؤها كالتالي:

- 1 - المصادر التاريخية.
 - 2 - كتب الطبقات والتراجم والأنساب.
 - 3 - كتب الفقه والنوازل والوثائق والأموال والحسبة.
 - 4 - كتب الجهاد والسلاح والفروسية.
 - 5 - كتب المسالك والممالك والرحلات والجغرافيا.
 - 6 - كتب الطب والفلاحة والنبات والبيطرة.
 - 7 - كتب السياسة والأحكام أو الأخلاق السلطانية.
 - 8 - المصنفات الأدبية واللغوية والدواوين الشعرية والمعاجم المتخصصة.
 - 9 - الدراسات والأبحاث العربية والأجنبية المعاصرة.
- 1 - من المصنفات التاريخية الأساسية التي استفاد منها البحث نذكر "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية و"المقتبس" لابن حيان، و"ترصيع الأخبار" للعذري، و"كتاب التبيان" لابن بلقين، و"البيان المغرب" لابن عذارى، و"الحلل الموشية" لمؤلف مجهول، و"المعجب" للمراكشي، و"الإحاطة في أخبار غرناطة"، و"أعمال الأعلام" لابن الخطيب، وموسوعة "النفح" للمقري وغيرها كثير. تقدم هذه المصنفات الأندلسية والمغربية معلومات متنوعة ومفيدة يمكن استغلالها في مختلف جوانب الموضوع. فابن القوطية مثلاً يفيد في أحداث الفتح الأندلسي، وما يرتبط بأعداد الجند المستقر بالكور المجنّدة والأقاليم الأندلسية. ويقدم شيخ المؤرخين الأندلسيين ابن حيان مادة ثمينة لا يُستغنى عنها في دراسة النظام العسكري

الأندلسي طيلة عصر الخلافة. إن معلوماته خاصة في القطعة الخامسة من 'المقتبس' تغطي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. وتتناول بالتفصيل أحيانا مختلف جوانب الحملات العسكرية التي نُظمت ضد المعارضين لقرطبة أو ضد المسيحيين في الثغور. كما تقدم مادة ثرية في دراسة وفهم خصوصيات هذه الثغور في الميدان العسكري. وتفيد كذلك إلى حد كبير في فهم الخطط الإدارية والعسكرية التي أقرها الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأقاليم. أكثر من ذلك كشف ابن حيان عن معلومات غاية في الأهمية تخص السكن المحصن والعمارة الحربية، إذ يمكن رسم خريطة مفصلة من خلال "المقتبس" تُبين مواقع الحصون في الأرياف الأندلسية وأهمية القصبات والأسوار في المدن مما يساهم في قراءة دلالات العمارة العسكرية بالأندلس.

ويُكمل ابن بلقين الصورة أو التصور باعتباره شاهد عيان حلل ظاهرة التحصين ووصف أهميتها، وكذا التحولات التي طالتها على امتداد القرن الخامس الهجري. وعلى نهج ابن حيان قدم ابن بلقين لائحة مفصلة للحصون والقصبات ومواقعها وأدوارها يمكن مقارنتها بما ورد عند ابن حيان أو عند العذري لإبراز مختلف التطورات أو التغييرات في هذا المجال. أما صاحب "الحلل الموشية"، و'البيان المغرب' فقد أفاد في مواضيع متعددة مثل العلاقات الأندلسية المغربية في مجال الأسلحة والأساطيل وغيرها. وانفرد ابن الخطيب بذكر نصوص وإشارات هامة، نقل بعضها من كتاب "المتين" المفقود لابن حيان وتتناول جوانب جزئية ودقيقة أفادت في تعميق وفهم قضايا تهم روائع وأعطيات الجند الأندلسي منذ فترة استقراره بالكور المجندة، وطرق التمويل في الميدان العسكري، وكيفية صناعة الأسلحة وتخزينها وتوزيعها، وخطط الجند وأساليب قتاله إلخ... ولاستكمال المعلومات في بعض جوانب الموضوع اعتمدنا موسوعتين هامتين هما "الذخيرة" لابن بسام، و"تفح الطيب" للمقري. ولم نتردد في الاستعانة بمصنفات مشرقية لا تقل أهمية أفادتنا، في إطار المنهج المقارن، في إبراز بعض جوانب أنظمة الجيش المشرقي عامة والفاطمي بالخصوص. وقد استفاد البحث من "صبح الأعشى" للقلقشندي، ومن "خطط" المقرئزي، ومؤلفات ابن الأثير والطبري والبلاذري وغيرهم. ولم نألُ خُهداً في الاطلاع على بعض المصادر الفاطمية ككتاب "المجالس والمسائرات" للفاضي أبي حنيفة النعمان،

و سيرة الأستاذ جؤذر" لصاحبه الجؤذري، الذي كشف عن معلومات مفيدة تهم الأسطول الحربي الفاطمي والعناصر العرقية أو الإثنية النافذة في الجند. كما أفادنا كتاب تبصرة أرباب الألباب" للطرسوسي في فهم كيفية صناعة السلاح وطرق استخدامه في الأسطول. وعلى غرار ه أورد مخطوط "الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية" لابن منكلي إشارات دقيقة تهم روائب وأعطيات الجند بالإضافة إلى خصوصيات تهم أوضاع جند الأسطول الحربي، مما أفاد في إجراء مقارنات مهمة.

2 — وتقدم كتب الطبقات والأنساب والتراجم الأندلسية معلومات دالة في مختلف مناحي الحياة العسكرية. وتجدر الملاحظة إلى أن الأندلسيين قد برعوا في هذا الصنف من التأليف، وبات من المؤكد أن المتفحص والمتمعن لمتونه يكتشف معلومات وإشارات نادرة، قد لا توجد في المصنفات التاريخية المتداولة، وتفيد في إنارة جوانب متعددة من التاريخ العسكري.

وللدلالة على ما نذهب إليه يكفي القول مثلا إن ما ألفه القاضي عياض وابن الأبار وابن بشكوال، والحميدي، وابن الشباط، والخسني، وأبو حامد الغرناطي وابن عبد الملك المراكشي، وغيرهم، يضم نصوصا دقيقة، قل ما انتبه إليها الدارسون المعاصرون، تهم رباط وجياد العلماء والفقهاء والقضاة وانقطاعهم إلى الثغر المتاخمة للإفرنج في فترات تاريخية محددة. كما تقدم إشارات دالة في إشراف بعض الفقهاء والعلماء على بناء الحصون والقلاع من أموالهم الخاصة، كي تتخذ للجهاد والرباط، ناهيك عن إشارات تهم العلماء الذين كانوا يزاولون مهمة القضاء في الثغور إلى جانب قيادة الجند، وغير ذلك من القضايا التي يفيد فيها هذا النوع من التأليف.

3 — لاشك أن كتب الفقه والنوازل والوثائق والأموال والحسبة تعد من المظان التي تساعد على فهم واستيعاب العديد من القضايا التي تهم النظام العسكري. فكتب الأحكام الفقهية والنوازل، كالأحكام الكبرى لابن سهل، والفتاوي لابن رشد، والنوازل لابن الحاج والمعيار المغربي للونشريسي، والنوازل للبرزلي، وغيرها، تقدم معلومات مفصلة في ميدان التسريع والإفتاء في كيفية افتكاك الأسرى وطرق توزيع العنائم وأرزاق الجند والعلاقات المختلفة مع المسيحيين في حالات السلم والحروب وغير ذلك. وتزخر كتب

الوثائق والأموال والحسنة كـ المقصد المحمود للحزيري، وكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، و"كتاب الخراج" لأبي يوسف يعقوب وأحر في الخراج أيضاً لأبي القاسم القشيري، و"كتاب الأموال" لأبي جعفر الداودي، و"كتب الحسبة" لابن عذون ولسقطي وغيرهم، بفيض من الإشارات التي تكمل المعلومات الواردة في كتب الفقه والتاريخ السالفة الذكر في المجال العسكري. إنها تتناول مواضيع متعددة كطرق التحسيس في ميادين مختلفة كالخيل والأموال والأرض لفائدة الثغور أو الجند، وكيفية التعامل مع أموال العدو في السلاح والغنائم. كما تقدم كتب الحسبة إفادات هامة في دور المحاسب أو القاضي في مراقبة الأدوات والمواد التي يستفيد منها الجند، كالسلاح والدواب، حتى لا تتعرض للفساد والتزوير إلى غير ذلك من المعلومات التي لا بد من استحضارها لاستكمال التصور حول النظام العسكري الأندلسي.

4 - ولا تقل كتب الجهاد والسلاح والفروسية درجة في معالجة جوانب متعددة ونقيقة من التاريخ العسكري بأندلس الخلافة والطوائف وتجدر الإشارة إلى ازدهار التأليف العربي في هذا الصنف من المؤلفات منذ عهد الفتوحات الإسلامية، مما أدى إلى نوع من التراكم المعرفي ساهم في إغناء المكتبة العربية. ورغم ذلك لا تزال العديد من المصنفات لم ينفذ عنها غبار النسيان. ومن أمثلة ذلك نذكر:

"في الوقف والأمور الجهادية"، لمؤلف مجهول، وكتاب "الجهاد والسلاح" لآخر مجهول، و"سيرة أجواد الأتجاد في مراتب الجهاد" للمراكشي؟، وكتاب "الخيل وما ورد فيها" للتميمي، و"مطلع اليمن والإقبال في استيفاء ما للخيل من الأحوال، لعبد الله بن رضوان، و"كامل الصناعة في الفروسية" لمؤلف مجهول، و"كتاب الإيضاح في علم الرمي" لأبي عبد الله محمد بن يوسف، و"القول التام في فضل الرمي بالسهم لشمر الدين السخاوي، وغيرها من ذخائر التراث المخطوط الذي يميّز التام عن مجموعة من القضايا العسكرية الهامة التي يثيرها هذا البحث كالأسلحة وفضلها وما يصنع منها، والمواد التي تدخل في صناعتها، وفضل الخيل وأحوالها وصفاتها وما يختار منها في الحروب إلى غير ذلك. ونعتقد أن الانكباب على تحقيق هذا النوع من المصنفات التي ألفت

كاملة أو حلها في الانظمة العسكرية كما يتبين من عناوينها، سيعمق البحث في تساريف
العسكري ويؤدي إلى تحاور النظرة الفاصرة القائلة بنظر المادة المصدرية في الموضوع.
5 - أما كتب المسالك والممالك والرحلات والجغرافيا، مثل ما صنفه الرازي، وابن
حردادبة، والإصطخري، وابن حوقل، والنكري والمقدسي والحموي، واليعقوبي وابن سعيد
المعري، والحميري وغيرهم كثير، فتقدم معلومات لها صلة مباشرة بالموضوع كالبحث
في لكور المحدة والأقاليم وحدودها؛ ورسم المسافات العسكرية التي تقطعها الحملات
العسكرية في البر والبحر في أوقات الحروب أو في السلم. كما تصف الأقاليم الاستراتيجية
كالشعور، وتذكر التفاصيل حول مسالكها وطرقها، وفي أحوالها البشرية والجغرافية
والاقتصادية مما يسهل مراقبتها من قبل الجند. ناهيك عن الإشارات الدالة الواردة في كتب
الرحلات، تهتم العادات العسكرية والحربية في مناطق متعددة وأقاليم متباعدة مما سمح
بإجراء بعض المقارنات التي لا تخلو من فائدة.

6 - وتزخر المكتبة المغربية والأندلسية بمصادر تراثية هامة تعنى بالطب والفلاحة
والنات والنيطرة استفاد منها البحث بشكل مباشر. وعكس ما يتبادر إلى الأذهان، يقدم هذا
النوع من التأليف معلومات دقيقة لم ندخر جهداً في استغلالها قصد فهم وتوضيح مجموعة
من القضايا المرتبطة بالجند. فنصوص الفلاحة مثلاً تقدم للباحث إشارات دالة في إنتاج
المواد الفلاحية (التموين) المختلفة التي يستفيد منها الجند، وأوقات أو فصول إنتاجها،
وكمياتها. كما تفصل ولو بشكل غير مباشر في موضوع الحنن وعلاقته بالحياة الاقتصادية
شكل عام. أما كتب الطب والنيطرة، التي لم تستغل، فيما نعتقد، إلى الآن، فتقدم لدارس
النظم العسكرية مادة دسمة استفدنا منها في الطب البشري والبيطري حيث أمكن توظيف
إشارات وبصوص تكشف عن الوسائل والطرق التي يتخذها الأطباء الذين يرافقون
الحملات العسكرية ويلازمون الحنن أو البيطرة الذين يعالجون أمراض الدواب بدقة
واهتمام خاصة الحيل التي كانت تشكل الأداة الأساسية في حياة الجند أو الفارس الأندلسي.
وقد تم توظيف بصوص هامة انفرد بها الطبيب المشهور أبو القاسم الزهراوي (ت. حوالي
1013م) في كتابه المخصص للطب والتشريح، كشف فيها عن أساليب دقيقة للغاية تهتم
التشريح والعلاج أو مداواة الجراح الناجمة عن استخدام الحنن للأسلحة. لقد قدم نماذج

تطبيقية تدخل عندها ليبتن طرق انتحال أو استئصال أحرار من الأملحة كالسيام السامة من أعضاء جسم بعض قادة الحند الذين أصيبوا في المعارك. ولا عرو فقد برع في ذلك حتى أنه أبهر الأوربيين الذين أخذوا منه كما اعترف بعضهم بذلك⁽¹⁾.

7 — ولم تبخل كتب السياسة والأحكام السلطانية في تزويدنا بمعلومات عية نهد جوانب مختلفة في الموضوع. وكما هو الشأن بالنسبة لكتب الطب والفلاحة والنبات والبيطرة، ألف المغاربة والأندلسيون، على غرار المشاركة في هذا اللون من كتب التراث وقدموا تصورا إن لم نقل "نظريات" تهم أسس وقواعد الحكم والملك التي يعتبر الحند إحداهما.

لقد وظفنا معلومات مفيدة واردة في مصنفات أندلسية ومغربية ومشرقية كمؤلفات ابن المقفع والماوردي، والمرادي الحضرمي والطرطوشي وابن المناصف، وابن رضوان وابن الأزرقي، وابن الخطيب وغيرهم، دون إغفال ما ورد في بعض السحطوط منها، كالفوائد والقلائد، قلائد السلوك فيما يحتاج إليه الملوك لأبي الحسن الأهوازي. وكتاب السياسة في تدبير الرئاسة ليحيى البطريق، وكتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فضل الخلافة، لأبي العباس أحمد التدميري، وغيرها من الأدوات المصدرة المفيدة في تبيان طبيعة الجند ووظائفه وأدواره وعلاقاته المختلفة في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

8 — وتتيح المصنفات الأدبية واللغوية والدواوين الشعرية والمعاجم المتخصصة إمكانيات متعددة لدارس الأنظمة العسكرية لأنها تقف أحيانا عند جزئيات مفيدة في دراسة وفهم قضايا عسكرية كبرى. فلا نبالغ إذا قلنا إن مؤلفات ابن هشام اللخمي مثلا في تقويم اللسان وتعليم البيان أو ما صنفه الجاحظ في الرسائل والحيوان والبيان والتبيين أو ما كتبه ابن سيده الأندلسي في "المخصص"، أو الزجالي في أمثال العوام، لا يمكن الاستغناء عنه في فهم جوانب كثيرة في النظم العسكرية. وتقدم الدواوين الشعرية الأندلسية بدورها مادة طيبة في هذا المجال. ولقد استفدنا من ديوان ابن دراج القسطلي، في ذكره للأحداث

(1) - SOURIA (J. Ch), *Medecins Arabes Anciens X et XIe siecles* Paris - Conseil international de la langue française, 1986, introduction

CLOT (A), *L'Espagne musulmane, VIII-XV^e siècle*, Paris, Perrin, 1999, p. 258 et sv

التي صاحبت المرحلة العامرية، وديوان المعتمد بن عباد الملك الإشبيلي الذي وصف أحداث خلعه من قبل المرابطين، وديوان ابن هاني الأندلسي الذي وصف الفاطميين، وديوان ابن حمديس، والأعشى التطيلي وغيرهم. لكن وجب التنبيه إلى أنه باستثناء المعاجم اللغوية المتخصصة كالمخصص لابن سيده، ولسان العرب لابن منظور وتكملة المعاجم العربية لدوزي وغيرها، فإن أغلب المصنفات الأدبية والشعرية المعاصرة لفترة الخلافة والطوائف يعكس بشكل من الأشكال التحديات والصراعات المختلفة بين قوى متناحرة تبحث عن الغلبة والسيادة والتألق. ولذلك فكثير من النصوص اتسم بالمبالغات والأوصاف الزائدة عن اللزوم، مما يفرض التعامل معها بحيطه وحذر تامين.

9 - ولم يغفل البحث الاستفادة من الدراسات المعاصرة العربية والأجنبية. لقد حاولنا إجراء قراءة في نتائج مجموعة من الأبحاث الأجنبية ذات الطابع الأثري والطبوغرافي الشيء الذي ساعد على توطيئ وفهم أهمية ووظائف العديد من الحصون والقصبات والأسوار. إضافة إلى ذلك نشير إلى أن دراسة النظام العسكري الأندلسي وما يقتضيه الجوار مع المسيحيين دفعنا إلى توسيع مجال القراءة والاستفادة من بعض متون المصادر المسيحية مما مكن من عقد مقارنات لا تخلو من فائدة بالنظام العسكري الفيودالي. ونبادر إلى القول إن الاطلاع وإمعان النظر في المادة المصدرية العربية على تنوع واختلاف متونها دفعنا إلى إعادة النظر في الكثير من المقولات والنظريات الجاهزة التي نزعمت بتفوق أوربا الفيودالية على العالم الإسلامي في العديد من الميادين.

انطلاقاً مما توفر من مادة مصدرية متنوعة عالجت الموضوع في أحد عشر فصلاً موزعة على ثلاثة أبواب. خصص الأول للكور المجندة وجند الحضرة ونظام التغور وخطط الجند وأساليب القتال. وتناول الباب الثاني الحصون والقصبات والأبراج والأسوار والأسلحة. أما الباب الثالث فعالج الأسطول الحربي أي دور الصناعة ومواد الإنشاء والسفن وأنواعها ورجال الأسطول بأعدادهم واسلحتهم ورواتبهم، دون إغفال الرباطات البحرية التي خصصنا لها فصلاً تمهيدياً. وتناولت الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وفيما يتعلق بالمنهج، نكتفي بالقول: إن الدراسة لا تدعي الكمال أو الشمول؛ وإن ما يمكن استنباطه واستخلاصه من النص أثناء بنائه، لدليل كافٍ عن ما يتضمنه من طرق ومناهج.

ولابد من توجيه الشكر والتقدير لكل الذين ساهموا، من بعيد أو قريب، في إبحار هذا البحث.

والله ولي التوفيق

طوفان الأقصى

PRAY
GAZA
FREE
PALESTINE

الباب الأول

الكور المجندة وجند الحضرة ونظام
الثغور وخطط القتال

الفصل الأول : الكور المجندة وجند الحضرة

الفصل الثاني : نظام الثغور

الفصل الثالث : أعطيات وأرزاق الجند

الفصل الرابع : خطط الجند وأساليب القتال

تقديم

قن تحليل أدوار وطبيعة الأدوات العسكرية الدفاعية في أندلس الخلافة والطوائف، المتمثلة في الحصون والقصبات والأسلحة والأسطول، لا بد من فهم واستيعاب نظام الكور المجندة وحيد الحضرة وأرزاق الحدد وخطط وأساليب قتاله، لأن في ذلك ما يكشف عن طبيعة الجند الأندلسي نفسه من حيث أعداد ومكوناته الأساسية. فمن خلال الكور المحددة تتضح أصول العناصر البشرية المكونة لهذا الجند منذ الفتوحات باعتبارها النواة الأولى أو القاعدة التي تأسس عليها لتتطور بعدئذ خلال عصر الإمارة مروراً بالخلافة إلى الطوائف.

ودراسة جند الحضرة، هي دراسة إحدى الركائز التي اعتمدت عليها الخلافة في قرطبة طيلة القرن الرابع للهجرة (X م)، سواء لإخضاع المعارضين لسياستها داخلياً، أو لردع أعدائها سماعاً في الثغور أو جنوباً في شمال إفريقيا. ولذلك يجب تفكيك مكونات جند الحضرة لإبراز أهم عناصره وفئاته وكذا التحالفات أو التطورات المختلفة التي لحقت به في ظل الخلافة أو إبان عصر الطوائف.

ولن يستقيم فهم بنيات وطبيعة الكور المجندة وجند الحضرة دون دراسة أعطيات وأرزاق الجند الذي ظل يخدم السلطة السياسية في قرطبة أو في الأقاليم. فكيف كانت تلك السلطة تكافئ الجند؟

إن الحديث عن أرزاق وأعطيات الجند الأندلسي لا يقتصر على تبين حجم أجوره والمرتبات التي يتلقاها مشاهرة أو في أوقات محددة في السنة؛ وإنما يتعدى ذلك إلى محاولة إبراز علاقة الجند نفسه بالحياة الاقتصادية بأندلس الخلافة والطوائف. فلا شك أن كبارهم كانوا يكفون أو يستفيدون بشكل مباشر من استغلال أراض خصبة على شكل منح أو "قطاعات" مختلفة. كما أن ما كانوا يتقاضونه من خزينة الدولة، ما هو في واقع الأمر إلا جزء من نضرائب مختلفة التي كان يؤديها الفلاحون في العالم القروي، والحرفيون وأمثالهم في عالم المدن.

خاتمة من ذلك لا يمكن دراسة أرزاق وأعطيات الجند دون فهم حواش أساسية

من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية باندلس القرنين الرابع والخامس للهجرة (XI-X م).

ولاستكمال التصور عن طبيعة الجند الأندلسي ووظائفه الأساسية لابد من دراسة أنظمة التعبئة وأساليب القتال المتعددة التي كان يعتمد عليها في معاركه المختلفة. فهل استمر خلال عصري الخلافة والطوائف في نهج خطط وأساليب قتالية سادت من قبل في مناطق أخرى، أم استطاع أن يطورها أو يبتكر أخرى بفعل ما أملت عليه خصوصيات شبه جزيرة الأندلس المتاخمة للعالم المسيحي. وبصدد ذكر مجاورة المسيحيين وخصوصية الأندلس باعتبار موقعها في أقصى غرب ما كان يُعرف "بدار الإسلام"، لابد من رصد طبيعة الجند المستقر في الثغور وإبراز مميزاته المختلفة مقارنة بجند الحضرة أو بغيره في الأقاليم الداخلية، سواء خلال الخلافة أو إبان عصر الطوائف.

واعتماداً على المعطيات السالفة الذكر قسمنا هذا الباب إلى الفصول التالية:

1 - الكور المجندة وجند الحضرة.

2 - نظام الثغور.

3 - أعطيات وأرزاق الجند.

4 - خطط الجند وأساليب القتال.

الفصل الأول

الكور المجندة وجند الحضرة

الكور المجندة وجند الحضرة

1. الكور المجندة

لفهم مكونات الجند الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف، لابد من العودة إلى مرحلة ما قبل الخلافة حتى يتسنى تبيان أصول العناصر البشرية التي كانت تشكل نواته وبنيتها الأساسية. لقد كانت تلك النواة تتكون من العرب والبربر⁽¹⁾، ثم تطورت لما انضمت إليها عناصر أخرى مختلفة حسب تغير الظروف التاريخية⁽²⁾. وقد أطلق اسم "البلديون" على العرب والبربر الذين رافقوا الحملات العسكرية الأولى⁽³⁾. لأنهم أصبحوا يعدون أنفسهم أهل البلد ومالكها⁽⁴⁾. كما التحقت عناصر أخرى شامية مهمة عددياً⁽⁵⁾، قادها بلج بن بشر القشيري عام 125هـ/ (742 م)، وتُعرف في المصادر بالشاميين⁽⁶⁾. ويبدو أن قدوم هذه العناصر الشامية الجديدة تسبب في صراعات مختلفة، خاصة أحياناً، بينها وبين

(1) - لاحظ أحد الدارسين بديرة لا تخلو من بعض الحفريات السلبية إن لم نقل العنصرية أن فتح الأندلس كان بقيادة البربر ذوي الأصول الفارسية المشرقية، فموسى بن نصير مثلاً كان حفيداً لأحد أسرى الحروب العربية الفارسية ومولاه طارق بن زياد فارسي كذلك من حمدان، ومغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك من أصل مسيحي كما يدل على ذلك اسمه ما مساعدو هؤلاء في شبه جزيرة الأندلس فمسيحيون أيضاً، انظر:

MARTINEZ-GROS (Gab), L'ideologie Omeyyade La Construction de la légitimité du Califat de Cordoue, (X - XI^e Siècles). Madrid - Casa de Velázquez, 1992, p.53-54.

(2) - دون سرد التفاصيل المرتبطة بمكونات الحملات الأولى إلى شبه جزيرة الأندلس وكيفية استقرارها والحروب التي حاصتها، نكتفي بالقول إن الأنواع الأولى كانت من بربر الشمال الإفريقي. ولاشك أن عناصر أخرى بربرية وعربية التحقت بها مع توالي أخير لفتح والانتصار والإغراءات المختلفة التي ما فتئ يقدمها العالم المفتوح. يلاحظ كذلك أن الفتوحات الأولى لشبه الجزيرة الأيبيرية لم تكن سهلة وهائلة كما اعتقد أحد الدارسين حين أوضح أن القوط في إسبانيا خضعوا لطارق بن زياد دون مقاومة، في حين دفع البربر في شمال إفريقيا بالسلح عن الحضارة الإغريقية والرومانية ضد الفتوحات الإسلامية، انظر

LE TOURNEAU (R), 'L'occident musulman de milieu du VII^e siècle a la fin du XV^e siècle' dans Annales de l'Institut d'Etudes Orientales Alger, 1958, p.147, 176

تكشف المصادر عكس ما ادعاه "لوتورنو" عن مقاومة القوط للجيوش الإسلامية خاصة في المراحل الأولى انظر ابن عذاري (المراكشي): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان (ح س) ليفي بروهسال (1)، بيروت، دار الثقافة، 1983، ج 2، 8، 9.

(3) - ننون طه (عد الواحد) "تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي"، في دراسات في التاريخ الأندلسي، بغداد، 1987، ص. 37، 88.

(4) - تختلف المصادر حول أعداد العناصر الشامية أو البربرية التي استقرت منذ البداية في شبه جزيرة الأندلس، وكذلك حول أعداد القوط الذين واجهوا المسلمين بقيادة طارق بن زياد. انظر:

ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق: الطباع تيس (عبد الله)، بيروت 1964، ص. 20، 71. ابن الخطيب (لسان الدين الوزير السليمانى) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق غان (محمد عبد الله)، القاهرة، دار المعارف، 1956، المجلد 1، ص. 101، 102.

ابن أبي دينار (ابو عبد الله محمد بن أبي القاسم)، كتاب المؤس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، 1286 هـ، ص 40.

(5) - ابن الخطيب، الإحاطة...م 1، ص. 108.

باقي العناصر العربية والبربرية التي سبقتها إلى الأندلس لأنها تعتبر نفسها أحق بالامتيازات الأساسية. ولم تتردد المصادر⁽¹⁾ في نقل تفاصيل الصراعات التي دارت بين الشاميين والبلديين والبربر. لكن الخلافة الأموية التي كانت في حاجة ماسة إلى مجهودات كل العناصر السالفة الذكر من أجل الحفاظ على وجودها ومصالحها في شبه الجزيرة الإيبيرية، سعت بكل الوسائل، إلى خلق توازنات من شأنها أن تحقق التساكن بين كافة العناصر. ولذلك كلفت الوالي أبا الخطار الحُسام بن ضرار الكلبي⁽²⁾ 125هـ/127هـ (742م/744م) بأن يجد حلولاً مرضية لمختلف النزاعات القبلية، والنظر في إمكانية إعادة توزيع القبائل في "كُور الأندلس ليكون ذلك" أبعد للفتنة..⁽³⁾

كما حاول في الوقت ذاته مراعاة الأصول الشامية والوضع الاقتصادي والجغرافي الجديد في شبه جزيرة الأندلس، دون نسيان التوازن القبلي والاجتماعي الذي لن يضره إبعاد العناصر الشامية الجديدة عن قرطبة التي لا تتسع لها⁽⁴⁾. وبإيعاز من القومس أرطباس⁽⁵⁾ أنزل "أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بريّه وأهل فلسطين بشِدونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنّسرين بجيان وأهل مصر بباجة وقطيعة منهم يئدّمير"⁽⁶⁾. وقد فصل ابن حيان⁽⁷⁾ أكثر حين بيّن أن "... جند الأردن وهم أهل كورة ريه وتوصل بوصولهم أهل

- (1) - ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق الأبياري إبراهيم، القاهرة - بيروت، 1982، ص. 42، 43، 44؛ ابن عذاري: البيان المغرب... المصدر السابق، ج 2، ص. 33.
ابن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي)، الحلة السيرة، تحقيق مؤنس (حسين)، القاهرة، 1963، ج 1، ص. 45، 46، 61؛ ابن الخطيب: الإحاطة، م 1، ص. 107، 108، 109.
(2) - ابن القوطية: نفسه، ص. 42، 43؛ ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 33؛ ابن الخطيب: نفسه، م 1، ص. 108، 109.
(3) - نفسه، م 1، ص. 108، انظر بعض التفاصيل في:

- MANZANO MORENO (Ed), El Asentamiento y la Organización de los yúnds Senos en Al-Andalus, dans AL-QANTATA, Vol. XIV, Fasc. 2, Madrid, 1993, p. 327, 359.
(4) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 44؛ ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 109.
(5) - يعتبر أرطباس من زعماء القوط الذين تحالفوا مع المسلمين في شبه جزيرة الأندلس ولذلك أسندت إليه مهمة قومس الأندلس ورعيم عجم الدّمة المكلف باستخلاص الخراج لأمرء المسلمين: الإحاطة...، م 1، ص. 109.
(6) - ابن القوطية: نفسه، ص. 44؛ ابن حيان (القرطبي): المقتبس من أخبار بلد الأندلس، تحقيق الحجي (عبد الرحمن علي)، بيروت، دار الثقافة، 1965، ص. 56؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 33؛ ابن الأبار: الحلة السيرة...، المصدر السابق، ج 1، ص. 4، 61، 46، 63؛ مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق الأبياري (إبراهيم)، بيروت، 1981، ص. 78.
(7) - يعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): كتاب البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف، 1975، ص. 105، 106؛ ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 98، 109، 100.
الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص. 59، 75، 279، 339.

- (1) - ابن حيان، الحجي، ص. 201.

كورة قبرة وبيانة وبلاي. ثم جند فلسطين وهم أهل كورة شدونة والجزيرة، ثم جند قنسرين وهم أهل كورة حيان وأبدة وبياسة وبسطة، ثم جند مصر وهم أهل تدمير وبلنسية، وتوصل أهل مورور وقرمونة...". وقد تناقلت المصادر هذا التقسيم البشري الجغرافي المعروف "بالكور المجندة"⁽¹⁾، وهو بناء عسكري قبلي مرتبط بالدفاع عن الأندلس في بداية استقرار المسلمين بها. وقد اعتبرت كل القبائل أو المجموعات البشرية الأولى أجنادا مجندة لحماية السلطة الجديدة في شبه الجزيرة⁽²⁾. لقد ظلت الكور المجندة قائمة إلى عهد الخلافة التي غيرت بنياتها عبر إنشاء جند الحضرة المركزي بقرطبة.

يتبين من التقسيم الذي وضعته المصادر اتباع نوع من التراتبية في تصنيف جند الكور المجندة. فلواء الجند الشامي يحتل الصدارة بشريا واقتصاديا، إذ يخضع مناطق اقتصادية خصبة كما يتجلى من كلام ابن حيان⁽³⁾ الذي أوضح أن جند دمشق وجند حمص وجند قنسرين كان يستفيد بالتتابع من كور البيرة وإشبيلية وريّة وما يليهما أي جند دمشق بغرناطة وشاط وشبلين وبرجة ودلاية وباغة والقبذاق ولوشة ويحصب، أما جند حمص فيسيطر على إشبيلية ولبلّة. في حين يحتل جند قنسرين إقليم ريّة. وبعد ذلك تأتي الأجناد

(2) - إلى جانب الكور المجندة ذات الطابع العسكري عرفت الأندلس تقسيمات ومصطلحات أخرى لها طابع إداري أو اقتصادي أو مالي. فالمصادر خاصة كتب الجغرافيا والممالك والممالك تناقلت العديد من الألفاظ مثل الإقليم والكورة والفحص والريستاق والعمل والناحية، لكن لم تقف عند معانيها بشكل واضح. وأكثر من ذلك تشابه معلوماتها إلى حد التطابق في هذا الباب، الشيء الذي دفع ببعض الدارسين إلى القول بأن المسلمين احتفظوا بالتقسيمات التي وجدوها في الأندلس وهي إرث إغريقي أو روماني أو قوطي. انظر مثلا:

مؤنس(حسين): فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، طبعة 1985، ص. 532 وما بعدها.

BOSCH VILA (Y), Algunas consideraciones sobre AL -Tagr en AL -Andalus y la division politico, administrativa de la Espana, musulmana, dans: Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi Provençal, Paris, Maison la Rose, 1962, T I, pp. 23, 33.

VALLVE (J B), La Division territorial de la Espana Musulmana, Madrid, C S I C, 1986, pp 133, 194 et sv

(3) - من الملاحظ أن عهد الفتوحات في الأندلس إلى حدود عصر الولاة لم يعرف التمييز ما بين الجند وغيره باعتبار أن كل القادمين هم جند في حمة الخلافة الإسلامية. تتضح هذه المسألة من خلال مؤسسة القضاء أو خطة القضاء وتطوراتها. ففي فترة الولاة كان الحديث في المصادر عن قاضي الجند وهو لجميع المسلمين، ومع قيام الدولة الأموية خاصة مع عبد الرحمن الداخل، شجعت القضايا وظهر قاضي الجماعة، وهكذا استبدل قاضي الجند بقاضي العسكر تمييزا له عن قاضي الجماعة. انظر:

النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي): تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المراقبة العليا فيمر يستحق القضاء والفتيا، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1980.

الخشنّي (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشنّي القيرواني الأندلسي): قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق الحسيني(عزت العطار)، القاهرة - بغداد، 1372 هـ؛ مؤنس(حسين): فجر الأندلس...، المرجع السابق...، ص 645 وما بعدها.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، للحجي، ص. 201.

الأخرى. يؤكد البكري⁽¹⁾ ما ذهب إليه ابن حيان في السبق الذي يَتميّز به الجند الشامي في ميدان القتال أيضاً بقوله: و"إشبيلية من الكور المجندة نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق...". لاشك أن الولاة والأمراء استفادوا من التشكيلات والتقسيمات التي عكست بشكل من الأشكال الصراعات القبلية أو العرقية المعروفة إبان أوج وقوة الكور المجندة، كالصراعات بين مختلف بطون القبائل العربية أو ما بين العرب والبربر...⁽²⁾ إلخ. فالأمير عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل 138هـ—(755 م)—172هـ (765 م)، اعتمد بالدرجة الأولى على القوى اليمنية التي كونت نواة عسكرية هامة بنواحي إشبيلية. ومن هذه المدينة "كتب الكتائب وعباً الأجناد"⁽³⁾ لقتال أعدائه ومنافسيه واتخذ العرب الشاميين واليمنيين فرساناً، والبربر مشاة في جنده⁽⁴⁾.

لقد حافظ الجند الشامي على تماسكه القبلي بالكور المجندة لفترة طويلة كما يتضح من إشارات مصدرية متعددة تكشف عن استمرار الروح القبلية أو الزعامات العربية القبلية في الكثير من الكور والأقاليم الأندلسية. فابن حيان⁽⁵⁾ تحدث عن خاصة "قريش ووجوه الموالى وأهل البيوتات". ووضع ابن القوطية⁽⁶⁾ قبله لائحة لأهم زعماء العرب من رجال الأجناد مثل "أضحى بن عبد اللطيف في البيرة وابن أبي قريعة، وابن جوشن بريّة، وابن أسيد بشذونة، وحجاج بن عمر بإشبيلية". وذكر العذري⁽⁷⁾ أشهر القواد العرب بشرق إشبيلية في عهد الإمام عبد الرحمن ابن الحكم وهم عبد الله بن المنذر، وعيسى بن شهيد، والإسكندراني وعبد الرحمن بن كليب بن ثعلبة. وكان القاضي الفرج بن كنانة من أشهر

(1) - البكري (أبو عبيد الله): جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: الحجي (عبد الرحمن علي)، بيروت، دار الإرشاد، 1968، ص. 115.

(2) - فصل اليعقوبي في أصول القبائل العربية المكونة للكور المجندة في الأندلس مبيّناً أن جند دمشق الذي استقر بالبيرة مضري وقيسي، وجند الأردن بريّة من سائر البطون، وجند حمص بشذونة أكثرهم يمن وفيهم من نزار نفر يسير، وغربي شذونة الجزيرة نزلها البربر وأخلط من العرب قليل... وجند قنسرين من قرطبة شرقاً إلى حيان أخلط من العرب من معد واليمن...

كتاب البلدان...، مصدر سابق، ص. 105، 106.

(3) - ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ج 2، ص. 46.

(4) - نفسه: ص. 47.

(5) - ابن حيان: المقتبس، الحجي، ص. 30.

(6) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح...، مصدر سابق، ص. 96.

(7) - العذري (أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلاني): ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: الأهواني (عبد العزيز)، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1965، ص. 99.

الذين عقد لهم على جند شذوبة أيام الحكم بن هشام⁽¹⁾. وأورد ابن الأثير⁽²⁾ نصاً هاماً عن آخر رؤساء الكور الذي وافته المنية بقرطبة عام 455 هـ (1063م)، وهو الشيخ أبو بكر أحمد بن ظاهر "المتأمر قديماً ببلدة مرسية وكان من بقايا رؤساء الكور...". ونعز فيما ذكر ما يُزكي قوله المقرئ⁽³⁾ الذي أشار إلى تماسك القبائل العربية إلى عهد المنصور بن أبي عامر إذ أن "عرب الأندلس يميزون بالقبائل والعمائر والنطون والافخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر".

يبدو أن الكور المجندة قد دامت إلى عصر الخلافة التي اعتمدت بدورها على العناصر الأساسية منها كما هو الحال مع جند البيرة وإشبيلية وريّة الذي هو جند دمشق وحمص وقنسرين⁽⁴⁾. إن احتفاظ الجند الشامي بامتيازات عديدة جعله يُقدّم الولاء والطاعة للخليفين عبد الرحمن الناصر، والحكم المستنصر كما حدث عام 301 هـ (913م) لما عقد عبد الرحمن الناصر "لجند حمص ودمشق ولجند قنسرين ألويتها"⁽⁵⁾. بل كان جند دمشق "أول من استجاب لأمره وصحّ طاعته... فتبادروا بالمجيء إلى سُدّته، وألقوا بمقاليدهم إلى الخليفة، وتخلّوا له عن حصونهم ومعقلهم دون أمان طلبوه..."⁽⁶⁾. وعادة ما يُسند الخلفاء الأمويون أمر الجند الشامي إلى قواد وشخصيات مقربة، تحظى بتقّتهم كما حصل عام 309 هـ (921م) حين أعجب الناصر أيّما إعجاب بابن أضحى صاحب حصن الحامة الذي وفد إليه فأكرمه "وأوسع جائزته وعقدله على جند دمشق الشاميين..⁽⁷⁾ ولم يُخف الخليفة الحكم المستنصر بدوره إعجابه بالجند الشامي الذي يأمر باستعراضه في مناسبات عديدة⁽⁸⁾.

2. جند الحضرة

ومع قوّة الخلافة وتطوّراتها في مجالات مختلفة احتاجت إلى قوّة عسكرية مركزية

- (1) - النباهي: تاريخ قضاة الأندلس...، مصدر سابق، ص. 53، 54.
- (2) - ابن الأثير: الحلة للسيراء...، مصدر سابق، ج 2، ص. 117.
- (3) - المقرئ (أحمد بن محمد التلمساني) : نفع الطبيب من غصن الأندلس الزاهية، تحوّل حسن عمر، بيروت، دار صادر، 1968، ج 1، ص. 293.
- (4) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 56.
- (5) - ابن حيان: المقتبس. الجزء الخامس، تحقيق: شالميطا (ب) كوريطنلي (ه) (صح (م)، مدريد: برص، 1979، ص. 8.
- (6) - نفسه: ص. 58.
- (7) - نفسه: ص. 174، 176.
- (8) - ابن عذاري: البيان...، مصدر سابق، ج 2، ص. 244.

بقرطبة (جند الحضرة) تكون أداة ناجعة وفعالة تلجأ إليها في مناسبات عديدة داخليا وخارجيا، وذلك قصد الحفاظ على هيبتها ونفوذها. فإلى جانب الجند الشامي تمّ الاعتماد على قوى عسكرية أخرى متنوعة قادمة من مناطق جغرافية متباينة كأوربا وشمال إفريقيا⁽¹⁾. وهكذا شكل الصقالبة والحشم والبربر، إلى جانب العرب، العمود الفقري للجند الأندلسي لفترات طويلة. فتارة تكون الغلبة للعرب والصقالبة، وتارة تكون للبربر، وذلك تبعاً للتحويلات السياسية والعسكرية التي ينفجها الزعماء في قرطبة.

أ- الصقالبة : تتفق المصادر على أن الأمير الحكم بن هشام (ت 206هـ / 821م) كان "أول من جند الأجناد المرتزقين بالأندلس واتخذ المماليك المستترقين"⁽²⁾ الذين كانوا يستخدمون في الحراسة لأنهم "يرتّبون ويقيمون بباب قصره نوبا"⁽³⁾. وقد بلغ عددهم إبان عهده "خمسة آلاف مملوك منها ثلاثة آلاف من الفرسان وألفان من الرجال"⁽⁴⁾. وقد ازدادت أعدادهم خلال الخلافة واحتلت عناصر منهم مناصب مهمة في الإدارة والجيش وفي خدمات القصور المختلفة حتى غدت قوة النفوذ تمارسه في عدة مجالات. وعادة ما كان الخلفاء يعملون على إرضاء الصقالبة كي يأمنوا جانبهم كما حدث مع الحكم المستنصر الذي عمد في أول أمره إلى أخذ البيعة من صقالبة القصر المعروفين "بالخلفاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم..."⁽⁵⁾، أمثال أفلح وفائق النظامي صاحب البُرد والطراز وجوذر صاحب الصاغة والبيارزة⁽⁶⁾. وهما المسؤولان عن الغلمان الفحول بخارج القصر⁽⁷⁾ وبداخلها كذلك. يشير ابن الخطيب⁽⁸⁾ إلى أنهم "كانوا

(1) - لا شك أن الهجرات من المشرق إلى الأندلس لم تنقطع نهائيا بعد عصر الإمارة بل أضحت محدودة، وأحيانا اقتصر على مجموعات من العلماء والفقهاء الذين يأتون الأندلس لأغراض علمية أو جهادية: انظر نظام الثغور.

(2) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ترجمة وتحقيق مولينا (ل)، مدريد، 1983، ص. 125.

المقري: النفع... مصدر سابق، ج 1، ص. 242.

النويري (أحمد بن عبد الوهاب) نهاية لأرب في فنون الأدب: قسم المغرب، تحقيق: أبو ضوف (أحمد مصطفى)، الدار البيضاء، 1984، ص. 93؛ ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص. 277.

(2) - يقابل كلمة مسترق أو مملوك مجموعة من المصطلحات والألفاظ الأوربية المشهورة مثل: Slave, Esclave, Esclavos, Servi, Servus, Esclavage etc.

انظر: ANDERSON (P); Les Passages de l'Antiquité au féodalisme, Paris, Maspéro, 1977, p. 19 et sv.

BONNASSIE (P); Les 50 mots clefs de l'Histoire médiévale, Toulouse, Privat, 1981, p. 71 et sv.

LANGELLE (M); L'Esclavage: Que sais-je, N° 667, Paris, P.U.F, 1992, p. 9 et sv.

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 125.

(4) - نفسه: ص. 125.

(5) - المقري: النفع... مصدر سابق، ج 1، ص. 387.

(6) - ابن عذاري: البيان...، مصدر سابق، ج 2، ص. 259.

(7) - نفسه: ص. 259.

(8) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ل. بروفنسال، بيروت، دار الكشوف، 1956، ص. 60.

يُنْفُونَ الألف فيهم الأكابر المسمون بالخلفاء زهاء عشرين فنى يتقدم الجماعة فانق وجودر". ناهيك عن غالب مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي ذاع صيته كقائد الحند في الثغور وفي شمال إفريقيا خلال عهد الخليفين عبد الرحمن والحكم. إنه شيخ الموالي الذي وصل أعلى رتبة في الدولة لما لقّب بذي السيفين "صاحب الثغر الأعلى وسيف الدولة الناصرية والحكمة" (1) مكرر.

لقد قرب الخليفة الحكم المستنصر الصقالبة حتى غدوا خاصته وحفظة بعض أسرار قصره، فلا غرابة إذا تغاضى أو تجاوز بعض الأمور السلبية التي كانوا يتورطون فيها، حتى أنه قال بصددهم "هم أمانونا وثقاتنا على الحرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم وترفق في معاملتهم فتسلم من معرتهم، إذ ليس يُمكننا في كل وقت الإنكار عليهم..." (2). وربما دفع بهم هذا التعاطف إلى حد التواطؤ مع السلطة إلى الطمع فيها بعد اختفاء الحكم مباشرة لأنهم اعتقدوا "أن لا غالب لهم وأن الملك بأيديهم..." (3). وأكثر من ذلك مالوا إلى نكت بيعة الخليفة هشام طمعا في السلطة (4). لاشك أن المنصور بن أبي عامر أحس بسلطوتهم وتناولهم على سلطة الخلافة. فذلك تمكن بذكاء ودهاء مُحكمين من الحد من نفوذهم وشوكتهم بدءاً بغالب شيخهم مروراً بمن تجاسر منهم في الأقاليم "كدري الفتى بإقليم بياسة" (5)، الذي أراح الرعية منه. ورغم ذلك لم ينتقص عدد الصقالبة في بداية العهد العامري، بل ازدادوا حتى بلغوا بقصور قرطبة "سنة آلاف صقلبي وسبعمئة وستة وثمانين صقلبياً" (6). وبالزهاء "ثلاثة آلاف خصي وتسعمائة وخمسين خصياً" (7). وكانوا "نيفاً على ألف محبوب فحسبك بما يتبعهم" (8).

يُبَيِّن ابن حيان (9) أهمية الصقالبة في القصور الخلافية وأدوارهم في إعداد وتجهيز

(1) - نفسه: ص. 61.

(1) مكرر - انظر التفاصيل عن أهم الوظائف التي زاولها غالب خلال الخلافة في:

MEOUAK (Mohamed), La Biographie de Galib, haut fonctionnaire andalou de l'époque califale

carrière politique et titres honorifiques dans: AL QANTARA, Vol XI, Fasc 1, Madrid, 1990, pp 95-112

(2) - ابن عذاري: البيان...، مصدر سابق، ج 2، ص. 259.

(3) - نفسه: ص. 259.

(4) - نفسه: ص. 265.

(5) - نفسه: ص. 263.

(6) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 34.

(7) - نفسه: ص. 34.

(8) - ابن عذاري: نفسه، ص. 259.

(9) - ابن حيان: الحجى، ص. 48.

الجند حين يقول: "صُفّت الرؤوس... ثم انتقلوا بين مراتب الفرسان المدرّعين الذين كلف أهل الخدمة وصقالبة القصر إركابهم في الأسلحة... ثم نهضوا بين ترتيب فرسان الخمسين وعبيد الدرق والعبيد الرماة...". إن الخدمات التي يزاولها مختلف الصقالبة يجعلنا نتصور مدى ما يكلفونه ويستهلكونه من مؤن ونفقات في القصور وخارجها. يقول ابن عذاري⁽¹⁾ بهذا الصدد: "وكانت جرايتهم من اللحم كل يوم، دون سائر أهل القصر ستة آلاف وثمانمائة رطل سوى الصيد وأصناف الطير والحوث". وفي المعنى ذاته يشير ابن الخطيب⁽²⁾ إلى أن "الجاري من اللحم على صقالبة ابن أبي عامر على طبقاتهم في الشهر وقسط المياومة سبعة وعشرين ألف رطل. والجاري على نسائه في قصره على طبقاتهن منه تسعة آلاف رطل سوى وظيفة مطبخته الخاصة...".

كيف نشأت وتكونت القوة الصقلبية في الأندلس خلال العصر الأموي؟

سبق القول إن الأمير الحكم بن هشام (ت 206هـ/821م) كان أول من استقدم "المماليك المرتزقة" ليشكلوا حرسه الخاص. جيء بالصقالبة إلى الأندلس في ظرفية تاريخية اتسمت بالحروب والصراعات في أوروبا وتخومها. إنهم في واقع الأمر نتائج لتلك الحروب التي اندلعت في مناطق جغرافية مختلفة⁽³⁾. وتقدم المصادر⁽⁴⁾ معلومات دقيقة عما تحصده

(1) - ابن عذاري: المصدر السابق. ص. 34.

(2) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 102.

(3) - تزخر المصادر المسيحية الأوربية على تنوعها بمعلومات ونصوص دقيقة للغاية عن ظاهرة "صيد الرقيق"، في الحروب وغيرها منذ العصور القديمة، وكيفية رواجه "كسلعة ناطقة" في المجالات الاقتصادية والتجارية والمنزلية. وأكثر من ذلك تميز فيه ما بين المنتج النشط وغير المنتج الخامل وتضع بذلك لوائح بأسمانه وصفاته وأثمانه التي غالبا ما تقل عن أثمانه سلع أخرى تعد أكثر أهمية منه كالخيل مثلا. انظر على سبيل المثال:

DOCKES (P); La libération médiévale, Paris, Flammarion, 1979.

ANDERSON (P); Les passages de l'Antiquité...

DUBY (G); Guerriers et paysans : VII - XII^e siècle, premier essor de l'économie européenne, Paris, Gallimard, 1973.

BOIS (G); La Mutation de l'an mil, Lournand, village mâconnais de l'Antiquité au féodalisme, Paris, Fayard, 1989.

BONNASSIE (P); Survie et extinction du régime esclavagiste dans l'occident du haut moyen âge (IV-XI^e S), dans: Cahiers de Civilisation médiévale XXVIII^e Année, N°4, Oct-décembre, 1985, pp 307-343.

(4) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 95.

ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك): تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط: نصاب جديان، تحقيق: العبادي (أحمد مختار)، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1979، ص. 103.

ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي): صورة الأرض، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت، ص. 100 وما بعدها. المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، البناء الشامي البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل، 1906، ص. 240 وما بعدها.

الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: حجي (محمد) وآخرون، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، ج 2، ص. 113، 161، 212، 213، ج 10، ص. 157.

العروات في مجال الأسرى والسبايا إلى جانب ازدهار تجارة الرقيق التي نالت الأندلس حظاً منها، إذ كثيراً ما يُباع الصقالبة صغاراً بواسطة التجار اليهود الذي يتولون عملية خصبهم قبل تقديمهم إلى الأندلس. يقول ابن حوقل⁽¹⁾: "سبي بفرنجة وحلبه والحدود الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصبان، عند قريبهم من الأندلس يُخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود...". يؤكد المقدسي⁽²⁾ كلام ابن حوقل في السلعة الصقلبية عبر الأندلس تجاه المشرق لكن يختلف معه بقوله إن الصقالبة يخصون بالأندلس قبل أن يتجهوا إلى المشرق، فهم يأتون من خلف خوازم إلى الأندلس "فيخصون ثم يخرجون إلى مصر"⁽³⁾ مكرر. كما أنهم وصلوا إلى المغرب منذ فترة مبكرة خلال عصر بني صالح وخلال المرابطين على حد تعبير صاحب الحلل الموشية⁽⁴⁾ الذي أشار إلى أن يوسف بن تاشفين اشترى عام 464 هـ (1072 م) "جملة من العلوج الصقالبة فأركبهم وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارساً"⁽⁵⁾.

ويبدو أن عملية خصي الصقالبة تُزاول في مراكز معروفة في أوروبا⁽⁶⁾ قبل أن

- (1) - ابن حوقل: نفسه، ص. 106.
- (2) - المقدسي: أحسن التقاليم...، ص. 242.
- (3) - نفسه: ص. 242.
- (3) مكرر - تحنر الإشارة إلى أن الصقلبية لعبوا أيضاً دوراً هاماً في المشرق العربي خاصة لدى العاطميين حيث احتلوا منصب دسة لأهم كانوا على عرار الأندلس، يشكلون حصة الحلفاء وقد اشتغلوا في الدواوين والمهمات السيسية الصعبة، كما دادوا الحنود أحياناً كثيرة. انظر:
- الجونري (ابو علي منصور العريزي) سيرة الأستاذ حوذر وبه توقيعات الأئمة العاطميين، تحقيق كامل (حبر محمد)، شميرة (عبد الهادي)، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت، ص. 13.
- أبو حامد (عبد الرحيم سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي): تحفة الألباب وبحبة الاعباب، تحقيق العربي (أ)، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1993، ص. 151.
- (4) - مجهول الحلل الموشية في ذكر الأحبار المركشية، تحقيق: زكار (سهيل) زمامة (عبد القدر)، لدار البصاء، دار الرشد الحديثة، 1979، ص. 25.
- (5) - تلخص من حلل المعلومات المصدريّة المختلفة أن الصقالبة رغم دونيتهم على المستوى الاجتماعي فإمكانهم أن يتولوا المناصب العليا في محالات مختلفة كالجنش والإدارة والسياسة سواء في الأندلس أو في المشرق أو في دولة بني صالح في كور أو في الحد المرابطي. وهذا الأمر يكاد يكون مستحيلاً في البناء الطبيعي الأوربي انظر مثلاً
- DUBY (G), Les Trois ordres ou l'imaginaire du féodalisme, Paris, Gallimard, 1978.
- BLOCH (M), La Société féodale, Paris, Albin Michel, 1968
- GUERREAU (Alain), Le féodalisme: un horizon théorique, Le Sycomore, 1980
- (6) - من هذه المراكز يذكر: حوص الدانوب، والراين، ثم فردس Verdun، وليون وأرل في حوص الرون، ومرسلوة، والسفينة وغيرها. انظر:

- DUBY (G), Guerriers et paysans.., op. cit, p. 126.
 BONNASSIE (P); Les 50 mots clefs .., op. cit, p. 73
 L'ÉVI PROVENCAL (P), L'Espagne musulmane au X^e siècle Institutions et vie sociale, Paris, La Rose, 1932, p. 29

حناوي (محمد) حوارات من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوص العربي للبحر المتوسط قبل القرن العاشر للميلاد، ندوة: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص. 151، 166.

بفنادوا بواسطة اليهود الى مراكز اخرى في الحوض المتوسطي، وذلك عكس ما ذهب اليه امقدسى من انهم يخصصون بلانلس. لقد دفع ذلك بالكنيسة الكاثوليكية الى التدخل من اجل ايقاف رواج الجارة في السلعة الادمية التي تدر اموالا طائلة على الأمراء المسيحيين. وفي هذا الإطار تفهم صحاح الأسقف الشهير لمدينة ليون الفرنسية واسمه أكوبار (AGOBARD) من أهل القرن التاسع الميلادي، والذي استنكر ما يقوم به اليهود من التجارة في الرقيق الحصيان⁽¹⁾. والأمر ذاته تكتفه المصادر الفقهية وكنسب النوازل والأحكام والجهاد والحسبة التي حددت كيفية التعامل مع الأسرى الصقالبة⁽²⁾ وما يجوز في ذلك أو يكره أو يمنع... الخ⁽³⁾. لكن نلاحظ أن الحروب والصراعات العسكرية وما يرافقها من الاطماع الاقتصادية أقوى من الصيحات العقائدية والدينية الفقهية. عادة ما يأتي الصقالبة إلى الأندلس صغاراً⁽⁴⁾ كي يتكيفوا مع الأوضاع الجديدة بسهولة وول ما يواجههم في الحياة اليومية هي اللغة ولذلك وُصفوا بالخرس؛ أو الغلمان الخرس⁽⁵⁾ أو "قرسان الخرس المأمورون"⁽⁶⁾ أو "المجاييب الخصيل"⁽⁷⁾. مما يسمح بالقول إنهم يجهلون اللغة العربية. وتتفق المصادر⁽⁸⁾ على أن الممالك التي اتخذها الحكم بن هشام كان بنعتهم بالخرس "لعمتهم". أما ل. بروفنسال⁽⁹⁾ فيصفهم بالمرتزقة الصامتين، في حين يضعهم دوزي⁽¹⁰⁾ في خانة الأجانب الذين يجهلون اللغة العربية.

(1) - DUBY (G): Guerriers... p 126

(2) - ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام): منتخب الأحكام، مخطوط الخزائن العامة، الرباط، د 1730.

ص. 235، 236.

(3) - ابن زكون (أبو علي حسن): اعتماد الحكام في مسائل الأحكام، مخطوط الخزائن العامة، الرباط، ق 413، مجموع: 388.

(4) - المقدسي: المصدر السابق، ص. 242.

(5) - ابن حيان: المفيتس، ج 5، ص. 77.

(6) - نفسه: الحجي، ص. 44.

(7) - الزجالي (أبو يحيى): أمثال العوام في الأندلس، تحقيق بنشريف (محمد)، فاس، 1975، ج 1، ص. 14.

ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 259.

(8) - المقرئ: النفع، ج 1، ص. 242.

النويري: نهاية الأرب...، مصدر سابق، ص. 93.

ابن خلدون: المقدمة...، ج 1، ص. 277.

(9) - LÉVI-PROVENÇAL (L), Histoire de l'Espagne musulmane, T. Premier: La conquête et l'émirat Hispano-Umayyade, 710, 912, Paris, Leiden, 1950, p 187, T. 2, p 6, 7, 129 T. 3: p 71, 72.

لاحظ ل. بروفنسال أن الصقالبة يسمون بالأندلس شباناً ويدمحووا بسرعة في المحيط اللغوي والاحتماعي.

(10) - لخرس حسب دوزي أو "الخاريس" وأخرس ومخروس اللسان (Muet) وقد يعني الأجنبي الناحس بلغة لغربية.

DOZY (R): Supplément aux dictionnaires arabes, Beyrouth, 1968, T 1, p. 362

يتبين من التحليل السابق أن الصقلية شكلوا قوة سياسية وعسكرية لا يستهان بها، لعبت دوراً هاماً في حدد الحضرة بقرطبة خلال الخلافة كما ساهمت إلى حد كبير في توجيه الأحداث في ميادين متعددة. انطلاقاً من ذلك صعب على الخلافة إبعادهم وعدم تحقيق مصالحهم. وهو ما أقدم عليه المنصور بن أبي عامر بحراً في إطار إصلاحه العسكري⁽¹⁾. "قأول عروة قصمها من عرى المملكة عروة الصقلية الخدم بالقصر موضع الخلافة، وكانوا أبهى حلل المملكة"⁽²⁾.

ب - الحشم: على غرار ما فعله الأمير الحكم بن هاشم مع الصقلية، اهتم أيضاً بالحشم كعناصر أساسية في الجند، وتذكر المصادر أنه "استكثر الحشم والحواشي"⁽³⁾. نُظم هؤلاء في خطة إدارية مُحكمة تتولى شؤونهم يرأسها قائد يُدعى "الناظر في الحشم"⁽⁴⁾ أو 'صاحب الحشم'⁽⁵⁾. أو 'كاتب الحشم'⁽⁶⁾، كما حدث أيام الخلافة والطوائف مع محمد بن قاسم⁽⁷⁾ وزيد بن أفلح⁽⁸⁾، ومحمد بن أبي عامر نفسه⁽⁹⁾. بل وقد عين أحد النصاري المعروف بابن الربيع⁽¹⁰⁾ كاتباً للحشم بغرناطة أيام حكم الأمير عبد الله بن بلقين.

ويمكن التساؤل عن دور الحشم ومكانته ضمن جند الحضرة. يصعب في الواقع تقصي أصول الحشم في الأندلس نظراً لشح المادة المصدرية وتارجحها بصددهم مقارنة بالصقلية. ومما يزيد الأمر تعقيداً أن المصادر لم تتردد في استعمال ألفاظ مختلفة دالة على الجمع "كالأعوان كلها من أحشامه"⁽¹¹⁾ (الناصر)، و "طبقات الحشم"⁽¹²⁾ و حُم من الحشم⁽¹³⁾، و ضروب من الحشم"⁽¹⁴⁾، و "حشم السلطان"⁽¹⁵⁾، و كتف من الحشم⁽¹⁶⁾ يمكن

(1) - انظر الإصلاح العسكري العامري في فصل: أعطيات ورزاق الجند.

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 259.

(3) - المقرئ: النفع، ج 1، ص. 242؛ ابن خلدون: المقدمة، ج 1، ص. 277؛ النويري: نهاية الأرب، ص. 93.

(4) - ابن حيان: المقتبس، الحجي، ص. 47.

(5) - ابن عذاري: نفسه، ص. 244.

(6) - ابن بلقين (عبد الله الأمير): كتاب البيان، تحقيق الطيبي (أ. توفيق)، الرباط، منشورات عكاظ، 1995، ص. 94.

(7) - ابن عذاري: نفسه، ص. 244.

(8) - ابن حيان: الحجي، ص. 47، 78.

(9) - ابن عذاري: نفسه، ص. 251.

(10) - ابن بلقين: نفسه، ص. 94.

(11) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 455.

(12) - نفسه، ص. 456.

(13) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 203.

(14) - نفسه، ص. 210.

(15) - ابن حيان: نفسه، ص. 72.

(16) - ابن عذاري: نفسه، ص. 190.

لأنه الانقراض لكون لها دلالات مرسطة بكثافة أعدادها وبالطرف التي تستخدم بها في الأعراس العسكرية من جهة، وارتباطها بالخلفاء مباشرة من جهة ثانية. يتبين هذا الارتباط حين نعلم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر اتخذ من الحشم قوة عسكرية أساسية بعد انهرامه في الخندق عام (27/ 939 هـ م)، كما يوضح ابن حبان⁽¹⁾ بقوله "وفي رجب منه (328 هـ/ 940 م) نظر الأعوان كلها في أحشامه، بحيث وضعهم في مدن الأندلس وحصونها وقصائنها، وفروج ثغورها، فجبر السفط منهم... وزاد في إلحاق العرفاء منهم وطبقات الحشم ووفارة عددهم...". و"صار جميع ثوار الأندلس يرتزقون ويُقتطعون في حشمه". على حد تعبير ابن القوطية⁽²⁾.

يتضح مما سبق أن الحشم يقومون بالأعمال العسكرية الهامة لأنهم يقومون بضبط المن⁽³⁾ والحصون والقصدات أي المراكز الحيوية بالنسبة للخلافة. الشيء الذي دفع بأحد الباحثين⁽⁴⁾ إلى اعتبارهم "قوات الإستبلاك الأولى أو قوة الجيش الرئيسية". وانطلاقاً من ذلك يصعب الاتفاق مع رأي ل. بروفنسال⁽⁵⁾ القائل بأن الحشم ضرب من المرتزقة البيض أو السود (أوربيون أو مغاربة) كانوا يجندون من خارج الأندلس على نقيض الأجناد الذين كانوا وُضَّيْن. إن المبالغة هنا واضحة ما بين ما هو "وطني" وما هو "أجنبي". ونشير في هذا نصند إلى أن يوسف بن تاشفين لما شرع في تجديد عساكره سنة 470 هـ (1077 م) "ضم من جزولة ولمطة ومصمودة وزناتة جموعاً كثيرة سماهم بالحشم..."⁽⁵⁾ مكرر. وعلى غرار ما ذهب إليه ل. بروفنسال لم يتمكن أحد الدارسين⁽⁶⁾ من التمييز الواضح ما بين الحشم

(1) - ابن حبان: نفسه، ص. 455، 456.

(2) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح...، ص. 124.

(3) - VIGUERA (M.), Marin (M.), BENABOUD (M.), Los Rines de Taifas, AL-Andalus en el siglo XI, Madrid Espasa Calpe, 1994, p 193, 225

(3) - فنون طه: تنظيمات الجيش...، مرجع سابق، ص. 49.

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne .., op cit, T 3, p 72-73

(5) - مجهول: الحلال الموشية...، مصدر سابق، ص. 33.

(6) مكرر - نعتقد أن الحشم عند المرابطين هم الأتباع والخدمية، ويتكونون الحشم من غير المرابطين باستثناء الحرس الخاص الذي يطلق عليه اسم "الحشم" بغير حركات (1) اسما لسياسي والحربي في عهد المرابطين. الدار البيضاء، ديت، ص. 150.

(5) - الحشم و... من الحشم... لم يربط ولم يربط... هو بكنز (ح.ن.ب) الحشم... في المغرب في غزو...، حقوق الطبع...، تونس، الدار المغربية لكتاب، 1980، ص. 142.

(6) - (الراجعي (سهمي (سهمي) نعم و... في اسم الأندلس من خلال المعنوس لاس حبان... مجلة المناهل، عدد 29، 1984، ص. 3، 64.

والعبيد والصقالبة والمماليك.

يمكن القول إن الصقالبة والحشم، مهما اختلف في أصولهم ومهامهم العسكرية فإنهم شكلوا فئات أساسية من جند الحصرة الذي عولت عليه السلطة في قرطبة لفترة طويلة.

ج - البربر: سبقت الإشارة إلى أن البربر من العناصر العسكرية التي دخلت الأندلس إبان الفتوحات الأولى لها. فإلى جانب البلديين⁽¹⁾ والشاميين في الكور المحنّدة والصقالبة والحشم، شكل البربر قوة عسكرية هامة في جند الحضرة خاصة خلال عصري الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر. وقبل ذلك تشير المصادر إلى أن توافدهم إلى الأندلس كان طبيعياً، إذ كان استقدامهم خاضعاً لتوازنات مختلفة. يمكن القول إن لمجموعات الزناتية كانت، في أول الأمر أكثر تواجداً بالأندلس، إذا قيست بالبطون البربرية الأخرى مثل صنهاجة. ويعتقد البعض⁽²⁾ أن الدولة الأموية منذ قيامها أميل إلى البربر الزناتية منهم إلى الصنهاجيين. ومن مظاهر ذلك "أن أصبحت السياسة التقليدية التي كان الزناتيون يدينون بها دائماً في الشمال الإفريقي هي موالة الأمويين، بينما كان الصنهاجيون عماد الحركات السيعية"⁽³⁾. لكن هذه المعادلة التي تبدو نسبية إن لم نقل غير واقعية ستتغير جذرياً خلال العصر العُمري والطوائف، حيث سيستقبل الأندلس موجات كثيرة من مختلف العناصر البربرية. يقول ابن خلدون⁽⁴⁾ في سياسة المنصور ابن أبي عامر تجاه البربر "... تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده.. ولما خلا له الجو من أولياء الخلافة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدو من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن، وبني برزال ومكناسة وغيرهم..". لم يكتفِ ابن أبي عامر بذلك بل اعتمد العبيد والعلوج من أجل الانتقام من "الصفوة الخصيان الخدام"⁽⁵⁾؛ وتأخير العرب وإسقاطهم عن مراتبهم⁽⁶⁾. لا شك أن العنصر الزناتي دخل الأندلس قبل العصر العُمري كما يتضح من إشارات مصدرية

(1) - ديوان ابن دراج القسطلي: تحقيق مكي (محمود علي): المكتب الإسلامي، 1389 هـ، المقدمة.
عثمان جاد الرب (عن تقي الدين): الوصف السياسي والاجتماعي لعرباطة في القرن الحاسن الهجري، أروحة ليل

لكتوراه الدولة، الرباط، 1997، ج 1، ص. 319.

(2) - ديوان ابن دراج القسطلي...، المصدر السابق، المقدمة.

(3) - ابن خلدون: كتاب العبر وديون السند والحر من أمم العرب والعجم والبربر ومن عصرهم من نوى سبب الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958، القسم الثاني، المجلد 4، ص. 319.

(4) - نفسه: ص. 319.

(5) - نفسه: ص. 320.

مختلفة وبذكر صاحب كتاب المؤنس⁽¹⁾ أن الحسام بن ضرار الكلبي الذي أقام واليا على الأندلس لنسعة أعوام هزم ابن يفرن الزناتي الذي قام بها بواسطة العناصر الشامية التي جوزها إليها. ويبدو كذلك أن بني برزال أحد المكونات الأساسية لزنانة، دخلوا الأندلس كجند للخليفة الحكم المستنصر، وليس بعده كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين⁽²⁾. يقول صاحب مفاخر البربر⁽³⁾: "... قال أبو مروان الوراق، بنو برزال فخذ من زناتة من بني يفرن كانوا قاطنين بالزاب الأسفل من إفريقية فوصفوا لأمير المؤمنين الحكم بالشدة والشجاعة في الحروب فأمر بمكاتبتهم فكانوا جنده يخدمون في عسكره إلى أن توفي ابن أبي عامر وتفرقت الجماعة وانشقت العصا...". إن اتخاذ أو اصطناع العنصر الزناتي في الأندلس منذ وقت مبكر له دلالات سياسية وعسكرية. لقد اشتهروا بالقوة والبسالة والإقدام والفروسية، حتى أن الخليفة الحكم أعجب بهم وبخيولهم ويردد بصددهم قول الشاعر:

"فكأنما ولدت قياماً تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها"⁽⁴⁾

ولا غرو فأحد الأمثال العامية المتواترة بالأندلس يُعبر بوضوح عن تلك الشجاعة بالقول "لا حر إلا زناتي، ولا فرس إلا مكلاتي"⁽⁵⁾. وربما أثر الزناتيون في الإسبان في طرق القتال والفروسية⁽⁶⁾. لقد برع هؤلاء البربر في الفروسية والقتال حتى قيل "لا يُقتل الأعداء إلا بهم ولا تُعمّر الأرض إلا بجوارهم"⁽⁷⁾. كما قد يحل البوار بواسطة حروبهم⁽⁸⁾. إن الدلائل المختلفة السابقة الذكر تنهض حجة ضد ما ذهب إليه ابن حوقل⁽⁹⁾

(1) - ابن أبي دینار: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية...، مصدر سابق، ص. 40.

(2) - عثمان جاد الرب: الوضع السياسي...، مرجع سابق، ج 1، ص. 321.

(3) - مجهول: مفاخر البربر، تحقيق ل، بروفنسال، الرباط، 1934، ص. 44.

ثلاثة نصوص عن البربر في الغرب الإسلامي:

- كتاب الأسباب لاس عبد الحليم؛ مفاخر البربر لمؤلف مجهول؛ شواهد الجلة لأبي بكر بن العربي: تحقيق:

يعلى (محمد)، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1996، ص. 182.

(4) - ابن حيان: الحجي، ص. 188، 189.

(5) - الزجالي: أمثال العوام...، مصدر سابق، ج 1، ص. 207.

(6) - إن تأثر الإسبان بالزنانيين في مجال الفروسية بعكسه استعمالهم واحتفاظهم بكلمة "Jinete" أي للفارس أو

(Jinete = زناتي): انظر بعض التفصيل في: الزجلي، ج 1، ص. 207.

(7) - ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسن عباس، بيروت.

تونس، الدار العربية للكتاب، 1975، المجلد الأول، ص. 21.

(8) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، مصدر سابق، ص. 45.

(9) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 108.

الذي زار الأندلس خلال عصر الخلافة (منتصف القرن 4 هـ) وأكر صفة الفروسية على الأندلسيين بقوله: "(...) وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن اسباب الفروسية وقوانينها".

لاشك أن استمالة الخلافة للبربر ابتداء من عصر الحكم المستنصر على الأقل، أدى إلى تعبير بنيات الجند لفائدة العناصر البربرية التي احتلت الصدارة إلى آخر العصر العامري⁽¹⁾.

د - الطنجيون: تحدثت المصادر عن مجموعات من البربر، استخدمت في الأندلس منذ عصر الإمارة، عُرفت باسم "الطنجيين". لقد واجه بهم الأمير عبد الله ثورة عمر ابن حفصون سنة 283 هـ (896 م). كما أن حركة ابن حفصون نفسها اعتمدت على مجموعة منهم حسب ابن حيان⁽²⁾ الذي قال: "ونزل إلى العسكر إليهم اثني عشر طنجياً... فانيزم الفاسق وقتل له طنجي مذكور، وأخذ له فرسان ونزع من أصحابه إلى العسكر ثلاثة عشر طنجياً". وفي آخر أيام الأمير عبد الله 298 هـ (911 م) حارب أحد القواد وهو عباس بن أحمد بن أبي عبدة سعيد بن هذيل بإقليم المنزلون، وتداعى البربر "الطنجيون الذين كانوا مع عباس بن أحمد..."⁽³⁾. ورغم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان يحتاط ويحترس من الجند البربري ولا يستكثر منهم⁽⁴⁾، فقد اعتمد عليهم سنة 301 هـ (913 م) في محاصرة أعدائه ومعارض حكمه لما "بنى حصن أشيرة... وأدخل فيه جميل من عقبة البلوي عاملاً وصير معه فيه عدة كثيفة من الفرسان، والبرابر الطنجيين، والرجال"⁽⁵⁾. كما عجل بالخروج إلى أهل ماردة ونواحيها سنة (316 هـ/928 م) في جيش يتكون من "ألف من العرفاء ومثلهم من الطنجيين"⁽⁶⁾.

برز دور 'الطنجيين' أيضاً خلال عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي كان يحب استعراضات الجند. ففي إحداها عام (360 هـ/971 م)، سوهدت الصفوف مرتبة "بين

(1) - انظر بعض التفاصيل عن دور البربر بالأندلس في:

GARCIA GOMEZ (Em): AL-HAKAM II y los Beréberes segun un texto medito de Ibn Hayyan, dans: AL-ANDALUS, Vo. XIII, R.E. E. A, Madrid, 1948, Fasc. 1, pp 209, 226

(2) - ابن حيان: السعيس في تاريخ رجال الأندلس: القسم الثالث، تحقيق انطوية (مستور . م)، باريس، المكتبة الشرقية، 1937، ص. 121.

(3) - ابن عذاري: المصدر السابق...، ج 2، ص. 147.

(4) - ابن حيان: الحجي، ص. 190.

(5) - نفسه: ج 5، ص. 88.

(6) - نفسه: ص. 241.

فرسان الطنجيين المدرعين⁽¹⁾. وفي السنة الموالية دارت نزاعات وصراعات حادة بقرطبة بين الطنجيين وطوائف أخرى من الجند مما أفضى إلى تطاول البعض على البعض الآخر والتعصب ضد الطنجيين الذين نالتهن جراحات فاشية⁽²⁾، وقُبض على الكثير منهم وسُجِّلوا⁽³⁾.

يتبين مما سبق أن البربر "الطنجيين"، وإن لوحظ أن ولاءهم للخلافة لم يكن ثابتاً خاصة أن مجموعة منهم انضمت إلى حركة ابن حفصون، قد استخدموا كعناصر أساسية في جند الحضرة الخلافي. الشيء الذي يفند ما ذهب إليه أحد الدارسين⁽⁴⁾ حين أشار إلى أن الطنجيين كانوا مُخصَّصين للخدمات الدنيا. نعم قد تُكَلَّف مجموعات منهم بأشقة الخدمة⁽⁵⁾ حسب تعبير ابن حيان. وربما يُقصد بذلك العبيد المغاربة أو "السودان المغاربة"⁽⁶⁾، الذين اشتهروا في ميادين أخرى غير الحندية كالأشغال المنزلية أو أعمال البريد المرتبط بإدارة شؤون الدولة أو الجند ولذلك يطلق عليهم اسم: "الرقاصة السودان"⁽⁷⁾.

نعتقد أن الهجرات البربرية من شمال إفريقيا عامة ومن العدو المغربية خاصة نحو الأندلس لم تنقطع في فترة من الفترات: بل يمكن القول إنها ازدادت كثافة ونشاطاً مع آخر الخلافة (آخر القرن IV هـ)، وخلال الفترة العامرية. وربما بعدها، أي خلال المرابطين والموحدين. مع العلم أن ظروف تلك الهجرات اختلفت من فترة لأخرى، وتمَّ اعتماد عناصر دون أخرى وذلك تبعاً للأوضاع السياسية والعسكرية القنمة. فإذا كان الخليفة عبد الرحمن الناصر محتاطاً وحذراً تجاه البربر، فإن خلفه الحكم المستنصر، لم يتردد في الإتكاء على العنصر الزناتي المشهود له بالفروسية والشدة في الحروب. أما ابن أبي عامر فإنه فتح باب الأندلس على مصراعيه أمام البربر. بل أكرم الوافدين منهم عليه من كل البطون والفنائل. ولا غرو فقد خبر فتالهم وطبايعهم في مواطنهم لما كان يُرافق جند

(1) - نفسه: الحجي، ص. 48.

(2) - ابن حيان: الحجي، ص. 78.

(3) - نفسه: ص. 78.

(4) - ذنون طه: تنظيمات الجيش، ص. 46.

(5) - ابن حيان: نفسه، ص. 195.

(6) - ابن بسام: الذخيرة...، المصدر السابق، القسم 2، المجلد الأول، ص. 50.

ابن عذاري: المصدر السابق، د 3، ص. 130.

(7) - ابن بلقين: التبار...، ص. 157؛ ابن بسام: نفسه، القسم 4، المجلد 1، ص. 74 ابن الخطيب: أعمال الأعلام...

ص. 102. انظر دور الرقاصة في بريد الجند.

الخلافة في حملاته المتكررة على شمال إفريقيا، أي "بلاد البربر الغربية" (1) على حد قول ل. بروفنسال. وهي بمثابة خزان بشري لا ينضب من الرجال الذين احتصنتهم الأندلس خاصة خلال فترة المنصور العامري الذي كان "يستدعيهم ويتضمن الإحسان إليهم إلى أن أسرعوا إلى الأندلس.. وما زالوا يتلاحقون وفرسانهم يتواترون... حتى صاروا أكثر أحمال الأندلس، ولم تزل طائفة البربر خاصة ابن أبي عامر وبطانته، وهم أظهر الجند نعمة وأعلام منزلة..". (2) لأنه "اختصهم باصطناعه، واسترقهم بإحسانه". (3) وهكذا انقلب إليه بنو برزال وصاروا في قيادته (4). ولم يفلت من اصطناعه قبائل وفرسان زناتة (5). وبذلك "انتظمت له الأندلس بالعدوة واجتمعت له قریش في دار الدوة..". (6) لاشك أن استقدام ابن أبي عامر للبربر بشكل مكثف، كان إيذانا أو مؤشرا قويا لخلطة البنيات السياسية والعسكرية القائمة في عصر الخلافة. لقد أحدث تحولات بنيوية في تركيبات الحند. ولذلك نعت ما أقدم عليه بالإصلاح العسكري العامري. وقبل الإقدام على هذا الإصلاح تمكن ابن أبي عامر من تحقيق نجاح كبير في ميادين عديدة بحيث احتل مناصب هامة في قرطبة وخارجها خلال الخلافة. وبلغ أوج قوته ونفوذه لما مات الخليفة الحكم المستنصر، وتكلف بشؤون القصر وتبیر أمور الخليفة هشام المؤيد. وتلقب بالحاجب الشيء الذي ساعده في تحقيق طموحاته وتنفيذ خطته السياسية والعسكرية. لقد عمد بنجاح ودهاء إلى تهميش معارضيه وإبعاد منافسيه، بل وقتل أعدائه سواء أكانوا من العرب أم من الصقالبة أو غيرهم (7). ولما انفرد بشؤون السلطة عبر ما عُرف "بالدكتاتورية العامرية"، اشتهر على المستوى الداخلي والخارجي بقيادته بنفسه للحملات العسكرية والصوائف، وهي كثيرة (8)؛ ضد المسيحيين. وتآلق في جل تلك الحروب بفضل الجند البربري الذي بناه وعُرف بولائه

(1) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne... op cit, T. 2, p 261.

(2) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 272.

(3) - نفسه: ص. 293.

(4) - نفسه: ص. 263.

(5) - نفسه: ص. 293.

(6) - نفسه: ص. 274.

(7) - انظر نماذج من الحيل التي لجأ إليها المنصور بن أبي عامر قصد التخلص من أعدائه بكل الوسائل الممكنة، كتصلبه في نكبة الحاجب جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفي، أو الدحول في صراع مستمر ومسلح ضد مدبسه غالب مولي الناصر.

ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 263، 264، 265.

(8) - انظر الصوائف والصوائف التي اشرف عليها المنصور العامري في فصل اساليب القتال

الشخصي له.

تميز الإصلاح العسكري العامري بنبذ العصبية القبلية التي سادت من قبل، لفائدة فرق بربرية تنتمي إلى قبائل وبطون شتى لكنها تمتاز بالقوة والفعالية. إنه كان يرمي إلى أن تكون "أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة"⁽¹⁾، حتى إذا "هم أحد الطوائف بالخروج عن الطاعة، غلبها بسائر الفئات..⁽²⁾". ومن شأن تلك الخطة تفادي ما يمكن أن يتسبب فيه جنده من سوء أو إخلال بشؤون الدولة والسلطان، "إذا كانوا صنفا واحدا"⁽³⁾. يصعب الارتكان إليه كلية.

نعتقد في هذا الصدد أن المنصور العامري ربما استوعب وحاول تطبيق الأفكار إن لم نقل 'النظرية' المشهورة القائمة على المبدأ المشهور 'فرق تسد'، والذي تناقلته كتب الأحكام السلطانية أو الأخلاق السياسية القديمة. ولعل أشهرها تلك التي سطرها ابن المقفع⁽⁴⁾ كدستور للدولة العباسية في كتابه الشهير: "رسالة الصحابة". أوضح فيها المبادئ أو الأسس التي ينبغي أن تسود في تنظيم العلاقات بين السلطان وجنده. يُذكر في هذا الباب بأن يكون "... القوم أخلاطا من رأس مقرط غال، وتابع متحيز شاك، ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة، فهو كراكب الأسد الذي يؤجل من رآه..⁽⁵⁾". وفي المعنى نفسه قال ابن رضوان⁽⁶⁾: "يُسحب للسلطان أن يكون جنده أجناسا متفرقة، وقبائل شتى، بحيث لا يتهيا منهم الاتفاق على رأي واحد في الخلاف، وأن يسوس جنده سياسة تخرج شيوخه ورعيته عن الاتفاق والصدقة وعن الخلاف والعداوة..⁽⁷⁾".

إن المظهر الأساسي الآخر الذي اتسم به الإصلاح العسكري العامري مرتبط بالميدان الاقتصادي. إذ أقدم المنصور بن أبي عامر على إعفاء "الناس من إجبارهم على

(1) - ابن بلقين: كتاب البيان، ص. 57.

(2) - نفسه: ص. 57.

(3) - نفسه: ص. 57.

(4) - ابن المقفع: الادب الكبير والادب الصغير ورساله الصحابة، تحقيق: أبو حنيفة (بوسف)، بيروت، مكتبة البيان، 1964.

رفع المؤلف الكتاب إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كي يعتمد كدستور لإصلاح دواليب الدولة.

(5) - نفسه: ص. 194.

(6) - ابن رضوان (أبو انعام المالقي): لسهب اللمعة في السياسة النافعة، تحقيق: النشار (علي سامي)، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص. 379.

انغزو...⁽¹⁾، مقابل تأدية أموال أو ضرائب سنوية تشكل أعطيات الجند⁽²⁾ المخصص الذي أنشأه ليتكاف بالحروب وحدها.

لاشك أن تغيير نية حند الحضرة من قبل ابن أبي عامر باعتماد البربر كقوة عسكرية في الصدارة من جهة، وتأمين أعطياتها الشهرية من قبل شرائح اجتماعية أخرى من جهة ثانية؛ أدى إلى تغييرات هامة في النية السياسية والعسكرية التي أرسنها الخلافة على امتداد القرن الرابع الهجري⁽³⁾ (مX).

لقد تحدث البعض⁽⁴⁾ بنوع من المغالاة عن أن العامريين باستقدامهم البربر صادروا النفوذ العسكري أو الوظائف العسكرية التي تتمتع بها الخلافة، وفي الأمر أيضا إقصاء للعربية الأموية الشيء الذي جعلها تحقد على البربر. وأشار دارس آخر⁽⁵⁾ إلى أن "رفع البربر إلى رأس الهرم أضرم الفتنة والكراهة ضدهم من قبل الأرستقراطية العربية الإقطاعية والصقلية البيروقراطية".

نعتمد أن اعتماد البربر في الجندية بشكل أوسع خلال الفترة العامرية له ارتباط وثيق بالظرفية السياسية والعسكرية التي كانت تعيشها الخلافة، أكثر من ارتباطه بتحويلات اقتصادية واجتماعية جذرية. نعم يمكن القول إن اصطناع الصقلية من قبل الخلافة قد ساهم إلى حد بعيد في خلق توازن إن لم نقل ردع الأرستقراطية العربية. واتخاذ البربر خلال العصر العامري كان من ورائه كبح جماح الأرستقراطية العربية من جهة والنخبة العسكرية الصقلية من جهة أخرى. وهما قوتان ما فتئتا تتصارعان من أجل الاستحواذ على امتيازات سياسية واقتصادية وعسكرية. وهكذا بات من الواضح أن رفع البربر إلى قمة الهرم العسكري حول المعادلة من صراع ثنائي أكثر توازنا ما بين الأرستقراطية العربية الباقية والنخبة الصقلية البيروقراطية، إلى صراعات ثلاثية قتلة وأكثر خطورة⁽⁶⁾.

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 68؛ ابن بلقين: التبيان، ص. 58.

(2) - انظر التفاصيل في فصل أرزاق واعطيات الجند

(3) - انظر أيضا حدود الإصلاح العامري في "أرزاق الجند"، والذي اعتمد فيه نه لا يعدو أن يكون إصلاحا مؤقتا محدود الأفق لأنه مرتبط بشخص المنصور بن أبي عامر نفسه والدليل أنه فشل إطلاقا بمجرد موت صاحبه.

(4) - MARTINEZ-GROS (Gab), L'idéologie Omeyyade, op. cit, p. 158

(5) - الطاهري (أ): علة قرطبة في عصر الخلافة، لربط منشورات عكظ 1989، ص. 172.

(6) - انظر التفاصيل في آثار الصراعات بين الأنظمة الفكرية والاجتماعية الثانية والثالثة في:

DUBY (G), Les Trois ordres, op. cit

BONNASSIE (P), Idéologie tripartite et révolution féodale, dans le Moyen Age, N° 2, 1980, p. 251-273 Problèmes de Stratification sociale, colloque international, Paris, 1966, Paris, P.U.F., 1968

Ordres et classes sociales, colloque de St-Cloud, 1967, Paris, La Haye, Mouton, 1967

تواجهت فيها القوى العربية والصقلبية والبربرية. وسرعان ما تحولت تلك الصراعات بينها إلى أزمة خانقة بل إلى فتنة أو حرب أهلية مباشرة بعد أفول القوة السياسية التي كان يجسدها ابن أبي عامر. ورغم مختلف التحالفات، كانت الفتنة أقوى مما تسبب في اندحار أركان الخلافة الأموية⁽¹⁾.

بعد موت المنصور بن أبي عامر قبيل مئة القرن الرابع الهجري، حاول ابنه عبد الملك المظفر و عبد الرحمن شنجول الاستمرار في نهج سياسته تجاه البربر، ففريا إليهما رؤساء الجند البربري عن طريق إكرامهم بصكوك "الإنزالات والصلات المختلفة"⁽²⁾. لكن ضعف أدائهما السياسي حال دون بلوغ مستوى النفوذ والقوة الذي عُرف به المنصور بن أبي عامر الذي قال فيه ابن الخطيب⁽³⁾: إن "البربر الذين كانوا يخدمون في الدولة العامرية، لم يكن لهم رئاسة ولا نباهة إلا في دولة المنصور، فيها تقدموا واشتهروا وقادوا الجيوش...". أما عصر محمد بن هشام (المهدي)، فصادف الفتنة المعروفة "بالبربرية"⁽⁴⁾. والتي لم يُخف فيها هذا الأخير عطفه وميولاته لجند آخر غير متمرس يتكون من "العامّة وأطراف الناس"⁽⁵⁾. بدلا من "العبيد العامرية والطوائف البربرية"⁽⁵⁾ مكرّر. هكذا تولّت الأدبار للبربر الذي قلّصت الفتنة من دوره، بل أسقطته حتى أصبح يُنعت "بالبربري"⁽⁶⁾. إنه لم يعد ذلك الفارس الزناتي الشهم الذي تغنّت الأندلس بشجاعته وإقدامه سابقا بل تزايدت عملية احتقاره من قبل الأندلسيين كما يؤكد المقرئ⁽⁷⁾ بقوله "لما علم البربر عداوة

(1) - انظر التفاصيل في الفتنة ومشاكلها في:

ابن حزم (الأندلسي): رسائل ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1981، ج 2، ص. 19، 197، 203؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج 3، ص. 86، 87، 113، 114؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، المصدر السابق، ص. 20، 201، 208.

(2) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 3، ص. 20، 21.

(3) - ابن الخطيب: أعمال الأعمال...، ص. 177.

(4) - نعت حل المصادر الفتنة بالبربرية لأنها تحمّل المسؤولية كاملة فيها للبربر لكن من خلال اشارات متعددة يمكن القول ان البربر ساهموا فيها الى حد كبير لكن لم يكونوا وحدهم بسبب في إكسابها وحلق نتائجها لقد ساهمت ظروف متعددة وأزمات متراكمة في اندلاعها. ومن ثمة يصعب نعتها بصفة البربرية.

(5) - ابن عذاري: نفسه، ج 3، ص. 51.

(5) مكرّر - للمزيد من التفاصيل حول بعض أدوار العامة في المجالين السياسي والعسكري خلال الخلافة انظر: الطاهري (أ): عامة قرطبة في عصر الخلافة...، مرجع سابق، ص. 183 وما بعدها.

(6) - ابن عذاري: ج 3، ص. 51.

(7) - الزجالي: أمثال العوام...، مصدر سابق، ج 1، ص. 207. يدل لفظ "البربري" وهو نصغير لكلمة البربري على نوع من الاحتقار والاستهزاء وقد اشتهر منذ الأمير الأموي عبد الله بن محمد الذي توجه لوزيره سليمان بن أنسوس قائلا له: "اجلس يا بربري".

أهل الأندلس وبفصيحهم لهم أبعضوهم وحسدوهم فلم نجد أندلسياً إلا منعصاً بربرياً وبالعكس...". وكان حقد وبنغض البربر منذ أيام المنصور بن أبي عامر الذي (...) اخمل بهم (أي البربر) أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم واستكثر من اعدادهم حتى تغلبوا الحمهور وسلبوا منهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب أعاد أكثر الأندلس قفراً يئاباً وملاها وحشاً وذئاباً...⁽¹⁾. وازداد حقد البربر والتحامل عليهم مع آخر القرن الرابع الهجري أي مع الفتنة وخاصة على عهد سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين الذي افتتح قرطبة سنة 400هـ (1010 م) وخرج منها بعساكر البربر في بلاد الأندلس يفسد وينهب ويفقر المدائن والقرى بالسيف والغارة ولا يُبقى البربر معه على صغير ولا كبير⁽²⁾. ويُقدم قاموس الأمثال العامية الأندلسية نماذج دالة تعكس بامتياز الكراهية والنقض الذي يُكثفه الأندلسيون للبربر كان تقول بعض تلك الأمثال:

"كل ما يجي من الغرب مليح إلا ابن آدم والريح"⁽³⁾.

"اعطي للبربري شبر وطلب ذراع"⁽⁴⁾.

"البربر والفار لا تعلمهم باب الدار"^{(4) مكرر}.

يمكن القول إنه بمجرد أفول نجم الخلافة في مطلع القرن الخامس الهجري (XI م) عادت الصراعات والتحالفات والنعرات المختلفة إلى الواجهة وغلبت الطائفية والإقليمية عبر كل جهات الأندلس⁽⁵⁾. وأحسن من عاين وعاصر تلك الأوضاع وعبر عنها بدقة الأمير عبد الله بن بلقيس⁽⁶⁾ حين قال: "ثار كل قائد بمدينةته وتحصن في حصنه بعد تقدم

(1) - المقرئ: النفح، ج 1، ص. 244.

(2) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 274.

(3) - ابن حزم: الرسائل...، ج 1، ص. 197، ج 2، ص. 21.

(4) - الزجالي: أمثال العوام...، ص. 207.

(4) مكرر - نفسه: ص. 207.

(5) - نفسه: ص. 207.

(6) - يشير إلى أن كراهية البربر لم تقتصر على الأندلس. تذكر المصادر أن العاصمين في آخر مرحلتهم الإفريقية عصوا البربر كما يتحلى من وصية المعز لدين الله العبيدي عام 361 هـ لما هم بمعادرة إفريقية، قال فيها للأمير أبو نفوح بلقين بن ريري بن مناد الحميري "بيك أن ترفع الجباية عن أهل النادية، والسيف عن البربر، ولا تؤل حاداً من إخوتك وبني عمك فإنهم يرون أحق بها...".

العماد الحنبلي (أبو العلاح عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت، ح 3، ص. 80.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 144.

البنظر لنفسه واتخاذها العساكر واذخاره الأموال...“ وفي خضم التحولات الجديدة ضعف وانقسم جند الحضرة القوي خلال العهد السابق. وحاولت القبائل البربرية ان تتقوى عسكرياً على المستوى الإقليمي، وتخلق نظاماً يوجه الأندلس على امتداد العصر الطائفي⁽¹⁾. وأحسن نموذج يُعبر عن هذه الوضعية الجديدة هو دويلة غرناطة التي تقوّت نسبياً - مقارنة بالدويلات الأخرى المعاصرة لها - على عهد عبد الله بن بلقين، ولعبت فيها العناصر البربرية الصنهاجية والزناتية أدواراً هامة في الجندية. ودويلة المستعين بالله الثانية التي رُفع فيها شأن البربر مؤقتاً لأنه “كان منهم الحاجب والوزير”⁽²⁾. الشيء الذي أخاف العبيد العامريين؛ و”هربوا إلى شرق الأندلس فاستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية”⁽³⁾. هكذا نلاحظ عودة نوع من “الكور المجندة” البربرية من جديد إلى الصدارة لكن في حلّة جديدة وطروف مغايرة. لقد “اقتُسمت البلاد وتفرّقت الأعمال بأيدي جماعة من الرؤساء فصار للبربر منها نصيب...“⁽⁴⁾. وفي خضم أحداث عام (402 هـ/ 1011 م) عمد سليمان المستعين بالله إلى تقسيم بعض النواحي على “رؤساء قبائل البربر، كانوا سنة قبائل فأعطى صنهاجة البيرة فبقيت بيد حبوس وذريته... وأعطى مغراوة الجوف، وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة، وأعطى بنو برزال وبني يفرن جيان وذواتها، وأعطى بني دُمُر وازداجة شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون”⁽⁵⁾. وتغلب بنو برزال من حديد على مدينتي قرمونة واستجة وحصن المدور وذواتها⁽⁶⁾. وأخضع العباديون المجموعات البربرية القليلة التي كانت تستوطن غرب إشبيلية⁽⁷⁾، مع العلم أن أغلب

(1) - عكست كل المصادر استئصال طهارة الطائفية والنشر ذم السياسي والعسكري الذي أصاب الأندلس خلال القرن الخامس للهجرة

وعبر الشعر بنوره أحسن تعبير عن ذلك في أبيات متواترة ومشهورة:

أسماء معتضد فيها ومُعْتَمِد
كالهز يحكي انتفاخاً صولة الأسد

فيما يزهدني في أرض أندلس
ألقاب مملكة في غير موضعها

(2) - ابن بلقين: كتاب التبيان، ص. 58.

(3) - انظر التفاصيل في نموذج بني عباد في:

الطاهري (أ). عامة إشبيلية في عصر بني عباد، اطروحة الدولة في التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس،

1995، ج 1، ص. 135 وما بعدها.

(4) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 3، ص. 114.

(5) - نفسه: ص. 115.

(6) - العنزي: ترصيع الأخبار...، ص. 93.

(7) - VIGUERA (M.j), MARIN... Los Reinos..., op. cit, p. 200.

حذهم كال من المرتزقة والعبد من المغرب وإفريقية⁽¹⁾. ولم يردد دندس بن حنوس في مذكراته واحصاع "كورسي ربة وفنشرين وتعددت جبهته..."⁽²⁾. وهكذا ارتفع شأنه وسنطانه حسب ابن حبان الذي أوضح أنه استخدم الكثير من قبائل زناتة وأمد سنطانه ما بين "مالقة واستجة وما تحت ذلك من إقليم قرطبة..."⁽³⁾.

يتبين من التحليل السابق أن المجموعات العسكرية البربرية تمزقت وتشتتت تحت سيطرة الطائفية، مما حال دون بناء تحالفات كافية من شأنها النهوض بجيش أو قوة عسكرية بإمكانها إخضاع كل الأندلس. وفي الوقت ذاته غابت السلطة السياسية المركزية الفاعلة على بناء ذلك الجند وحوله أداة فعالة في يدها كما كان الشأن خلال الخلافة أي على عهد الخلفيتين عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، ثم المنصور بن أبي عامر. وفي تلك الوضعية قال ابن خلدون⁽⁴⁾ بغياب عصبية في الأندلس تستطيع النهوض بقضايا الحكم والسلطة أو الملك.

لقد حاول عبد الله بن بلفين من جهته النهوض بدولة غرناطة خاصة خلال النصف الثاني من القرن الحامس للهجرة، (XI م) وذلك اعتماداً على جند يتكون بالدرجة الأولى من صنهاجة وزناتة إلى جانب ما سماه بنفسه "الوصفان والعبيد"⁽⁵⁾. لكن لتزاعلات المحنفة التي كانت دولته فريسة لها داخليا، أو خارجيا أي مع الدويلات الطائفية الأخرى أو مع المسيحيين. حالت دون تحقيق طموحاته. ولقد سبق القول إن عناصر صنهاجية زعماء حنوس وذريته استقرت بعد الفتنة مباشرة بكورة البيرة. وقد أشاد عبد الله بن بلفين⁽⁶⁾ بشجاعة عمه زاوي بن زيري الذي كان منتظما في جند المنصور بن أبي عامر، وذكر ببعض الصراعات التي كانت تقع بين الصنهاجيين والزنااتيين⁽⁷⁾. لكنه حاول، حفاظاً على وحدة دولته غرناطة، خلق نوع من النوازن بينهم لأنه يعتمد على مجهوداتهم العسكرية كما يتبين من قوله: "لم يكن لنا معقلاً قط عبر صنهاجة والوصفان والعبد، ما

(1) - ابن عيود (محمد) حواشي الوافي الأندلسي في القرن الحامس للهجري، بطول، 1987، ص 105

(2) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص 230

(3) - نفسه: ص 230

(4) - ابن خلدون: المقدمة، ج 1، ص 323، 324؛ ابن عيود: حواشي...، مرجع سابق، ص 64.

(5) - ابن بلفين: الشبان، ص 145

(6) - نفسه: ص 57

(7) - نفسه: ص 145

انظر التفاصيل في: عثمان جاد الرب: الوضع السياسي...، مرجع سابق، ج 1، ص 319، 320.

خلا زناة فإنهم كانوا أجناد الحضرة^{(١) مكرر}. لكن سرعان ما يضعف ذلك التوازن حين يكشف عبد الله بن بُلَيقين عن ميولاته الصنهاجية أو الزناتية. فتارة ينحاز لزناة حين يكلف فرسانها بقيادة حملات ضد القُشتاليين^(٢)، وتارة أخرى يتقرب من صنهاجة ويحاول إشراكها مع زناة في الشؤون العسكرية الهامة. وكثيراً ما أفضى ذلك إلى إذكاء التناحرات بين الطرفين كما يشهد بذلك بنفسه بقوله: "وإن زناة هؤلاء المتأصلين لا ثقة فيهم للمدينة الفوقي ولا للحصون... فانا جدير أن أشرك من ضعف من صنهاجة بهؤلاء الأقوياء... ففعلت ذلك وأشركتهم، وكان في هذا كله تحريك للشر والقتال"^(٣). كثيراً ما تدخلت عناصر بشرية أخرى كاليهود الذين قرَّبهم الأمير عبد الله إليه باحتلالهم لمناصب هامة في الدولة الغرناطية، كي تزيد في تأجيج الصراعات والفتن ما بين صنهاجة وزناة. لقد لاحظ الأمير عبد الله ذلك لما كان "الصنف المذكور (يقصد زناة) قد ضعف واستولى عليه النقصان لمطالبات جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره، فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تنتهي لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفتهم من تولية منابهم، فكانوا يميلون إلى الصنف البراني"^{(٤) مكرر}. أي اليهود الذين يحتكرون مناصب أساسية في الدولة خاصة في الميدان الاقتصادي. وقد عبر ابن حزم^(٥) عن تسلطهم على رقاب المسلمين في هذا المجال حين قال في الفتنة "تسلط اليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والصربية". تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن تحكم اليهود أو بعض المسيحيين في مناصب مهمة كثيراً ما أثار غضب وسُخط فئات عريضة من المجتمع الأندلسي. ولا غرو فقد انعكس ذلك السخط والغضب في الشعر وغيره كما يتبين من هجاء أحد الشعراء لباديس بن

(١) - ابن بُلَيقين: ص. ١٤٥.

(١) مكرر - سار في مكان آخر ص ١٥٧، إلى أن "الرقاصة المغاربة كانوا عماد الحضرة وبهم كنا نمسك الحصون".

(٢) - ابن بُلَيقين: المصدر السابق، هامش ٤٠٤، ص. ٢٥٣.

(٣) - نفسه: ص. ١٤٥.

(٣) مكرر - يبدو أن بُلَيقين من صنهاجة وإشراكهم في الأحداث والقضايا العسكرية له ارتباط بمدارة المرابطين الصنهاجيين، وهو يؤلف "النيران" في "ضياقتهم" بأغصات مما جعله يُلقي الملامة على اليهود؛ وهم سبب معاناة صنهاجة. انظر: التبيان، هامش ٤٠٤، ص. ٢٥٣.

(٤) - نفسه، ص. ١٤٥.

(٤) مكرر - شرح محقق النيران (الطبيعي، هامش ٤٠٢، ص. ٢٥٢) بما فيه الكفاية مدلول كلمة "البراني" التي ما زالت تستعمل في المغرب بمعنى لعرب أو الأجنبي عن لمدينة أو لجماعة أو الأسرة. وتطلق كذلك على الأوربيين، وبذلك تكون مراعاة (للرومي) أي الأجنبي.

(٥) - ابن حزم: الرسائل...، ج ٢، ص. ٤٩.

حبوس في غرناطة لما قَرَّب إليه اليهود:

كل يوم إلى وزا • بَدَل البول بالخرا
فزماتنا تهوذا • وزماتنا تنصرا
وسيصبو إلى المجو • س إن الشيخ غمرا⁽¹⁾.

وقال آخر⁽²⁾:

تحكمت اليهود على الفروج
وتأهت بالبغال والسروج
وقامت دولة الأتذال فينا
وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأغور الدجال هذا
زمانك إن عزمت على الخروج

(1) - السلفي (أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم) أخبار وبرايع مستحرفة من معجم اسطر، تحقيق حسن عباس، بيروت، 1963، ص. 84.

(2) - ابن بسام: للذخيرة...، القسم الثاني، م 2، ص. 562.

خلاصة

حاولنا، فيما سبق، رصد أصول 'الكور المجندة' وإبراز مكوناتها البشرية والعسكرية منذ استقرارها بالأندلس. ويتبين من خلال المادة المصدريّة المتوافرة أنّها حاولت الاحتفاظ بمميزاتها المشرقيّة من حيث استفادتها من امتيازات اقتصاديّة وعسكريّة مختلفة. تلك الامتيازات التي نافستها فيها قبائل عربيّة أخرى، الشيء الذي جعل الخلافة الأمويّة تعيد النظر في خريطة توزيع القبائل العربيّة من حديد في الأقاليم والكور الأندلسيّة، مع مراعاة أهميّة الجند الشامي الذي ظل يحتفظ بالمرتبة الأولى في الامتيازات والخدمات العسكريّة التي كان يقدمها للخلافة والسلطة في قرطبة.

تبين كذلك من خلال إشارات متعدّدة -عكس ما يُعتقد عادة- أنّ ظاهرة الكور المجندة لم تنته مع الإمارة، بل استمرت خلال عصر الخلافة؛ وأن المنصور بن أبي عامر هو الذي أقدم على إلغائها لما استقدم الجند البربري وطبق به إصلاحه العسكري. أما بصدد جند الحضرة فقد اتضح أنّ الخلافة بقرطبة التي أخضعت مجالا جغرافيا كبيرا أصبحت في حاجة ماسّة إلى أداة عسكريّة مركزيّة قويّة وفعالة تكون تحت امرتها لتستخدمها داخليا وخارجيا وذلك لتأمين أمنها ومجال حدودها وبفوذها. فبالى جانب الجند الشامي تمّ الاعتماد على قوى عسكريّة أخرى قادمة من مناطق جغرافيّة متباينة، شكّلت النواة الأساسيّة لجند الحضرة بقرطبة وهكذا استخدم الصقالبة والحشم والبربر.

لاحظنا بصدد الصقالبة والحشم الذين جاءوا الأندلس عبر قنوات مختلفة أنّ الخلافة استغلّتهم في الجديّة وفي الأشغال البلاطية أو في خدماتها المتعدّدة، وتمكّن العديد منهم من الوصول إلى أعلى هرم الإدارة والجند، كغالب مولى الناصر وفائق النظامي وغيرهما. واتضح من المعطيات المصدريّة أنّ معرفتهم وخبرتهم بشؤون الخلافة دفعتهم إلى الطمع في السلطة بعد الخليفة الحكم المستنصر. لكن المنصور بن أبي عامر تمكّن بدهائه وفي إطار الإصلاح العسكري الذي باشره من تقليص أظافرهم والحد من دورهم. أما الحشم فلم يفل دورهم عن دور الصقالبة فقد استغلّتهم الخلافة في الحملات العسكريّة خاصّة تلك الموجهة لحصار المدن والقصبات والحصون.

وبالسبب للبربر لاحظنا تطور أعدادهم منذ الفتوحات وقد شكّلت المجموعات الرناتية والصنهاجية نواتهم في جند الحضرة خاصة خلال عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي كان معجبا باستعراض الجند، وبطرق القتال لدى البربر الزناتيين. أما عصر المنصور العامري فتميز برفع البربر إلى قمة الهرم العسكري وقلب التراتبية التي كانت تطبع بنيات الجند قبله. لقد فتح ابن أبي عامر باب الأندلس للجند البربري القادم من شمال إفريقيا ليحقق بواسطته طموحاته السياسية والعسكرية والتي تجلت في إبعاد الأرستقراطية العربية والبيروقراطية الصقلية من السلطة والإدارة والجيش. وقد تحقّق له ذلك لكن بمجرد موته سقط نجم البربر وأصبحوا في نظر جل المصادر مسؤولين عن الفتنة والأزمات الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي أصابت الأندلس. وبذلك أصبحوا محط احتقار وازدراء بعدما كان يُتغنى بفروسيّتهم. وهكذا ظهر نوع من "الكور المجنّدة" البربرية هذه المرة خلال العصر الطائفي في العديد من الأقاليم الأندلسية، كما هو الحال في إقليم البيرة، إذ تمكن الأمير عبد الله من بناء دولة غرناطة اعتماداً بالدرجة الأولى على البربر خاصة البطون الصنهاجية والزناتية منها، دون إغفال دور اليهود الذين لعبوا دوراً خطيراً في دولته.

الفصل الثاني

نظام الثغور

نظام الثغور

قبل الحديث عن خصائص الجند الأندلسي المقيم في الثغور المتاخمة للمسيحيين وأنظمة هذه الأخيرة، تجدر الإشارة إلى أن الخلافة الإسلامية كانت تعتبر الأندلس بمثابة ثغر هام يقع في أقصى غرب ما كان يُعرف "بدار الإسلام". ولذلك كان المسلمون يُولونه اهتماماً خاصاً منذ عهد الرسول ﷺ نفسه والذي رُوِيَ عنه أنه قال «أفضل رباط على وجه الأرض جزيرة الأندلس شرقياً عدو وغربياً عدو وقبلتها عدو وجوفها عدو»⁽¹⁾. وقد تتبأ الرسول أيضاً بأن الجهاد والرباط سوف ينقطع «إلا بجزيرة يقال لها الأندلس بالمغرب الأقصى»⁽²⁾. ولهذا السبب «فإن رباط يوم فيها أفضل من رباط عامين في ثغور غيرها»⁽³⁾..». و«أهل الأندلس هم رؤوس المجاهدين يوم القيامة»⁽⁴⁾. ونظراً للاعتبارات السابقة يُوصى كثيراً بالرباط في ثغور الأندلس من قبل الرجال الذين يُحسنون الفروسية والسياسة وذوي الأنفة والقوة والحيل⁽⁵⁾. ولا غرو فقد طبق بعض الخلفاء هذه التوصيات مثل عبد الرحمن الناصر الذي بعث إلى الثغور سنة (328هـ/940م) من نُخب أجنادِه «من بُعد صيته وشهر بأسه من جيلة القواد ووحوه الرجال»⁽⁶⁾. نلاحظ أنه إذا تأكدت الأقوال السابقة الذكر بصدد الأندلس، أي الحديث عنها وتحديدها في المجال الجغرافي بنوع من الدقة، ربما يُفيد في إعادة النظر في مقولة المعرب الأقصى، التي اعتقد العديد من الدارسين أنها غير واردة قبل ظهور الدولة المركزية في العرب الإسلامي في منتصف القرن الخامس الهجري (XIم)⁽⁷⁾.

(1) - ابن هنبل (علي عبد الرحمن): في الرباط والجهاد، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1108، 7 ب

(2) - نفسه: 8 أ.

(3) - نفسه: 8 أ.

(4) - نفسه: 18 أ.

(5) - نفسه: 23 أ؛ ابن المناصف (أبو عبد الله محمد بن عيسى) الإيجاد في أحكام الجهاد، محمود، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم، رقم 748، ص. 18 وما بعدها.

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 451.

(7) - القفلي (محمد) الدولة المغربية في العصر الوسيط في الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، الرباط، دار توبقال للنشر، 1997، ص. 71 - 83.

خريطة الثغور



نشير إلى أن استقرار السلطة الأموية بقرطبة وتمكنها من مراقبة جزء هام من جزيرة الأندلس خلال القرن الرابع الهجري، أدى إلى تقلص مجال الثغور ليقتصر على الحدود الشمالية المتاخمة للمسيحيين. ويُعتبر هذا المجال - بخلاف الكور أو الأقاليم الداخلية - منطقة حربية تتمتع بخصوصيات وامتيازات خاصة.

ترتبط الثغور بالسلطة في قرطبة بواسطة علاقات معقدة يطبعها المد والجزر بحسب الظروف السياسية والعسكرية بقرطبة. كثيرة هي المصادر التي فصلت الحديث عن الثغور والمناطق التابعة لها على المستويين الإداري والعسكري. ويبدو أنه قبل استكمال الحلافة لسيطرتها على جزيرة الأندلس كان الحديث عن ثلاثة ثغور وهي: الثغر الأعلى أو الأقصى والثغر الأدنى أو الأوسط والثغر الجوفي في الشمال الغربي.

ويمتد الثغر الأعلى في مناطق تضم مدينة سرقسطة، المركز الرئيسي في الثغر، ولاردة، بربطانية ووشقة، وتطيلة وغيرها من المراكز الهامة المواجهة للمسيحيين من جهة قطلونيا ومملكة نافارا. لقد تحدث ابن حيان⁽¹⁾ مكرراً نفسه بدقة عن الإمتداد الجغرافي لهذا الثغر وأهميته القصوى في مواجهة المسيحيين خلال عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي تمكن من ضبطه سنة (326هـ / 938 م)، قائلاً: «فتكاملت الفتوح... واستتم خلال ذلك نظره في إصلاح الثغر وجمع كلمة أهله على نكاية من بإزائهم من عدو الإسلام... حتى استوسق له ذلك كله، واطرد نظامه بين لاردة وأنتنسة...».

أما الثغر الأوسط فكان مقره العسكري طليطلة ثم انتقل إلى مدينة سالم بعد إنشائها لتكون قاعدة للحملة العسكرية كالصوائف التي توجه ضد المسيحيين خاصة جهة مملكتي ليون وقشتالة⁽²⁾. يشمل هذا الثغر خطاً من الحصون يمتد على نهر التاج بجبال غير بعيدة

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 422.

(1) مكرر - تفصل الخرائط الجغرافية والأركيولوجية في تحديد مناطق ومراكز الثغور. انظر على سبيل المثال:

Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age, Actes du colloque d'Erice-Trapani (Italie), 18, 25 septembre 1988

CASTRUM 4: Ecole fr. de Rome, Casa de Velazquez, Rome-Madrid, 1992.

BOSCH VIIA (y); Algunas consideraciones... op. cit

Manzano Moreno (Ed); La Frontera de Al-Andalus en la época de los Omeyyads, Madrid, C S I C, 1991

VALLVÉ (J.B); La Division terrotorial..., op. cit.

SENAC (Ph), «Les Husun de Tagr Al-Aqsa A la recherche d'une frontière septentrionale d'Al-Andalus à l'époque Omeyyade», dans: **Frontière et peuplement...** (Castrum 4): op. cit, pp. 75, 84.

LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 57.

- (2)

عن طليطلة. ولاشك أن تلك الحصون تشكل سداً منيعاً لمواجهة سلسلة من الحصور الواقعة من الجهة القشتالية كما يتبين من اللفظ ذاته⁽¹⁾.

ويمتد الثغر الجوفي⁽²⁾ في أقصى الشمال الغربي. وكان يضم ما يُعرف الآن بإقليم "استرمادورا" (Extremadura)، وجزءاً من البرتغال⁽³⁾.

وبعد استقرار الخلافة وتحكمها في المجال الأندلسي خلال القرن الرابع الهجري صار الحديث عن الثغرين الأساسيين الأولين أي الأقصى والأوسط⁽⁴⁾. سبق التذكير بأن الثغور تعتبر بمثابة مناطق حربية، فلذلك تُعهد إلى قواد عسكريين كبار أمثال عمروس وعبدون خلال الإمارة⁽⁵⁾، وغالب مولى الناصر ومطرف، ومحمد بن يعلى وعبد الله بن أحمد بن يعلى، وهذيل بن هاشم وغيرهم خلال الخلافة⁽⁶⁾. كما تُعهد إلى عائلات مشهورة مثل التجيبين، وبني رزين، وبني هود، وبني ذي النون وبني قسي. لاشك أن أوضاع الثغور إبان الإمارة اختلفت عن أوضاعها خلال الخلافة والطوائف. فقد لعبت العائلات السالفة الذكر أدواراً متباينة تارجحت بين الولاء السياسي والعسكري لقرطبة، والاستقلال بشؤون الثغور، وذلك تبعاً لطبيعة السلطة السياسية بقرطبة. وتجمع المصادر أن ضعف السلطة المركزية طيلة القرن الثالث الهجري (IXم) أدى إلى العديد من الثورات وحركات الإنزواء والتجزئة السياسية التي انتشرت في كل الأنحاء الأندلسية. ولم تستثن الثغور من تلك القاعدة خلال تلك الفترة، بل «تفاقت ظاهرة إقطاع الحصون ومناطق الثغور لفائدة

(1) - اسم قشتالة له ارتباط بالتحصين: (Castillos (Castilla).

BAZZANA (A), Guichard (P), SÉNAC(Ph), La Frontière dans l'Espagne médiévale, dans: Frontière et peuplement..., op. cit., p. 35, 59.

(2) - لحوف في الاصطلاح المغربي والأندلسي هو لشمل وتختلف لسبب التسمية أحياناً. والجوف في الأصل يقع إلى شمل مكة. وكان الحجازيون يقولون لكل شمل جوفاً لأن لجوف يوجد في لشمل من الحجاز، وفي لغرب من لعراق وفي لشرق من لشم. وغلب على الناس في لشم قديماً أن يقولوا للجنوب قبلة نظراً لموقع لكعبة في لجنوب. (في الحجاز لشمل هو لشم، ولجنوب هو ليمس): نظر لتفاصيل في: لوسلان (شكيب): لحلل لستدمية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت، منشورات دار الحياة، د.ت، ج 1، ص. 58، 59.

(3) - BOSCH VILA (Y); Algunas..., op. cit., p. 28.

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., T. 3, p. 57.

(5) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 72.

(6) - نفسه: ص. 219.

قادة العسكر...»⁽¹⁾. وتم اصطناع علاقات مختلفة مع الجند والأسر النافذة عبر أقاليم الثغور. تذكر المصادر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن هو أول من عقد لعائلة التجيبين بالثغر الأعلى مقابل التغلب أو إقصاء بني قسي المتغلبيين هناك. إنه أول «من اصطنع التجيبين الظاهرين بالثغر الأعلى عندما أشجاء بنو قسي المنتزون به، وبوأهم مدينة قلعة أيوب من ذلك الثغر وبنائها لهم وحصنها وأدخل فيها زعيمهم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله بن المهاجر التجيبي وعقد له على قومه وبني لهم حصن دروكة وتعهدهم بالصلوات وأجرى عليهم المصارف عند الغزوات...»⁽²⁾. كما «أجرى عليهم الأموال»⁽³⁾ بمقدار «مائة دينار لكل واحد عند كل غزوة يقومون بها ضد بني قسي...»⁽⁴⁾. ويتبين من الإشارات المصدرية المختلفة أن الصراعات والتحالفات أو التحالفات المضادة هي الغالبة لدى مختلف الأسر التي استقرت بالثغور إبان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. إنها كانت تبحث عن السيادة والنفوذ الإقليمي الذي يوفر لها الامتيازات المتعددة، كما كانت تخاطب وُدَّ ورضى السلطة في قرطبة. لكن الانقسامات السالفة الذكر كانت تجعلها أقل مناعة وإمكانية لمواجهة المسيحيين، خاصة أن دورها تحول من حراسة الثغور والدفاع عنها، إلى حركة انتزاع واسعة ظهرت بموجبها «إمارات إقطاعية منفصلة عن الحكم المركزي...»⁽⁵⁾. وبذلك نشط ما عُرف «بإقطاع التسجيل» الذي مورس بالثغور مقابل الولاء أو التبعية للحكم في قرطبة، وتوفير مقادير سنوية من الجبايات مع الخدمة العسكرية⁽⁶⁾.

لقد تغيرت الوضعية، ولو بشكل نسبي، خلال القرن الرابع الهجري، لأن الخلافة حاولت بقوتها السياسية والعسكرية نهج سياسة جديدة في الثغور. إنها كونت جنداً مركزياً

(1) - بوتشيش (ابراهيم الغادري). أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي: من منتصف القرن لثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (250 هـ / 316 هـ)، الرباط، منشورات عكاظ، 1992، ص. 93.

نفسه: تطور ملكية أراضي الجيش في الأندلس، منذ الفتح العربي حتى مطلع عصر الخلافة في: مجلة البحث العلمي، العدد 38، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1988، ص. 143، 159.

(2) - ابن حيان: المقتبس... أنطونية، ص. 20، الغدري: ترصيع الأخبار...، ص. 41.

(3) - نفسه: ص. 41.

(4) - نفسه: ص. 41.

(5) - بوتشيش: المرجع السابق، ص. 87.

(6) - نفسه: ص. 184.

قويًا كان الأداة الفعالة التي مكنتها من مراقبة جل الأقاليم والنواحي الأندلسية، بما في ذلك الثغور والسّمال الإفريقي. وتنتضح الأهمية والعناية التي تحظى بها مناطق الأطراف عامة حين نعلم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر عين موظفًا كبيرًا وهو الوزير عيسى بن فطيس للنظر في كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف⁽¹⁾. إلى جانب ذلك كانت عملية المراقبة المباشرة للثغور تتم عبر عدة قنوات منها: تعيين قواد عسكريين كبار يُقيمون بها كالفاند المشهور غالب مولى الناصر الذي اتخذ في أول أمره طليطلة كقاعدة عسكرية، ثم انتقل منها إلى مدينة سالم الأكثر ملاءمة لاستقبال وتمركز جند الخلافة الذاهب إلى الثغور. وفوّضت للقائد غالب شؤون "جند الثغر"⁽²⁾، أو "رجال الثغر"⁽³⁾. وقد كشفت المصادر عن بلانه البلاء الحسن في المجالين الإداري والعسكري ولذلك كافأته الخلافة بترقيته في أعلى مراتب الدولة بأن قلّده سيفين⁽⁴⁾. وإلى جانبه عُرف القائد يحيى بن محمد التجيبي الذي عُرف بصاحب ثغر الأعلى⁽⁵⁾. خلال عصر الحكم المستنصر. ولم يكتف هؤلاء القواد بالاعتماد على جند الثغر وحده في حالة الحملات العسكرية أو الصوائف، بل يستنفرون المطوعة من الأقاليم وجند الحضرة من قرطبة. ذكر عريب بن سعد أن الخليفة الناصر لما اتصل به خبر المشركين وإنزالهم في الثغور «أمر بالاحتفال في جميع الرجال وإكتاف الغد واستفاز المطوعة... وفصل الحاجب بالجيش فتنامت إليه العساكر والمطوعة في أقرب ثغور المسلمين...»⁽⁶⁾.

وأكثر من ذلك كان الخلفاء في أوج القوة السياسية والعسكرية— يشرفون بأنفسهم على الحملات العسكرية إلى جهات الثغور. ويكفي القول إن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان يحرص على قيادة الجند بنفسه إلى حدود هزيمته في موقعة الخندق المشهورة عام (327 هـ/ 939 م). وعلى غرار ه سار خلفه الحكم المستنصر ثم المنصور بن أبي عامر

(1) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 220.

(2) - نفسه: ص. 265.

(3) - نفسه: ص. 72.

(4) - مجهول: مفاخر البربر...، مصدر سابق، (ل. بروفنسال)، ص. 11.

نسخة من تحقيق يعلى (محمد)، ص. 141.

(5) - نفسه: (ل. بروفنسال)، ص. 9، يعلى، ص. 143.

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 146.

الذي استير في المصادر بقيادته لأكثر من خمسين صانعة وشانية⁽¹⁾ ضد نفوى نصيحة في الثغور. ولا عرو فقد أدن الخليفة الناصر عام (306 هـ/918 م)، لما قرر عرو مطوية إلى دار الحرب «بالاحتفال في الحشد وجمع الرجال والتكثير من الأحاد والفرسان والأبطال... ونفذت كتبه إلى أهل الأطراف والثغور بالخروج إلى عده الله...»⁽²⁾. وفي السنة الموالية (307 هـ/917 م) جاءت الأخبار من الثغور بأن الحلائفة بقيادة زعيمهم أردون بن أدفونش ينوون الهجوم على الثغور فرد الخليفة بسرعة من أمر الوزير القائد «إسحاق بن محمد المرواني بالخروج في جيش كثيف حرد معه، وخوَّض الفؤاد والعمال والأمناء وغيرهم باستنفار الناس إلى الثغر الجوفي»⁽³⁾. وبعد ذلك، في سنة (328 هـ/940 م) عمد الناصر إلى تشديد المراقبة على الثغور لما أمعن في «إسحاق الأعوان كلها من أحشائه بحيث وضعهم في مدن الأندلس وحصونها وقصابها وفروج ثغورها، فحبر السقط منهم وتم نقائصهم...»⁽⁴⁾. ولم يشد الخليفة الحكم عن القاعدة في محاذاته مراقبة الثغور والإشراف عليها كما تبين عام (364 هـ/975 م) لما أدى المطوعة من قرطبة والأقاليم الرغبة في الدفاع عن الثغور «فانجفوا راغبين في انجباد... وأعجب السلطان ما كان من انبعاث مطوعتهم دون إلزام لهم وأتت لصالح بلانهم...»⁽⁵⁾.

أما المنصور العامري فقد كشفت المصادر تواجده الفعلي والمكثف في الثغور لأنه كان يقود الحملات تلو الأخرى إلى آخر حياته. فكثيراً ما يتوغل من الثغور في أرض النصاري رغبة في غلبتهم وإذلالهم حتى أنه في إحدى حملاته إلى أرض قشتالة قفل ومعه «أعلاج النصاري مصفيين بالحديد.. إذلالاً للشرك...»⁽⁶⁾. وقد يلجأ أيضاً إلى تعيين من ينوب عنه للإقامة في الثغور كما حدث مع المنذر بن يحيى «صاحب سرقسطة وذواتها»⁽⁷⁾ وهو

(1) - انظر تفاصيلها في العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80. الحميدي (أو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأردني): حدود المفتس في ذكر ولاية الأندلس، القاهرة، 1966، ص. 73، 74.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 156.

(3) - نفسه: ص. 156.

(4) - نفسه: ص. 455.

(5) - نفسه: الحجي، ص. 226.

(6) - المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 546.

(7) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 3، ص. 175.

من «عرض الجند ترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر.. وكان لأول ولايته قد سس عظماء الإفرنج فحفظت أطرافه إلى أن مضى بسبيله والثغر مسدود لا ثغرة فيه»⁽¹⁾.

لكن رغم إظهار الخلافة للحزم والقوة في إدارة شؤون الثغور بشكل مباشر، فإننا نلاحظ أنها كثيراً ما تتشغل بقضايا سياسية وعسكرية أخرى الشيء الذي يقلل من اهتمامها بشؤون الثغور ولا تُعوز الأمثلة للدلالة على ذلك. فيكفي القول إن انشغال الخليفة الحكم المستنصر بقضايا المغرب ورغبته في إخماد الثورة الشيعية بقيادة حسن بن كَنُون (قنُون) الشيعي دفعته إلى استدعاء القائد غالب من الثغر الأعلى عام (361 هـ/972 م) ليتوجه إلى شمال إفريقيا لإخماد الحركة الشيعية هناك⁽²⁾. إن اهتمام الخلافة بقضايا متعددة، وكذلك بُعد الثغور عن قرطبة دفع بالسلطة إلى تشجيع الجند قصد الإقامة فيها بمنحه تسهيلات متعددة أو إعطاء امتيازات أكثر أهمية لعائلات مشهورة تشكلت هناك منذ عصر الإمارة. ففي إطار حث الجند على الإقامة في أقاليم الثغور، تفيد المعلومات المصدرة أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما فتح مدينتي بطليوس وطليطلة عام (318 هـ/930 م)، نزل بمحلته على أبواب طليطلة مُصبراً على مضايقة النصارى ونكايتهم، وفي الوقت نفسه أمر «بالبنيان في جبل جركش لمدينة سماها بالفتح وأرتب لبنيانها سعيد بن المنذر الوزير وأمر بنقل الأسواق إليها والتمدين لها لتكثر مرافق أهل العسكر بها»⁽³⁾. وعادة ما يعمد الخلفاء أيضاً إلى التخفيف من الأعباء الضرائبية على سكان جهات الثغور نظراً لقربهم من العدو المسيحي. وحدث ذلك سنة (329 هـ/941 م) لما «شكا أهل طرطوشة القاصية ثقل مغارمهم مع مكانهم من الدنو من العدو الشديد الشوكة، ومقاساة معرتهم وسألوه النظر لهم فأسقط الناصر عنهم الزكوات والصدقات»⁽⁴⁾.

انفرد ابن عذارى⁽⁵⁾ بنص هام ودقيق لأنه يعكس بوضوح نوع الامتيازات التي مُنحت في الثغور ليس لكبار الجند كالعادة وإنما لعامة الجند الذي شارك في إحدى الحملات العسكرية إلى ناحية قطلونيا. ففي عام (393 هـ/1093 م) وجه الحاجب عبد الملك

(1) - نفسه: ج 2، ص. 221.

(2) - نفسه: ج 2، ص. 221، مفاخر البربر...، (يعلى محند)، ص. 135، 141.

(3) - ابن عذارى: المصدر السابق، ج 2، ص. 203.

(4) - ابن حيان: ج 5، ص. 468.

(5) - ابن عذارى: ج 3، ص. 6، 7.

المطهر العامري الجيـش إلى حية قطلونيا وأمر المسلمين إبان الفتح «ألا يحرقوا منزلاً ولا يبنوا بناء لما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه، ومن أراد الإثبات في ديور بتدريـس في أشهر على أن يستوطن الحصن فعل وله مع ذلك المنزل والمحرث. فرغب في ذلك حق عظيم». إضافة إلى ذلك استفادت الثغور من عمليات التحبيـس لفائدة سكانها كم تعكس ذلك كتب الطبقات والجهاد والنوازل المختلفة. ونعلم أن الحليفة الحكم المستنصر أقدم على «تحبيـس ربع جميع ما جرته إليه الوراثـة عن أبيه أمير المسلمين، في جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثغور الأندلس كافة. تفرق عليهم غلات هذه الضياع عاماً بعد عام على ضعفائهم، وجعل القبض والنظر في هذا الحبس إلى حاجبه وسيف دولته جعفر»⁽¹⁾. لقد شاعت ظاهرة التحبيـس في الأرض والممتلكات والمنتجات أو العلال لفائدة الثغور وحصونها، كما يتبين من إشارات مصدرية مختلفة. فهذا ابن رشد⁽²⁾ يفصل الحديث عن شروط تحبيـس أحد الأندلسيين من جزيرة طريفة لفندقين وغلتهما على ثغور المسلمين. وحدد أيضاً شروط تحبيـس «الفندقين والإصطبل والحوانيت على موضع معين من ثغور المسلمين»⁽³⁾. وأجاب الونشريسي⁽⁴⁾ عن نوازل مرتبطة بأرض حُبست لفائدة حصن تغيـر إنتاجها من زراعة الحلفاء إلى زراعة أخرى. وفصل ابن سهل⁽⁵⁾ في التحبيـس لفائدة مؤسسات مختلفة. وأكثر من ذلك تكشف المصادر عن مجموعة من المتطوعين خاصة من الفقهاء الذين يتكفون ببناء مؤسسات دينية أو حصون في الثغور⁽⁶⁾.

أما عن الامتيازات الأكثر أهمية في الثغور فقد استفادت منها عائلات مشهورة ونافذة بزعامة قوادها العسكريين الكبار أمثال هذيل بن هاشم التجيبي ومروان بن رزين وعامر بن مطرف بن ذي النون⁽⁷⁾ وغيرهم. فعادة ما تسجل الخلافة لزعماء هذه العائلات على مناطق أو إقطاعات كبرى بمناطق الثغور مقابل خدمة السلطة في قرطبة اقتصادياً وسياسياً

(1) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 234.

(2) - ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي). الفتاوى، تحقيق التليي (المحرر س الطاهر)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ج 3، ص. 1341، 1342.

(3) - نفسه: ج 3، ص. 1401.

(4) - الونشريسي: المعيار... المصدر السابق، ج 7، ص. 37.

(5) - ابن سهل (عيسى بن الأصم): الأحكام الكرى، مخطوط الحراة العامة، ق 838، ص. 86، 151، 155.

(6) - ابن بشكوال (أبو القاسم حلف بن عبد الملك) كتاب الصلـة في تاريخ أمة الأندلس وعلماهم ومحدثيهم وفتاهاهم وأدباهاهم، تحقيق: الحسيني (عزت العطار)، القاهرة، 1955، ج 2، ص. 435.

(7) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 219.

وعسكرياً. وبذلك أصبح الحديث عن ظاهرة التملك العسكري للأرض خلال الخلافة بالمناطق الثغرية⁽¹⁾. وهذا التملك هو في الواقع إقطاع تملك انحصر في عائلات تورثه في الأعقاب كبني ذي النون، وبني قسي وبني رزين والتجيبين منذ عصر الإمارة⁽²⁾. وقد سبق القول إن الأمير محمد بن عبد الرحمن كان أول من اصطنع التجيبين بالثغر الأعلى⁽³⁾. ودأب الخليفان عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر على متابعة عملية التسجيل للعائلات السالفة الذكر على مناطق الثغور. فهكذا قلد الناصر «مدن الثغر الأعلى الممانعة الدروب على أكابر ساكنيها ووراثتها عن الأجداد والاباء... آل نجيب وآل ذي النون وآل غزوان وآل الطويل وآل رزين، وجدّد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام بسجلاتهم تضميناً وترفيهاً»⁽⁴⁾. كما يحدث أن تبعد عائلة ويسجل لأخرى مكانها، إذ في سنة 312 هـ استنزل بني قسي وأجلاهم من الثغر الأعلى وقلد الأمر «إلى أبي يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبي وإلى أولاده وصاروا في حشمه وجنده...»⁽⁵⁾. ويسجل أيضاً لبعض القادة محددات المناطق التي يستفيدون منها كما حدث عام (319 هـ/931 م) حين سجل لسعيد بن أبي القاسم على كورة إستجة ولسوادة بن عبد الملك على ثغر طليبرة، ومحمد بن هاشم التجيبي على ثغر سرقسطة، ولأخيه يحيى بن هاشم على لاردة وحصونها، وأقام محمد بن طمّس على كورة أكشونبة⁽⁶⁾.

كما سجل الناصر عام (329 هـ/941 م) لبعض النصارى كغرسية بن شانجة الشكنسي على نبلوبة وأعمالها⁽⁷⁾ بعد أن تغلب على أمه طوطة. وتابع خلفه الحكم سياسة أبيه كما يتضح سنة (364 هـ/975 م) لما عقد «السجلات لقواد الثغر الأوسط من أهلها بولاية أوطانهم بالمواقع المذكورة فيها على عادتهم وعلى ما نظر الوزير القائد الأعلى غالب زعيمهم وسمّاهم وسمّى حصونهم وقراهم، وسجل لعيسى ومحمد وهاشم وأحمد وعيسى وعبيد الله

(1) - الطاهري: عامة قرطبة...، ص. 62.

(2) - بوتشيش: أثر الإقطاع السياسي، ص. 87.

نفسه: تطور ملكية أراضي الجيش...، ص. 145.

(3) - ابن حيان: المقتبس...، أنطونية، ص. 20؛ العنزي: ترصيع الأخبار...، ص. 41.

(4) - ابن حيان: ج 5، ص. 437، 438.

(5) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 124.

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 315.

(7) - نفسه: ج 5، ص. 336.

وعلى إبراهيم ولب بن يحيى بن هذيل بن رزين على الحصون الواقعة في سجل أبيهم يحيى بن هذيل» (1). وكذلك فعل عبد الملك المظفر العامري لما استقبل وحوها من النصاري ممن أرسل بهم شانجة بن غرسية زعيم الجلائقة «فأحسن عبد الملك قبولهم وأوسع إنزالهم» (2).

يتبين من مختلف نصوص المصادر أن التسجيل شمل عناصر مادية أكثر حيوية وأهمية مثل الأرض للاستغلال المباشر والمدن أو القرى الرئيسية والحصون باعتبارها القواعد الدفاعية والاستراتيجية في أقاليم الثغور. ونعلم جيداً أن من تمكن من إخضاعها يسهل عليه السيطرة على الثغور. فلا غرابة أن يشترط الإفرنج على المسلمين حين غلبوهم وتوغلوا في الثغور على تسمية الحصون التي يتوجب عليهم تركها وإفراغها. فهذا سنشكده أحد ملوك الإفرنج الذي راسل المامون بن يحيى بالثغر يصرح قائلاً «وحق الإنجيل لا نجوت مني حتى تُعطيني الحصن الفلاني والحصن الفلاني، وسمى حصوناً من حصون المسلمين بين طليطلة..» (3). وهذا الأمر هو ما حدث بالفعل خلال العصر الطائفي، أي بعد زوال قوة ونفوذ الخلافة، وعودة الأوضاع إلى نوع من التسيب والتجزئة السياسية والانتزاع الإقليمي الذي ساد قبل القرن الرابع الهجري أي خلال عهد الإمارة. فابتداءً من مطلع القرن الخامس الهجري (XI م)، اضطربت الأحوال في الثغور، فبعدما كانت إلى حدود العصر العامري بمثابة ثغر مسدود لا ثغرة فيه (4)؛ أصبحت محط الأطماع المباشرة للمسيحيين. ومنها هددوا بالتوغل في المناطق الداخلية كلها. فهذا ابن مناو وأتباعه وجنده دخلوا على الخليفة هشام المؤيد عام (402 هـ/1011 م) وبلغوه أن الأوضاع في الثغور أصبحت مضطربة وخطيرة، وأن الأمر بلغ مُنتَهَاهُ، وعبروا عن ذلك بقولهم: «...» أجفنا برعيننا في المغارم وسعرنا في غاية الغلاء والجند فقراء، والثغر مضطرب والنصاري يريدون الوصول إلينا..» (5). ورغم المحاولات التي قامت بها الدولة الهودية في شخص سليمان بن محمد بن هود، الذي كان من كبار الجند في إقليم لاردة بالثغر الأعلى، من أجل الحفاظ على نوع من الوحدة ضد المسيحيين؛ فإن الصراعات والتحالفات المختلفة فيما بين

(1) - نفسه: الحجي، ص. 203.

(2) - ابن عذاري: ج 3، ص. 5.

(3) - النويري: نهاية الأرب... (قسم المغرب)، ص. 147.

(4) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 3، ص. 176.

(5) - نفسه: ص. 108.

الأسر المقيمة في الثغور أو بينها وبين المسيحيين، كانت أقوى وحالت دور الاحتفاظ سنده. والهيمنة التي تمتعت بها أقاليم الثغور خلال عصر الخلافة. فعقب الفتنه تولى لبيب الصنفى شؤون بلنسية لكنه لم يلبث أن ارتمى في أحضان الإفرنج مما أعضب وأعاط المسلمين الدس «استصرخوا ابن هود فلحق بهم وجرت بينهما حروب حاف الناس وبال عاقبتها على ثغور مثنورة» (1).

هكذا يتبين أن الانقسامات الطائفية والحسابات السياسية والعسكرية الضيقة في الثغور من الجانب الأندلسي أدى إلى الريادة في إرادة وعزيمة المسيحيين الذين «استطاعت أيديهم في مدة ابن هود على بلاد المسلمين» (2). وبذلك ولى عهد "إذلال الترك" (3) وأسر العلوج الذي عُرف في أوج الخلافة السابق.

وأصبح المسيحيون «يشتون على المسلمين الغارات ويكتفون الحرمات، يقتلون الرجال ويسلبون النساء والأطفال.. إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدر حمر ورطل حوت.. ومن لم يقد نفسه قطع لسانه وفُقت أجفانه» (4).

ويبدو من خلال ما سبق أن المناطق الثغرية كانت خاضعة باستمرار لميزان القوى بين المسلمين والإفرنج أي للظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية سواء في قرطبة أو في الممالك المسيحية المجاورة خاصة في قشتالة وليون أو في قطلونيا. وبالنظر إلى الثغور أو الحدود كمجال جغرافي محدد له خصوصيات متعددة في الجانب الإسلامي كما في الجهة المسيحية، يمكن إبداء ملاحظات منها أن الحدود يسود فيها دائماً، نوع من الشعور بالخوف وانعدام الأمن نظراً للتناقضات ولو الظاهرية بين المسلمين والإفرنج (5). وتعتقد مجموعة من الأبحاث التي تهتم بالثغور من الجانب المسيحي أن طلب الأمن في الحدود معناه البحث عن الحماية والاحتماء، لأنه لا يجب تصور الثغور كحدود مرسومة على شكل خط للجمارك (6) أو خط مستقيم كما قد يتبادر إلى الأذهان. بل إنها نطاق

(1) - نفسه: ص. 163.

(2) - نفسه: ص. 229.

(3) - المقرئ: النسخ... ج 1، ص. 546.

(4) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس... ص. 103.

(5) - GLICK (Thomas F), Cristianos y musulmanes en la España medieval 711-1250 Madrid: Alianza Universidad, 1991, p. 80 et sv

(6) - GAUTIER-DALCHÉ (J), Islam et chrétienté: l'Espagne au XIIe siècle. Contribution à l'étude de la notion de Frontière, dans: Hesperis-Tamuda, T. XLVII, 1959, p. 183, 217.

جغرافي يفصل بين عالمين متناقضين بينهما حدود ذهنية⁽¹⁾ أو وهمية، وأكثر من ذلك كثيراً ما ينطبق على بعض أجزائه اللفظ المشهور "الأرض بلا مالك"⁽²⁾ "No man's Land". ولذلك فكل أنواع الملاجئ التي توفرها أقاليم الثغور كالكهوف والمغارات والحصون وغيرها كانت في الوقت ذاته مراكز أساسية أو محطات أولى حقيقية لظاهرة التعمير والاستقرار الدائم حسب منطوق الوثائق والنصوص المسيحية التي تعود إلى القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين⁽³⁾. (١٧هـ/٧هـ). وتعتبر تلك المراكز على بساطتها أدوات أو لبنات أولى لما عُرف بالاستقرار "الميكرواجتماعي" في الحدود⁽⁴⁾. إنه الاستقرار الذي أدى إلى ديمومة التوسع والتعمير من الجانب المسيحي، بأشره الرجال والفلاحون الذين استقروا في أقصى التخوم، وزكته "السلطات العمومية" بلا تردد وذلك تحت إشراف "الكونتات"، لأن الفلاحين في مواقع استقرارهم كانوا يدافعون، ولو بشكل غير مباشر عن المصالح الاقتصادية والسياسية لتلك السلطات⁽⁵⁾. وتجدر الإشارة في هذا الباب إلى أن الفلاحين في الثغور المسيحية يمارسون الحرب على غرار الفرسان في مناطق أخرى، فهم حسب الوثائق مرتبطون بالأوضاع الاقتصادية والعسكرية التي تعرفها الثغور⁽⁶⁾. فالإقتصاد في الثغور يُعبأ لصالح الحرب⁽⁷⁾، كما يشكل الحصن لبنة أو نواة أساسية في المجال العسكري والعمراني⁽⁸⁾ في الآن نفسه. وقد عبر الباحث SÉNAC⁽⁹⁾ بدقة عن هذا المنحى بقوله «إن الحصن في الحدود من الجانب الإسلامي يحد المجال، والحصن المسيحي يفتحه، فالأول حد والثاني مرحلة». أي خطوة في مجال الاستيطان والتوسع نحو الجنوب. يتبين إذن أن أشكال الاستقرار التي أرساها المسلمون في الحدود، كانت ظرفية ومؤقتة، عكس أشكال الاستقرار التي بأشرها المسيحيون. ولذلك، فيما نرى،

(1) - نفسه: ص. 188.

(2) - BONNASSIE (P); La Catalogne..., op. cit, T. 1, p. 126.

BOSCH VILA (J); Algunas consideraciones..., p.26.

(3) - فصل الباحث "بوناصي" في تحليل النصوص والوثائق المسيحية التي اهتمت بالحدود مع الأندلس من جهة قطلونيا في: La Catalogne..., op. cit, T. 1, p. 120 et sv.

(4) - نفسه: ج 1، ص. 126.

(5) - نفسه: ص. 126.

(6) - GAUTIER-DACLHÉ (J); Islam et chrétienté., op. cit, p. 201 et sv.

(7) - نفسه: ص. 201، 202.

(8) - نظر الحصون وعلاقتها بالمجال في الفصل الأول من الباب الثاني.

(9) - p.80,81.SÉNAC (Ph), Les Hùsùn du Tagr Al-AQSA..., op. cit, p. 80,81.

ارتباط مباشر بطبيعة العلاقة مع السلطة السياسية بقرطبة إضافة إلى أن عامل البعد من الحاضرة قرطبة كثيراً ما سهل الجنوح نحو الاستقلال ببعض أقاليم ونواحي الثغور. والدخول في صراعات إقليمية بين الأسر والزعامات بحثاً عن الجاه السياسي والعسكري وبعيداً عن الاهتمام بقضايا الحدود وصد الأطماع المسيحية المتربصة. لقد كانت الثغور تقف حاجزاً منيعاً ضد الإفرنج لما كانت خاضعة للرقابة المباشرة من قرطبة طيلة القرن الرابع الهجري. أما خلال القرن الخامس (الطوائف)، فضعفت تلك المراقبة نظراً لعبية التشرذم والتمزق الإقليمي. في حين اختلف الأمر كما بيّنا آنفاً من الجانب المسيحي. هذا عن أوضاع الثغور في المجال العسكري والسياسي. فماذا عن الأحوال الاقتصادية فيها خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة؟

من الصعوبة بمكان قياس درجة أو مستوى العلاقات الاقتصادية والمبادلات بين المسلمين والمسيحيين في الثغور خاصة في الفترة ما قبل القرن الرابع الهجري أي ما قبل عصر الخلافة أو ما يُعرف في التاريخ الأوربي بفترة العصر الوسيط الأعلى نظراً لندرة النصوص المصدرة في الموضوع⁽¹⁾. وقد دفع هذا الأمر بالعديد من الدارسين⁽²⁾ إلى القول بغياب علاقات اقتصادية بين أوربا والأندلس خلال تلك الفترة، بل ذهب أحدهم إلى حد القول بأن الإسلام الإيبيري والمسيحية القطلانية لا يلتقيان إلا في الحروب⁽³⁾. ودون الدخول في التفاصيل يمكن القول إن الصراعات العسكرية نفسها كثيراً ما ساهمت أو كانت سبباً لرواج حركة تجارية محددة كالرفيق والجلود⁽⁴⁾ وغيرها. وأكثر من ذلك كانت بعض الحملات العسكرية الأوربية نحو البحر المتوسطي خلال القرن الثالث الهجري (IX م) سبباً أساسياً للنمو الاقتصادي⁽⁵⁾.

(1) - انظر بعض التفاصيل في:

أرشيبالد (ل): القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط: 1100/500 م، الترجمة العربية، القاهرة، 1951
حنلوي (محمد): جوانب من العلاقات الاقتصادية...، مرجع سابق، ص. 152، 153.

(2) - أهم هؤلاء هـ. بيرين في كتابه:

PIRENNE (H); Mohamet et charlemagne, Paris, P.U.F, 1970

(3) - BONNASSIE (P); La Catalogne..., op. cit, T.1, p.340

(4) - NTAMINE (Ph) et autres: L'économie medievale, Paris, A. Colin, 1993, p.100 et sv

LOMBARD (M). Le bois dans la Méditerranée musulmane, VII-XIIe siècles, un problème de cartographie, dans: Espaces et réseaux du Haut Moyen Age Paris, La Haye-Mouton, 1972, p. 153, 176

(5) - DUBY (G); Guerriers et paysans..., op. cit, p. 160

LE GOFF (J); BIRABEN (J.N), « La peste dans le Haut Moyen Age », dans: Annales E.S.C., N° 6, 1969, p.1481, 1510.

وبصدد العلاقات الاقتصادية في الثغور خلال عصر الطوائف، قدّم الباحث بوناصي تصورا مخالفا لما راج في الموضوع حين أوضح أن سقوط الخلافة الأموية بقرطبة آخر القرن العاشر الميلادي قد كوّن انطبعا عاما بتدهور الأحوال الاقتصادية في الثغور. لكن الأمر عكس ذلك. لقد ضعفت بالفعل الوحدة السياسية في الأندلس بسقوط الخلافة وظهور الكيانات الإقليمية مع مطلع القرن الحادي عشر للميلاد. لكن بعض تلك الدويلات الجديدة لم تنقصها الدينامية الاقتصادية والثقافية كما هو الشأن في دويلات مالقة ودانية وسرقسطة. ولذلك كانت محط أنظار القطلانيين⁽¹⁾. تذكر المصادر المسيحية أن العلاقات ما بين برشلونة والحموديين في مالقة وسبّنة كانت ضعيفة للغاية سياسيا، لكنها كانت قوية اقتصاديا وماليا كما تدل على ذلك النقود المضروبة بسبّنة والمسمّاة "بالمنفوش السبّتي" (Mancusos Ceptimos) (mancusos de auro Septi) والتي تمّ تداولها بوفرة في قطلونيا خلال القرن الخامس الهجري⁽²⁾. وأكثر من هذا كانت قطع العملة المضروبة ببرشلونة أيام حكم الزعيم (Raimond Beranger) الأول، مطابقة تماما للنموذج الأصلي الذي يعود إلى عهد يحيى المعتلي⁽³⁾. مما يدل أن القطلانيين حافظوا وراهنوا على نوع من العلاقات السياسية والاقتصادية امتدت حتى تخوم المغرب خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري⁽⁴⁾. لكن متى وكيف ظهر المنفوش المشار إليه في قطلونيا؟ يجيب الباحث بوناصي عن هذا السؤال اعتمادا على الوثائق المسيحية مؤكدا أن الإشارة الأولى للنقد الأندلسي في قطلونيا ترجع إلى عام 970 م. لكن يصعب التمييز هل الأمر يتعلق بالذهب أم الفضة. أما الإشارات اللاحقة فتعود إلى سنوات 972، 976، 980، 981 وتحمل علامة (Mancusos) أو (Pesas d'or)⁽⁵⁾. هذه الإشارة دفعت الباحث إلى الاعتقاد أنها قطع ذهبية⁽⁶⁾، تحمل المجموعة الأولى منها اسم "المنفوش الجعفري" (Mancusos Iafaris)

(1) - BONNASSIE..., op. cit, T. I, p. 351.

(2) - BONNASSIE..., op. cit, T. I, p. 351.

(3) - نفسه: ج 1، ص. 351. تطابقت القطع النقدية المذكورة حتى في الكتابة إذ احتفظت القطع القطلونية بما هو مضاد للمسيحيين لأنها تحمل إشارة «واحد لا شريك له» (Seul et sans compagnon).

(4) - نفسه: ص. 251 وما بعدها.

(5) - نفسه: ص. 372.

(6) - نفسه: ص. 372.

المنسوب إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر⁽¹⁾. انطلاقاً مما سبق يمكن التساؤل لماذا انتظر القرن الخامس الهجري (XI م)، ليحصل "تدفق" العملة أو النقد الذي ساد في عصر سابق إلى اقتصاد قطلونيا ليساهم في انتعاشه؟

نتفق مع الباحث كيشار⁽²⁾ حين لاحظ صعوبة تبين أسباب "تدفق" النقد الإسلامي إلى قطلونيا خلال القرن الخامس الهجري (XI م)، لأن الأمر ليس مرتبطاً بتطور أنشطة تجارية منتظمة. فهل يتعلق الأمر بالدنانير التي كانت تشكل أرباح المرتزقة القطلانيين الذين اشتغلوا لحساب السلطة في الأندلس؟ تبدو هذه الفرضية مغرية لكن لا تملك سنداً يعززها في النصوص المصدريّة⁽³⁾. لذلك كانت قطلونيا بالتأكيد نموذجاً استثنائياً سلكت نهجاً أو سياسة مخالفة لما ساد في العلاقات العامة السياسية والاقتصادية مع دويلات الطوائف. لقد اتبعت سياسة ودية بطبعها السلم والمصالح مع الدويلات التي أصبحت ضعيفة في المجال العسكري، أي غير قادرة على الهجوم كما كان الأمر سابقاً خلال الخلافة. في حين كان الاتجاه العام السائد لدى المسيحيين خاصة في قشتالة وليون يسير نحو التوسع العسكري والإقتصادي والبشري اتجاه الجنوب.

يتبين مما سبق أن ثغور الأندلس كانت مراقبة وخاضعة سياسياً وعسكرياً لقرطبة خلال الخلافة أي طيلة القرن الرابع الهجري، نظراً لنفوذ سلطة الخلافة التي امتدت إلى الثغور والأطراف الإفريقية. أما خلال القرن الخامس الهجري فاختلّت الأوضاع وانعكست الإنقسامات الطائفية وتعدّد الكيانات الإقليمية على الثغور. وزادت الأمور تعقيداً لأن كل دويلة أصبحت منشغلة بحدودها إن لم نقل بثغورها تحاول الدفاع عنها أو على الأقل الحفاظ عليها ضد جارتها أو ضد المسيحيين. وبذلك تعدد الارتزاق والارتقاء في أحضان المسيحيين الذين تحدوا الثغور وأصبحوا يتدخلون مباشرة في الشؤون الداخلية لجل الدويلات الطائفية. ولا تعوز القرائن والأدلة للكشف عن أطماعهم الاقتصادية في مجال

(1) - نفسه: ص. 377، 378.

(2) - GUICHARD (P). L'Europe et le Monde Musulman au Moyen Age dans *Hesperis Lamuda* Vol. XXXV, Fasc. 2, 1997, p. 67, 102.

(3) - لم نعرّ على إشارة مصدريّة واحدة تشير إلى مال أرزاق المرتزقة المسيحيين في الأندلس. لاحظ Guichard النموذج القطلاني يمكن مقارنته بإيطاليا الجنوبية التي راح فيها الذهب الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري (X م)، والجمع في الذهب البريطي. لكن رغم التطور الإيجابي في العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية والعالم الإسلامي لم تعرف أسباب وجود الذهب الإسلامي في إيطاليا.

GUICHARD: op.cit, p. 81 et sv.

الجزية مثلاً أو البحث عن امتيازات متعددة⁽¹⁾. ونشير في هذا الباب إلى أن القرن الخامس الهجري (XI م) قد شهد نوعاً من اليقظة والإقلاع الإقتصادي والعسكري في أوروبا الفيودالية⁽²⁾ التي أصبحت تتوفر فيها عناصر القوة والتوسع في الحروب الصليبية شرقاً وغرباً كذلك، لأن "حركة الاسترداد" المعروفة سبقتها أو مهدت لها تلك الأنشطة الإقتصادية والبشرية (التعميرية) التي سبقت الإشارة إليها في الحدود المسيحية منذ سقوط الخلافة. وحتى في المجال السياسي تقطن المسيحيون وانتبهوا إلى ضرورة خلق نوع من الوحدة. وهنا نتفق مع العروي⁽³⁾ حين يقول «فبينما كانت الإمارات المسلمة تتحارب فيما بينها وتهدر قدراتها كانت الممالك النصرانية في تآلق مستمر». لقد كان الجزء المسيحي يميل نحو الاتفاق والقوة والتكتل في الوقت الذي تميز «الجزء الإسلامي بالتشتت...»⁽⁴⁾. وفي هذا السياق نفهم مختلف محاولات ثم حملات الملك القشتالي ألفونسو السادس، وبالأخص تلك التي استهدفت العاصمة القوطية القديمة طليطلة، وانتهت باستسلامها عام 478 هـ / 1085 م. وتلك كانت بداية لمرحلة أخرى اتسمت بغلبة المسيحيين. فرغم التدخل المرابطي الذي لم يكن بدوره إلا مرحلة أخرى من تاريخ الأندلس، فإنهم - أي المرابطون - «تركوا الثغور المواجهة للعدو في حكم الأندلسيين»⁽⁵⁾.

- رباط العلماء والفقهاء والقضاة في الثغور -

إن الثغور البعيدة عن قرطبة والتي فشلت السلطة في الدفاع عنها خاصة في أوقات الأزمات السياسية والعسكرية، عادة ما يتطوع للربط فيها رجال لا يمثلون السلطة السياسية

(1) - أحسن مصدر عاين واختبر مختلف الأطماع المسيحية في الأندلس خلال الطوائف هو عبد الله بن بلقين في "كتاب التنبؤ".

(2) - كل الأبحاث والدراسات الأوروبية المعاصرة والمنجزة حول الفيودالية تؤكد في نتائجها ذلك الإقلاع الذي شهدته أوروبا في مجالات متعددة خاصة الإقتصادي والعسكري. انظر مثلاً :

DUBY (G); *Geurries et paysans*., op. cit.

Les Trois Ordres ou l'Imaginaire du féodalisme..., op. cit.

Hommes et structures du Moyen Age Recueil d'articles, Paris, La Haye-Mouton, 1973

L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval, Essai de synthèse et perspectives de recherche, Paris, Aubier, 1962, 2 vol.

POLY (J E), BOURNAZEL (E), *La mutation féodale*, X-XIIe siècles, Paris, P U F, 1980

FLORI (J), *L'idéologie du Glaive*, préhistoire de la chevalerie Genève, Librairie DROZ, 1983

BONNASSIE (P); *La catalogne...*, op. cit, 2 vol.

(3) - العروي (عبد الله): *مجلد تاريخ المغرب*، لدار البيضاء، بيروت، 1994، ج 2، ص. 122.

(4) - نفسه: ص. 122.

(5) - مجهول: *الحلل الموسوية*، ص. 82.

يمكن رصد نماذج من العلماء والفقهاء والقضاة الذين اشتهروا في الأعمال الجهادية خاصة خلال عهدي الخلافة والطوائف⁽³⁾. من أمثال هؤلاء: القاضي محمد بن عبد الله بن

(2) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط، 23.
(3) - من التسعونه يمكن اعداد او رصد كل العلماء والفهاء والعلماء الذين انقطعوا للثغور الأندلسية قصد الرباط والجهاد بها مدافع الإسلامي، بصرا الكثر بهم واحتمال الفترات الشارحية التي استغلوا خلالها من مناطق جغرافية متباينة من الأندلس وحارحها إلى الثغور وبحر قصد بحث مسائل في الموضوع يهتم بقصصين أساسيين هما: أولاً العلماء الذين هاجروا إلى الأندلس من المشرق أو من شمال غرب، أو اندلسيون دخلوا إلى المشرق أو إلى شمال أفريقيا وعادوا إلى الأندلس، في مراحل معينة من حياتهم، قصد الرباط في الثغور. ثانياً: سحوله بحسب هؤلاء العلماء إلى فضاء أو أمة محدثين وفهاء أو حاة ولعويين أو تحار وطبيعة الأعمال التي راولوها في الثغور

أبي عيسى الذي كلفه الحكم بن هشام بتصريف «(...) الأمانات إلى الثغور والأطراف والإشراف عليها والبنيان لحصونها وترتيب مغازيها، وإدخال جيوشها إلى الحرب...»⁽¹⁾. والقاضي الفرج بن كنانة (قاضي الجماعة بقرطبة) الذي اشتهر بالشجاعة والفروسية والعلم والعبادة. لما استعفى من مهمة القضاء «أخرجه الأمير (الحكم بن هشام) إلى الثغر الأقصى، فقام مقام صدور الغزاة...»⁽²⁾. والقاضي عبد الله بن حسين المعروف بابن السندي من أهل وشقة (ت 335 هـ)، اتصف بالعلم والوجاهة وكثيراً ما شاوره الخليفة عبد الرحمن الناصر في شؤون الثغر «لما ولي قضاء نواحي وشقة ولادة وبربشتر»⁽³⁾. والعالم الفقيه أبو محمد عبد الله بن القاسم بن حزم بن خلف من قلعة أيوب (ت. 383). تعبد وغزا وولاه الحكم المستنصر القضاء واستعفى⁽⁴⁾. والفقيه سعيد بن موسى بن يونس بن مهص الغساني العالم الزاهد الذي لزم طليطلة مرابطاً بها وبالثغر إلى أن قُتِل عام 393 هـ⁽⁵⁾. وأبو العباس الشاعر والأديب والمحقق الذي قرّر الانقطاع إلى الثغور و«باع كتبه عازماً على الجهاد راغباً في الشهادة»⁽⁶⁾.

أما العالم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخُشني فقد تميز بنسب العلم، والجهاد بطريقته إذ عرف عنه أنه «اشترى ذات يوم فرساً في السبيل لبعض المجاهدين بثمن كثير»⁽⁷⁾. وافتك بعض الأسرى⁽⁸⁾.

وفي الاتجاه نفسه اشتهر العالم والفقيه أحمد بن يوسف بن مؤذن في جهة وشقة، إذ فك من أرض العدو من أسرى المسلمين مائة وخمسين سيّئة⁽⁹⁾. أما الفقيه أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن حامد البلنسي فقد جمع ما بين العلم والقراءة

-
- (1) - النباهي: تاريخ قضاة الأندلس...، ص. 60.
(2) - النباهي: المصدر السابق، ص. 153؛ عياض (ابن موسى بن عياض السنّي المعروف بالقاضي عياض): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1972، ج 4، ص. 144.
(3) - نفسه: ج 6، ص. 166.
(4) - الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي): كتاب المشترك وضعاً والمفروق صنعاً، د ت، ص. 88.
(5) - عياض: نفسه، ج 7، ص. 208.
(6) - السلفي: معجم السلف...، مصدر سابق، ص. 18.
(7) - الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة): بعية الملتزم في تاريخ رجال أهل الأندلس، مجريط، 1882، ص. 324.
(8) - نفسه: ص. 324.
(9) - ابن الفرسي (ابن الوليد عبد الله محمد بن يوسف الأزدي): تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: الأبياري (1)، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ج 1، ص. 68.

وفداء الأسرى والتجارة⁽¹⁾. وعلى عكس ذلك أسر الفقيه والقاضي بتطيلة عمر بن يوسف بن موسى بن فهد بن خصيب المعروف بأبي حفص، وابنه من قبل المسيحيين، وافتدى بخمسة عشر ألف دينار⁽²⁾. وفي مجال الأسر أيضا اشتهر الفقيه عقبة بن الحجاج السلوني الذي كان يربط ويُجاهد، و«إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه، فيذكر أنه أسلم على يديه ألفاً رجل»⁽³⁾.

لم يكتف بعض الفقهاء بافتكاك الأسرى أو إعانة المجاهدين في الثغور، بل تعدوا ذلك إلى بناء مؤسسات دينية أو عسكرية من أموالهم في الثغور كما هو الحال مع الفقيه العالم فتح ابن إبراهيم الأموي المكنى أبا نصر من أهل طليطلة، الذي التزم الرباط والجهاد وانفرد ببناء مسجدين بطليطلة، وكذا حصن وقش ومكادة أيام المنصور محمد بن أبي عامر⁽⁴⁾. أما الفقهاء الذين لا يملكون أموالاً فيلتجئون إلى الزهد والمثابرة على الرباط على غرار العالم أبي عبد الله محمد بن طاهر القيسي التدميري الذي اكتفى بسكنى ببيت «سقفه من حطب السدر يأوي إليه واعتمد جنيته بيده يقات منها، وصار يغزو مع المنصور ابن أبي عامر، ثم تحول إلى الثغر... يدخل في السرايا من مدينة طليطلة واستشهد سنة 379 هـ»⁽⁵⁾. أو الفقيهين الزاهدين موسى بن عبد الرحمن المكنى أبا عمران الذي انتمى إلى ثغر طليطلة مجاهداً⁽⁶⁾، وأحمد بن عمر الصّدفي المعروف بابن أبي جنادة الذي لازم الثغور⁽⁷⁾. أو العلماء الذين تخلوا عن أموالهم لينقطعوا إلى الثغور كالفقيه العالم سليمان بن إبراهيم بن هلال القيسي المكنى أبا الربيع من أهل طليطلة، الذي «فرق جميع أمواله ولزم الثغور، إلى أن توفي بحصن غرماج...»⁽⁸⁾. وتكشف المصادر عن عينة أخرى من الفقهاء الذين جمعوا ما بين الرباط والجهاد والتعليم والتأديب والاستشارة في الفقه المالكي مثلاً،

(1) - المقرئ: النفح...، ج 2، ص. 240.

(2) - ابن الفرّضي: نفسه، ج 2، ص. 546.

(3) - الخشني: قضاة قرطبة...، المصدر السابق، ص. 21.

(4) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، المصدر السابق، ج 2، ص. 435.

(5) - المقرئ: نفسه، ج 2، ص. 234، 235.

(6) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 2، ص. 574.

(7) - نفسه: ج 1، ص. 62.

(8) - الداودي (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد) طبقات المفسرين، تحقيق عمر (علي محمد)، القاهرة، 1972، ج 1، ص. 198.

أمثال الفقيه المالكي العالم بالمسائل أحمد بن خلوف المسيلي⁽¹⁾ (ت 393 هـ). وسعيد بن محسن المكنى أبا عثمان من قرطبة⁽²⁾ (ت 401 هـ). والعالم أحمد بن هشام بن أمية بن بكير الأموي من قرطبة⁽³⁾ أيضاً (ت 398 هـ).

ومن العلماء والفقهاء الذين تردّدوا على الثغور الأندلسية قصد الجهاد، من خارج الأندلس، نذكر حباشة بن حسن اليحصبي من القيروان (ت 474 هـ) والذي «لزم العبادة والعلم والجهاد»⁽⁴⁾. وأحمد بن علي بن هشام المقرئ من المشرق «دخل سرقطة مجاهداً سنة 420 هـ»⁽⁵⁾. أما الذين رحلوا إلى المشرق قصد التعمق في الفقه، وعادوا إلى الثغور الأندلسية نذكر العالم والفقيه محمد بن الحُصام طاهر بن محمد بن طاهر (ت 378 هـ)، الذي عاد من المشرق «ولزم الثغر فكان يغزو العدو ويدخل في السرايا حتى استشهد»⁽⁶⁾. والعالم فتح ابن إبراهيم الأموي المكنى أبا نصر⁽⁷⁾، وغيرهما.

وتجدر الإشارة إلى أن مجموعة من الفقهاء والعلماء والقضاة كانوا يستدعون للمشاركة في الغزوات والمعارك الرسمية التي تقودها السلطة والجند في قرطبة، وذلك لإشهادهم في تلك الغزوات أو كتابة كتب الانتصار أو عكس ذلك، الاستشهاد في حالة الهزيمة والاندحار. وذلك ما حدث بالفعل في الموقعة الشهيرة المعروفة بالخنْدَق التي انهزم فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر عام 327 هـ. واستشهدت فيها مجموعة من العلماء والفقهاء والقضاة أمثال: جحّاف بن يُمْن القاضي المحدث ببلنسية⁽⁸⁾. والفقيه

(1) - ابن الغرضي: تاريخ علماء الأندلس...، ج 1، ص. 129.

(2) - ابن بشكوال: نفسه، ج 1، ص. 208.

(3) - نفسه: ج 1، ص. 19.

(4) - ابن الغرضي: نفسه، ج 1، ص. 236.

(5) - ابن بشكوال: نفسه، ج 1، ص. 188 الباجي (أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي): فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق: الساتول (بن علي)، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1990، ص. 61.

(6) - ابن الغرضي: نفسه، ج 1، ص. 766.

(7) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 2، ص. 435.

(8) - الحميدي: حنوة المقتبس...، مصدر سابق، ص. 190.

الرشاطي (أبو محمد) وابن الخراط (الإشبيلي): الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق: مولينا (ل)، بوش بيل (ح)، مدريد، المعهد الأعلى للأبحاث العلمية، 1990، ص. 115.

المحدث إبراهيم بن داوود⁽¹⁾. ومجموعة من فقهاء قرطبة كالعالم معدا بن معاوية.
ومحمد بن فيصل بن هذيل⁽²⁾.

ولعقد مقارنة ربما مفيدة في هذا الصدد نشير إلى الفقهاء ورجال الدين والأدباء
يشاركون بدورهم في المعارك والحملات العسكرية التي كانت تنظم من قبل الأنظمة
السياسية والعسكرية الفيو دالية، ويكفي القول بأن الحملات العسكرية التي كان يقودها
المنصور بن أبي عامر في آخر القرن الرابع للهجرة (X م)، كانت تفرض على قساوسة
دير كلوني أن يتدربوا على السلاح تحسباً ودرءاً للأخطار التي قد تصلهم من
الأندلس⁽³⁾. وأكثر من ذلك كان رجال الدين خاصة الصغار منهم يشاركون في مختلف
الثورات أو الانتفاضات ذات الطابع العسكري⁽⁴⁾.

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 444.

(2) - نفسه: ص. 444.

(3) - CONTAMINE (Ph), « Le combattant dans l'occident medieval » dans Le combattant au Moyen Age Paris
Sorbonne, 1995, p.15, 23.

(4) - انظر مثلاً:

Heresies et sociétés dans L'Europe pré-industrielle XI-XVIIe siècles colloque de Royaumont, Mai 1967 Paris
La Haye-Mouton, 1968.

COWDREY (J. E) « The peace and the truce of god in the eleven century » dans Past and present N° 46
1970, p.42, 67

CAZELLES(R), « La Jacquerie fut-elle un mouvement paysan? » dans comptes rendus de l'Ac des inscriptions
et Belles Lettres, 1979.

FOURQUIN (G): Les soulèvements populaires au Moyen Age. Paris, P.U.F, 1972

DOMMANGET (M): La Jacquerie, Paris, Maspero, 1971.

خلاصة

يتبين مما سبق المكانة التي حظيت بها الثغور في جزيرة الأندلس منذ الفتوحات الإسلامية. لقد تم الوقوف عند محاولات الخلافة الأموية بقرطبة خلال القرن الرابع الهجري للدفاع عنها بطرق وأساليب متعددة. يتجلى ذلك في تعيين قواد عسكريين يمثلونها في الثغور باعتبارها "مناطق حربية"، عكس الأقاليم والكور الداخلية. أو تقديم امتيازات مختلفة لعائلات مشهورة كي تنوب عنها في عين المكان كما حدث مع التجيبيين وبني رزين وبني ذي النون وغيرهم. كما سحبت في أول الأمر السكان والجند كي يستقروا في مدن وقرى الثغور مقابل بعض الإعفاءات كالإعفاء من الضرائب لمُدبر محددة أو توفير السكن للجند كي تضمن له الاستقرار.

لكن اتضح من المعلومات التي تقدمها المصادر أن الامتيازات الأكثر أهمية انصرفت للعائلات والأسر الكبرى التي استقرت في الثغور، وأهمها على الإطلاق ما كانت تستفيد منه من "الإقطاعات العقارية الكبرى"، إذ غدا التملك العسكري ظاهرة متفشية، بل أصبحت الأرض تورث في الأعقاب. ولعل أهم مظهر لذلك ما أقدمت عليه الخلافة من التسجيل على المدن والقرى والحصون والأراضي لفائدة الزعامات المختلفة المستقرة في نواحي الثغور.

لكن رغم ذلك تبين أن الخلافة تمكنت طيلة القرن الرابع من مراقبة الثغور بشكل مباشر وردع مختلف الأطماع والقوى المسيحية فيها. انقلبت الوضعية لفائدة المسيحيين بعد سقوط الخلافة مباشرة أي مع مطلع القرن الخامس الهجري لما عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه قبيل الخلافة من تمزق وصراعات طائفية متباعدة. استغل المسيحيون ذلك ونسبوا أن نظرتهم إلى الثغور اختلفت عن نظرة المسلمين إليها. لقد اتخذوا من "التعمير" أو "إعمار" مناطق الحدود والثغور والاستقرار بها، والاستيلاء على الحصون الأكثر استراتيجية، أساليب سهلت توغلهم في الأندلس.

وقد سبق القول إن وجودهم في الثغور وطرق "تعميرهم" لها لم يكن إلا محطة أو مرحلة أولى في تاريخ عودتهم إلى عمق الأندلس. في حين كان الوجود الأندلسي في تخوم الثغور يشكل الحدود القصوى والمؤقتة للدولة الإسلامية. لم يكتف المسيحيون بتعمير

مناطق النغور، بل تجاوزوا إطار التناقض والعداء الظاهري الذي طبع العلاقات مع الخلافة والطوائف إلى "تصيد" فرص إقتصادية ومالية استفادوا منها كما اتضح من النموذج القطلاني وبعض الدويلات الطائفية في الأندلس خلال القرن الخامس للهجرة. لاحظنا كذلك أن أقاليم النغور كانت تتأثر بطبيعة العلاقات التي كانت تربط المسيحيين بالمسلمين، كما كانت تخضع في الوقت نفسه لطبيعة السلطة السياسية والعسكرية بقرطبة أو في الدويلات الطائفية الأخرى. لكن تبين أن النغور الأندلسية باعتبارها مناطق احتكاك مباشر مع المسيحيين تميزت بل انفردت بميزة أساسية تكمن في وفود أو قدوم شريحة اجتماعية منقفة إليها من كل مناطق العالم الإسلامي، قصد الرباط والجهاد بها. إنها ثلّة من الفقهاء والعلماء والقضاة الذين كانوا يتوجهون في مراحل وأوقات معينة إلى النغور ليقوموا بالجهاد وما يرتبط به كافتكاك الأسرى أو بناء مؤسسات دينية أو قتالية كالحصون وغيرها.



الفصل الثالث

أعطيات وأرزاق الجند

أعطيات وأرزاق الجند

سبق الحديث عن الكور المجندة والأجناد خاصة الشاميين الذين استقروا بالأندلس منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، والذين شكلوا الجند الذي اعتمدت عليه الخلافة الأموية. كما تم تحليل مكونات جند الحضرة والمنطوعة الذين كانوا بدورهم أداة أساسية في يد سلطة قرطبة طيلة عصر الخلافة. دون إغفال خصوصيات جند الثغور الذي واجه المسيحيين. وإذا أسعفت المعطيات المصدرية المتوفرة في تحليل طبيعة هذا الجند ودوره في المجالين السياسي والعسكري، فإن الصورة تظل ناقصة ما لم يتم تحليل علاقته بالميدان الاقتصادي. نقصد بذلك كيف كانت قرطبة تنظم الأنشطة الاقتصادية وتشرف عليها، وما هو نصيب الجند منها على شكل الأرزاق والأعطيات؟ وما هي أنواع وأشكال تلك الأعطيات وأوقات توزيعها وصرفها. وكيف كان يتم التعامل مع الغنائم في حالات الانتصار على المسيحيين وهي كثيرة. إن هذه الملاحظات تقودنا إلى إثارة أسئلة هامة مرتبطة بأنظمة الإنتاج أو بطبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في الأندلس منذ ما قبل الخلافة؟

1. وضعية الأرض ونصيب الجند منها

لعل مختلف التساؤلات السالفة الذكر تفيد في إثارة موضوع طبيعة الأرض الأندلسية منذ الفتح الإسلامي لها. إذا كانت الخلافة الإسلامية تعتبر الأندلس ثغراً من ثغور الإسلام، فربما طبق فيها ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب لما أمر الجند باستغلال ثغور الهند والآنترام بالدفاع عن الإسلام فيها⁽¹⁾. ولذلك اعتبرت أرض الأندلس في أول الأمر مقطعة للجند ولرؤساء القبائل الذين "يتولون توزيع الحصص على أفرادها"⁽²⁾. أما الجند فقد سجلوا "ما وضعوا أيديهم عليه من أرض على أنها إقطاعات"⁽³⁾. مع ذلك اختلفت الروايات باختلاف الفقهاء حول وضعية

(1) - الغساني (محمد بن عبد الوهاب) "رحلة الوهاب في انكسار الأسرى"، طبعه، 1910، ص 10.

بوتشيش (القادري): تطور ملكية أراضي الجيش...، مرجع سابق، ص. 145.

(2) - مؤنس (حسين): فجر الإسلام، مرجع سابق، ص. 635.

(3) - نفسه: ص. 623.

الأرض بالأندلس إبان فتحها. فهل طَبَّقَ فيها ما جاء في الآية الكريمة المشهورة: {واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإنَّ لله خُمُسُه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. إن كنتم آمنتم بالله، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان..} (١).

بداية يمكن القول إن الأحكام الفقهية والمذاهب النظرية التي وُضعت في مراحل تاريخية محددة لم تتمكن من مواكبة كل التطورات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي عاشتها المجتمعات والحضارات المختلفة التي خضعت للإسلام عبر مناطق متباينة. ولذلك كثيراً ما يتناقض الواقع التاريخي العياني ومضمون الأحكام الفقهية الواردة في مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والعسكرية. وبمعنى آخر عادة ما يتجاوز الواقع الاقتصادي والسياسي والعسكري منطوق الأحكام والنظريات الفقهية لأسباب متعددة الشيء الذي يؤدي إلى تاويلات بل إلى تطبيقات مختلفة لتلك الأحكام. انطلاقاً من ذلك تتأكد صعوبة الخوض في تحليل وضعية الأرض الأندلسية وبناء فرضيات محددة بصدد نظراً لقلّة أو غياب نصوص مصدرية كافية للقيام بذلك. تحدثت مجموعة من الفقهاء عن ظروف إخضاع الأرض بالأندلس منذ فترة الولاة، واختلفت آراؤهم باختلاف المراحل التاريخية والظروف التي عاشوها. وفي الوقت نفسه أوردت مصادر أخرى، كالمصنفات التاريخية والجغرافية، وكتب الأنساب والطبقات والحسبة والنوازل وغيرها، معلومات مفيدة للغاية عن الظروف التي صاحبت عمليات إخضاع الأرض بجزيرة الأندلس منذ الفتوحات وخلال الفترات التاريخية اللاحقة. فلم تتوان في إيراد تفاصيل تكشف عمّا لحق الأرض من السطو والسيطرة والمصادرة. فهذا الفقيه ابن نصر الداودي (٢) (ت 402 هـ) يُصرِّح أن أرض الأندلس طعن فيها البعض على أنها "أو أكثرها فتحت عنوة وأنها لا تُخَمَّس ولم تقسم، غير أن كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع من الإمام، ولم تترك لمن يأتي من المسلمين..". وعلى هذا المنوال سار ابن حزم (٣) الذي لم يتردد في القول إن: "الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله ﷺ، فيما فتح.."، وهكذا كان "لكل يد ما أخذت" (٤). وعكس ما سبق تحدث ابن مزين عن تطبيق الأحكام الشرعية في

(١) - سورة الأنفال، الآية 41، مصحف المدينة، قراءة ورش عن نافع 1409 هـ.

(٢) - الداودي (ابو جعفر أحمد بن نصر): كتاب الأموال، تحقيق تحادة (رضا محمد سالم)، الرباط، 1988، ص 70.

(٣) - ابن حزم: الرسائل...، ج 3، ص 174، 175.

(٤) - مؤنس (ج): فجر الأندلس...، ص 621.

أرض الأندلس التي وزعت بين أفراد الجند الفاتح سوى بعض المناطق أو المراكز الرئيسية التي عوملت بمبدأ الصلح وترك لأصحابها يدفعون عنها الخراج لبيت المال⁽¹⁾. وذكر ابن الحاج⁽²⁾ أن "ما كان من عنوة قد واقعته الخمس"، أما ابن القوطية⁽³⁾ فأكد أن "أهل ماردة صالحوه (طارق بن زياد)، ولم يأخذه عنوة". ويستفاد من كلامه أيضا أن أرض الأندلس لم تخمس بدليل أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أوفد "جائراً مولاه يخمس الأندلس فنزل قرطبة.. ثم أتته وفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فرفع يده من التخميس.."⁽⁴⁾. وأشار الرازي⁽⁵⁾، حين وصف إقليم لاردة وحصونه، إلى أن المسلمين لما دخلوا شبه جزيرة الأندلس اتفقوا مع سكان هذا الإقليم على أن يبقوا على حصونهم بجوار المسلمين دون نزاعات. ونعلم كذلك أن السمع بن مالك الخولاني لما قدم الأندلس سنة 100هـ "وضع يده في السؤال عن العنوة ليميزه عن الصلح"⁽⁶⁾ مكرر. وحاول تخميس الأرض العنوية بإقرار "القرى في أيدي غنامها بعد أن يأخذ الخمس"⁽⁷⁾. يبدو إذن من خلال ما سبق أن أرض الأندلس لم تخضع لنظام

(1) - نفسه، ص. 615.

بوتشيش القاري: أثر الإقطاع...، ص. 37، 74.

نفسه: "المشكل القانوني للملكية العقارية في الأندلس من الفتح حتى مطلع القرن الرابع الهجري"، مجلة البعث العلمي، عدد 36، الرباط، 1986، ص. 242.

ذهب الباحث بعيداً في تفسيره لاختلاف الفقهاء حول طبيعة الأرض الأندلسية حين أشار إلى أن الفقيهين ابن حرم والداودي كانا واقعيين لما أكدا خصوع الأرض بالأندلس لمبدأ الغلبة. أما ابن مزين فيعتبر من أبناء الأمراء الذين استقادوا من الملكيات العقارية الكبرى (الاقطاعات)، ولا غرابة أن يدافع عن مبدأ تطبيق الأحكام الشرعية في أرض الأندلس نفسه: ص. 243، 244.

(2) - ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن الحاج). النوازل، مخطوط، الخزنة العامة، الرباط، رقم ج 55، ص. 150، 151.

(3) - ابن القوطية: تاريخ الفتح الأندلس...، ص. 35.

(4) - نفسه: ص. 38.

(5) - الرزقي: وصف الأندلس، تحقيق ل. بروفسال، مجلة الأندلس، المجلد XVIII، 1953، (51 108)، ص. 74.

(6) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 31.

(6) مكرر - تفصل المصادر خاصة كتب الفقه والأموال في الأراضي الصلحية والعنوية وما يطبق فيها سواء في لأندلس أو في المغرب أو في إفريقية مثلاً. من أمثلة ذلك أن أرض المغرب لم يُعرف وضعها القانوني إلى حدود عصر الخلافة في الأندلس كما يستشف من خلال كلام أحد عُلم المنصور بن أبي عامر على مدينة فاس إذ قال "أخبروني عن أرضكم لصلح هي أم عنوة؟ فقالوا لا جواب لنا حتى يأتي النقيض.. ف جاء الشيخ المذكور فضالاه العامل، فقال ليست بصلح ولا عنوة إما أسلم عليها أهلها..". عباس بن إبراهيم: الإمتاع بأحكام الإقطاع..، مخطوط، الخزنة العامة، رقم د 13، 4 ب.

فونشريشي: المعيار...، ج 6، ص. 133، 134.

وقيل في أرض إفريقية عن ابن أبي زيد عن سحنون في النوازل أنه قل "لم تقف منها على حقيقة من عنوة أو صلح" نفسه: ج 6، ص. 134 وفي حراج أرضها قيل إن "ما فضل بعد أعطيات الجند وفرائض الناس ينتقل إلى الخلافة": مجهول: أخبار مجموعة، ص. 30.

للمزيد من التفاصيل بالنسبة للأندلس والمغرب:

الجزيري: المقصد المحمود، مخطوط، الخزنة العامة، الرباط، ق 592، 92 ب.

أبو الوليد (هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي): المفيد للحكم فيما يُعرض لهم من نوازل الأحكام، مخطوط، الخزنة العامة، ق 805، ص. 236 وما بعدها يضم إشارات مفيدة كالقول "إن أهل الأندلس حافوا مذهب مالك لأنهم أجازوا كراء الأرض بما يجر ج منها وهو مذهب الليث بن سعيد". ص. 236، الداودي: كتاب الأموال...، ص. 68، 69، 70؛ ابن المناصف: الإنجاد في أحكام الجهاد، مخطوط (ميكرو فيلم)، الخزنة العامة، 748، ص. 317 وما بعدها.

(7) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 30، 31.

واحد، إذ تمّ التعامل معها حسب المناطق وحسب القبائل التي استقرت بها. لقد سلف القول في "الكور المجنّدة"⁽¹⁾ إن النزاعات حول الأرض بدأت مع استقرار الأجناد الشامية في مطلع عصر الإمارة. أفادت الإشارات المصدرية المتعددة أن عرب الأندلس وبربرها كانوا لا يخفون كراهيتهم للشاميين، ولذلك تعصبوا لعبد الملك بن قطن الفهري الذي كان يُركّذ لأهل الشام: "بلدنا يضيق فاخرجوا عنا، فكانت الحرب تدور بينهم"⁽²⁾. وتفادياً لتلك النزاعات، ومن أجل إيجاد نوع التوازن الإقتصادي والبشري، أمرت الإمارة الأموية بإعادة توزيع القبائل أو الأجناد الشامية عبر الأقاليم الأندلسية. وفي هذا الإطار تحدثت المصادر عن "الإنزال" و"الإقطاع" عبر مختلف الأنحاء في الأندلس، بحيث أن إنزال العرب الشاميين كان، "على أموال أهل الذمة من العجم، وبقي البلديون على غنائهم لم يتنقصهم شيئاً"⁽³⁾. وكان لهم أيضاً "أموال أهل الذمة من العجم طعمة. وبقي البلديون العرب من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يُعرض لهم..."⁽⁴⁾. واستقروا "على أموال العجم من أرض ونعم"⁽⁵⁾. فصل ابن الخطيب⁽⁶⁾ أكثر في الموضوع حين بيّن أن إبعاد القبائل الشامية عن قرطبة لتجلبب الفتنة كان مقابل إقطاع يشمل "ثلث أهل الذمة الباقيين من الروم..."⁽⁷⁾.

وأضاف في المعنى ذاته أن للشاميين "ثلث أهل الذمة من العجم طعمة، وبقي العرب والبلديون والبرابر شركاؤهم... نزلوا وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتموّلوا إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على غنائهم موضعاً رضيعاً، فإنه لم يرتحل عنه، وسكن به مع البلديين، فإذا كان العطاء أو حضر الغزو ولحق بجنده، فهم الذين كانوا سُمّوا الشاذة حينئذ"⁽⁷⁾. يتبيّن من المعطيات السابقة أن الأجناد الشامية كانت تستفيد من ثلث ما كانت تُغلّه الأرض المسيحية في الكور التي نزلت بها. نقول ثلث الأموال والمحاصيل المستخلصة من الأرض، أي أن الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بامتياز نفعي أو استغلالي مرتبط بالمنتوج الفلاحي قبل

(1) - انظر فصل الكور المجنّدة وجند الحضرة.

(2) - ابن القوطية: المصدر السابق، ص. 42.

(3) - نفسه: ص. 44.

(4) - ابن الأثير: الحلة السراء...، ج 1، ص. 63.

(5) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 33.

(6) - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، م 1، ص. 108.

(7) - ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 109.

الأرض نفسها. وقد دفع هذا التمييز الباحث شالميتا⁽¹⁾ إلى الحديث عن الإنزال الذي هو استفادة الجند الشامي من ربع أرض محددة أي من مداخلها وليس من الأرض نفسها. وهو ما عبر عنه ل. بروفنسال⁽²⁾ "بحق الإيواء" أو "الإنزال". تبنى الباحث لاكاردير⁽³⁾ بدوره هذه الآراء وقال بإقطاع "الإستغلال" بدلاً من إقطاع الأرض، وهو ما يُعتر عنه بالالتزام أو "الانتفاع" ذي الطابع الريعي (Concessions de vente). ويشكل في هذه الحالة ثلث أموال الأراضي المسيحية في أقاليم البيرة ورية ومالقة وشذونة التي أخضعها الجند الشامي⁽⁴⁾. واكتفى باحثون آخرون⁽⁵⁾ بالحديث عن إقطاع عسكري تجلى في "استقرار الجند الشامي في الكور المجندة". ويشمل "الأرض وضريبة المحصول في نفس الوقت"⁽⁶⁾. يمكن القول إن جل النصوص المصدريّة قد ركزت في واقع الأمر على إخضاع الأجناد الشامية "لأموال أهل الذمة طعمة"⁽⁷⁾، مع استثناء لهذه القاعدة انفرد به ابن عذاري⁽⁸⁾ حين أشار إلى أن الشاميين استقروا على الأموال العجمية "من أرض ونعم". ومن هنا نتصور أن الجند الشامي، إضافة إلى ما كان يأخذه من الإنتاج الزراعي — كان يُقيم في أراض خصبة يستفيد منها بشكل من الأشكال ولو أنها كانت — نظرياً — تابعة للدولة أو للسلطة السياسية بقرطبة. انطلاقاً من ذلك تُثار إشكالية السلطة السياسية وعلاقتها بالمجال الاقتصادي والبشري. إن غياب سلطة سياسية مركزية قوية خلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (IX م) سهّل، أو أدى إلى استفحال عمليات الغصب والتراخي على الأرض، وسيادة قانون الغلبة الذي تعكسه بامتياز ظاهرة 'الإنزاء' و'الإنزال'، و'الإقطاع'. وتكشف المعلومات المصدريّة المتنوعة انتشار عمليات الاستحواذ على الأرض عبر جل الأقاليم الأندلسية مما في ذلك الثغور إلى أن تغيّرت الأوضاع، ولو نسبياً، لما تمكنت الخلافة في شخص عبد الرحمن الناصر من إقرار سلطة مركزية نافذة.

(1) - CHALMETA (P), Concesiones territoriales en Al-Andalus hasta la llegada de los Almoravides des cuadernos de Historia. Anexos de la Revista Hispica : N° 6, Madrid, 1975, p.1, 87.

(2) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne..., T.3, p 40.

(3) - LAGARDERE (V) Campagnes et paysans d'Al-Andalus VIII-XVe siècles, Paris, Maisonneuve et la Rose, 1993, p. 24

(4) - LAGARDERE (V) "Structures étatiques et communautés rurales - les Impositions légales et illégales en Al-Andalus et au Maghreb: XI-XV siècles", dans: *Studia Islamica*, T. 80, Paris, 1994, p.58

(5) - ذنون طه: تنظيمات الجيش...، مرجع سابق، ص. 40.

(6) - بوتشيش القادري: أثر الإقطاع...، ص. 89.

(7) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 33.

(8) - نفسه: ص. 33.

لقد كانت الأرض خلال تلك الفترة محورا لصراعات متعددة تغلب خلالها كبار المنتزين على مناطق خصبة سواء برضى وتركية السلطة السياسية بقرطبة أو بفرض سياسة الأمر الواقع. ولا تعوز القرائن والأمثلة لتبيان ذلك يكفي القول إن الأمير عبد الله قبل التسجيل على بعض الأراضي الواسعة والخصبة غير البعيدة عن إشبيلية ليحيى ومحمد ابني عبد الله بن عبد الملك بن هاشم، اللذين ابتنيا "حصن شذفيلة من أقاليم إشبيلية، واجتمع إليهما قومهما من البربر، وسجل لهما الإمام عبد الله... واتخذوا الدور والأحياء في الرّبط الغربي من قرطبة واكتسبا الضياع"⁽¹⁾. وكان بنو سعيد بن ناصح المعروفين ببني مستنة يستفيدون من أراضي وحصون بكورة باغة⁽²⁾. وعلى غرارهم استغل بنو مهلب حصونا وأراضي بالموسطة⁽³⁾.

كانت عملية التسجيل عبر الأقاليم الأندلسية لقادة ولعائلات معروفة ظاهرة متفشية أدت إلى نشاط حركة الانتزاع والاستقلال عن الحكم المركزي. دفع هذا الوضع بأحد الدارسين⁽⁴⁾ إلى الحديث عما سماه "بالتجزئة الإقطاعية" التي عمت الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. لم تسلم أراضي الثغور من هذه الوضعية لأن أراضيها انتقلت أيضاً من "إقطاع استغلال إلى إقطاع تمليك، انحصر في عائلات تورثه في الأعقاب..."⁽⁵⁾. وبهذه الصفة أي صفة الإرث "أصبح شبيها بالإقطاع الأوربي"⁽⁶⁾. باعتبار "طبقة العسكر شأنها شأن طبقة المحاربين أو الفرسان الذين أفرزهم الإقطاع الأوربي، لعبت دوراً جوهرياً في صياغة النظام السياسي خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري"⁽⁷⁾.

هل ظلت هذه الوضعية قائمة خلال الخلافة والطوائف أي إبان القرنين الرابع والخامس

(1) - الغري: ترصيع الأخبار...، ص. 106.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 173.

(3) - نفسه: ص. 173.

(4) - بوتشيش القادري: أثر الإقطاع...، ص. 87. فصل الباحث في "التجزئة الإقطاعية" مئياً أنواع وأصناف "الإقطاع" وخصائصه. فتحدث عن إقطاع الاعتراف بالأمر الواقع بموجبه تضطر الدولة لإقطاع جزء من الأرض لأحد القواد النافذين دون الالتزام بشروط أداء الصرائب أو الخدمة العسكرية وإقطاع المفارقة الذي يتميز باتفاق بين الدولة والشخص المقطع على واجبات والتزامات محددة يستفيد من "الإقطاع" عموماً قادة الجند النظامي، كقواد الصوائف، أو أصحاب الخيل، أو قادة الجند المجلوب (المرتزق)، الذين يستحوذون على الأرض ويسخرون فيها العبيد. كما يستفيد منه الجند المنفصلون عن الحكم المركزي. تميز هذا "الإقطاع" كذلك بظاهرة الولاء أو التبعية أو الاصطناع التي يفرضها "النظام الإقطاعي" في نظر الباحث. المرجع السابق، ص. 171، 170، 138، 137، 136، 90، 89، 88، (انظر مناقشة النظم الإقطاعي في مكان آخر من هذا الفصل).

(5) - بوتشيش القادري: تطور ملكية أراضي الجيش، ص. 145.

(6) - نفسه: أثر الإقطاع...، ص. 92.

(7) - نفسه: ص. 170: من الصعوبة بمكان إجراء هذا النوع من المقارنة نظراً لغياب معطيات كثيرة من الجانب الأوربي (انظر آخر الفصل).

نهبرة؟ كيف كانت وصعوبة الأرض في عهد الخلافة التي تمكنت من استعادة القوة والنفوذ لـرمير لإخضاع جل أو كل الأقاليم الأندلسية^(١). منذ مطلع القرن الرابع الهجري (١٠٨٠) عملت خلافة على مصادرة الأرض وإرغام الجند المنزلي الذي تحذر خلال الإمارة، على الخضوع. وكان ذلك بداية لتثبيت دعائمها ونفوذها. لقد كشفت المصادر عن مختلف انصراعات والحروب التي خاضها الخليفة عبد الرحمن الناصر من أجل توحيد المجال والقضاء على التجزئة السياسية ذات الطابع الإقطاعي التي حالت دون نمو حركة اقتصادية قوية وإقامة سلطة مركزية نافذة. لقد حل الارتباك في ديوان الجند بقرطبة محل إقطاع الأرض الذي ساد خلال الإمارة. أي تم إدماج المنتزعين في بنية جند الحضرة وإلحاق أغلبهم بالديوان^(٢). ولعل أبرز مظهر للقضاء على التجزئة الإقطاعية هو تلك الحملات المتكررة التي قادها عبد الرحمن الناصر قصد هدم الحصون والمعقل التي كان يتمسك بها المعارضون لسياسته، والمنتزعون بمناطق عديدة عبر الأندلس. فهكذا حارب "واستنزل أهل الموسطة"^(٣). وتخلي "أهل كورة البيرة (عن أراضيهم وحصونهم، دون أمان طلبوه ولا عهد اعتقدوه"^(٤). واستسلم لطاعته وسلطانه أهل حصون قنالش والفهمين^(٥). كانت سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر قائمة على توحيد المجال الجغرافي والبشري تحت نفوذ الحضرة قرطبة. لقد أصر على "إزعاج من وحب إزعاجه إلى قرطبة، ممن كانت نفسه نائقة إلى الفتنة، ليكون الناس أمة واحدة ورعية ساكنة وادعة"^(٦). وأكثر من ذلك اتبع سياسة الصرامة لما "الحا أكبر الأجناد ووجود القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع والوقوف عند أمره وبهية"^(٧). ولم يتردد في عزل أو تغيير الوزراء أو كبار الموظفين من خطة لأخرى^(٨). لكن رغم المجهودات العسكرية الحبارة والوقت غير القصير الذي استغرقه الناصر في القضاء على المنتزعين وعلى التجزئة الإقطاعية والمستفيدين بشكل مباشر من الأرض، فإنه واجه عراقيل كثيرة من قبل هؤلاء أهمها أن الهزيمة العسكرية التي مني بها في وقعة الخندق عام 327 هـ صد مسيحي

(١) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 80.

(٢) - نفسه: ص. 173.

(٣) - نفسه: ص. 58.

(٤) - نفسه: ص. 283.

(٥) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 197.

(٦) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 155.

(٧) - ابن حيان: ج 5، ص. 110، 111، 252، 253، 276، 377، 390، 391.

ابن عذاري: ج 2، ص. 158، 220.

جليقية، تُعزى أسبابها الأساسية إلى تخاذل أعيان الجند وتقاعسهم في مواجهة العدو كما يؤكد ابن حيان بقوله: "وبدا من قوم من وجوه الجند في هذا اليوم النفاق، لأضغان احتملوها على السلطان، ففتقوا الصفوف، وشرعوا في الهرب، وجروا على المسلمين الهزيمة.."⁽¹⁾. وعبر ابن الخطيب⁽²⁾ بدوره عن مسؤولية كبار الجند وتواطئهم ضد الخليفة الناصر في موقعة عام 327هـ، التواطؤ الذي وصفه أحد الدارسين⁽³⁾ "بمحاولة انقلابية كادت تفقد السلطة الأموية توازنها". لاشك أن تلك الهزيمة دفعت بالخليفة عبد الرحمن الناصر إلى تعديل سياسته تجاه أصحاب الإمتيازات الكبرى. فلو أن كبار الموظفين أو بعض العائلات المشهورة ظلوا يستحذون على أراض خصبة في بعض النواحي خاصة في الثغور، وذلك مقابل خدمة الخلافة في قرطبة إدارياً وعسكرياً واقتصادياً، فقد اختلف الأمر عما كان عليه خلال الإمارة، لأن المستفيدين من الملكيات العقارية الكبرى كانوا تحت نفوذ الدولة أو تابعين لها على الأقل. ومن أمثلة ذلك أن الناصر لما فتح مدينة إستجة واستسلم له أهلها "أوسعهم طولاً وإحساناً وألحق فرسانهم وحُماتهم جُملة الجند بالأرزاق الواسعة والقطائع الفاضلة على أهلهم وعيالهم"⁽⁴⁾. لا غرو فالحكام والخلفاء أنفسهم كانوا يملكون أراضي شاسعة، بحيث تفي ما كان يُعرف بالأراضي السلطانية طيلة القرن الرابع الهجري. وقد كشفت المصادر عن "خطة الضياع"⁽⁵⁾ التي كان المشرف عليها يتكلف بتسيير الأراضي التابعة للحكام وتعرف أيضاً "بالمستخلص"⁽⁶⁾. وتضم الأراضي والممتلكات الفاخرة كالمباني والقصور، ويعود ريعها إلى خزائن السلاطين⁽⁷⁾. وإلى جانب الملكيات العقارية السلطانية تذكر المصادر أنواعاً أخرى

(1) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 436، 437.

(2) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 42.

(3) - الطاهري: عامة قرطبة، ص. 60.

(4) - ابن حيان: المصدر السابق، ص. 55.

(5) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 199.

(6) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، المصدر السابق، ص. 144، 252.

المقري: النفع...، ج 1، ص. 211، 379.

(7) - تجدر الإشارة إلى أن الفقهاء اعتدوا أن للسلطان أو الخليفة حق التصرف في الأرض من الوجهة الشرعية. فله أن يوقفها أو يقسمها أو يعطيها من أراد. وحتى الأراضي الموات البعيدة عن العمران أو حتى القرية لا يجب إحيائها في أغلب الأحوال إلا بإذن من الخليفة. ولاتسك أن العديد من الحكام قد استغلوا هذه الوضعية من أجل إخضاع أراضي خصبة والتصرف فيها بشكل مباشر. انظر التفاصيل في:

الداودي: كتاب الأموال...، مصدر سابق، أماكن متعددة؛ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي الماوردي): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1978؛ ابن آدم (يحيى القرشي): كتاب الخراج، تحقيق شاكر (أحمد محمد)، د. ت؛ عباس ابن إبراهيم: الإمتاع بأحكام الإقطاع...، مخطوط سابق، ص. 12 وما بعدها.

سادت خلال عصر الخلافة. فمن خلال وعود خطة لرعاية أراضي الاحناس أو ولاية الأحياس⁽¹⁾ تأكد انتشار الأملاك المحبسة لفائدة الثغور أو لصالح مؤسسات دينية أو اجتماعية أو عسكرية⁽²⁾. إضافة إلى ذلك يمكن القول إن قوة الدولة خلال القرن الرابع الهجري، ونجاحها في توفير الأمن وبسط نفوذها عبر أغلب المجال في شبه جزيرة الأندلس، قد ساهم دون شك في الانتعاش النسبي والمحدود لحركة تجارية في ميدان العقار⁽³⁾، بيعا وشراء وكرأ⁽⁴⁾. وربما بشكل أقل مما تصوره أحد الدارسين⁽⁵⁾ حين أوضح بصدد الخلافة "أن قيام سلطة مركزية قادرة على ضمان الأمن للجميع فسخ المجال لظهور وانتعاش الملكية الخاصة الحرة الصغيرة" بل إن انتعاش التجارة وتطور المدن⁽⁶⁾، وتحول الربيع العيني إلى النقدي كان إحدى مظاهر "تراجع العلاقات الإقطاعية في اتجاه التحول الرأسمالي"⁽⁷⁾. أما سياسة الخلافة تجاه الثغور، فيلاحظ أنها حاولت الإشراف عليها سواء بتعيين قواد عسكريين يباشرون عملهم بها باسمها، أو الاحتفاظ بعملية التسجيل للعائلات المشهورة بنواحي الثغور مقابل التزامت مختلفة خاصة العسكرية منها. وقد ظل ذلك التسجيل يورث في تلك العائلات لمدة طويلة كما أكد ابن حيان⁽⁸⁾ لما ذكر أن الخليفة أسند مدن الثغر لأكابر "ساكنيها ووراثيها عن الأجداد والآباء... وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم". ويظهر أن هذا النوع من التسجيل على "إقطاعات" كبرى قد زكته الخلافة في المغرب كذلك كما يتبين من المراسلات التي جرت بين الخليفة عبد الرحمن الناصر وموسى بن أبي العافية. يقول الناصر في إحدى مراسلاته مسجعا ابن أبي العافية على إخضاع الأرض والتوسع فيها: "فانهض أيدك الله.. وتقدم متوسعا فيما بين يديك، ولا يقنعك ما أنت فيه... فكل ما توسعت فيه، وفتح الله عليك به، كان لك ولولدك ولعقبك، إقطاعا من أمير المؤمنين لك، وتوسعا عليك ومكافأة لمحبتك.."⁽⁹⁾.

(1) - المقرئ: المصدر السابق، ج 2، ص. 234.

(2) - انظر فصل نظام الثغور.

(3) - الجزيري: المقصد والمحمود... مخطوط سابق، 79 أ.

(4) - نفسه: ص. 92.

(5) - الطاهري: عامة قرطبة، مرجع سابق، ص. 78.

(6) - يبدو أن الانتعاش النسبي لطاهرة التبادل في مجال العقار بيعا وشراء وكرأ واكبه نشاط حركة تأليف مهمة وذلك لمحاولة ضبط وتوثيق ذلك لتفادي النزاعات والفوضى التي يمكن أن تحدث في هذا المجال. واحسن نموذج في كتب الفقه والسجلات والوثائق والتي خصص بعضها للعقار نذكر:

الجزيري: المقصد والمحمود... مخطوط؛ ابن العطار (محمد بن أحمد الأموي) - كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق

شالميطا (ب) كورينطي (ف)، مدريد، المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1983.

(7) - الطاهري: عامة قرطبة...، ص. 85، 88.

(8) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 437، 438.

(9) - نفسه: ص. 312.

غير المنصور ابن أبي عامر وضعية الأرض خاصة الهياكل العقارية المرتبطة بالقطاع العسكري، حين أقدم على الاستغناء عن الجند الإقليمي أي الكور المجندة التي كان يُعول عليها في مستهل عصر الخلافة. لقد جمّد دور العناصر العربية خاصة الشامية، أي الأرستقراطية العربية التي كانت تستحوذ على الأرض وعلى شؤون البلاط الحلافي. وذلك لفائدة العناصر البربرية التي استقدمها من شمال إفريقيا خاصة من المغرب⁽¹⁾. وحينئذٍ تحتل مركز الصدارة في الميدان العسكري. لقد اتخذها نواة أساسية لجيش مركزي قوي وحاض له بشكل مباشر. أقدم المنصور العامري أيضاً على إلغاء ظاهرة القبلية في تشكيلات الجند لما اعتمد قوة ملتزمة ومُدرّبة تفي بشروط الشجاعة والإقدام والطاعة أو الولاء له شخصياً. يؤكد ابن عذاري⁽²⁾ هذا الاتجاه بقوله "وأخلص الجند له لما رأوا من كثرة جوده وكره عثرته وسعة مائدته، فحبوه، والتفوا به، وكثر إحسانه إليهم... إلى أن أدرك بهم مؤله وبلغ مأموله..". قرر ابن أبي عامر ألا يشتغل جنده إلا بالأمور العسكرية وربما تأثر بما جاء في بعض كتب الأموال والأخلاق السلطانية⁽³⁾ التي توصي الحاكمين بعدم إشراك الجند في شؤون لا تهمه بشكل مباشر، كالمستغلات والمتاجر⁽⁴⁾. والجند إذا اشتغل بالفلاحة "يعطل المعنى المطلوب منهم من الاستعداد للقيام بما أعدوا له من مصالح المسلمين ورد الأعداء عنهم"⁽⁵⁾. ولذلك يجب — مقابل ذلك — إعطاؤه أرزاقه وأعطياته المستحقة مشاهرة⁽⁶⁾. ولا غرابة أن "جميع الأخد العامريين من الفرسان خاصة من سائر الطبقات والأحرار وجميعهم مرتزقون في الديوان"⁽⁷⁾.

(1) - انظر فصل الكور المجندة.

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص 264.

(3) - انظر ابن هذيل: بحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخطوط، الأسكوريال، رقم 1652، 21. الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في خلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق السرحان (محيي هاشم)، لسعة (حسن)، بيروت، دار النهضة العربية، 1981، ص 173.

نفسه: أدب الوزير أو قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق: الهادي (حسن حسين)، القاهرة، مكتبة الحانفي، 1984، ص 92 وما بعدها؛ ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير، ص 200 وما بعدها.

(4) - ابن أبي النور (أبراهيم عبد الواحد): سياسة أمراء ولاة الجند، مخطوط، الأسكوريال، رقم 719، 8 أ. ابن الخطيب: الأسر إلى أدب الوزارة، تليها معاملة في السياسة، تحقيق: شبانة (محمد كمال)، الرباط، 1980، ص 126.

(5) - أبراهيم (برهان الدين المصري): أحرة الإقطاع، مخطوط الخزائن الحسنية، الرباط، 216 (مجموع) ص 341، 340.

(6) - انظر أعطيات الجند نقداً في مكان آخر من الفصل.

(7) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص 165.

كيف ذلك؟ اختلفت المصادر بصدد الكيفية التي طبق بها المنصور بن أبي عامر إصلاحه العسكري. فابن بلقين المصدر القريب من الفترة العامرية ذكر بوضوح أن ابن أبي عامر كان يحضّر الناس على الجهاد والغزو لكنهم عجزوا عن ذلك "وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم ولم يكن القوم أهل حرب فقاطعهم على أن يستغلوا بعمارة أرضهم ويعطوا من أموالهم كل عام ما يُقيم به الأجناد.." (1). أما ابن الخطيب فذهب إلى القول إن المنصور صدر أمره سنة 388هـ "بإعفاء الناس من إجبارهم على العزو استغناء بعدد الجيش واستظهاراً بأصيل العز، وعرفهم بأن من تطوع خيراً فهو خير، ومن خف إليه فمبرور ومأجور ومن تآكل فمعذور" (2). يبدو من خلال معلومات الأمير عبد الله أن المنصور العامري قد وقع نوعاً من المعاهدة (مع) الفلاحين بإعفائهم من الخدمة العسكرية. مقابل الضرائب السنوية لمساندة الجيش (3). أي أنه "ضرب عليهم الإقطاع وحصل في الدواوين جميع أموال الناس وكسرها عليهم وفرض بينهم ما لا يرتزق منه الجيش، فبقيت تلك الإقطاع عليهم إلى أن عمّت الأندلس عدة الثوار" (4). في حين يفهم من كلام ابن الخطيب أن ابن أبي عامر أقدم من جانبه على إعفاء المتطوعة أو العامة من المشاركة في الحملات العسكرية (5). إن المتأمل لكلام كلا من ابن بلقين وابن الخطيب يلاحظ نوعاً من التكامل بينهما يُساعد على فهم لماذا استغنى المنصور العامري عن الفلاحين في حملاته وصوائفه العديدة ضد المسيحيين. ذكر ابن بلقين أن القوم لم يكونوا "أهل حرب"، وقال ابن الخطيب "استغناء بعدد الجيش واستظهاراً بأصيل العز". يتضح بالفعل أن المنصور العامري استقدم أعداداً وافرة من الجند البربري الإفريقي المدرب على السلاح والقتال وأشرف عليها بشكل مباشر، يقول ابن الخطيب نفسه مذكراً بذلك التوافر العددي في جند المنصور: إن الفرسان على اختلافهم في الديوان "إثني عشر ألف فارس ومائة زيادة" (6). والفرسان في صوائف ابن أبي عامر وصلوا

(1) - ابن بلقين: كتاب البيان...، ص. 58.

(2) - ابن الخطيب: نفسه، ص. 68.

(3) - بن عبود: جوائب من الواقع الأندلسي، ص. 27.

(4) - ابن بلقين: المصدر السابق، ص. 58.

(5) - لم يكن ابن أبي عامر الأول في إعفاء العامة والفلاحين من العزو ضد المسيحيين. لقد سبق الأمير محمد (ت 273) أن قطع عن أهل قرطبة "الحشود التي كانوا يؤخذون بتجديدها في كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب، وأسقطهم منهم، ووكّلهم إلى اختيار أنفسهم للطواعية من غير بحث فحسن موقع ذلك منهم..". ابن عذاري: البيان، ج 2، ص 109

(6) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 99.

إلى "سنة وأربعين ألف فارس"⁽¹⁾. وعدد الرجال: "سنة وعشرون ألف راجل"⁽²⁾. وإذا كان كل هذه الأعداد — رغم ما يمكن أن يشوبها من مبالغاة⁽³⁾ — متخصصة عسكريا وكانت ره إشارة المنصور العامري في كل تحركاته العسكرية، فإنها كافية كي يستغني عن العامة، المطوعة الذين نعتهم ابن بلقين بأنهم ليسوا "أهل حرب". ولذلك عليهم الاهتمام والعناية بالأرض والفلاحة لإعالة من ينوب عنهم في الحروب. إننا هنا أمام تحديد مهام واختصاصات كل فئة حسب إمكانياتها⁽⁴⁾. أضف إلى ذلك أن استتفار المتطوعة أو العامة قد يؤدي إلى إخلاء الأراضي الفلاحية من جهة، وإلى ارتفاع تكاليف الحرب والحملة من تموين وتنقل وأكثر إلى غير ذلك، من جهة أخرى. ناهيك عن انعدام التجربة في السلاح لدى المتطوعة، أو على الأقل ليسوا في مستوى جند الحضرة، الشيء الذي يجز الهزائم والخسائر.

هل نجح الإصلاح العسكري الذي أقدم عليه ابن أبي عامر؟

يبدو للوهلة الأولى أن الإصلاح العسكري العامري قد نجح مؤقتاً أي أن نجاحه ارتبط إلى حد كبير بشخص المنصور نفسه لأنه هو الذي وفر شروط نجاحه حين خلق نواة جيش قوي بلا عصبية قبلية، أخضع به كل المجال في الأندلس والأطراف أي الثغور والمغرب كذلك، كما قهر به المسيحيين في عقر دارهم. ويكفي تتبع مختلف الحملات التي قادها بنفسه بنجاح ضدهم. لقد كان هذا الإصلاح العامري مثيراً ومغرياً من الناحية الاقتصادية. لكن وُجّهت إليه انتقادات عنيفة من هذه الزاوية نفسها.

(1) - نفسه: ص. 99.

(2) - نفسه: ص. 99.

(3) - ذكر ابن عذاري.. ج 2، ص 301، أن عدد الفرسان المرتزقين بحضرة العامري ونواحيها والذين حارب بهم الحروب بلغ: "عشرة آلاف وخمسمائة وأجناد قريباً من ذلك".

وقال ابن بسام: إن المنصور كان يقول "زمانى يشتمل على عشرين ألف مرتزق؟"

الذخيرة...، المصدر السابق، القسم 1، المجلد الأول، ص. 74.

(4) - إن عملية تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات داخل الطبقات الاجتماعية ظاهرة عرفت وتطورت في أوروبا الفيودالية وهي في الواقع نظرية ذات أصول هندوأوربية فارسية. اتخذت طابعاً دينياً بل إيدولوجياً في أوروبا لما تولى كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية الدفاع عنها في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد (1024م/1027م)، لأنها تدافع عن مصالحهم الذنبوية لما صنعت السلطة السياسية القائمة. إنها نظرية الأنظمة الثلاثة: الذين يُصلّون (رجال الدين) (Oratores)، الذين يحاربون (الفرسان) (Bellatores)، والذين ينتجون (الفلاحون) (Laboratores). ولكل نظام من هذه الأنظمة مهام يؤديها دون تغيير. انظر التفاصيل في:

DUBY (G); Les trois ordres ou l'imaginaire du féodalisme..., op. cit

BONNASSIE (P); Idéologie tripartite et révolution féodale..., op. cit

LEGOFF (J), "Note sur société tripartite, idéologie monarchique et renouveau économique dans la chrétienté du IX au XII siècle", dans : Annales Economies Sociétés Civilisation, 1968, p.80,90

يقول الطرطوشي⁽¹⁾ على لسان أحد كبار الجند⁽²⁾ الأندلسيين : "ما زال أهل الإسلام طاهرين على عدوهم وأمر العدو في ضعف.. لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونها كما يربي التاجر تجارته، وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة والأحباد متوافرين... إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر، فردّ عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال على النطع⁽³⁾، وقدم على الأرض جباة يجبوننا فأكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم... فتهاوت الرعايا وضعفوا عن العمارة، فقلت الجديات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين.. إلى أن دخلها المثلثون فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم". رغم ما يتضمنه النص من شحنة سياسية أو إيديولوجية لأنه يحن إلى ماضٍ ازدهر فيه 'الإقطاع العسكري'، وأن الفضل يعود إلى المرابطين في إعادة إحيائه، فإنه يعكس حقيقة اقتصادية واضحة أجمعت عليها المصادر وهي تسلط الجباة على الرعايا وابتزازها إلى جانب فرض ضرائب ومغارم ثقيلة وغير شرعية عليها. إذا اشتهر المنصور العامري بالإصلاح العسكري المقرون باسمه، فهو في الواقع لم يكن إصلاحاً شاملاً، بدليل أنه إلى جانبه انتشرت الملكيات "الإقطاعية" الكبرى. يقول ابن عذاري⁽⁴⁾ "في سنة 370 هـ انتقل ابن أبي عامر إلى الزاهرة.. ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه وتنافس الناس في النزول بأكنافها". وأكثر من ذلك سمح ابن أبي عامر، في قمة إصلاحه العسكري، لبعض قواد جنده والمقربين إليه من الاستفادة المطلقة من الأراضي الخصبة. فهذا أحدهم ردّ عليه قائلاً: "أعطيني من الضياع ما انصب علي منها من الأضعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها.."⁽⁵⁾. ولم يقف العامري عند هذا الحد من منح الأرض

(1) - الطرطوشي: سراج الملوك، ج 2، ص. 498 - 499.

(2) - من الطبيعي أن يكون كبار الجند سواء في العصر العامري أو قبله ضد تنادية رواتهم مشاهرة لأن ذلك يحد من امتيازاتهم الأخرى وهي الأكثر فائدة وأهمية، ونعني بها "الإقطاعات" أو الممتلكات العقارية الكبرى التي تدر عليهم أضعاف أرباحهم نقداً أو عينا.

(3) - النطع (النطع) جزء من اللقمة، وتعني هنا حفص الأعطيات وإبزالها إلى نصف. انظر ابن منظور: لسان العرب المحيط، إعداد: خياط (يوسف)، مرعشلي (نديم)، بيروت. دار لسان العرب، 1970، المجلد 2، مادة نطع..

الطرطوشي: نفسه، ج 2، هامش (9)، ص. 498.

(4) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 276.

المقري: النفع، ج 1، ص. 579.

(5) - المقري: النفع...، ج 1، ص. 417.

و"الإقطاع" بل تعدى ذلك إلى "المصادرات ومثل ذلك ما لا يرجع إلى قانون"⁽¹⁾. إن هذا النموذج من التعامل بمكايل مختلفة مع الملكية العقارية خلال عصر المنصور يعكس بامتياز، فيما نرى، العموض والتعقيد الذي ما زال يطال وضعيّة الأرض خلال عصر الخلافة كنها. فرغم المحيودات الكبيرة والباحة التي بذلتها الخلافة في أول أمرها في شخص الخليفة عد الرحمن الناصر من أجل القضاء على "التجزئة الإقطاعية" والسياسية التي خلفتها الإمارة، وتوحيد المجال تحت نفوذ السلطة المركزية بقرطبة، فإنها لم تغلح في إقرار سياسة واضحة في محال الملكية العقارية. ففي الوقت الذي كانت تقضي فيه على "الإقطاع العسكري" القديم والقائم على الإنتزاء والاستقلال بمناطق وأقاليم بعينها شجعت عملية التسجيل و"الإقطاع" لفائدة رعاء وعائلات في مناطق وأقاليم أخرى. إلى جانب ذلك تفشت الإقطاعات السلطانية نفسها، ناهيك عن المصادرات أو على الأقل السكوت عن عمليات الغصب والتراخي على أراضي الغير كما تكشف المصادر⁽²⁾. إن هذه التناقضات التي تعاملت بها السلطة السياسية بقرطبة مع الملكية العقارية دفعت بأحد الباحثين⁽³⁾ إلى القول بأن "رغبة السلطة المركزية في القضاء على الإقطاع العسكري من جهة، واضطرارها إلى الاعتماد عليه من جهة ثانية، مؤشر مفيد عن طبيعة الخلافة الأموية المرتكزة على أنماط إنتاجية متنافرة، وهياكل زراعية معقدة".

لم تكن وضعيّة الأرض خلال عصر الطوائف أحسن مما كانت عليه في ظل الخلافة. بل يمكن القول إنها عادت إلى وضعيّة أكثر سوءً بفعل التجزئة السياسية التي عادت إلى الصدارة من جديد بعد انتهاء العصر العامري إن لم نقل قبل ذلك، إذ أن عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب "بشنجول" لما حاول فرض سلطته على قرطبة ضد محمد بن هشام بن عبد الجبار لم يتردد في أن "يُخلف رؤساء الجند وأهل الخدمة عند المنبر بإيمان البيعة أن يقاتلوا مع أهل قرطبة وكتب لهم صكوكا بالإنزال في دورهم وضياعهم"⁽⁴⁾. إن الانقسامات السياسية الطائفية عصفت بالقوة وبالمركزية السياسية التي تمتعت بها الخلافة طيلة القرن الرابع الهجري،

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص. 98.

(2) - إن انتشار طاهرة الغصب والتسديد على الرعايا في الصرانب يؤدي دون شك إلى هجرة الأرض وفساد الاقتصاد.

(3) - الطاهري: عامة قرطبة...، ص. 62.

(4) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 49.

وانعكس ذلك بشكل مباشر على الأوضاع الاقتصادية والعفارية. وقد عبر ابن بلقين⁽¹⁾ بدقة عن الوضعية الجديدة في ميدان الإقطاع العسكري حين قال: "لما تمت الدولة العامرية وبقي الناس لا أمام لهم، ثار كل قائد بمدينة وتحصن في حصنه بعد تقدمه النظر لنفسه واتخاذ العساكر، وادخاره الأموال فتنافسوا على الدنيا، وطمع كل واحد في الآخر" وهي الوضعية نفسها التي وصفها المفري⁽²⁾ لاحقاً بقوله إن "الضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس من السلطان يد وجوا فارساً بارعاً يسرع الفرسان أو جواداً يسرع الأجواد تهافتوا في نصرته ونصيبه منك من غير تدبير في عاقبته". لقد عادت ظاهرة التحصين التي نشطت خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (IX م)، وانتعش الانتزاع من جديد كما تعبر عن ذلك إحدى الأمثال العامية الشهيرة في الأندلس بالقول: "جصني ولا من يقسني"⁽³⁾. وقد صاحب هذا الوضع بقطاع الأرض للجند من جديد باعتبار الخدمات العسكرية التي أضحي يقدمها لمن كافأه. وهكذا صار الجند في الواجهة السياسية والاقتصادية، فبعدما كان في عصر الخلافة أداة أساسية في يد سلطة الخلافة بقرطبة تتحكم فيها، أصبحت السلطة في يد هذا الجند يمارسها في العديد من الأقاليم الأندلسية. فهذا ابن بلقين نفسه يمجّد "الإقطاع" العسكري بل طبقه بشكل من الأشكال كما يستفاد من نصوص التبيان. قال في هذا المعنى لما أقدم على عزل سماجة أحد وزرائه المشهورين: "(...) وألا وزير لدولتي غير نفسي وحددت لكل خادم ما تكون طريقته... ثم أمنته في نفسه وأبقيت على جميع أمواله، وسوّغته إنزالاً ينعاش فيه وأمرته بلزوم مجلسي وأنه مكرم طول حياتي"⁽⁴⁾. كافأ الأمير عبد الله أيضاً القبائل خاصة جند صنهاجة وزناتة الذي كان يدافع عن مصالح دولة غرناطة، بأن مكّنه من إنزالات مختلفة فجند زناتة "قويت أموالهم وإنزالاتهم على أنهم كانوا في الحقيقة خير جند الأندلس"⁽⁵⁾. إضافة إلى ذلك كان على الأمير أن يُشرك في ذلك "من ضعف من صنهاجة لهؤلاء الأقوياء الذين أدركتهم العناية ويُمسك واحد منهم إبراً حمسة فرسان وستة"⁽⁶⁾. إلى جانب ذلك تكتشف المصادر عن تسلط كبار الجند على

(1) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 58.

(2) - المفري: النفع، ج 1، ص. 215.

(3) - الزجالي: لمثل العوام...، ج 1، ص. 211. رقم 841/نظر فصل لحصون والقصبات.

(4) - ابن بلقين: التبيان، ص. 111.

(5) - نفسه: ص. 145.

(6) - نفسه: ص. 141.

الأرض⁽¹⁾ في أقاليم أندلسية مختلفة كما هو الشأن بالنسبة لنبي برزال الريانين الذي ذهب الصراعات والحروب إلى الاستقرار بنواحي قرمونة واستجة وحسن المدور وذو النواصر على البلاد على حد تعبير ابن عذاري⁽²⁾. وفرض بنو عباد سيطرتهم في إشبيلية وأشبيلية⁽³⁾. اعتماداً على جيش قوي من المرتزقة والعبيد أغلبيتهم من المغرب وإفريقيا⁽⁴⁾. عبر ابن الطاهري⁽⁵⁾ عن التحزنة السياسية في أندلس الطوائف وتسابق كبار الجند نحو ما توفره تلك التحزنة من امتيازات متعددة بقوله "إننا أمام مجتمع مؤسس على قواعد نظام الفرس الإقطاعي الذي عدا لمكانته وتآلق مظاهره حقيقة مسلمة"، أي عودة "نظام القناة الإقطاعي في أبرز تجلياته للسيادة من جديد في البوادي الأندلسية"⁽⁶⁾. وعكس ذلك أشار الدارسون عبود⁽⁷⁾ إلى أن المجتمع الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري لم يكن إقطاعياً رغم ما يمكن ملاحظته من مظاهر تُبين ذلك.

هذا عن الأرض والملكيات العقارية وكيفية تعامل كبار الجند معها سواء بإيعاز من السلطة السياسية في حالة قوتها ونفوذها، أو بفرض الأمر الواقع في حالة ضعفها. فماذا عن أعطيات الجند ورواتبه التي تصرف عينا أو نقداً في أوقات محددة؟

2. الضرائب

لا يمكن الحديث عن رواتب الجند دون الوقوف عند الجبايات والضرائب التي هي عماد تلك الرواتب. لقد عبّر القدامى عن الربط الوثيق ما بين الجباية والسلطة والأجناد حين قالوا "لا سلطان بلا جند ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة"⁽⁸⁾. وكما يستقيم الملك "لابد له من الجند والمال"⁽⁹⁾. والتوازن يقوم على ثلاثية الجند والرعية والعمارة⁽¹⁰⁾.

(1) - ابن رشد: الفتاوى...، مصدر سابق، ج 1، ص. 288، 289.

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 168.

(3) - الطاهري: عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 132، 136، 137، 138، 139.

(4) - ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص. 94.

(5) - الطاهري: ج 1، ص. 136.

(6) - نفسه: ص. 206 يمكن - في اعتقادنا - بحث المجتمع الأندلسي خلال الطوائف بنظام القناة لكن مع خصوصية أساسية تكمن في التمسك في مستويات ذلك النظام من حيث طبيعة السلطة السياسية والعلاقات الاجتماعية. إلخ (انظر مناقشة المصطلحات في الفصل).

(7) - ابن عبود: نفسه، ص. 94.

(8) - الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 1، ص. 216.

(9) - ابن الأرق (ابن عبد الله) مدافع الملك في طليانع الملك، تحقيق: النشار (علي سامي)، بغداد، 1977، ج 1، ص. 283.

(10) - المرادي (ابن محمد بن الحسن الحضرمي)، كتاب السياسة أو الإشراف في تدبير الإمارة، تحقيق: النشار (علي سامي)، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981، ص. 93.

والمال تُنتجه وتوفره الرعاية أو مكونات المجتمع المهتمة بالاقتصاد بشكل مباشر وذلك تعتبر "الرعاية عنصر المال، ومادة الجباية بها قوام الملك وعر السلطان ورزق الأحناد الذي يعثر العدو وينصر الدين ويحمي الحرم"⁽¹⁾. لكن جلب الأموال والعمارة قد تخضع بشكل مباشر لعوامل طبيعية كالمجاعات والأوبئة وغيرها أو بشرية كالثورات والحروب. وقد عبّر ابن خلدون⁽²⁾ عن ذلك حين ذكر أن خراج الأندلس يزداد وفرة مع انتشار الهدوء وينقص أو ينعدم مع الفوضى والأزمات الاجتماعية. هل توفر المال والضرائب في أندلس الخلافة والطونف. ما هي طبيعة الضرائب وأنواعها خلال تلك الفترة وما هو نصيب الجند منها؟

تُجمع المصادر على غنى الأندلس في المجال الاقتصادي بحيث أنها "أهوازية في عظيم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها"⁽³⁾. لا غرو فقد عرف عصر الخلافة تطورا مهما في الجبايات، أما عصر الطوائف فبلغت فيه الجباية أضعافا كثيرة⁽⁴⁾. ولتجسيد هذه الفكرة بالأرقام ذات الدلالات المتعددة نشير إلى أن مقدار ما كان يحصل عليه ملوك بني أمية من خراج الأندلس قديما حسب المقرئ⁽⁵⁾ هو "ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة..". يبدو أن بيوت المال الأندلسية لم تكن فارغة خلال الخلافة، بل على العكس من ذلك كانت ممثلة خاصة خلال عهد عبد الرحمن الناصر. فإذا صدقت معلومات ابن بشكوال⁽⁶⁾ أو ابن عذاري⁽⁷⁾ فقد بلغت جباية الناصر "خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا. ثم في السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار. وأما أخماس الغنائم فلا يُحصيها ديوان". وذهب ابن الكردبوس⁽⁸⁾ إلى القول إن جباية الناصر بلغت في العالم "خمسة آلاف ألف دينار". وقال المقرئ⁽⁹⁾ إن الخليفة الناصر ترك في بيوت أمواله بعد موته "خمسة آلاف ألف

(1) - ابن بسم: الخيرة...، المصدر السابق، ق 1، م 1، ص. 120.

(2) - ابن خلدون: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 288.

(3) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 70.

(3) - عن أهمية الأندلس في المجال الاقتصادي انظر التفاصيل في: الطاهري: عامة قرطبة...، ص 57، 59 وما بعدها.

حنوي (محمد): "الأدوات الفلاحية الأندلسية من خلال المصادر: كتب الفلاحة بمودح"، مجلة الاجتهاد، ع 34، 35.

مزدوج، بيروت، 1997، ص. 103 وما بعدها.

(4) - العنري: ترصيع الأخبار، ص. 93.

(5) - المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 146.

(6) - نفسه: ص. 379.

(7) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 231، 232.

(8) - ابن الكردبوس: دريح الأسس، ص. 59.

(9) - المقرئ: المصدر السابق، ج 1، ص. 379.

ألف ثلاث مرات". ولم تقل المداخل أو الحبايات في عهد المنصور بن أبي عامر. لقد نعت "الأموال الناضبة بالراهرة أربعة وخمسين بيتاً" (1) مكرراً. لا شك أن هذه الأرقام قد أدهلت بعض الباحثين المسيحيين المهتمين بالحضارة الإسلامية أمثال ديورانت (2) الذي أوضح أن الحبايات والمداخل في الأندلس كانت تفوق بكثير ما توفره الحكومات المسيحية كلها.

كيف نُجبي هذه الأموال الضخمة من الكور والأقاليم الأندلسية، وما هو نصيب مساهمة كل إقليم منها. وهل كانت الجبايات الشرعية كافية في ذلك أم أن الأمر يتعدى ذلك إلى إتقال كاهل المنتجين بالمغارم والمكوس والقبالات؟

من الصعوبة بمكان الإجابة عن هذه التساؤلات لأسباب عديدة منها أن المصادر على تنوعها شحيحة إلى حد الصمت حول الكيفية التي كانت السلطة في قرطبة أو في الأقاليم تستخلص الجبايات والضرائب، كما أنها لم تقف عند كل إقليم وكورة والمقادير التي يؤديها ناهيك عن الأنواع ثم أوقات استخلاصها. يُعَلِّل الأستاذ حسين مؤنس (3) صمت المصادر بصدد التقسيمات الإدارية والمالية بالأندلس بافتراض مؤداه أن الأمر لم يكن يُثير الاهتمام لأن الدولة في الأندلس إلى حدود القرن الخامس الهجري، أي قبل سقوط الخلافة، لم تعرف زِمات مالية (4)، حادة كما هو الشأن لدى العباسيين في المشرق. وتبعاً لذلك فإن ما كُتِب في موضوع التقسيم المالي الأندلسي بعد الرازي لا يخلو من تشابه بل وتكرار. وللتأكد من ذلك يكفي مقارنة المعلومات الواردة في بعض المصادر رغم اختلاف فترات تأليفها، مثل العذري والبكري وابن غالب وابن سعيد والحميري وغيرهم. يخلص مؤنس إلى القول وبنوع من التحيز المعلى

(1) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 120.
(1) - للمفارقة بما كان يُحصى خلال الإمارة ذكر المقرئ بصدد عهد عبد الرحمن الأوسط أن الجباية بلغت "ألف ألف دينار في السنة وقبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف".

النفخ، ج 1، ص. 146. وأشار النويري إلى أن الجباية أيام الأمير عبد الله كانت "ثلاثمائة ألف دينار كل سنة": نهاية الأرب، مصدر سابق، ص. 113. أما حراج الأندلس فيل وفاة الأمير المنذر (275) فبلغ حسب ابن خلدون: "ثلاثمائة ألف دينار، مائة ألف منها للحدود ومائة ألف للنفقة في النوائب ومائة ألف ذخيرة ووفر". كتاب العبر: مصدر سابق، ق 2، م 4، ص. 288.

(2) - ديورانت (ول) قصة الحضارة، ترجمة بدران (محمد)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ج 2، م 4، ص 293.
(3) - مؤنس (ح): فجر الأندلس، مرجع سابق، ص. 532 وما بعدها.

(4) - لاحظ مؤنس أنه رغم بعض الأزمات السياسية والإقتصادية بالأندلس والتي قد تتجم عن المجاعات أو الحروب، فإن ثروات الحكام تكون مهمة من الإمارة إلى عصر الطوائف نفسه. وتشمل تلك الأملاك العقار، الذهب والفضة والنقد المتداول أكبر من أن يقول إن ثروات بعض الحكام حتى بين الحروب أصغية كانت مهمة وتثير الفضول والانتقام. وبمؤدح عريضة عني عن البيان كما يوضح الأمير عبد الله نفسه في التبيان حين أشار إلى أن المرابطيين لما دخلوا غرطة كانوا يقصدون بعض الأماكن التي تشمل أموال عائلته ولا شك أنهم كانوا على علم بوجودها مسبقاً.

للحضارة المشرقية إن المسلمين اكتفوا، أو بالأحرى احتفظوا بالتقسيمات الرومانية والغوصية التي وجدوها في جزيرة الأندلس وربما عدلوا نسبيا بحسب ما اقتبسوه من مَشرق ومؤثراته⁽¹⁾.

رغم تشابه معلومات المصادر على اختلافها بصدد التقسيمات الإدارية والمالية بالأندلس فإن بعضها يكشف عن إشارات غاية في الدقة والأهمية حول ما تقدمه بعض الأقاليم من الأموال والضرائب لخزائن قرطبة. بل تحدد بالأرقام نصيب الجند من تلك الضرائب. يذكر العذري⁽²⁾ أن كور البيرة على عهد الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن كانت جبايتها "بالوازنة مائة ألف وتسعة آلاف وستمئة دينار وثلاثة دنائير و ألفا رطل حرير و ألفا رطل عصفور، ومن غلة المعادن اثنان وأربعون ألفا ومن غلة أرحية ألف دينار وألف قسط ومائتا قسط ريت". ولاحظ البكري⁽³⁾ أن جباية إشبيلية "بلغت أيام الأمير الحكم ابن هشام خمسة وثلاثين ألف دينار ومائة دينار". ونملك معلومات دقيقة وهامة عن جباية قرطبة ونواحيها بفضل العذري وابن غالب وصاحب ذكر بلاد الأندلس. يقول هذا الأخير "وانتهت جباية قرطبة وأحوازها في أيام الخلفاء وأيام المنصور بن أبي عامر ثلاثة آلاف دينار بالحق والعدل، وذلك ثلاثة بيوت مال في السنة"⁽⁴⁾. وأشار ابن غالب⁽⁵⁾ إلى أن قرطبة ونواحيها على مسافة سبعين ميلا في الطول بلغت جبايتها في كل عام أيام الحكم بن هشام "مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين دينارا ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمئة وستة وأربعون مديا ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمئة والمدي في ثمانية قناطر وهو المدي القرطبي". فصل العذري⁽⁶⁾ أكثر فيما تقدمه الأقاليم الخمسة عشر المحيطة بقرطبة من الأموال والمغارم لخزينة الدولة، باعتبارها وحدة مالية هامة. وأكثر من ذلك وضع جدولا وإحصاء لعدد القرى المكونة لتلك الأقاليم، وما تقدمه كل قرية على حدة في مجال ما تنتجه من قمح وشعير أو ضرائب أخرى لها ارتباط مباشر

(1) - مؤنس: المرجع السابق، ص. 577.

(2) - العذري: ترصيع الأخبار، ص. 93.

(3) - البكري: جغرافية الأندلس، ص. 116.

(4) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 34.

(5) - ابن غالب (محمد بن أيوب بن خالد الحافظ الأندلسي) تعليق مسمى من فريضة الأندلس في تاريخ الأندلس، سير

لطفي (عبد البيع)، مجلة المخطوطات العربية، الجزء الثاني، المجلد الأول، القاهرة، 955، ص. 306، 281، 310.

(6) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 124، 125.

بالحشد والاستعداد للحملات العسكرية والصوائف. ونظراً لطول اللانحة التي أوردها العدري⁽¹⁾، يكتفي بإيراد بعض الأمثلة التي تكشف عن أهمية قرطبة في الميدان السلي والضراني. فإقليم المدور مثلاً "عدد قراه في المغارم تسعون منها في العشور ثلث، انصح خمسة وثمانون مدياً وأربعة أقدرة، الشعير مائة وإحدى وخمسون.. وثمانية أقدرة الناص ثلاثة آلاف مثقال وسبعة وثمانون الطبل للعام أربعة آلاف دينار ومائة وأربعون ديناراً.."⁽²⁾. م إقليم العصب فقراه "في الوظائف سبعة وثمانون منها في العشور ستة وخمسون قرية. انصح مائة مدي واثان وأربعون، الشعير مائة مدي وأحد عشر مدياً. الطبل للعام ألفان وسبعمائة، ومن الناص للحشد أربعة آلاف.."⁽³⁾ مكر. رغم صمت المصادر وغياب معلومات كافية من شأنها أن تساعد في وضع لوائح تكشف عما تقدمه مختلف الأقاليم والجهات عبر كل الأندلس من ضرائب وجبايات لخزينة قرطبة، يمكن القول إن كل إقليم يساهم بنصيب من

(1) - نفسه: ص. 124، 125، 126، 127.

(2) - نفسه: ص. 124.

(3) - العدري: ترصيع الأخبار، ص. 125.

(3) مكر. - ذكر العدري مجموعة من المغارم تؤخذ من الأندلسيين: "كالناصر" أو "الناصر للحشد" والطبل والوظائف وغيرها. يسر أن جل هذه الضرائب يُخصّص لأعداء الحملات والصوائف ضد المسيحيين فالناصر هو ما تحول عينا بعدما كان ماعاً، فيل إن عمر بن الخطاب كان يأخذ الزكاة من نض المال، وهو ما كان ذهباً أو فضة أو عينا أو ورقاً. والناصر في الأندلس صرية على المنقولات بالنقد والعين مخصصة للجند. والطبل: (الطبلية): دراهم الخراج والطبل في الأندلس ضريبة شخصية على شكل معونة مالية مقابل الاعفاء من العمل العسكري. والوظيفة (الوظائف والوظف): ما يقدر كل عام من رزق أو طعام أو علف أو شراب يوظف على الشخص أي يلزمه وتزخر كتب الفقه والنوئل بمعلومات مفصلة حول أنواع الوظائف، كالوظائف على الأرضين والكسب وغيره في الأندلس انظر:

الوثائقي: للمعيار... مصدر سابق، ج 5، ص. 32 وما بعدها.

عن الناصر والصل والوظيفة انظر: لسان العرب: المجلد الثاني، ص. 571، 570 مادة الطبل. المجلد الثالث، ص. 658 مادة تضض. نفسه: ص. 949، 950 مادة وظف.

يوجد أسماء أخرى لصرائب ومغارم لها ارتباط بما تنتج الأرض أو مناطق محددة خاصة في الأشجار كالتحليل والزيتون. ومن أمثلة ذلك الضامنة والمزبنة والخرص: فالضامنة م تتضمن القرى والأمصار من النخل، وكان داخل العمارة وطاف به سور، وسميت ضامنة لأن أربابها ضمنوا عمارتها وحفظها. أما المزبنة من الزبن وهو بيع كل ثمر على سحرة، أو بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر وقد نهى نه الحديث لما فيه من الغبن والمجازفة وقال فيه مالك "هو بيع معلوم بمجهول من جبهته". والخرص في الأندلس يتسبب إلى حد م المزبنة لأنه يقع في غل الاستحار كالزيتون الذي يُخرص في أوقات محددة. انظر التفاصيل في:

محمد علي (نصر الله): تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، بيروت، 1982، ص. 158، 202.

يمكن الحديث عما يشبه الخرص في الأندلس ونعني بذلك القبلة. ولمكروه منها أن "يتقبل الرجل النحر والسحر والاربع الدبت قبل أن يستحصد ويدرك". والمتعب يكون بمنزلة "الزيتون" من سحر لا للنع ملعون من سحر ومن أسس جمعين. انظر: ابن سلام (ابن عبيد بن أسلم الأدي): كلك الأمول، تحقيق الفقي (محمد حلمد)، د.ت، ص. 70؛ ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، تحقيق: ل. بروفنسال، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص. 30.

المحاصيل التي تنتجها كالتنار والزيتون أو ما تنتجه العابات كالأحساب ومواد أخرى معدة كالزيت والفطران⁽¹⁾ التي تنتج بكورة حبان ويؤدي سكان هذا الأقليم بصبا منها لأنها تدخل في صناعة الأساطيل⁽²⁾. ونعلم أن العامة أو الفلاحين يؤدون قساطا هامة من اتاحيد كما يُفيد من إشارات مصدرية متعددة كأن يوصي القاضي أو المحتسب المكلفين بحرص اتجار الزيتون أو الزرع في مناطق محددة وأوقات محددة أيضا، ألا يشتتوا في ذلك وإن باخذو الرعية والمنتجين بالرفق⁽³⁾. ويبدو أن الضرائب والمغارم قد اُرددت واستفحلت خلال العصر الطائفي بفعل الأزمات السياسية والحروب التي كانت تدور رحاها بين الدويلات الطائفية. إنى جانب الأطماع المسيحية وما يصاحبها من طلب الجزية. وقد أكد ابن بلقين⁽⁴⁾ ذلك حين أشار إلى أن الرعية تؤدي من كل شيء تقريبا إذ كان الناس يُعطون "زكاة أموالهم في النضر والطعام والمواشي، يقسمون ذلك على المساكين بكل بلدة". وإلى جانب ذلك قد يؤدون الذهب⁽⁵⁾، والجزية⁽⁶⁾ التي تساعد على درء الأخطار المسيحية مؤقتا.

وقد اعترف ابن بلقين⁽⁷⁾ نفسه بتآمر وسخط الفلاحين من "معارم الإقطاع"، واندفاع يهود مدينة اليسانة نحو الفتنة نظرا لمطالبتهم بتأدية ضريبة "التقوية"⁽⁸⁾ مكر بالذهب وحده. وإلى ذلك تضاف صريبة الجعل⁽⁹⁾ من أجل الجهاد أو الحشد، إذ بواسطتها يجعل القاعدون للحارجين

(1) - ابن حيان: المعقبس...، الحجى، ص. 101.

(2) - انظر فصل صناعة السفن ومواد الصناعة في باب الأسطول.

(3) - ابن عيرون (محمد بن أحمد بن عيرون التجيبي): كتاب الحسبة، ل. بروفنسال، 1934، ص. 196؛ ابن عذاري: البيان...، ج2، ص. 259.

(4) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 58.

(5) - قل أحد الأرسين أن المصور العامري كان يفرض صريبه استثنائية في كل مركز أو محلة يورى حسب عدد الدور أو الكانون في كل بلدة. انظر:

YALLVE (J-B), La Division territoriale..., op. Cit, p. 209

(5) - ابن بلقين: ص. 58.

(6) - نفسه: ص. 58.

(7) - ابن بلقين: التبيان...، ص. 127.

(8) - نفسه: ص. 144.

(9) - لتقوية صريبه استثنائية تفرض في حالة الطوارئ كالحروب لقد سبب في اغتياله ابنى قاده يهود مدينة ألسانه

حسن قبل لهج "جور معشر بني إسرائيل في حماية أموالكم" ابن بلقين. ص. 144. وقد ظلت التقوية حسب ابن عريلى ر سقمها القاسم بن حمود لما نولى سمو قرطبة، وذلك نفرا لأهل لمدينة ألسانه، ح. ص. 130

(9) - ابن المناصف: الأحدث في أحكام الجهاد، مخطوط، ص. 25 وما بعدها؛ الداودي: كتاب الأموال، ص. 117؛ هوبكنز: النظم الإسلامية...، مرجع سابق، ص. 61.

مالاً على الخروج⁽¹⁾. ونشير إلى أن الضرائب والمغارم تزداد ثقلاً على العامة أو المنتجين سواء في البوادي أو المدن أو خلال الحروب أو الإعداد للصوائف والشواتي. وقد عبر ابن حيان⁽²⁾ عن هذا المعنى بوضوح حين ذكر أن الخليفة الناصر لما كان يستعد لمعركة الحندق عام 327هـ "جبي وبالغ في حشد أهل الأندلس". لكن عكس ذلك كثيراً ما عمد الخلفاء والحكام إلى التخفيض من الضرائب أو إلغاء المغارم لأسباب متعددة كالتقرب من الفلاحين والبحث عن شعبية خاصة في أوقات الأزمات، أو الخوف من اندلاع انتفاضات وأزمات اقتصادية واجتماعية يصعب التكهن بنتائجها. كما حدث أن اشترط الفلاحون أو فرضوا على السلطة تخفيض الضرائب في مناسبات عديدة. وتشكل الثغور⁽³⁾ استثناءً بحيث أن الخلفاء كثيراً ما خفضوا الضرائب على سكان تلك الجهات نظراً لجوارهم للمسيحيين. والأمثلة على ما ذكرناه متعددة منها أن الأمير محمد "تَحَبَّبَ إلى أهل قرطبة والرعايا بأن أسقط عشر العام وما يلزمهم من جميع المغرم"⁽⁴⁾، و "وضع عن أهل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث"⁽⁵⁾. وعلى غرار دأب الأمير المنذر بن محمد لما "أسقط عن الناس عشر العام وما يلزمهم من خراج ومعونة"⁽⁶⁾. وذكر الرازي أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما فتح مدينة طليطلة اشترط عليه أهلها "الحرية عن الوظائف والإعفاء من النوائب ومن مكوس القبالات، ومعرفة الإنزال في الدور، وأن لا يؤخذ غير الزكاة المفروضة على السنة"⁽⁷⁾. كما شكوا أهل طرطوسة بدورهم للناصر "ثقل مغارمهم فأسقط عنهم الزكوات والصدقات وكتب لهم بذلك عهداً"⁽⁸⁾. وعهد الخليفة المستنصر بعده بإسقاط "سدس جميع المغارم على الرعايا بكون الأندلس"⁽⁹⁾. كما أمر أحد قواده بالتوجه إلى كورة جيان لإسقاط ضريبة الخشب والزفت والقطران عن سكانها واحتسابها في نفقاته رفقا برعيته⁽¹⁰⁾. وفي عام 364 هـ التزم أن يكون السدس المسقط من

(1) - الداودي: كتاب الأموال، ص. 117.

(2) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 433.

(3) - انظر فصل نظام الثغور.

(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 114.

(5) - نفسه: ص. 109.

(6) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 150.

(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 322.

(8) - نفسه: ص. 468.

(9) - ابن عذاري: نفسه، ص. 249.

(10) - ابن حيان: الحجى، ص. 101.

المعارد، "مكتنوها لجمع الرعايا، سائعا في الناس.. قبل أن ياتي الفايص برفينا ليم واهباً بمصالحهم"⁽¹⁾. وسار على نهج الحكم الحليفة هشام المؤيد الذي أقدم سنة 366 "باسقاط صرته الزيتون المأخوذة في الزيت بقرطبة، وكانت إلى الناس مسكرهة فسروا ذلك اعطد سرور"⁽²⁾. وسار المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المطهر على النهج نفسه. ففي عام 379هـ استتدت المجاعة بالمغرب وإفريقية والأندلس "فأرفق المنصور بن أبي عامر بالمسلمين وأطعم الضعفاء وأسقط الأعتار"⁽³⁾. وفي سنة 392هـ حاول ابنه عبد الملك اطياف العدل والتقرب إلى الناس "باسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد"⁽⁴⁾. وحتى أيام الفتن حاول بعض الزعماء التقرب من العامة كما فعل يحيى بن علي بن حمود بقرطبة عام 412هـ لما "أسقط عن الناس نصف الخراج وأجزل العطايا للقواد"⁽⁵⁾. ولم يفت القاسم بن حمود حين تولى شؤون الخلافة بقرطبة أن يسقط التقوية تقرباً لأهل المدينة⁽⁶⁾.

لقد سبق القول إن الحالات التي تلجأ فيها السلطة السياسية إلى تخفيض الضرائب لها ارتباطات بالمناسبات التي يتم فيها مخاطبة ود العامة أو المنتجين لتحقيق أهداف ومصالح محددة. إن ذلك في الواقع هو استمرار تأدية الضرائب والجبايات لخزينة الدولة. ومن خلال الإشارات المصنوية المتعددة، نميل إلى القول إن الخلافة قد قللت نسبياً من الضرائب غير الشرعية التي ازدادت استفحالا خلال العصر الطائفي.

فكيف كانت تُجبي الأموال والضرائب المختلفة؟

أكد ن. بروفنسال⁽⁷⁾ أن العمال في الأقاليم كانوا يشرفون على جمع الضرائب ويتولون الصفات العمومية، ولا يوجهون إلى الخزينة المركزية بقرطبة إلا الفائض منها. يسير من المعلومات التي تقدمها المصادر وجود وظائف وهيئات إدارية تشرف على جمع الضرائب. لقد قدم ابن حيان⁽⁸⁾ لائحة بأسماء العمال والقواد ومهامهم في الأقاليم منذ بداية عصر الحداثة.

(1) - نفسه: ج 5، ص. 207.

(2) - ابن عذاري: نفسه، ص. 259.

(3) - مجهول: نكر بلاد الأندلس...، ص. 182.

(4) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 84.

(5) - مجهول: نفسه، ص. 208.

(6) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 130.

(7) - LÉVI-PROVENÇAL (F), Histoire de l'Espagne... op Cit, T 3, p 41

(8) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 254، 253.

ولاشك أن العديد منهم كان يشتغل بمساعدة أو بتنسيق مع أصحاب الحطط المعروفة كحطط القضاء والحسبة والشرطة⁽¹⁾ وغيرها. كما أن السلطة السياسية المركزية بقرطبة قد تنحلت في الجند - جند الحضرة - وهو أداة فعالة في يدها، من أجل قمع وردع الرافضين ضد الجبايات. يقول ابن حيان⁽²⁾ في هذا المعنى إن الخليفة عبد الرحمن الناصر أخرج عام 329 هـ القائد عبد الحميد بن بسيل "بقطيع من الحشم إلى لبشكة (?) عندما امتنعوا (أهلها) عن داء الجباية وخرجوا إلى المعصية... فلما بلغهم خروج الجيش إليهم أقلعوا عما هموا به ولاذوا بالطاعة وسالوا الأمان...".

لاشك أن الوضعية اختلفت خلال العصر الطائفي الذي تميّز بسقوط هيبة السلطة المركزية التي لم تعد تتحكم في الجند كما كان الأمر خلال العصر السابق. لقد استعقلت الصراعات الطائفية وازداد الشطط في المجال الضريبي لمواجهة مشاكل متعددة على المستويين الداخلي والخارجي. وتعدى الأمر الجبايات الشرعية التي هي الزكوات والخراج⁽³⁾ إلى إتقال كاهل العالم المنتج في البوادي والمدن كما حدث بالفعل أيام ابن ذي النون بطليطنة ومبارك العامري ببلنسية⁽⁴⁾، والعباديين بإشبيلية⁽⁵⁾. لقد استعمل الابتزاز والضغط الجبائي الذي شمل حتى تلك المواد التي تؤمن الحياة أو المعيشة اليومية للفلاح كالذواب ولأغنام والنحل⁽⁶⁾ وغيرها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى تقديم الفلاحين والمزارعين السخرة والأعمال الجماعية في المواسم الفلاحية وأوقات الحصاد⁽⁷⁾. إن هذا النقل الضريبي كرس في الواقع انحراف الرعية وزاد من إضعاف السلطة وارتمائها في أحضان المرتزقة أولا والقشتاليين ثانيا. وربما كانت الضرائب أحد الأسباب الرئيسية التي سهلت التدخل

(1) - انظر مهام هذه الخطط في:

ابن عبدون: كتاب الحسبة...، مصدر سابق؛ السقطي (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالكي لأندلسي): في آداب الحسبة، تحقيق الزين (حسن)، بيروت، 1987؛ ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 469، 463، 462، 461، 252.

(2) - نفسه: ص. 486.

(3) - حول الضرائب الشرعية وغير الشرعية انظر كتب الأموال مثل:

ابن آدم: كتاب الخراج...، مصدر سابق؛ الداودي: كتاب الأموال...، مصدر سابق؛ ابن سلام: كتب الأموال...، مصدر سابق؛ أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم القاضي): كتاب الخراج، لمطبعة السلفية، القاهرة، 1346.

(4) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 139.

(5) - المقرئ: النفع...، ج 4، ص. 374، 375؛ الطاهري: عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 123، 216، 208، 206، 124.

(6) - ابن حزم: الرسائل...، مصدر سابق، ج 2، ص. 175، 176.

(7) - أبو الخير (الإشبيلي): كتاب في الفلاحة، نشر القاضي التهامي الناصري، فاس، 1357، ص. 10.

الطاهري: نفسه، ص. 206؛ حناوي: الأدوات الفلاحية الأندلسية...، ص. 107.

المرابطي في الأندلس كما يتضح من إشارات مصدرية متعددة منها ما أشار إليه ابن نقيس^(١) بقوله: "(...) وإنما وجست نفسي من الرعية لطمعهم في حط المعارم وللدن سماع من الركذ والعشر عن المرابطين". وذكر يوسف ابن تاشفين نفسه أن المعتمد بن عباد لم نكر له سياسة جباية عادلة لأنه "(...) مضيع لما في يده من الملك لأن هذه الأموال لابد أن يكون لها ردت، لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً"^(٢). وقد عبر أحد الباحثين^(٣) عن تدهور الأوضاع وسهولة التدخل المرابطي في الأندلس بقوله إن المرابطين لم يغالوا نظراً لنزوة الرعية وسخط العلماء، وخيانة القواد والعمال وتهاون الجند ولا مبالاة الصقالبة. لانت ابن الجزية زادت من نفور الرعية من السلطة. لقد اعتقد العديد من الزعماء خاصة عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد أن الجزية بإمكانها إبعاد الأخطار المسيحية، لكن الأمر كان عكس ذلك فكلما أخذ المسيحيون الجزية إلا وازدادت أطماعهم في البلاد الأندلسية وقالوا "هل من مزيد". ولتأكيد ما نذهب إليه يكفي قراءة الحوار الذي دار بين ابن بلقين ذاته وألبرهانش مبعوث القديس الفستالي الذي قال له "(...) لم يأت عن ذلك كله إلا أن تعطيه ما فاتته عندك من حزيه ثلاثة أعوام بثلاثين ألفاً! لا تنقص منها شيئاً وإلا فهو مقبل! والذي تقدر عليه فاصنع..."^(٤).

لاشك أن الأموال الضخمة المكتنزة في خزائن الحكام الأندلسيين، والناجمة عن الجبايات المختلفة، قد جئبت في واقع الأمر، الحكومات الأندلسية السقوط في العديد من الأزمات الاقتصادية والمالية. لكنها في الوقت ذاته، سببت في أزمات كثيرة وأسالت لعاب المسيحيين لما ضعفت السلطة المركزية وهو ما عبر عنه أحدهم^(٥) بدقة بقوله "معظم ما أهلك الأندلس وسلط عليها الروم، أن الروم لم يكن لهم بيوت أموال، وكانوا يأخذون الجزية من سلاطين الأندلس، ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم على رجاله. وإنما كانوا يصطنعون بها الرجال، وكانت سلاطيننا تحتجب الأموال وتضييع الرجال، فكان للروم بيوت رجال والمسلمين بيوت أموال، فبهذه الحيلة قهرونا".

(١) - ابن بلقين: نفسه، ص. 135.

(٢) - المقرئ: النسخ...، ج 4، ص. 375.

(٣) - ARTINEZ-GROS (Gab), L'idéologie omeyyade..., op. Cit, p 254

(٤) - ابن بلقين: كتاب التبيان، ص. 139.

(٥) - الطرطوشي: سراج الملوك...، المصدر السابق، ج 2، ص. 502.

ما هو نصيب الجند من الأموال والضرائب السابقة؟ وبمعنى آخر كيف تُصرف أعطى نقدًا؟ هل يستفيد كبار الجند من الضرائب أيضًا إلى جانب تصرفهم في ملكيات عقارية كبرى كم سلف القول؛ أم أن جزءاً من هذه الأموال يقدم كرواتب لصغار الجند فحسب؟

تجمع المصادر على أن الجبايات التي تُحصَلُ في الأندلس خلال الخلافة كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام: "ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مُدَّخَر" ⁽¹⁾. قال ابن غالب ⁽²⁾ بأن الثلث موقوف على الجند، وثلث مُدَّخَر في الخزائن للنوائب، وثلث للنفقة في الزهراء. أما ابن الكردبوس ⁽³⁾ فأوضح أن الثلث في بيت المال والثلث للأجناد، والثلث يفرقه أو يهبه الخليفة للشعراء والخطباء والقضاة؛ أو يُخصَّص للبناء والصلوات ⁽⁴⁾. ولنجس هذا التقسيم أكد المقرئ ⁽⁵⁾ أن خراج الأندلس أيام بني أمية "ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة للجند مائة ألف دينار. وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤون أهلهم مائة ألف دينار، ويُدَّخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار".

يتضح مما سبق أن المصادر، وإن اختلفت في بعض المجالات التي تُصرف فيها أموال الجبايات، فإنها تتفق جميعها، على أن الثلث منها يخصص لأعطيات الجند لكن دون توضيح كيف يُقسَم ذلك الثلث على الجند، أي ما هو مقدار راتب الجند كبيرهم وصغيرهم. لاشك أن المستفيد من ذلك هم الجند المسجلون في الديوان أي "ديوان الجند" أو "المقاتلة". يبدو أن الأمويين في الأندلس ساروا على نهج الخلافة في المشرق ⁽⁶⁾، لما أحدثوا ديواناً لترتيب المقاتلة وأعطياتهم، خاصة مع إحداث جند مركزي أو جند الحضرة الذي تقوى عدداً وُعُدَّة. قال ابن الفقيه ⁽⁷⁾ "والأموي جند وديوان يُعطِيهم أرزاقهم من العرب والموالي وغيرهم". لقد دأبت كتب

(1) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 231؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 38؛ المقرئ: النفح...، ج 1، ص. 379.

(2) - ابن غالب: تعليق منتقى...، ص. 301.

(3) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص. 59.

(4) - ابن أبي دينار: كتاب المؤنس...، ص. 53.

(5) - المقرئ: النفح...، ج 1، ص. 146.

(6) - تنكر المصادر أن ديوان المقاتلة وُضع على عهد الخليفة عمر بن الخطاب لما توفّر المال واتسعت البلاد وكثر الناس. لقد أمر عمر بن الخطاب بإحداث الديوان لأخذ العطاء، لكن اختلف حول كيفية تنظيمه بين بني هاشم وبني نعيم وبني عدي، وتدخل الخليفة لحسم الأمر قائلاً: "إذا أردتم أن ترضوني، اكتبوا الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ، وضعوا عمر حيث وضعه الله".

ابن تيمية (أحمد الشيخ): الجهاد، تحقيق عميرة (عبد الرحمن)، بيروت، دار الجيل، 1991، ج 1، ص. 257؛ الداودي: كتاب الأموال...، مصدر سابق، ص. 61.

(7) - ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد لهدلي): كتاب البلدان، لندن، بريل، 1885، ص. 58.

الأخلاق السلطانية على تقديم النصائح لأهل الملك بصدد ديوان الجند الذي ينظم الأرزاق ويضبط أوقات صرفها، نظراً لما لذلك من أهمية في حياة وشؤون الجند. يذكر التميمري^(١) أن نيات الجند "لا تصلح إلا بأدوار أرزاقهم وسير حاجاتهم والمكافات لهم". وفي هذا المعنى أوصى الكاتب الشهير ابن المقفع^(٢) بضرورة أن "يؤقت لهم (الجند) أمير المؤمنين وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له، وأن يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة ديوانهم وجمل أسمائهم"^(٣)، ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه، فينقطع الإستطاء والشكوى...".

إذا ترك ابن المقفع أمر اختيار وقت العطاء لتقدير السلطان؛ فإن الماوردي^(٤) ربطه بأوقات استيفاء حقوق بيت المال خلال السنة. ومن المسنح أن تكون مضبوطة ومحددة: "فإن كانت تُستوفى في وقت واحد جعل العطاء في رأس كل سنة، وإن كانت تُستوفى في كل وقتين جعل العطاء في كل سنة مرتين، وإن كانت تُستوفى في كل شهر جعل العطاء رأس كل شهر". ومنهم^(٥) من أكد أن حاجة الملك إلى العسكر يؤد ضرورة جعل أرزاقه كل شهر. وللمقارنة مع أوقات استفادة الحند الموحد من أرزاقه يقول العمري^(٦): "وأما أرزاقهم (بركاتهم)، تفرق أربع مرات في كل سنة. في عيد الفطر تفرقة، وفي رجب تفرقة، وفي ربيع الأول تفرقة. وفي عيد الأضحى تفرقة...". من الأفضل إذن أن يكون وقت العطاء مضبوطاً ومعلومًا يعرفه الجند^(٧)، لأن عكس ذلك قد يفضي إلى تسلطه على أموال الرعية أو الانشغال بمكاسب أخرى^(٨)

- (١) - التميمري (أبو العباس أحمد وليد بن محمد) كتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فصل الخلافة، مخطوط ح ع، ميكروfilm 1033، ص. 27.
- (٢) - ابن المقفع: الأنب الصغير...، مصدر سابق، ص. 202.
- (٣) - تحدث المقرئ عن أهمية ديوان الجيش لدى الفاطميين من حيث تنظيم الرواتب بناء على إعداد لوائح الجد ومدة ما يطرأ عليها من تغييرات بسبب تسجيل أسماء جديدة أو موت البعض إلخ.
- (٤) - المقرئ (أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ): الخطط المقرئية، بيروت، دار إحياء العلوم، د. ت، ص. 241.
- (٥) - الماوردي: الأحكام السلطانية...، ص. 205.
- (٦) - ابن أبي حجة (يوسف): رعاية الرعية، مخطوط، خ. ح، 6795، 96.
- (٧) - العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق فؤاد سيد (أيضاً)، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1985، ص. 18.
- (٨) - المقرئ (أبو حامد الإمام) التبر المسبوك في نصيحة الملوك أو (صيحة الملوك والوراء والولاية)، مخطوط، ح ع، لرسط، د 1193، 42 ب؛ أبو الحسن (محمد بن الحسين الأهوازي): الفوائد والفوائد. قلند السلوك فيما يحاج إليه الملوك، مخطوط، ح ع، 6481، 34 أ، 34 ب؛ ابن الأثير: بدائع السلك في طبائع الملوك، ص. 283.
- (٩) - كان يشتت إلى العدو أو يميل نحو من يعريه. وتذكر المصادر صرائف في هذا الباب من أشهره فولة الحليفة العدي السصور في قوله "صدق الأعزسي حيث يقول أجع كلتيك يشعك، فقال أبو العباس الطوسي يا أمير المؤمنين، لا تحسني بلوح له غيرك برغيف ويدعك". الطروش: سراج الملوك...، ح 2، ص. 493؛ ابن رضوان: الشهب اللامعة...، ص. 374.
- (١٠) - تلك عدة ما يوصي في عطاء الجند بالحرم أحياناً وبالتيوة أحياناً أخرى قال أحدهم لانه لا تؤمن على حيث سعة يستعور به منك، ولا تضيق عليهم ضيقاً يضجون به منك. ولكن اعطهم عطاء قصداً، وانعمهم منعا جميلاً.
- (١١) - ابن عبد ربه (أبو عيسى أحمد بن محمد الأسدي) العقد الفردي، تحقيق أمين (أحمد)، الزين (أحمد) (الابباري)، القاهرة، 1965، ج ١، ص 26.

غير الخدمة العسكرية كالمستغلات والمتاجر⁽¹⁾، مما يؤدي إلى وهنهم وضعفهم⁽²⁾. لكن من الممكن أن تُخصّص للجند مكافآت أخرى خاصة إبان المناسبات كالأعياد أو الانتصارات في المعارك⁽³⁾، إلى جانب الغنائم التي يستفيد منها مباشرة. يقول ابن أبي النور⁽⁴⁾، إن الجند يكسب رزقه من الجهاد والإغارة على الأعداء (المغانم) "وهم كالجوارح التي يُضربُ بها ويفسدها أن تطعم مما لا تنصيده...".

وتفيد المعلومات المصدريّة المتوافرة أن الخلفاء والحكام الأندلسيين حاولوا تنظيم ديوان الجند بشكل يؤدي إلى العناية به باعتباره الأداة الأولى التي يُعَوَّل عليها. "تردد ذكر ديوان الجند منذ عصر الإمارة، يقول صاحب أخبار مجموعة⁽⁵⁾ بأن الأمير هشام بن عبد الرحمن كان إذا قُتل أحد من جنده "الحقّ ولده في ديوان أرزاقه". كما ذكر الديوان في المصادر بكثرة إبان الحملات العسكرية التي شنها الخليفة عبد الرحمن الناصر ضد خصومه من أجل إخضاعهم وإحاقهم بالديوان بقرطبة. فمنذ غزوته الأولى إلى نواحي جيان أمر بالقبض على ابن الشانية و"حمل عياله إلى قرطبة فصار في الديوان بها في أعلى الملاحق"^{(6) مكرر}. وكذلك كان مال الرعي ابن عيسى صاحب حصن أم جعفر في نواحي ماردة الذي نزل إلى الحضرة مؤكداً تبعيته للناصر وصار في الديوان برزق واسع⁽⁷⁾. ونُقل صاحباً حصني قنالش والفهين من أعمال طليطلة إلى قرطبة وألحقاً في الديوان⁽⁸⁾.

لا نعرف بالتدقيق الأعداد المسجلة في الديوان من الجند النظامي أوجند الحضرة منذ بداية الخلافة إلى آخر العصر الطائفي. وأكثر من ذلك، يصعب جداً إعطاء أرقام تقديرية حول

- (1) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، الإسكوريال، 8 أ؛ ابن هذيل: تحفة الأنفس...، مخطوط، الإسكوريال، 21 أ؛ ابن الخطيب: الإشارة إلى أدب الوزارة تليها مقامة السياسة...، ص. 126.
- (2) - الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر...، مصدر سابق، ص. 173.
- (3) - لبطريق: كتب لسياسة في تيسير لرنسة، مخطوط خ ج، لربط ج 94 (مجموع)، ص. 227.
- (4) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، 8 أ.
- (5) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 109.
- (6) - ابن الأبار: الحلة السيرة...، ج 1، ص. 231.
- (6) مكرر - لا ندري بالضبط ما المقصود بملحق أو بملاحق الديوان. قال محقق ابن الأبار أن الملحق هو المقيد في ديوان العطاء ليُصرف له راتب شهري. ج 1، ص. 231. لكن ما الفرق هنا بين الملحق وبين المسجل في الديوان، إذ لم يكن الملحق هو الذي خضع لعملية التسجيل في الديوان بعد المسجلين الرسميين أي بعد جند الحضرة الموجود بشكل رسمي بقرطبة، وبه التحق الذين أعجب البصر بشجاعتهم وإقدامهم. إلى جانب ملاحق الديوان تذكر الفاظ وأسماء أخرى له علاقة بالديوان مثل: "الملاحق السنية" أو العطاء في "ديوان قریش".
- انظر، ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 202؛ ابن الفرص: تاريخ علماء الأندلس...، ج 1، ص. 222.
- (7) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 239.
- (8) - نفسه: ص. 283.

المتطوعة لأنهم لا يسجلون في الديوان وأنهم لا يستنفرون إلا في أوقات محددة ولا يأخذون الأرزاق إلا من المغانم في حالات الانتصار. تتضارب المصادر في ذكر أعداد لجند، فم تقتصر على ذكر بعض الأعداد المشاركة في الحملات العسكرية⁽¹⁾، أو تقلل من حجم الأعداد لأسباب متعددة، أو تكتفي بإشارات مقتضبة تدل على الكثرة أو القلة. ومن أمثلة ذلك: قول ابن القوطية⁽²⁾ بأن "جميع ثوار الأندلس يرتزقون ويقتطعون في حشمه". وذكر ابن الخطيب⁽³⁾ أن الأجناد العامرية من الفرسان المرتزقين في الديوان بلغت "إثني عشر ألف فارس ومائة زيادة". وفي المعنى ذاته قال ابن عذاري⁽⁴⁾ إن المنصور ابن أبي عامر لما توفي عام 392 هـ كان "عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها... عشرة آلاف وخمسمائة، وأجناد الثغور قريبا من ذلك". أما ابن حوقل⁽⁵⁾ الذي قلل دائما من فعالية وأهمية الفرسان في الأندلس فصرح أن جريدة الخليفة عبد الرحمن الناصر "ما أطبفت قط على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه لأنه مكفى المؤونة بأهل الثغور من أهل جزيرته...".

يصعب في اعتقادنا الحسم في مناقشة أعداد الجند الأندلسي سواء المسجلون في الديوان أو المتطوعة لأسباب عديدة منها غياب دراسات وأبحاث مخصصة للبنىات السكانية والعمرانية في العالمين الريفي والحضري، والجند فيما نرى، جزء أساسي من تلك البنىات. إن دراسة السكن والسكان والعمران في الأندلس من القضايا الشائكة؛ لكنها في غاية الأهمية لأنها تكشف عن معطيات دقيقة تفيد في فهم موقع الجند في البنىات البشرية الأندلسية⁽⁶⁾.

(1) - انظر فصل خطط وأساليب القتال.

(2) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 124.

(3) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 99.

(4) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 301.

(5) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 109.

(6) - للمقارنة مع أوروبا نشير إلى أن الأبحاث المخصصة للبنىات البشرية الفيودالية قد حققت تراكما معرفيا مهما منذ أوائل الستينات، الشيء الذي أدى إلى ظهور مدرسة تاريخية أو اتجاه تروحي شبه مستقل دخل مدرسة الحوليات المشهورة (Les Annales)، يعني بعلم الديسوغرافيا في الفترة الفيودالية. إنه علم يهتم بالأعداد والهجرات واتجاهاتها وأثرها في المجال الطبيعي والاقتصادي مثلا لكل تطور علم الديموغرافيا المرتبط بالفيودالية مرتبط بوفرة الوثائق ولأرشفات المتنوعة والمصنقة ورغم تقدم الأبحاث في البنىات البشرية والعمرانية الفيودالية نلاحظ أن ضبط أعداد الفرسان أو المحاربين ونسبتهم معاربه بأعداد السكان في الأرياف والمدن الأوربية، ما زال تعرضه صعوبات لأسباب منها أن عالم المحاربين أي (السلاح) كان يشكل نظاما معلقا يصعب إحقاؤه بطرا لطبيعة عدائه وتقاليد وثقافته.

انظر التفاصيل في:

CHAUNU (P) ; Histoire quantitative, Histoire sérielle, Paris, A. Colin, 1978.

LEGOFF (J) ; NORA (P) ; Faire l'Histoire, Paris, Gallimard, 1974, 3 Vol.

LEGOFF (J) ; CHARTIER (R) ; REVEL (J) ; La Nouvelle Histoire, Paris, RETZ, 1978

BLOCH (M) ; La Société féodale..., op Cit

DUBY (G) ; Le Chevalier, la femme et le prêtre, Paris, Hachette, 1981.

FLORI (J) ; L'idéologie du Glaive..., op. Cit.

CONTAMINE (Ph) , " Le combattant dans l'occident médiéval " ..., op. cit.

إن من شأن علم الآثار والدراسات الطبوغرافية⁽¹⁾ أن تساعد البحث التاريخي المصدري من أجل إنارة القضايا السالفة الذكر. لقد دشن الباحث الإسباني الكبير L.Torres Balbas⁽²⁾ البحث المعماري والأثري لما اعتمد نماذج ميدانية وأنجز أبحاثاً هامة حول بعض المدن الأندلسية. انطلق منها باحثون آخرون أمثال VALLE J. B⁽³⁾ الذي اقترح بعض الإحصائيات عن السكان والمجال المعماري في بعض الحواضر يمكن صياغتها كالتالي:

الفترة	عدد السكان	المساحة خارج الأسوار (Extra-muros)	المدينة
بداية ق ٧ هـ / XI	27.000 نسمة	79 هكتاراً	المرية
ق ٦ هـ / XII م	26.000 ن	75 هـ	بطلوس
ق ٦ هـ / XII م	18.000 ن	56 هـ	إستجة
ق 5 هـ / XI م	26.000 ن	75 هـ	غرناطة
ق 6 هـ / XII م	1.600 ن	46 هـ	شريش
بداية ق 6 هـ / XII م	83.000 ن	187 هـ	إشبيلية
آخر ق 5 هـ / XI م	37.000 ن	106 هـ	طليطلة
آخر ق 5 هـ / XI م	17.000 ن	47 هـ	سرقسطة

انطلاقاً من المعطيات الواردة في الجدول اكتفى VALLV بإيراد بعض التقديرات التي تهم الكثافة السكانية دون تحليل ذلك، إذ قال بسـ 58 ساكن في الهكتار الواحد و 348 نسمة في الكلم² أي بمعدل ستة أشخاص للعائلة الواحدة⁽⁴⁾. وقال بصدد مدينة قرطبة الحاضرة الأندلسية بأن ساكنتها لم تتعد مائة ألف (100.000) نسمة خلال القرن الرابع الهجري (X م) أي عصر الخلافة⁽⁵⁾. يبدو من خلال ما سبق أن المعطيات التي أوردها VALLV لا تعدو أن تكون عامة وتقريبية ولا تخص إلا بعض المدن المعروفة. وأكثر من ذلك لا تستند إلى معطيات

(1) - انظر باب الحصون والتحصينات والأسوار.

(2) - TORRES - BALBAS (L), Ciudades Hispano-musulmanas, Madrid, 2e édition, Dirección general de relaciones culturales instituto Hispano-Arabe de culture, 1985.

(3) - VALLVÉ (J. B): La Division territorial., op.cit, p.174.

(4) - VALLVÉ (J.B); op. Cit, p. 174.

(5) - قدم باحثون آخرون أرقاماً مرتفعة عن سكان قرطبة خلال الخلافة إذ يمكن إدراجها في لائحة "المدن المليونية" في العالم الإسلامي الوسيط. انظر مثلاً الطاهري: عامة قرطبة...، مرجع سابق، ص. 25، 26، 27، 28.

مصرية واصحة. فكيف يمكن الحديث عن سكان الأرياف أو البادية أو حتى سكان من
حرى لم نرد عند: ٧٨١.١٨١ وغيره. انطلاقاً من ذلك يصعب الحديث عن عدد أحد
والنسب التي يمثلونها بالنسبة لعدد سكان الأندلس خلال الخلافة والطوائف. لكن رغم ذلك
يمكن تقديم صورة ولو تقريبية عن أعداد الجند من خلال بعض الحملات العسكرية، مع العلم
أنه لا نعول على الأعداد في الحروب نظراً للمبالغات الكثيرة التي تسوقها^(١). قدم ابن حبان^(٢)
معلومات دقيقة عن أعداد الفرسان الذين كانوا يشاركون في الحملات العسكرية التي كان
الأمير محمد يوجهها ضد المسيحيين خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/١٨ م.
وتيمنا حملة سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣ م لأنها تكشف عن طبيعة المجهودات العسكرية السريية التي
تساهم بها بعض الكور والأقاليم لفائدة السلطة المركزية، بدلاً من المساهمة بالحرب
والضرائب. تقدم الكور والأقاليم الآتية من الفرسان ما يلي:

٢٩٠٠	فارسا
٢٢٠٠	البيرة
١٨٠٠	جيان
٩٠٠	قبرة
٢٩٩	باغه
٢٩٠	تاكربنا
١٢٠٠	الجزيرة
١٨٥	استجة
٦٧٩٠	قرمونة
٢٦٠٠	شدونة
٤٠٠	ريه
١٤٠٠	فحص البلوط
١٥٦	مورور
١٠٦	تدمير
٣٨٧	ريينة
؟	قلعة رباح وأوريط
	قرطبة

المجموع = 21.613

(١) - انظر مناقشة حدود الأعداد في المعارك في فصل خطط وأساليب القتال.

(٢) - ابن عذاري: البيان، ج ٢، ص. ١٠٩.

ونحيطر مجموع ما قدمته الكور والأقاليم المذكورة من الفرسان في حملة 249هـ (٨٦٦) مع 21613 فرسا. لكن بفاوت واختلاف كبيرين، علق لـ بروفنسال⁽¹⁾ وغيره⁽²⁾ على هذه الأرقام بنقول إنها قريبة من الدقة، والموضوعة، والتفاوت فيما بينها يُفسر بعدد السكان في كل كورة أو إقليم وبأوضاعها الجغرافية والأمنية. لكن دون ذكر عدد السكان في تلك الكور. ونسوي. نصيف إلى ذلك غياب كورة إشبيلية وعدد فرسانها، مع ذكر قرطبة دون الإسمارة إلى نصيبها من المجهود العسكري المشار إليه. نلاحظ كذلك أن شذونة وبعدها البيرة، ثم رنة وجيان، ثم قبرة ومورور، أي ستة كور من مجموع ستة عشر تقدم لوحدها 17690 فارسا من مجموع 21613 (أكثر من النصف). إنها تشكل لوحدها النواة الأساسية للجند الأموي الأندلسي باعتبارها تساهم بالعدد الأوفر منه. لا غرو فالكور المجندة على رأسها شذونة تقدم أضعاف ما تساهم به الأقاليم الأخرى لأنها تقدم الرجال بدلا من الجبايات والضرائب⁽³⁾.

كم يتقاضى هؤلاء الجند من الديوان؟

سبق القول إن الجند الذي استقر بالكور المجندة، كانوا يتمتعون بحقوق استغلال الأرض وأموال أهل الذمة من العجم طعمة⁽⁴⁾. نملك إشارات غاية في الأهمية انفرد بذكرها بر الخطيب⁽⁵⁾ نقلا عن الرازي حول ما يتقاضاه الأجناد من الديوان في حالة الغزو. يقول: "(...) كان الخليفة يعقد لواءين لواء غازيا ولواء مقيما، وكان رزق الغازي بلوائه مائتي دينار. ويبقى لمقيم بلا رزق ثلاثة أشهر، ثم يُدال بنظيره في أهله أو غيرهم.. وكان الغزاة من الشاميين يرزقون عند انقضاء غزاته عشرة دنائير... ومن كان من الشاميين غازيا من غير بيوتات لعقد ارتزق خمسة دنائير عند انقضاء الغزو. ولم يكن يعطي أحد من البلديين شيئا غير منعقود له. وكان البلديون أيضا يعقد لهم لواءان (لواءان)، لواء غازي ولواء مقيم، وكان يرتزق الغازي مائة دينار وازنة... ولم يكن الديوان والكتبة إلا في الشاميين خاصة". إضافة إلى ذلك كان الشاميون لا يؤدون العشر عكس العرب البلديين وأهل البلد الأصليين الخاضعين

(1) - LI-PROVENAL (E): Histoire de l'Espagne. ., op. cit, T.3, p. 69.

(2) - نثون طه: تنظيمات الجيش...، ص. 53.

(3) - انظر فصل الكور المجندة وجند الحضرة.

مؤنس: فجر الأندلس...، مرجع سابق، ص. 557، 555.

(4) - انظر: ص. 80 من هذا الفصل.

(5) - ابن الخطيب: الإحاطة...، ج 1، ص. 110.

لهذه الضريبة. وأكثر من هذا "كان أهل بيوتات منهم (البلديون) يعرفون كيف يعرفون أنفسهم".⁽¹⁾

ويتضح من المعطيات السابقة مدى الامتيازات التي كانت الخلافة الأموية حصصها للتساميين الذين كانوا يشكلون العمود الفقري للجند. فإلى جانب إعفائهم من الضرائب خاصة العشر، استفادوا من استغلال الأرض ومحاصيلها. وفي حالة مشاركتهم في حملات عسكرية لفائدة سلطات قرطبة، فإنهم يتقاضون رواتب نقدية أعلى بكثير مما يحصلون عليه البلديون الذين وضعوا في مرتبة دنيا.

لاشك أن نظام الغزو الذي وصفه ابن الخطيب ظل قائما في جهات أندلسية أخرى كدندة الثعور كما أوضح العذري⁽²⁾ حين أشار إلى أن الأمير محمد بن عبد الرحمن (232-238هـ) "عقد لني تجيب وبني قلعة أبوب وألزمهم بمحاربة بني قسي المنترين بالنعر الأعلى وأجرى عنده الأموال عند كل حملة مائة دينار".

إذا أكدنا سابقا أن الجند الخلافي خاصة حند الحضرة المسجل في ديوان المقاتلة كان يستهلك ثلث الضرائب، فمن الصعوبة بمكان الحديث عن حجم رواتبه ومقاديرهم والأوقات المنتظمة لصرفها. أكثر من ذلك لا نملك معلومات نستطيع من خلالها التمييز ما بين رواتب كبار الحند وصغارهم. فسكوت المصادر في هذا الباب يكاد يكون تاما. فإذا توفرت بعض الإشارات، فتنهم رواتب بعض كبار الجند وقواده، أو رواتب الحُجَّاب والوزراء أو بعض الشخصيات النافذة التي ما فتئت تقدم خدمات مختلفة للسلطة. فالأمير عبد الرحمن مثلا كافأ بعض المروانيين الذين قدّموا الأندلس أمثال أبو القاسم بكار وابن أخيه أبي سعيد مسلمة بن عبد الملك، بأن وزع عليهم الأرض و"الإقطاع"، إضافة إلى الأموال بحيث "أجرى لكل واحد الرقّ بالمشاهرة ثلاثين دينارا"⁽³⁾. يقول صاحب البيان⁽⁴⁾ إن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما تولى شؤون الخلافة "ولى أحمد بن محمد بن حدير الوزارة والقيادة وأجرى الرقّ على عبد الرحمن وعبد الله ابني بدر الحاجب، وذلك لكل واحد منهما ثلاثون ديناراً واربة". وأصاف

(1) - نفسه: ص. 101.

(2) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 41.

(3) - ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق مكي (محمد علي)، القاهرة، 1971، ص. 229.

(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 159.

أن المنصور بن أبي عامر، في إحدى غزواته ضد المسيحيين، قَرَّب إليه غالب أعلى قواد الخلافة المشهورين ورفع راتبه لِيَتَسَاوَى مع راتبه هو الذي وصل "ثمانين ديناراً في الشهر وهو راتب الحجابة"⁽¹⁾. ونشير إلى أن راتب المنصور العامري، لما كان في خدمة الخليفة الحكم المستنصر لا يتعدى "خمسة عشر ديناراً في الشهر مُرتباً في الوزارة"⁽²⁾. وللمقارنة مع الراتب في إحدى خطط الدولة الأخرى مثل خطة القضاء أو الشرطة نذكر مثلاً أن علي بن محمد بن أبي الحسين الذي تولى مسؤولية الشرطة الصغرى وقضاء الثغر في الآن نفسه. للخليفة الحكم المستنصر، كان رزقه لا يتجاوز "ثلاثين ديناراً"⁽³⁾. وقد لا تفصح المعلومات المصدريّة المتوافرة عن حجم الرواتب بصراحة، لكن تعبر ضمناً عن أهميتها مما يساعد على تكوين صورة عامة عنها كأن يقول أحد كبار الجند وهو معاوية بن صالح: "رزقني الأمير رزقاً واسعاً... استمر كل شهر حتى عزلني عند رأس العام، فاستقبلت العام الثاني الذي كنت فيه معزولاً بالفضول مما رزق العام الأول..⁽⁴⁾". وقد سبق التعبير عن الفكرة ذاتها بصدد ما نُدرّه الأرض و"الإقطاعات" لأصحابها من أموال دون حساب. وهو ما عبر عنه، بمبالغة، أحد قواد البربر البرزاليين لابن أبي عامر قائلاً "أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها..⁽⁵⁾".

وأحياناً تكشف المصادر عن إشارات دالة تهم رواتب بعض قواد الجند المشهورين، لكن لا يمكن القياس عليها واتخاذها قاعدة للقول بأن الجند عامة يستفيد من رواتب هامة، لأنها استثنائية للغاية. وللدلالة على ذلك نورد رواية متواترة في المصادر تبين شهرة وراتب أحد قواد جند المستعين بن هود بسرقسطة، يدعى ابن فتحون، الذي يتلقى كل مرة خمسمائة دينار⁽⁶⁾. وهو خمس مرات راتب الوزير أو الحاجب. وسبب ذلك أن الرواية تصف هذا القائد بنوع من المبالغة الممزوجة بالأسطورة حين يتصدى للمسيحيين الذين يخافونه بشدة، بدليل "أن

(1) - نفسه: ص. 267.

(2) - نفسه: ص. 251.

(3) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 81.

(4) - الخشنى: قضاة قرطبة...، ص. 38.

(5) - المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 417. انظر، ص. 92 من هذا الفصل.

(6) - الطروشى: سراج الملوك...، ج 2، ص. 701.

أحد البصري إذا سقى فرسه، فلم يشرب يقول له: أشربت أم رأيت ابن فتحون في نداء⁽¹⁾. لا يمنع هذا الاستثناء من المقارنة مع راتب صغار الجند الذي لا يتعدى بضعة دراهم من الاستقرار في مناطق معينة تحددها السلطة في قرطبة. نملك في هذا الصدد السارة واحدة - فيما نعلم - انفرد بها ابن عذاري لما وصف حملة عبد الملك المطهر عام 393هـ/1003م، في نواحي قطلونيا إذ، شجع الغازين معه على الاستقرار بجهة حصن مُقَصَّر⁽²⁾ () من رداء الإثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحراث فرغب في ذلك خلق عظيم⁽³⁾..⁽²⁾. لانسك أن مبلغ دينارين في الشهر من الديوان قليل لأنه مقرون بامتيازات أخرى تهم السكنى وقليل من الأرض؛ ومن ثمة تصور أن راتب الجند العادي نفداً دون الامتيازات قد يكون أكثر مما ذكر. لكن نعتقد أن هناك فرقاً كبيراً بين ما يتقاضاه كبار الجند وصغارهم. ولتكوين صورة عامة مقارنة لرواتب الجند في العالم الإسلامي نشير إلى أن رواتب الجند الأندلسي قد تكون قليلة مقارنة بما يتقاضاه كبار الجند الفاطمي. يذكر صاحب الخطط⁽⁴⁾ أن مرتب الوزير في الشهر "خمسة آلاف دينار ومن يليه من ولد وأخ من ثلثمائة دينار إلى مائتي دينار..". ويتقاضى الجند الأعلى رواتبه يومياً بحيث كان الأمير عبد الله الأول "يدفع للفراس أربعة دراهم في اليوم وللراجل درهمين⁽⁵⁾..⁽⁴⁾. وكانت رواتب كبار الأشياخ المرابطين بالأندلس ضعيفة مقارنة بما ذكر آنفاً. يعلن صاحب الحلل الموشية⁽⁶⁾ ذلك بكون المرابطين تشبعوا بتقاليد الصحراء التي علمتهم التكسب والكفاف. ولما استقروا بالأندلس "لم يزدوا فارساً على خمسة دنانير للشهر شيئاً مع نفقته وعنف فرسه، فمن ظهرت نجدته وإعانتته وشجاعته أكرموا به بولاية موضع ينتفع بفوائده..". أما الموحدون بعدهم فكانوا يوزعون أرزاق جندهم على شكل بركات أو إحسانات أو مواسات. يقول صاحب مسالك الأبصار⁽⁷⁾: "ولا يُصِيب كل واحد من الموحدين في كل تفرقة إلا أربعين ديناراً مُسَمَّاةً، فتكون بثلاثمائة درهم عتيقة، ولأكابر هؤلاء من هذه البركات أراضي مطة⁽⁸⁾..". أما الإحسان

(1) - نفسه: ص. 701؛ ابن رضوان: الشهب اللامعة...، المصدر السابق، ص. 409.

(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 6، 7.

(3) - المقرئ: الخطط...، مصدر سابق، ص. 241.

(4) - هوبكنز: النظم الإسلامية...، مرجع سابق، ص. 138.

(5) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 82.

(6) - العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار...، مصدر سابق، ص. 18.

"قَمْبَلُغ يُصَرِّف عَلَيْهِمْ وَهُوَ مِنْ السَّنَةِ إِلَى السَّنَةِ، عَلَى قَدْرِ مَا يَرُوقُ لِلسُّلْطَانِ"⁽¹⁾. وقد يستفيد الموحدون من "الجامكية"⁽²⁾ ثلاث مرات في السنة، أما جامكية الغزاة فمستمرة في كل شهر لا تخل⁽³⁾.

سبق القول بصدد الإصلاح العسكري العامري إن المنصور بن أبي عامر أعفى العامة من الغزو مقابل الانقلاب على عمارة الأرض وتقديم ضرائب سنوية تكون بمثابة عطاء الجند مشاهرة لأنه ينقطع للغزوات. لكن لا نعلم بالتحديد حجم ومقادير تلك الرواتب. وعلى العكس من ذلك تماماً تكشف المصادر بنوع من الدقة ما يُنفقه المنصور العامري على الجند الذي يُستنفر للحملات والصوائف العديدة ضد المسيحيين يذكر ابن الخطيب⁽⁴⁾ أن الإنفاق كان: "ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائتين وخمسين ألفاً، إلى أن يدخل شهر يونيو العجمي ويتضاعف فيه الإنفاق من أجل الاستعداد لغزو الصائفة، فينتهي إلى خمسمائة ألف دينار". لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل يدفع المنصور بن أبي عامر إبان الحملات "لأهل الحُملان وللموالي فرس ومطية وسرج ولجام، ولكل واحد نفقة شهرية من الطعام والعلوفة وتعيين الدور لهم للسكنى"⁽⁵⁾. وربما تأثر المنصور بن أبي عامر بالتقليد الفاطمي في هذا المجال، إذ كان الإحسان عندهم "في رأس كل سنة هو حصان بسرجه ولجامه وسيف ورُمح مُحلَّيان، وسَبَّيَّة، وهي بقجة قماش فيها ثوب طرد وحش مذهب.."⁽⁶⁾. تكشف النصوص السالفة الذكر، بما لا يدع مجالاً للتأويل أن العطاء في الأندلس قد يكون استثنائياً في حالة الطوارئ الحربية ليشمل الضروريات اللازمة للجند بما في ذلك "الإنزال" في دور العامة التي تُعينها السلطة لكونها قريبة من الثغور أي من مواقع الحروب، أو تقع في الطرق التي تسلكها الحملات وتتخذها محلات لها. ونعتقد أن السلطة السياسية كانت تستغل ظروف الحروب والإعداد للحملات العسكرية خاصة الصوائف والشواتي، إلى جانب ما يمكن أن تفرضه أوضاع الثغور

(1) - نفسه: ص. 18.

(2) - "الجامكية"، "جلمكي"، "جمكي"، "جولمك"، والجامكية معناها الأجر مقابل مزولة عمل.

DOZY (R) : Supplément..., op. cit, T. 1, p. 168.

(3) - العمري: نفسه، ص. 19.

(4) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 98.

(5) - نفسه: ص. 101.

(6) - القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، دار الكتب الخديوية، 1914، ج 5 ص. 204. 205.

المتاخمة للمسيحيين، لتخلق حالات من الطوارئ تسمح لها بفرض الضرائب غير الشرعية كالمكوس" (...) والقبالات ومعرفة الإبرال في الدور"⁽¹⁾. ولا عراية أن تكشف كتب الجهاد والفقه والنوازل عن إشارات دالة تعكس شكاوي متعددة ترد من العامة تطلب الإفتاء والنظر فيما يمكن أن يصيب الدور من الأضرار والعيوب التي يسببها إنزال الجند بها إبان الحروب⁽²⁾. وما دما بصد ما ينفق على الجند نشير إلى أن بعض أراقه قد يُصرف على شكل أطعمة في مناسبات عديدة، بدلا من صرفها نفدا. يورد الفقيه ابن رشد⁽³⁾ نازلة هامة تطرح إمكانية بيع الجندي الأندلسي لراتبه المؤدى له بالطعام قبل قبضه واستيفائه. واجاب في ذلك، "لا يجوز للجند.. بيع الطعام المرتب لهم على خدمتهم وعملهم إلا إذا اخرجت لهم به البراءات..، إلا بعد أن يقبضوه ويستوفوه"⁽⁴⁾. وقد ذكرت قضايا مشابهة تهم إمكانية الجندي إجارة ما أقطعه الإمام من المزارع والعقارات والقرى⁽⁵⁾.

لا شك أن أعطيات الجند المرتبطة بشكل مباشر بالجبايات كما سلف القول، تتأثر بالأوضاع الاقتصادية والأمنية السائدة، وذلك ما حدث بالتأكيد أيام الفتنة أواخر عصر الخلافة، وإبان عهد الطوائف. لقد دفعت الأزمات والصراعات الإقليمية والمحلية، وكذا تكالب الأضعاف المسيحية، إلى الزيادة في الجبايات غير الشرعية نظرا لارتفاع تكاليف الحفاظ على الأمن وتأمين حدود الدويلات الجديدة. وصار الاهتمام أكثر بأعطيات الجند خاصة المرتزق منهم. فهذا ابن عبد الجبار يكلف أحد أقاربه للاستعداد لطوارئ الحرب وأمره "بثبات الناس رجلا وفسانا في ملاحق ديوان الحند ووزعت عليهم الأسلحة"⁽⁶⁾. وأكثر من ذلك وثى إحدى قريباته

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 322.

(2) - الوشيري: المعيار المعرب...، ج 5، ص. 47، 48.

(3) - ابن رشد: الفتاوى...، مصدر سابق، ج 3، ص. 1453، 1454.

(4) - ابن رشد: نفسه، ج 3، ص. 1454، 1455.

لقد كان العطاء في المشرق يُصرف أيضا على شكل طعام للاستهلاك الشخصي لكن من أهم مدونه سكية تعرضه لنقص أو النقص مما يسبب في متاعب مستحقة وسكا ويهم المتعددة. ويظهر أن ذلك تكرر كثيرا حتى قرره

يا ويلنا قد غزل الوليد
فجوع الإمضاء والعبيد

الجاحظ (و غفر عنو بر بحر)، أسير والسنن، حقق هارون (محمد عبد السلام)، لاهور، سعيد، 1960، ج 1، ص. 251.

محمد علي (نصر الله): تطور نظام ملكية الأراضي...، مرجع سابق، ص. 136.

(5) - اختلاف الفقهاء في ذلك فمنهم من رفضها ومنهم من أجازها كالمذهب الحنفي. انظر:

مجهول: إجارة الإقطاع... مخطوط، الخزنة العامة، 216 (مجموع) ص. 339، 340، 341.

(6) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 62.

على المدينة "وأمرها بإثبات كل من جاءها في الديوان فلم يبق أحد حتى أثبت نفسه حتى الرهد والعباد وأئمة المساجد وغيرهم، وقبضوا العطاء، وكذلك التجار والأغنياء"(1).

وعلى غرار دأب الوزير أبو حزم جهور بن محمد لما "رتب البوابين والحشم على أبواب القصور .. وصير أهل الأسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم يأخذون ريعها خاصة ورؤوس الأموال باقية"(2). أما المعتضد ابن عباد صاحب إشبيلية "فاتخذ الرجال الذادة وانتقاهم من كل فرقة يتعهد طبقاتهم بإدراة الأعطية وضمان الزيادة"(3). وبالفعل كانت الزيادة في رواتب الجند الأندلسي تتحقق كذلك في مناسبات عديدة كالانتصار على العدو المسيحي. وهنا تطرح قضية الجند والغنائم ومدى تطبيق مضمون الآية الكريمة: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسَه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾(4). سبق القول باختلاف الفقهاء حول وضعية الأرض الأندلسية وتأكدت صعوبة القول بتطبيق مضمون هذه الآية الكريمة، والشيء ذاته يصدق في ميدان الغنائم. والاختلاف حولها يعود إلى بداية الفتوحات الإسلامية نفسها، بحيث كان الخمس في عهد الرسول ﷺ على خمسة أسهم: لله والرسول سهم، ولذي القربى سهم، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم. وبعد موته ظهر الخلاف حول السهمين الأولين قال البعض: "سهم الرسول للخليفة بعده، وقال آخرون سهم ذوي القربى لقربة الرسول ﷺ.. فأجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح"(5).

تزخر كتب الأموال والفقه والجهاد والنوازل، وكتب الأخلاق السلطانية بفيض من المعلومات حول أهمية الغنائم وعلاقة كل مشارك في المعارك بها. وكذا أنواع المواد التي يحوز الاستفادة منها في دار الحرب(6). فإذا كان المتعارف عليه في كتب الفقه والحديث هو

(1) - النويري: نهاية الأرب...، مصدر سابق، ص. 130.

(2) - الحميدي: جنوة المقتبس...، مصدر سابق، ص. 28؛ النويري: نهاية الأرب...، ص. 91.

(3) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 155 و156.

(4) - سورة الأنفال، الآية: 41.

(5) - أبو يوسف: كتاب الخراج...، ص. 24.

(6) - تذكر لمصادر نوع من المبالغة المعروفة أحياناً أن الأندلس بلاد غنية بالمواد النفيسة والسياسات التي تشيل لعب الجند المغال. يقول ابن أبي دينار إن المسلمين لما دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد أصابوا ما لا حد له من السبي "حتى إن الرجل منهم إذا ضلعت دسه وجد في حافرها سميراً من ذهب أو فضة".
كتاب المؤنس: المصدر السابق، ص. 34.

تخصيص سهمير للفارس وسهم للراجل⁽¹⁾، فإن بعض الفقهاء كأبي حنيفة خالف القاعدة وقتل
بالمساواة بين الفارس والراجل، أي سهم لكل منهما⁽²⁾. كما اتفق الفقهاء بألا يسهم لأكثر من
فرس⁽³⁾. لكن هل يستوي الجند النظامي أي حند الحضرة الذي يتقاضى راتبه من الديوان
بالمطوعة الذين يراهنون على الغنائم بالدرجة الأولى لأنهم غير مسجلين في ديوان الجند؟.
ذهب أحدهم⁽⁴⁾ إلى القول "إن المتطوع لا يأخذ راتباً وهو أفضل من الجندي الذي يتقاضى
الراتب...". وقال آخر⁽⁵⁾ "والمطوع وصاحب الديوان سواء". أكثر من ذلك قد يتدخل السلطان
أو الإمام ليسهم لبعض الذين لم يحضروا المعارك، لكنهم قاموا بمهام تفيد مصالح الجند
المقاتل كالسرايا التي تغامر لتستطلع أخبار العدو، أو الذين يقيمون الأسواق للجند⁽⁶⁾ إلى غير
ذلك. بل يمكن للجندي وهو في دار الحرب أن يستفيد من مواد وأدوات ولا تحتسب في الغنائم
خاصة تلك التي باشر صنعها بيده "كالسرج أو السهام أو القداح (خشب الببل) أو نشاب من
خشبهم المباحة... أو ما باعه من عمل يده"⁽⁷⁾. في حين لا يجوز لأي من الجند الذي شهد
المعارك أن "يبيع سهمه من المغنم"⁽⁸⁾. ويحرم عليه تمكين العدو مما يتقوى به على المسلمين
"كآلة الحرب من كراع أو سلاح أو سروج أو غيرها..."⁽⁹⁾. ولمحاولة تفادي السقوط في
النزاعات والصراعات المختلفة أجمع الفقهاء في باب الغنائم على أن "من دخل دار الحرب
فارساً فهو فارس، ومن دخل راجلاً فهو راجل، ومن مات من فرس أو رجل قبل الغنيمة فلا
سهم له"⁽¹⁰⁾. و "لا يورث العطاء"⁽¹¹⁾، ومن ثمّة يحرص الإمام على إحصاء من حضر الغزاة

(1) - انظر مثلاً:

ابن المناصف: الإنجاد في أحكام الجهاد... مخطوط، 74.174 ب؛ ابن آدم: كتاب الخراج... ص. 17 وم بعدها؛
الموردي: الأحكام السلطانية...، ص. 30، 205، 206؛ ابن سلام: كتاب الأموال...، ص. 307.

(2) - أبو يوسف: كتاب الخراج...، ص. 22.

(3) - مجهول: كتاب الجهاد، مخطوط، خ. ع، مجموع 2125.25 ب.

(4) - اختصار فتاوى البرزلي (مسائل الجهاد)، جمع ابن أبي زيد (الأنلسي)، مخطوط، خ. ع، ك 826، ص 38.

(5) - أبو يوسف: كتاب الخراج...، ص. 22.

(6) - مجهول: كتاب الجهاد، مخطوط، 78 أ.

(7) - ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام): قدوة العربي، تحقيق أسليماني (عائشة)، بيروت، دار الغرب
الإسلامي، 1989، ص. 206، 207.

(8) - ابن آدم: كتاب الخراج...، ص. 18.

(9) - ابن زكون: اعتماد الحكام في مسائل الأحكام...، مخطوط...، ص. 389. (انظر فصل الأسلحة).

(10) - مجهول: كتاب الجهاد...، 74 أ.

(11) - مجهول: إجارة الإقطاع، مخطوط...، ص. 369.

"على التحرّي بأن يجمع أعيان أصحابه وشيوخ عسكره ويقول لهم: كم تقدرون الجيش الذي كان في غزاة كذا . فإن اتفقوا على عدد ما قسم أربعة أخماسه على ذلك، وإن اختلفوا أخذ بالمتفق عليه..." (1).

تفيد المعلومات المصدّرية المتوفرة أن الخلفاء والحكام في الأندلس كانوا يكرمون المتطوعة بالصلوات والعطاء والغنائم وهي وافرة خاصة أيام الخلافة العامري. يقول المقرئ (2): "وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يُحصيها ديوان"؛ حتى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما "كثرت الأنفال وتوالت الغنائم وجَمَّ عدد السبي، قدّم الحاجب بدر بن أحمد على النّظر في السبي والقسم للغنائم محمد بن محمد بن أبي زيد صاحب الشرطة العليا..." (3). ولم يتّردد المنصور بن أبي عامر في أن "يُفيض العطاء في المتطوعة التي تعبر البحر للجهاد" (4). وبذلك تمكن من استمالة واصطناع القبائل البربرية المحاربة التي نفذ بواسطتها إصلاحه العسكري. وفي أيام العامريين أيضاً اتسعت أموال السبي والمغانم (5). ففي إحدى الحملات العسكرية التي قادها عبد الملك المظفر ضد القشتاليين، قام "بتوزيع سبيهم على أهل الرباط وفرسان الوفود" (6).

(1) - اختصار فتاوي البرزلي، مخطوط...، ص. 41.

(2) - المقرئ: النفج...، ج 1، ص. 379.

(3) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 146.

(4) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 87.

(5) - نفسه: ص. 98.

(6) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 23.

خلاصة

تبيين من خلال استعراض وتحليل المعطيات المصدرية المرتبطة بأعطيات وأرض والحد الأندلسي مدى العلاقة المباشرة ما بين هذا الجند، باعتباره دعامة سياسية وعسكرية للدولة و السلطة السياسية بقرطبة، والمجال الاقتصادي. لقد استفاد بشكل مباشر من لأرض والضرائب إلى جانب الغنائم. إن إخضاع الجند للأرض وتوسع كبارها في ملكيات عقارية كبرى حدث خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (IX م)، الذي عرف التحرية السياسية و "الإقطاعية" التي سهلت عملية مصادرة الأرض وانتشار قانون الغصب والغلبة. ومع مطلع القرن الرابع الهجري (X م) أي بمجرد قيام الخلافة الأموية بقرطبة وإقرار سياسة مركزية قوية، تغيرت الأوضاع في مجال الملكيات العقارية والأرض، وفي مبدآن تنظيم الجند نفسه. لقد تمّ التحكم في المجال وضبطه عبر القيام بعمليات واسعة من المصادرات. كما تمت إعادة هيكلة بنيات الجند، إذ تخلت السلطة بقرطبة عن الكور المجنّدة التي كانت النواة الرئيسية للجند، لفائدة خلق جند مركزي وهو جند الحضرة الذي تنظم بواسطة الديوان وأصبح أداة قوية طبقت بها الخلافة سياستها في مجالات متعددة. لكن إقدام الخلافة على سياسة مصادرة الأرض وإلحاق المعارضين في الديوان، وإن تحقّق بذلك إخضاع المجال، لا يعني القضاء على الملكيات العقارية الكبرى التي استفاد منها كبار الجند. لقد ظل امتياز استفادة كبار الحد أو عائلات معروفة من أقاليم بعينها قائماً خاصة في جهات النفور نظراً لخصوصياتها. إلى جانب ذلك ساهمت سياسة الخلافة في انتشار ملكيات عقارية أخرى كالأرض السلطانية وأراض الأحماس والملكيات الحرة المختلفة الأحكام.

أوضح أن المنصور بن أبي عامر ذهب بعيداً في تغيير البنيات العقارية والجند في لأن نفسه حتى أن عهده اقترن بإصلاح عسكري له علاقة مباشرة بالملكيات العقارية التي استغلّب الفلاحون بالدرجة الأولى. لقد استقبل القبائل البربرية من شمال إفريقيا وحملها قاعدة نسبية لحذره معتمداً على إخلاصها وولائها له وشجاعته. وبذلك جعل حداً لصراعات فنية دامة طغت على السلطة الأموية قادتها الأرستقراطية العربية من جهة والبيروقراطية المقلّبة من جهة ثانية. لاحظنا أن التعبير أو النحول الكبير الذي أحدثه المنصور بن أبي عامر تجلّى في

حول القوات العسكرية الحديثة لا تينم إلا بالشؤون العسكرية وحدها، مقابل أعطاب تدفع في مشاهرة. ولتحقيق هذا الهدف عمل على إعفاء الفلاحين والعامّة من العزو حتى ينكبوا على عمارة الأرض وتادية الضرائب والجبايات التي يخصص جزء منها لأرزاق لحند. لكن رغم ذلك التحول لم تتمكن المصادر من إفادتنا حول المقادير التي كانت تشكل رواتب الجند باهت عن الكمبات وطبيعة الجبايات التي التزم الفلاحون بتأديتها من أجل العناية بالجند. وبالمقابل يستفاد من إشارات متعددة أن الجباية كانت ثقيلة والجباة كانوا قساة متسلطين مما سبب في انحراف سلبية للغاية على الاقتصاد والجند معاً. وتلك إحدى أسباب فشل الإصلاح العسكري العامري الذي نعتقد أنه كان مؤقتاً وشخصياً ومن ثمة لم يكن، البتّة، شاملاً أو بنوياً. فرغم كون الجيش العامري جديداً من حيث التنظيم وطريقة هيكلته، فإنه كان ينشغل، في معظم الأوقات، بفضايا الثغور والمسيحيين. إنه جيش لم يخرج عن نطاق الولاء الشخصي لصانعه.

فبمجرد غياب صاحب المشروع، انهار مشروعه بسرعة لافتة. يضاف إلى ذلك أن المنصور العامري لما أسس جنداً وخصص له أرزاقاً بالمشاهرة عبر إعادة النظر في الأراضي التي يستغلها الفلاحون، سمح في الوقت ذاته بتفشي "الإقطاعات" والملكيّات العقارية الكبرى لفائدة مؤيديه وأعوانه. وتلك تناقضات أخرى عصفت بإصلاحه.

لقد ازدادت الأوضاع تعقيداً خلال الطوائف، إذ عادت تلك التجزئة السياسية و"الإقطاعية" والتشرذم الإقليمي — كما كان الأمر خلال النصف الثاني من عصر الإمارة — إلى الواجهة. وعاد معها قانون القوة والغلبة والغصب ومصادرة الأرض، وضعف الجيش المركزي. وصار الاحتماء بالحصون من جديد والبحث عن توفير الأمن هاجساً حاضراً لدى كل دويلات الطوائف. مما أدى إلى التسابق نحو البحث عن جند قوي قادر على توفير الأمن ولو كن مرتزقاً تتطلب العناية به أموالاً كثيرة يمكن الحصول عليها بواسطة الزيادة في الضرائب الشرعية وغير الشرعية كالمكوس والقبالات و"التقوية"، ناهيك عن الجزية التي تُدفع لمدارة المسيحيين مؤقتاً. إنها أوضاع اقتصادية واجتماعية وعسكرية أكثر تردّياً حاول التدخل المرابطي التخفيف منها.

الفصل الرابع

خطط الجند وأساليب القتال

خطط الجند وأساليب القتال

تُرخِز المصادر العربية خاصة كتب الجهاد والعرهات، وكتب الخلافات، معلومات دقيقة حول الطرق والأساليب، إن لم نقل المبادئ أو المبادئ الحربية التي كان المسلمون يتبعونها في قتال أعدائهم في أطراف الأمتطورية الإسلامية. فقد سارع تطبيق الأساليب القتالية كالتعبئة ونظام الكراديس، والرحف بالصفوف، ونكر ونكر، وما بصاحب ذلك من الكمان والحدع والحيل والحاسوسية والسرعة، أو ما يرتبط بها حرب كالسحابة والفروسية والإقدام والحيل، أو الخس والغرار التي عبر ذلك من أساليب المشهورة والمتواترة عبر التاريخ العسكري منذ الحصارات القديمة المعروفة في ترميمه أو البرنطية وغيرها.

هل طبق الجند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف الأساليب القتالية السابقة لذكر في معاركه ضد المسيحيين أو اقتبس منها أم طورها بشكل يتلاءم وخصوصيات تلك حربية إبيريا، أو مزج بينها وبين أساليب القتال لدى المسيحيين؟

قبل تحليل خطط قتال الجند الأندلسي لابد من الحديث عن القيادة والمراتب والمناصب وكذا التكتيكات العسكرية الأساسية إلى جانب بعض الخطط المرتبطة بخطط الحند كخطة الخيل والعرض اللتين ساهمتا إلى حد بعيد، في ضبط مكونات الحند حصاة في حالات التعبئة والحملات العسكرية.

1 - مراتب الجند

سبق الحديث في الفصل الأول من هذا الباب⁽¹⁾ عن أهم مكونات الجند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف. لقد تمّ التفصيل في الجند النظامي أو جند الحضرة المسجل في ديوان المفتة، وكذا المتطوعة الذين كانوا يستقرون من الأقاليم في حالة الجهاد أو إبان الصوائف والثواتي التي كانت توجه ضد المسيحيين في الثغور. تذكر المصادر، بمناسبة الاستعراضات العسكرية، مجموعة من التكتيكات العسكرية المكونة لجند الحضرة بقرطبة خلال عهد الخلافة، نون تفصيل عن مهامها الأساسية في الحملات والحروب. ومن أمثلة ذلك الحديث عن بياض الحند

(1) - الكور المجندة وجند الحضرة.

على طبقاتهم⁽¹⁾، و "فرسان الرياضة"⁽²⁾، وأعداد من الخمسين⁽³⁾ مكرس و "فرسان الحرس المأمورون"⁽⁴⁾، والمحارس والعرفاء المدرعين⁽⁵⁾، و "المقانب"⁽⁶⁾ مكرس. و "رجال الأرباض الساكنين في الأسلحة"⁽⁷⁾. من يتكلف بقيادة وتنظيم هذه الفئات من الجند؟

أ. القيادة: تجدر الإشارة إلى أن العارض⁽⁸⁾ أو المسؤول عن خطة العرض⁽⁹⁾، هو الذي يتكلف باستعراض التشكيلات العسكرية السالفة الذكر، أمام الخلفاء، وذلك في مناسبات عديدة خاصة أوقات الاستعداد للحملات العسكرية كالصوائف إلى الثغور، أو أمام سفراء ومبعوثي الدول الأجنبية التي كانت تخطب ود قرطبة.

عادة ما يقوم الخلفاء أنفسهم بقيادة الحملات العسكرية المهمة سواء ضد المعارضين داخليا أو للجهاد وقتال المسيحيين في جهات الثغور. وهكذا فقد حرص الخليفة عبد الرحمن الناصر على قيادة الحملات بنفسه إلى حدود سنة 327 هـ التي انهزم فيها في معركة الخندق، وتخلي عن القيادة⁽¹⁰⁾ لفائدة ابنه الحكم أو قواد عسكريين مشهورين ينوبون عنه. وبعده سار على نهجه الحكم المستنصر ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي استمر في المصادر بالقائد الذي نظم وقاد بنفسه أكبر عدد من الحملات والصوائف ضد المسيحيين. وبعد الخلفاء أنفسهم تسند مهمة قيادة الجند في الحملات والمعارك إلى قواد

(1) - ابن حيان: المقتبس، الحجى، ص. 30.

(2) - نفسه: ص. 40.

(3) - نفسه: ص. 40.

(3) مكرس - قدم الباحث ذنون طه تفسيراً "للخمسنيين" معتمداً على ابن مزيين الذي ربطه بالأخماس أو حصاة الخمس التي كانت الدولة الأموية تستخلصها من الغنائم والأخماس (Quinteros) وأبناؤهم يسمون "بنو الأخماس". لكن يظل هذا التفسير غامضاً نظراً لاتعدام الإشارات المصدريّة التي تدعّمه.

انظر تنظيمات الجيش، مرجع سابق، ص. 51؛ نظراً كذلك عن راضي لخمس: بوتشيش القادري: تطور ملكية أراضي الجيش...، ص. 147.

(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 44. انظر فئات الخرس في فصل الكور المجندة وجند الحضرة.

(5) - نفسه: ص. 45.

(6) - نفسه: ص. ج 5، ص. 192، الحجى، ص. 47.

(6) مكرس - المقانب، مقتب: جماعة من الخيل والفرسان دون المائة تجتمع للغارة، أو ما بين الثلاثين والأربعين وقيل زهاء ثلاثة مائة: لسان العرب، المجلد 3، ص. 168 (قنب)؛ المعجم الوسيط: ج 2، ص. 761 مادة قنب.

(7) - ابن حيان: الحجى، ص. 45.

(8) - نفسه: ص. 22، 68؛ ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 194.

(9) - نفسه: ص. 202.

(10) - ابن حيان: ج 5، ص. 437.

مشهورين أمثال غالب⁽¹⁾ مولى الخليفة الناصر الذي عاصر عبد خالقه كنه، وحمد بن إسحاق القرشي⁽²⁾، وابن أبي عده⁽³⁾، والحاتب بن علي أحمد⁽⁴⁾، والورير بن محمد بن أحمد بن محمد بن قاسم بن طيس⁽⁵⁾، وريز بن طنج⁽⁶⁾، ومحمد بن يعلى⁽⁷⁾ وغيرهم. يتكلف هؤلاء القواد بالاعداء ولاشراف على نحو من الندائي أي من فترة الاستعداد للحملات إلى انتهاء المعركة والعودة في فرصته. وبعد نعتت المصادر بعضهم بأصحاب العسكر⁽¹⁰⁾. نذكر من حيث⁽¹¹⁾ في حدث 322 هـ أن الخليفة الناصر أعد لغزو جليقية وعهد إلى «لجنة ابن حسين مؤلفة صاحب عسكر. بالتقدم في جمهور الخيل... للتعينة للحرب...».

1. العرفاء

يساعد قواد الجند في مهامهم العسكرية رجال اخرون يُسمون في المصادر -عرفاء-. لقد اتسع استعمال لفظ العريف حتى انتقل إلى اللغة الإسبانية (Alarife). يُدل على رؤساء فرق صغيرة من الجند أو هو التقيب على القوم ومقدمهم⁽¹²⁾. تحدثت المصادر عن عدد العرفاء⁽¹³⁾ ومهامهم في الأندلس منذ عصر الإمارة. يُفيدنا ابن عذاري⁽¹⁴⁾ وغيره⁽¹⁵⁾ من الحكم الربضي، كان يرابض بباب قصره عشرة من العرفاء تكلفوا بشف فرس ي «نحت

(1) - MEQUAK (M). La Biographie de Galib, haut fonctionnaire andalou ., op. cit

(2) - ابن حيان: أنطونية، ص. 22.

(3) - نفسه: ج 5، ص. 53؛ ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 147.

(4) - ابن حيان: ج 5، ص. 55، 136، 146؛ ابن عذاري: ج 2، ص. 172.

(5) - ابن حيان: ج 5، ص. 321.

(6) - نفسه: ص. 451.

(7) - ابن حيان: الحجي، ص. 25.

(8) - نفسه: ص. 78.

(9) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 219.

(10) - ابن حيان: ج 5، ص. 321.

(11) - نفسه: ص. 340.

(12) - الجاحظ: الرسائل، تحقيق هارون (محمد عبد السلام)، القاهرة، 1964، ص. 14. ابن العريف (أو لعسر حمد

بن محمد بن موسى)، محاسن المحاليس، صنف وتعليق أثين بلاثيوس، باريس، سكرية شرفية، 1963، ص. 12.

ابن منظور: لسان العرب، المجلد 2، ص. 746.

(13) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 119.

(14) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 79.

(15) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 118.

ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 4، ص. 492.

بد كل عريف مئة فرس». يقود العريف أيضا عددا مضبوطا من الجند خلال المعارك ويحمل شارة يُطلق عليها الحزام⁽¹⁾ تميزه عن فرق أخرى من المقاومة. كما يمكن أن تستد له إدارة مناطق محددة كما حدث لما انتزع الخليفة عبد الرحمن الناصر مدينة أبلدة سنة 304 هـ من يد سليمان بن عمر بن حفصون وأقام عليها 'عريفا' من العجم يدعى اسر بزنت⁽²⁾. وقد تتعد اختصاصات أو مهام العريف حسب حاجيات الجند. ولذلك نلاحظ ذكر المصادر للعرفاء أصحاب الرسائل⁽³⁾، و"العرفاء المدرعون"⁽⁴⁾ و"عرفاء الخياطين"⁽⁵⁾ الذين تستند عليهم السلطة أيام البروز والخروج للحملة العسكرية قصد عقد أعلام الجند، و"عرفاء البحريين"⁽⁶⁾. أكثر من هذا قد يتجاوز العريف المجال العسكري ليشمل ميادين أخرى وهكذا أمكن الحديث عن "البنائين والتقابين مع عرفائهم"⁽⁷⁾.

2. خطة الخيل

رغم العناية الكبرى التي توليها السلطة السياسية والعسكرية للبهائم خاصة الخيول والبغال لكونها تشكل — فيما نرى — النصف على الأقل⁽⁸⁾ من المجهود الحربي سواء في

(1) - تورد المصادر معلومات مفصلة عن الأسماء والألغاز التي تطلق على أعداد محددة من الحند مثل: الجريفة والسترية والكتيبة، والجيش والخميس والجفل والفيلق إلخ. فالسترية مثلا تضم من خمسين إلى رعمائة جندي، والكتيبة من خمسمائة إلى ألف، والجيش أكثر من ذلك. وتميز تلك الأعداد خلال الاستعراض أو البروز أو خلال المعارك بعلامات منها أن 5000 جندي يحمل الراية التي تميزه، وألف (1000) يحمل العلم، ومائتين (200) تحمل اللواء...

انظر: البطريق: كتاب السياسة...، مخطوط، ص. 225، التكميري: كتاب السياسة...، مخطوط (ميكروفلم)، ص 27 وما بعدها؛ ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 109؛ الرازي: نظم وإدارة بني أمية...، مرجع سابق، ص 556.

LEVÉ-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op cit, T. 3, p. 78

لسان العرب، المجلد 1، ص. 383، 462.

(2) - ابن حيان: ج 5، ص. 131.

(3) - نفسه: الحجى، ص. 91.

(4) - نفسه: ص. 45.

(5) - نفسه: ص. 25.

(6) - نفسه: ج 5، ص. 87.

(7) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 21.

(8) - نلاحظ أن الألب الفيودالي الأوروبي المرتبط بحياة النبلاء والفرسان كان يخصص قسما لسلاح الفارس وركوبه أي خيله. فعادة ما يصنع الفارس السلاح والخيل الذي يحارب به في المرتبة الأولى من اهتماماته، وذلك قبل زواجه وأسرته لأن السلاح يميزه اقتصاديا واجتماعيا وعسكريا عن غيره من الفئات الاجتماعية الدنيا أي أن السلاح أداة حاسمة في الترقية الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا الفيودالية.
انظر:

BLOCH (M); La Société féodale..., op. cit, p. 183 et sv.

DUBY (G), La Société chevaleresque Hommes et structures du Moyen Age, Paris, Flammarion, 1988, p 20 et sv

المعارك مباشرة (الفرسان)، أو في الخدمات المرتبطة بالحد والحدود العسكرية داخل
والتموين وغير ذلك، فإنها لم تحظ باهتمام الدارسين المعاصرين.

تسجل المصادر على الأندلس وأهميتها في إنباح الحثول المحصنة مثل الإسطة
الاقتصادية والحروب. تنصح أهمية الخيل في الحملات العسكرية حسب بعد أن السطه في
قرطبة كانت تُفرد خطة للخيل وهي من أرفع خطط الدولة باعتبارها لا تقل مستوى
عن خطط القضاء أو الحسبة أو الشرطة أو المدينة. يكفي القول أن صاحب خطة الحرس
يُعال مرتبة عليا في مجلس السلطان بالزهراء بحيث يجلس مباشرة بعد صاحب المدينة في
اليمن وصاحب الحشم في اليسار⁽¹⁾.

تعهد خطة الخيل إلى قواد وشخصيات نافذة تتكلف بإدارة وتدريب شؤون الحيل في
السلم كما في الحروب. لا غرو فالخلفاء والحكام أنفسهم يراقبون أحيانا أمور الحيل كما
كان يحدث أيام المنصور بن أبي عامر الذي كان بعد قفوله من كل غزوة «لا يحل عن نفسه
حتى يدعو صاحب الخيل فيعلمه ما مات منها وما عاش»⁽²⁾. صُرِفَت خطة الخيل في عهد
الأمير عبد الرحمن إلى القائد عيسى بن سَهيد⁽³⁾، وأسندها الأمير محمد عام 239 هـ إلى
القائد ابن أبي العطف⁽⁴⁾. وفي الخلافة أسندت لقواد معروفين أمثال أفلح الذي أبعده عن سنة
310 هـ لفائدة محمد بن أبي زيد الله الخروبي صاحب المدينة⁽⁵⁾. ذكر ابن حيان⁽⁶⁾ أن الخليفة
عبد الرحمن الناصر عزل سنة 316 هـ أفلح ودرى مولاه عن الخيل والشرطة. وفي سنة
328 هـ عانت إلى سعيد بن أبي القاسم بدلا من نجدة بن حسين⁽⁷⁾. ورجع إليها ريبان
أفلح⁽⁸⁾ لاحقا. كما تولاها للخليفة الحكم سنة 363 هـ شاطر الجعفري⁽⁹⁾. وانتهت أيام الخليفة
هشام المؤيد إلى ابن أخيه هشام بن محمد بن عثمان⁽¹⁰⁾.

(1) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 28.

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 298.

(3) - ابن حيان: المقتبس، مكي، ص. 144.

(4) - نفسه: ص. 94.

(5) - نفسه: ص. 183.

(6) - المقتبس، ج 5، ص. 242.

(7) - نفسه: ص. 461.

(8) - نفسه: الحجى، ص. 47، 78.

(9) - نفسه: ص. 143.

(10) - ابن الأبار: الحلة السراء...، ج 1، ص. 256. يورد ابن الأبار، أحيانا، كلمة "قائد الأعنة". ويبدو أنه كان يتكلف بقيادة الفرسان
حلال المعارك، ومن هنا قد يكون مخالفا "لصاحب الخيل"، المكلف بخطة الخيل كلها وهنا نخالف رأي ذنون طه الذي أشار إلى
أن صاحب الخيل هو قائد الفرسان أو الخيالة... تنظيمات الجيش، ص. 58.

3- الخيل والبغال والجمال بالأندلس

أ. الخيل: إن إحداث خطة للخيل والعناية بها يُبين أن أغلبها يُنتج في الأندلس. قد تستقدم عند الحاجة من مناطق قريبة كالعدوة المغربية وإفريقية. يؤكد صحة الملاحظة ما أورده عريب بن سعد⁽¹⁾ من إشارات دقيقة للغاية حول كيفية تربية الخيل في بعض الأقاليم الأندلسية والأوقات الصالحة لذلك. فإذا كان شهر يناير مناسباً لوضع الخيل ورعيها في الزرع⁽²⁾. فإنه خلال الشهر الموالي (فبراير) «تخرج الخيل عن الرعي وتطعم القصيل على مداوتها في أعم السنين»⁽³⁾ مكرر أما الفترة الممتدة ما بين مارس ونصف أبريل فيحدث فيها «إنتاج الخيل في المدائن»⁽⁴⁾. وفي تلك الحقبة تأمر أنظمة المركزية بقرطبة جميع العمال في الأقاليم بأن يقوموا «بابتداع الخيل للأملات». ويصف ابن عريب بن سعد بدقة متناهية أوقات الإنتاج حين يذكر أن شهر مارس مناسب لإطلاق «فحول الخيل على الرمك في المدائن لتعلق بعد تمام الوضع، ومدة حملها من يوم علوقها إلى يوم وضعها أحد عشر شهراً»⁽⁶⁾. أما شهر يونيو فيصلح لعزل «فحول الخيل عن الرمك وتبقى منفردة بعد تمام علوقها عن الفحول إلى وقت وضعها وذلك في نصف أبريل...»⁽⁷⁾.

(1) - عريب (بن سعد): تقويم قرطبة

Le Calendrier de Cordoue
Pub. DOZY (R). Leiden - Brill, 1961, P. 37 et sv

(2) - نفسه: ص. 37.

(3) - عريب (بن سعد): تقويم...، ص. 45.

(3) مكرر - القصيل، القصل، قصل، قصلان، القصال، المقاصيل: قصل الزرع قطعه. القصيل ما انفصل من الرعي أخضر. قصيل الدوب، أو قصل الذابة وقصل عليها/ علفها الفصيل. والقصاله من البر ما عزل منه ونفي. وهو أيضا للزرع قبل نضجه.
لسان العرب، المجلد 3، ص. 105. (مادة قصل).

DOZY (R), Suppléments aux dictionnaires..., T.2, p. 368.

(4) - عريب (بن سعد): تقويم...، ص. 57.

(5) - نفسه: ص. 71.

(6) - نفسه: ص. 71.

(7) - نفسه: ص. 97. ظل إنتاج الخيل قائما في الأسلس بعد الخلافة والطوائف وتستعمل لأغراض مختلفة اقتصادية وعسكرية كما جاء في:

ابن العوام الإشبيلي (ابن ركريا يحيى ابن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي): كتاب الفلاحة، ترجمة وتحقيق: بنكيري (أ. ي)، مدريد، 1992، ج 2، ص. 500 وما بعدها. والقسم البيطري من الكتاب بعنوان:

Le Livre d'Agriculture d'Ibn AL-Awam - L'Étable, l'Écurie la Basse-cour tra Clément-Mullet (J.), Tunis, ed Bouslama, 1977, p. 25 et sv.

لأنك أن الطرق التي وصفنا عرب بن سعد في فتح الحيرة في الأندلس قد وفرت أعداداً هامة منها. يؤكد ابن الخطيب ذلك حين تحدث عما فتح منها في حرائر اسطبلية على عهد المنصور بن أبي عامر، يقول: «كان له من لزمت المستحقة بحرير مسييه المعروفة بالمداين على أجناسها ثلاثة آلاف فرس يعد منها من فحول الحيرة تنصرت و الاستنتاج مائة رأس تعزل عن العلوق»⁽¹⁾. يذكر المؤرخون أيضاً عدداً هامة من حيول الأندلس حين يصفون الاستعداد للصوائف والشواري ضد المسيحيين. إن الأعداد لتحروب يدفع سلطة قرطبة إلى الاهتمام بإسطبلات الخيول خاصة في قرطبة و إرهرء، وكذلك في الأقاليم عبر تكليف العمال بإعداد ما يلزم منها. وقد انفرد ابن الخطيب بالوقوف عند عدد ضخمة من الخيول التي يستنفرها المنصور بن أبي عامر في صوائفه ضد المسيحيين. ففي صائفة 392 هـ «أنفذ الكتب أن يلحق ببابه جميع طبقات المترجلين من فرسان الحند بسائر النواحي ليُشرف عن حسه بنفسه فغمرهم جميعاً بالإركاب لكثرة ما تكامل من الخيل يومئذ»⁽²⁾. وهكذا اصطحب معه سبعمائة رأس من الخيل أعراء⁽³⁾. و«خمسون فرساً من العناق بركابه»⁽⁴⁾. ومع ذلك كله ترك في الإسطبلات بقرطبة مقدار ألف فرس عدوية كانت طرية العبور⁽⁵⁾. أكثر من ذلك عمد إلى شراء العديد من الخيول وهو في طريقه نحو الغزو، إذ لم يكد يصل إلى مدينة سالم حتى كان لديه من الأعراء نحو ألف فرس⁽⁶⁾. وبلغ ما ابتاعه من الخيل في أعم السنين ثمانية آلاف فرس سوى ما يُنتاع من البعائر بأرض الأندلس..⁽⁷⁾ تأتي الخيول أيضاً من مناطق خارج الأندلس كالمغرب، ففي عهد الخليفة الحكم المستنصر «وصلت إلى قرطبة الخيل التي بعد بها صاحب عدوة القرويين من فاس وعدتها خمسة وثلاثون فرساً»⁽⁸⁾. كما وصلت إلى الأندلس خيول من العدوّة بعثوا بها إلى أهل الثغور⁽⁹⁾. وعلى ذكر أهل الثغور نسير إلى أن عدداً لا يستهان به من الحير

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص. 100.

(2) - نفسه: ص. 99، 100.

(3) - نفسه: ص. 100.

(4) - نفسه: ص. 100.

(5) - نفسه: ص. 100.

(6) - نفسه: ص. 100.

(7) - ابن الخطيب: أعمال...، ص. 102.

(8) - ابن حيان: المقتبس، الحجى، ص. 148.

(9) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 82.

كان يحسن لفائدة الجهاد ضد المسيحيين. هذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه سلفاً بأن الخيل كـ
تسكل أداة أساسية وفعالة بالنسبة للمحاربين خاصة في التغور المواجبة للمسيحيين. وفي
الواقع كان الإسلام منذ بداية الفتوحات يرفع من شأن الخيل باعتبارها وسيلة حربية قوية.
بدليل أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أوصيا بالعناية بالخيل كما تنبئ من الآية:
«وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»^(١). وفي
الحديث عن الصّحاح عن الرسول ﷺ أنه قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم
القيامة»^(٢). تتأكد أهمية الخيول في الجهاد حين نعلم أن المذاهب الفقهية تجمع على
تخصيص سهمين للفارس وسهم للراجل في الغنائم، أي أن الفرس يتساوى مع صاحبه في
المعارك. قال سحنون في الفرس المحبس للجهاد: يكون سهمه للغازي عليه سواء إكتراد
أو استعاره^(٣). وتقدم كتب الفقه والجهاد^(٤) معلومات دقيقة في كيفية تحبّيس الخيل للجهاد
في التغور. وأكثر من ذلك تشجع الفرسان وغيرهم على ذلك التحبّيس مبيّنة فوائده. فهذا
ابن أبي الخصال مثلاً يكتب رسالة مطوّلة يتوسط فيها عند أحد الفرسان المجاهدين كي يساهم
بفرس من «الخيل الموقوفة لأهل الخير...»^(٥). وتفصل كتب العقود والوثائق^(٦) في
شروط تحبّيس الخيل للجهاد حتى لا تُستغل في أمور أخرى كالإشغال الفلاحية أو النقل أو
غير ذلك. ومن ذلك مثلاً: «وقف فلان فرسه للجهاد في سبيل الله ووسمه في فخذيه بسيما
الحبس، ودفعه إلى فلان ابن فلان ليغزو عليه... وشرط عليه ألا يصرفه في غير
الجهاد»^(٧). كما يُمنع أيضاً بيع «الفرس لمن يُمكنه من المحارب»^(٨)، أي من العدو.

(١) - سورة الأنفال، الآية: 61.

(٢) - الشامي (نو عيدة معمر لمتى): كتب في الخيل وما ورد فيها، مخطوط، خ. ع. د 1312، 3، أ، 4، ب، 16، ابن رضوان (نو
ع. د. محمد): مطع اليمن والإسفال في استيفاء ما للحيل من الأحوال، مخطوط، خ. ع. د 3640، 24، ابن هذيل: في
الربط والجهاد، محضوط، ص. 10 وما بعدها، مجهول: آثار في الرماية، مخطوط، خ. ع. د 1314 (محموع) ورقه 10.
ابن أبي زمنين: فتوة الغازي...، ص. 158، 159.

(٣) - ابن المناصف: كتاب لائح الجهاد، مخطوط (ميكرو فلم)، ص. 297، مجهول: في الوقت والامور الحربية،
مخطوط، خ. ع. د 2125، 23، ب 24، أ.

(٤) - الجزيري: لمصنف محمود...، مخطوط، 100، ب؛ ابن رشد: الفتاوى...، ج 1، ص. 313، 314؛ الونشريسي:
المعيار...، ج 7، ص. 58، 104.

(٥) - ابن أبي الخصال (نو ع. د. محمد العافى الاندلسي): الرسالة (رسائل ابن أبي الخصال)، تحقيق: الداية (رصوص
محمد)، دمشق، دار الفكر، 1987، ص. 115.

(٦) - الجزيري: لمصنف محمود...، 100، ب 110، ابن العطار: كتب الوثائق والسجلات...، ص. 206 وما بعده.

(٧) - الجزيري: 100، أ.

(٨) - الونشريسي: المعيار...، ج 6، ص. 182.

ب - البغال: على غرار الخيل عرفت الأندلس العنل الحديثة كز نفس. حول ابن حوقل الذي زار الأندلس خلال عصر الخلافة ابن الأندلسيين يتأهون - نعر نفرد و «لهم منها نتاج ليس كمنله في معادن البغال المذكورة وأصفاها المشبورة من رمية والراا وباب الأبواب، لأنها تبذن وتصنع وتنجب، ويحلب إليهم منها شئ حسن شمه عظيم الخلق، كثير الثمن، من جريرة ميرة...»⁽¹⁾. ويضيف أن بعال الأندلس تمر عن غيرها ب«سرعة المشي، واختلاف الألوان الصافية والصحة على مر الأيام مع نصير على الكد والعسف»⁽²⁾. في حين يرى صاحب كتاب في الفروسية⁽³⁾ أن «حيز ما يحتاج إليه من البغال للسرايا والمراكب والركض مع الخيل، بغال الجزيرة وإفريقية». أما صاحب كتاب السياسة في تدبير الرياسة⁽⁴⁾ فكرر فيعتقد أن الدواب الخراسانية ملجأ عند الأزمات و«حصناً من حملها الأقوات والمياه». وأكد المقرئ⁽⁵⁾ ما ذهب إليه ابن حوقل حين أشار إلى أن «بغال الأندلس فارمة وخيلها ضخمة الأجسام حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح». يبدو أن البغال تصلح، بالدرجة الأولى، لحمل الأثقال ومساعدة الخيل في القتال وهو ما أكده ابن الخطيب⁽⁶⁾، واصفاً غزوات المنصور بن أبي عامر. بالقول «كان له من البغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف فرس سوى الزوامل الحائمة للخيول ومطايا الوكلاء...». وفي غزوه مؤتميوور المعروفة، «احتاج إلى الاستكثار من البغال، وأمر باستحضار ما يصلح منها، وقعد لما يقاد بين يديه منها. فانتاع في سبعة أيام متتالية ثلاثة آلاف رأس»⁽⁷⁾.

(1) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 109.

(2) - نفسه: ص. 110.

(3) - مجهول: كتاب في الفروسية والمعرفة بالدواب وأحوالها، مخطوط، خ. ح، 6101، ص. 33.

(4) - البطريق: كتاب السياسة...، مخطوط، ص. 228.

(4) - حمر الخصائص والصفات المختلفة للدواب خاصة البغال والبرانيين في لعند من البلدان في. السيوطي (جلال الدين)، جر الذيل في علم الخيل، مخطوط، خ. ع، د، 1775، 35 أ.

مجهول: كتاب في الفروسية...، ص. 33؛ ابن هذيل (علي بن عبد الرحمن الأندلسي) حلية الفرسان وسعر أشجعان، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 1997، ص. 13 وما بعدها.

(5) - المقرئ: النفج...، ج 1، ص. 199.

(6) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 100.

تُستخدم البغال الأندلسية كذلك في ميادين أخرى كالتجارة والنقل والركوب، ومما يؤكد هذا القول ورود نوازل دقيقة حول الشروط الأساسية التي ينبغي توفرها في دواب النقل كالبغال وفي أصحابها خاصة أن كبار الأندلسيين يربعون فيها "وإياها يستوطنون ويؤثرون فيما يركبون"⁽¹⁾. فهذا ابن سهل⁽²⁾ يحدد بعض الشروط التي يجب أن تتوفر في بغلة خُصِّصَت للنقل والركوب ما بين طليطلة وبلنسية وأشهد لذلك البيطرة العارفين بشؤون الدواب. وبيّن غيره⁽³⁾ السبل التي تسلك كي تُجنَّب النزاعات المرتبطة بعمليات البيع والشراء في الدواب. وبصدد الأثمنة تذكر المصادر أن البغال في الأندلس تباع بأثمنة عالية فابن حوقل⁽⁴⁾ الذي عاين بعضها خلال عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر قال: «رأيت منها غير بغل بيع بخمسمائة دينار.. فأما ما يبلغ منها المائة والمائتين دينار فأكثر من أن تُحصى..». ووافقه القزويني⁽⁵⁾ حين أشار إلى أنه «يُجلب من قرطبة بغال قيمة واحد منها يبلغ خمسمائة دينار لحسن شكلها وألوانها وعلوها وصحة قوائمها». وهو ما أكدّه المقرئ⁽⁶⁾ لاحقاً بالقول إن بغال الأندلس فارهة تباع «بخمسمائة دينار من حسناتها وعلوها الزايد».

إن الحرص على الجودة في الخيل والبغال تجارتهما وأكبريتها لأغراض مختلفة عبر تراب الأندلس دفع بسلطات المراقبة كالمحتسب وأصحاب المدينة والسوق والقضاة، إلى التدخل لمحاولة ردع ما يمكن أن يلحقها من غش وتدليس وتلاعبات. وقد أفادت كتب الحسبة والنوازل وكتب البيطرة في هذا الباب لأنها كشفت عن تفاصيل بالغة الدقة والأهمية تهم أصحاب الدواب والمستفيدين منها. ومن أمثلة ذلك الكشف عن العيوب التي

(1) - ابن الخطيب: أعمال...، ص. 102.

(2) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص. 110.

(3) - ابن سهيل: الأحكام الكبرى...، مخطوط، ص. 168.

(4) - الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط، ص. 110 وما بعدها.

ابن العطار: كتاب الوثائق...، ص. 205 وما بعدها.

(5) - ابن حوقل: نفسه، ص. 110.

(6) - القزويني (زكريا بن محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، 1969، ص. 552.

(7) - المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 119، 520.

يمكن أن تلحق الدابة قتل أو بعد بيعها وكيفية علاجها وفق الأحكام⁽¹⁾. ويكفي إيراد راس تاريخيتين وموثقتين لأنا نعرف انهما صدرتا بإمكانه محددته بالأدلة تنعق الأولى برجل من الأسنونة استرى فرساً من رجل آخر شراء السلامة والصحة... وثبت بعد مده من الفرس كان مريضاً وقت الإبتياح ولذلك يحور فيه حكم الرّد بالعب⁽²⁾. ومثل نفسه المشهور ابن عتاب في النازلة الثانية عن «رجل اشترى بغلة بطلبطله وسار بها إلى بلنسية وأطلع فيها على عيوب بعد شهر»⁽³⁾. على منوال محاربة العيوب دأب كتب الحسبة على مراقبة المتعاملين مع الدواب خاصة البياطرة والحدادين. ففي باب الموازين والأكيال والغش فيها ذكر السقطي⁽⁴⁾ المحتسب بأن عليه أن يراقب الحدادين الذين يصنعون الصفائح والمسامير للدواب. إذ يجب عليه الانتباه إلى كميات الحديد التي تدخل في صناعة الصفائح والنضوات⁽⁵⁾. يقول: «ويصدق ربع الحديد من الصفائح الحياصة خمسة وأربعين زوجاً والبغلية ستين زوجاً والحمارية مائة زوج.. وعلى ذلك يكون في الرطل من البغلية زوجان وفردة... ويكون في مائة أقيال طيبة سبع أواق»⁽⁶⁾. يحصل الغش بسهولة في الصفائح والمسامير لأن من أصحاب الموازين والأكيال «من يجعل نصف الصفيحة من الرصاص ونصفها من الشمع ويغشيها بالجلد»⁽⁷⁾. ومن الحدادين «من يطرق المسامير البوالي ويبيعها برسم الجدد»⁽⁸⁾.

تجدر الملاحظة إلى أن انتشار الصفائح أو ظاهرة تصفيح الدواب بالأندلس عملية تقنية عالية، لم ينتبه التأليف العربي المعاصر إلى أهميتها وإلى "الثورة" التي أحدثتها فيما نعتقد - في عالم الدواب وما يرتبط به.

(1) - فونشريسي: المعيار... ج 6، ص. 181، 188، 203، 204، 247، 259.

(2) - نفسه: ج 6، ص. 203، 204.

(3) - ابن سهيل: الأحكام الكبرى...، ص. 168.

(4) - السقطي: في أدب الحسبة...، ص. 30 وما بعدها.

(5) - الصفيحة أو النضوة، صفائح - نضوات.

(6) - السقطي: في أدب الحسبة...، ص. 86 أقيال هو المسامير المحدثين لسبب الصفيحة أو المشوه للحسبة.

(7) - نفسه: ص. 30.

(8) - نفسه: ص. 80.

إذا سكنت المصادر عن تاريخ بدايتها، فيبدو أنه كان في مستهل القرن الثالث الهجري (IX م) على الأقل بالنسبة للبلدان المتوسطية⁽¹⁾؛ إن لم يكن قبل ذلك بالنسبة للأندلس كما تدل على ذلك الإشارات المصدريّة السالفة الذكر التي بيّنت - بما لا يدع مجالاً للشك - انتشار الحديد وتفنّن الأندلسيين في صناعته واستعماله في مجالات متعددة. حتى أن الأمثال العامية المشهورة بالأندلس عبّرت عن أهمية الدواب المصفحة بالأندلس حين قالت إحداهما «البغل المسمّر والعبد المسمّر»⁽²⁾. أكثر من ذلك توصي السلطة المختصة البيطار كي يكون على بيّنة من المسامير التي لا تُضيرُ الدابة قال أحدهم⁽³⁾ «ينبغي للبيطار أن يعتبر حافر الفرس قبل تقليمه... وإن كانت يد الدابة قائمة جعل المسامير المؤخرة صغارا والمقدمة كبارا، فلا يبالغ في نفس الحافر فتعمش، ولا ترخي المسامير فيتحرك التعل ويدمل تحته الحصى وترهص الدابة...». لاشك أن عملية تصفيح الدواب مكنت هذه الأخيرة من مواجهة ظروف طبيعية أكثر صعوبة ووعورة، وزادت في تحمّل المسافات الطوال⁽⁴⁾ مكر. وقد نبّه البيطرة الأندلسيون إلى أن مشي الدابة بالحفا على أرض صلبة يؤدي إلى فساد حافرها وإصابته بمرض الصدّع⁽⁵⁾.

ج. الجمال: لم تذكر المصادر إلا إشارات نادرة عن الجمال بالأندلس خلال الخلافة والطوائف، مقارنة بما ذكر في الخيل والبغال، مما يدفع إلى التساؤل حول فترة وجودها بالفعل بالأندلس وهل لذلك علاقة بالمناخ، وما هي الأدوار الأساسية التي أنيطت بها في ميدان الحروب؟ اعتقد بعض الدارسين أمثال Lagardère⁽⁶⁾ أن الجمال عُرِفَت بالأندلس إبان

(9) - لاشك أن ظاهرة تصفيح الدواب ساهمت في انتشار الصناعات التعدينية في البلاد المتوسطية. انظر بعض لتفصيل في:

LOMBARD (M): Le bois dans la Méditerranée, op. cit, p.153,175.

(1) - الزجالي: أمثال العوام. ج 1، ص. 218. قد يعني ذلك أن من يملك بغلا يصفحه وعبداً يُسخره فهو من النخبة الاجتماعية.

(2) - ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي): معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق قائد (عبد الحميد)، بيروت، دار الحديث، 1990، ج 1، ص. 205.

(3) - يبدو أهمية الصفيح لدى الدواب التي تواجه ظروفًا منخبة أكثر برودة وصعوبة خاصة في بعض البلدان الأوربية الفيودالية شمال البحر المتوسط. انظر:

ROSS (D Y A): «L'Originalité de TUROLDUS Le mantement de la lance», dans Cahiers de civilisation med.évale, VI, Anné 2, Avril-Juin, Poitiers, 1963, p.127, 138.

(4) - مكر. - قارن ما أحدثته عملية تصفيح الدواب من تطور تقني هام بما أحدثته السرج والركاب من انقلاب في أساليب القتال لدى الفرسان (فصل الأسلحة).

(5) - ابن العوام: كتاب الفلاحة... القسم الفرنسي...، مصدر سابق، ص. 171، 183.

(6) - LAGARDÈRE (V): Le vendredi de Zellaqa 23 Octobre, 1086, Paris, L. Harmattan 1989, p 25 et sv

4. البيطرة

(1) - LÉVI-PROVENÇAL (E), *Histoire de l'Espagne*, op. cit., T. 3, p. 286

(3) - ابن الخطيب: أعال الأعلام...، ص. 10.

(4) - ابن حيان: المقتبس، الحجى، ص. 150.

الدّواب في أنشطة يومية مختلفة أدى إلى ازدهار علم البيطرة. لكن نلاحظ أن التّأليف المعاصر لم يُعر اهتماماً كبيراً للموضوع بدليل غياب دراسات وأبحاث تُعنى بالبيطرة، وقد سبق القول إن الدّواب خاصة الخيول والبغال كانت تشكّل نصف المجهود الحربي فيما نعتقد. وأكثر من ذلك كان التّأليف في البيطرة مزدهراً خلال العصر الوسيط ضمن ما يُعرف بكتب الطب والفلاحة والنبات التي انتشرت على امتداد رقعة العالم الإسلامي وخاصة في جزئه الغربي. نلاحظ أن أغلب المصنّفات العلميّة⁽¹⁾ المخطوطة منها والمطبوعة في البيطرة فصلّت الحديث أكثر في الجوانب النّظرية أي في أصول الخيل ونسبها وصفاتها وألوانها. إلى جانب أنشطتها في ميادين مختلفة كالرّهان والسباق والرياضة والرّماية. في حين احتل القسم الطبي في متون تلك المصنّفات حيزاً محدوداً باستثناء بعضها⁽²⁾. رغم ذلك لا بد من الإشارة إلى أن نشاط التّأليف في الدّواب على امتداد العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط — عكس ما حدث في أوروبا الفيودالية — ساهم إلى حد بعيد في خلق تراكم معرفي كبير من شأنه تطوير البحث في مجال الطب والفلاحة والبيطرة والنبات⁽³⁾. تبيّن مختلف النصوص المصدّرية التي خصّصت للخيل، تضلع بعض الفقهاء والعلماء والبيطرة في شؤون الدّواب. يتجلى ذلك من خلال حوار دال جرى بين أبي سعيد الأصبغي الفقيه اللّغوي الشهير، وأبي عبيدة في مجلس الفضل بن الربيع الذي قال للأصبغي «كم كتابك في الخيل؟ فقلت مجلد واحد، فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال

(1) - انظر على سبيل المثال لا الحصر:

مجهول: كتاب في الخيل والرياضة والفروسية والحث على الجهاد، مخطوط، خ. ح، 4438.
مجهول: كتاب في العناية بالحيول وسائر دواب الركوب كالشّهاري والبراذين والبعال والحمير، مخطوط، خ. ح، الرباط، 2126؛
التميمي: كتاب الحيل وما ورد فيها...، مخطوط سابق؛ ابن رضوان: مطلع اليّمن والإقبال...، مخطوط؛ ابن جُزي (عبد الله بن محمد بن جزي الكلبي): كتاب الخيل، مطلع اليّمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال، تحقيق: الخطابي (محمد العربي)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986؛ ابن هذيل: حلية الفرسان وشعار الشّجعان، بيروت، مؤسسة الاستشّار العربي، 1997؛ الخطابي (محمد العربي): فهارس الحزاة الحسنية، المجلد الثاني: الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، الرباط، 1982.

(2) - **مجهول:** مسيرة أجود الإيجاد في مراتب الجهاد، خ. ع، مجموع، ج 94.

ابن العوام الإشبيلي: كتاب الفلاحة، مصدر سابق، ج 2، تحقيق بنكيري، القسم الفرنسي، ترجمة J. Clément Mullet.

(3) - لا يمكن القول، في الوقت نفسه، إن المصنّفات العربيّة الإسلاميّة في البيطرة والطب والفلاحة والنبات قد انطلقت من الصفر أي من لا شيء. إنها اعتمدت على معلومات الغداسي من الإغريق والرومان والهند والفرس. يتجلى ذلك من خلال ما تواتر لدى ابن العوام من ذكر "الطبيب الإغريقي... الخ... الخ".

كتاب الفلاحة، مصدر سابق، ص. 108، 109. لكن يجب القول إن العرب احتهدوا في ترجمة المعلومات العلميّة القديمة وجعلوها ملائمة لأوضاعهم الجديدة وبذلك تكون اجتهاداتهم ومجهوداتهم حلقة أساسية في الحضارة العلميّة عامة.

خمسون مجلداً، فقال له قم إلى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منه، وسمه فقامت لست بيطارا وإنما هذا شيء أخذته عن العرب، فقال، قم يا أصمعي وافعل ذلك فقامت وامسكت ناصيته وجعلت أذكر عضواً عضواً وأضع يدي عليه، وأنشد ما قالته العرب إلى أن بنعت حافره فقال خذه...»⁽¹⁾. اشتهر أيضاً بعض الأندلسيين في الطب والبيطرة أمثال عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني القرطبي الأندلسي الذي برع في علوم الهندسة وله كذلك «عناية بالطب وتجارب فاضلة فيه ونفوذ مشهور في الكي والقطع والشق والبط...»⁽²⁾. ويبدو أنه زاول هذا العلم في الثغور الأندلسية لأنه توفي بسرقة عام 458هـ. واشتهر ابن العوام في علم الفلاحة⁽³⁾ والبيطرة، ويعد من أهم الأندلسيين الذين كتبوا بتفصيل في البيطرة. لقد خصص القسم الثاني من كتاب الفلاحة لهذا العلم. وكعادة البيطرة بدأ بوصف العديد من الأمراض التي تصيب الدواب خاصة الخيول والبغال وانتهى باقتراح علاجاتها والطرق المتبعة في ذلك. من أمثلة تلك الأمراض ما يصيب أعضاء الرأس كالكوكب والبياض والكمنة والرماد والظفرة⁽⁴⁾ في العيون. والسلاق⁽⁵⁾ في الفم. والنملة والصدع والقرس⁽⁶⁾ في الحافر. اقترح ابن العوام علاجات مختلفة لمداواة تلك الأمراض سواء بالأدوية المهيأة طبيعياً، أو بواسطة البتر والجراحة. ففي حالة السلاق مثلاً يتم العلاج بواسطة قشور جافة من فاكهة الرمان، تُدق وتوضع على لسان الدابة⁽⁷⁾. أما الصدع الذي يُصيب الحوافر التي لا تحمل الصفائح فيعالج بأسوارق نبات الدفلى والثومة والخردل⁽⁸⁾. وفي حالة استحالة العلاج بالأدوية، يُعتمد إلى العملية الجراحية أو ما

(1) - الداودي: طبقات المفسرين...، مصدر سابق، ص. 355.

(2) - القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي ابن القاضي): كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، 1326هـ، ص. 162.

(3) - ابن العوام: كتاب الفلاحة...، مصدر سابق.

(4) - نفسه: (القسم الفرنسي)، ص. 110، 118، 119.

(5) - نفسه: ص. 117، 125، 126. من علامات السلاق الزبد ورائحة كريهة تدبعت من فم الدابة دلالة على كبره وتقديمه في السن.

(6) - نفسه: ص. 168.

(7) - نفسه: ص. 125، 126.

(8) - نفسه: ص. 171، 178.

يُعرف بنوع (فتح العروق)، أنها عملية أكثر صعوبة ودقة، على البيطري أن يحدد
 الاحيوانات اللازمة فيها، كالأكد من العرق المراد فتحه أو العضو المراد بتره⁽¹⁾. كما
 عنه اتحاد الآلة الحادة المناسبة لذلك كالة المضغ أو المبرغ⁽²⁾ المناسبة لازالة الطفرة من
 غير اذابة. يحدد الإشارة إلى أن جل المعلومات الواردة عند ابن العوام في امرص
 نواب وعلاجاتها المختلفة بجده في كتب بيطرية أخرى، وأحيانا بشكل متطابق للغاية.
 ولتأكد من ذلك يمكن العودة متلا إلى كتاب 'سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد'، الذي
 يشبه إلى حد التطابق في قسمه البيطري ما جاء عند ابن العوام سواء في طريقة وصف
 الأمراض أو العمليات الجراحية نفسها. وإن التشابه الكبير أو النقول التي تتميز بها كتب
 البيطرة - ككعب الفلاحة والنبات - يدفع إلى القول بضرورة إعادة قراءة وتحقيق متون
 هذا النوع من المصادر⁽³⁾ العلمية الهامة، لما تزخر به من معلومات علمية دقيقة تفيد في
 إبراز جوانب أساسية من التراث والتي ما تزال في حاجة ماسة إلى العناية والاهتمام.

5. الحملات العسكرية

أ. الصوائف والشواتي

تعد الصوائف والشواتي من أهم الخطط والأساليب الحربية التي مارسها المسلمون
 منذ بداية الفتوحات في الثغور المشرقية ضد البيزنطيين. نقل الأمويون هذا الأسلوب
 الحربي الناجح إلى الأندلس ليباشروه بدورهم في الثغور ضد المسيحيين. لقد كثرت
 الصوائف والشواتي خاصة خلال الخلافة وفترة الحجابة العامرية، إذ كان الخلفاء، كما
 سلف لقول، يحرصون على قيادة الحملات بأنفسهم. وإذا تعذر عليهم ذلك، أي في حالة
 طوارئ التي تلزمهم البقاء في قرطبة، أو إذا طالبت مدة الصائفة بصمود العدو، فإنهم

(1) - ابن العوام: كتاب الفلاحة...، ص. 119، 211، 212.

(2) - المبرغ أو المضغ آلة حادة للقطع والبت، المعجم الوسيط، ص. 60، 63.

(3) - نحن بصدد تحقيق كتاب 'سيرة أجواد الاتحاد في مراتب الجهاد'، نظرا لأهمية قسمه البيطري. فيه سخرن
 مخطوطة واحدة في الخزانة العامة، ج 4 ضمن مجموع، والأخرى في الخزانة الحسنية رقمها 5917.

يُبيّنون عنهم بعض القواد المسيهורים في قيادة الصوائف، أمثال الحاج بدر بن أحمد^(١). أو القائد الوزير إسحاق بن محمد المرواني^(٢) أو زياد بن أفلح^(٣) وغيرهم. من الاستعداد للحملات خاصة الصوائف يبدأ منذ وقت مبكر، أي مع آخر فصل الربيع لينطلق بعد إعداد الغلال والمؤونة والنقل إلى غير ذلك من مستلزمات القتال والمعارك والحصار. وقد يحدث أن تطول مدد الصوائف كما سبق الذكر لأسباب متعددة مما يؤدي بالقيادة إلى تغيير خططها وأساليبها، بل يمكن أن تتحول الصائفة إلى حريقية أو شائية، إذا استمرت في حصار الأعداء لوقت طويل. وبالفعل كثرت الحملات العسكرية خاصة خلال عصر ابن أبي عامر حتى صار الحديث عن الصوائف والشواتي بل الحملات الربيعية والخريفية. يصف صاحب ترصيع الأخبار^(٤) حملات ابن أبي عامر التي تدوم طيلة السنة تقريباً. ودون رسم جدول لتلك الحملات نكتفي بذكر صائفة الغابرة^(٥) التي بدأ بها المنصور العامري فترة حجابته، ثم شائية الحمة^(٦) عام 366 هـ. وشائية شلمنقة في السنة لمونية^(٧) (367 هـ). وغزوة المعافرين الربيعية^(٨) سنة 370 هـ. وغزوة سمورة الخريفية^(٩) سنة (372 هـ). واللائحة طويلة. لقد استمرت هذه الحملات بعد المنصور العامري. لكن بوتيرة أقل^(١٠) إلى أن انعدمت خلال العصر الطائفي. ويبدو الأمر طبيعياً إذا علمنا أن عصر الخلافة تميّز بقوة ونفوذ السلطة المركزية بقرطبة والتي نجحت في بسط قوتها وسيطرتها على المسيحيين. إن الإنطلاق في حملات الصوائف والشواتي يبدأ عادة

(١) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 85، 143.

(٢) - نفسه: ص. 156.

(٣) - نفسه: الحجي، ص. 78.

(٤) - الغزري: ترصيع الأخبار، ص. 74، 80.

(٥) - نفسه: ص. 75.

(٦) - نفسه: ص. 74.

(٧) - نفسه: ص. 74.

(٨) - نفسه: ص. 75.

(٩) - نفسه: ص. 75.

(١٠) - انظر بعض الصوائف والشواتي عهد الحاجب المظفر ابن المنصور العامري في:

ابن عذاري: ج 3، ص. 21 وما بعدها.

باستظهار واستعراض الجند وطبقاته عبر ما يُعرف بالبروز⁽¹⁾، الذي يتم عادة بحضور الخليفة بمكان يعرف بفحص السُرادق وهو إحدى المحلات أو المنتزهات الكبرى شرق قرطبة⁽²⁾. يقوم العارض بترتيب أصناف الجند أمام الخليفة⁽³⁾. يعتبر هذا الاستعراض في الواقع، كما يدل على ذلك لفظ "البروز" نفسه، نوعاً من إبراز وتضخيم القوة العسكرية التي تعد بمثابة الأداة الفعالة التي تُلَوِّح بها السلطة السياسية بقرطبة من أجل الحفاظ على نفوذها وقوتها، وردع معارضتيها في الداخل كما في الأطراف أي في الثغور وفي شمال إفريقيا.. يؤكد ابن حيان⁽⁴⁾ هذا المعنى حين وصف إحدى غزوات الخليفة عبد الرحمن الناصر عام 322 هـ، إلى جهة الثغور بالقول "قد حقته قواده وكتائبه... مظاهره الحديد والقوة، وقد احتفل فيما أبرزه لتفخيم بروزه وعده من صنوف العدة وتمثيل الأعلام والرايات الفخمة البديعة..؟". إن استعراض أعداد الجند وطبقاته قبيل انطلاق الحملات العسكرية يقتضي النظر في قضايا تهم مصيره في المعارك كالطرق التي يسلكها أثناء الحملات أو التموين الذي يلعب دوراً حاسماً في بقائه وصموده لمدة محددة، ثم الجواسيس والعيون والاتصالات أو البريد. إنها أمور تساهم في الانتصار كما يمكن أن تسبب الهزائم والاندحار.

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 65، 334، 157، 66.

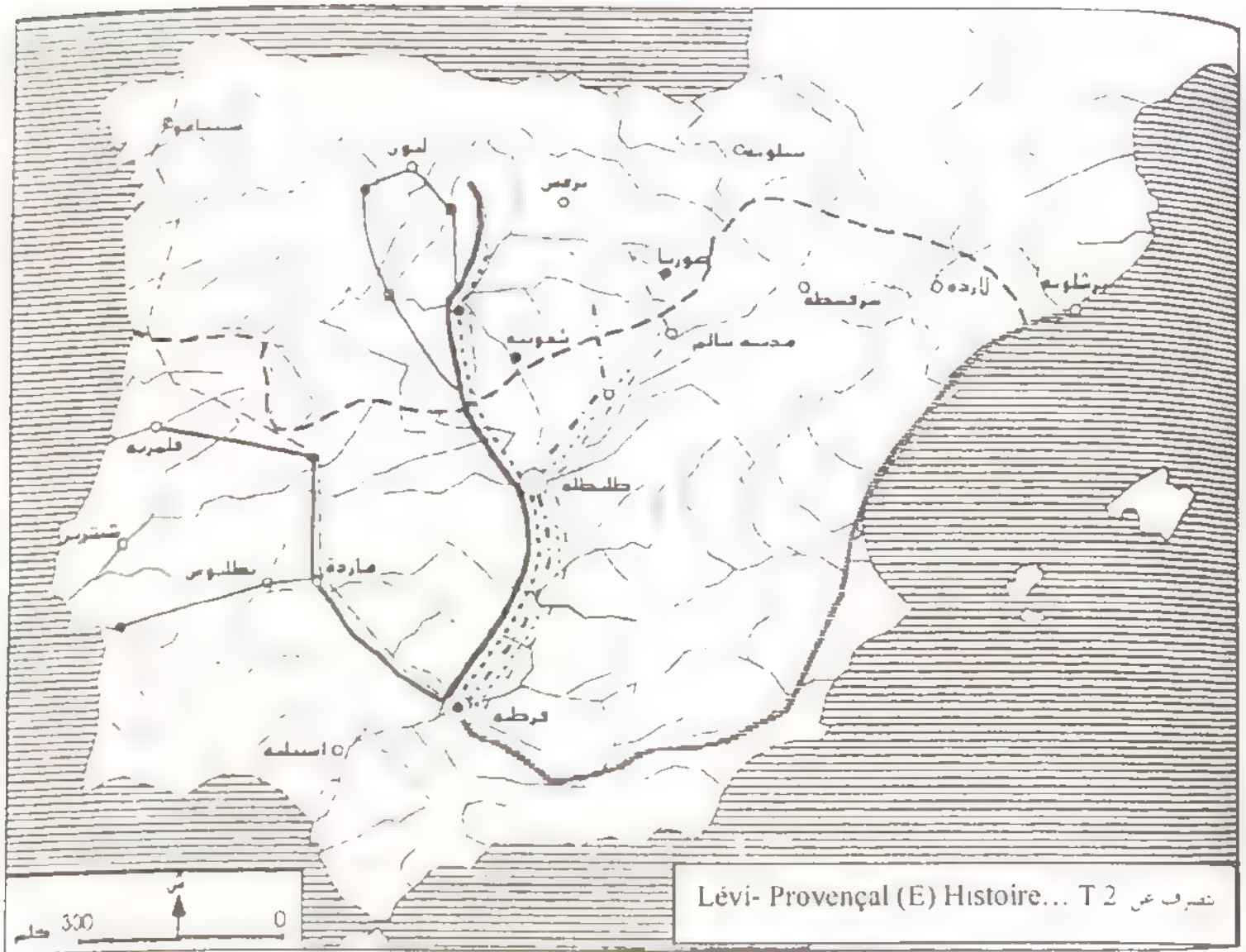
(2) - نفسه: ص. 28، 66، 102.

(3) - انظر أصناف وطبقات الجند ورتبه في استعراضات لخليفة الحكم المستنصر خلال مناسبات عديدة كالأعياد مثلاً:

ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 28، 30، 40، 45؛ نفسه: ج 5، ص. 334.

(4) - نفسه: ص. 334.

بعض حملات المنصور العامري ضد المسيحيين



ب . الطرق والمسافات العسكرية

لأشك أن الحملات العسكرية تسلك طرقاً معينة وتقطع مسافات مُحدَّدة للذهاب إلى الثغور، ليست بالضرورة مطابقة للطرق والمسافات المُعدَّة للأنشطة الاقتصادية والتجارية. أو ما يمكن تسميته — إن صح القول — بالمسافات المدنية. لكن نشير إلى أن المصادر، وإن ذكرت مجموعة من الطرق التي كانت تسلكها الحملات العسكرية لم تُفصّل القول في طبيعة تلك الطرق. يكفي القول إن كتب الرُّحلات والجغرافيا والمسالك والممالك قد وصفت بنوع من الدقة الطرق في الأندلس والمدن الرئيسية والمسافات فيما بينها، وذلك انطلاقاً من الحاضرة قرطبة التي هي «قاعدة الأندلس وأم المدائن وقرار الخلافة ودار الملك»⁽¹⁾. أو قصبة المسافات على حد تعبير الاصطخري⁽²⁾.

من قرطبة إذن تفرعت الطرق وامتدت المسافات إلى جهات مختلفة من البلاد. بل تذكر المصادر طريقاً رومانياً هاما يقع وسط الأندلس ويقطعها طولاً، إذ «يبدأ من باب قادس إلى باب ناربون ألف ميل»⁽³⁾. ويمكن للمسافر «من قرمونة إلى ناربون... إذا شاء ألا يزيع عن الطريق الروماني العريض والمبني بحيث يظل مستعملاً في الشتاء»⁽⁴⁾. ومن الطرق والمسافات المشهورة نذكر أن كورة مورور مثلاً تبعد عن قرطبة بستين ميل⁽⁵⁾. وتبعد قلعة رباح عن أريلة بيومين⁽⁶⁾. ومن ماردة إلى حصن مدلين مرحلتان⁽⁷⁾. ومن ملينة إلى حصن شنت بيطر أربعون ميلاً⁽⁸⁾. ومن قرطبة إلى إشبيلية ثلاثة مراحل⁽⁹⁾. و«من قرطبة إلى سرقسطة عشرة أيام، وإلى تطيلة ثلاثة عشر يوماً، ومن

(1) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 293.

(2) - الاصطخري (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي): المسالك والممالك، تحقيق: الحيني (محمد جابر عبد العال) غربال (محمد)، القاهرة، 1961، ص. 38.

(3) - الرازي: وصف الأندلس...، مصدر سابق، ص. 65.

(4) - نفسه: ص. 65.

(5) - ابن غالب: نفسه، ص. 290.

(6) - الإبريسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد عبد الله بن إدريس الحسني): نزهة المشتاق، نابولي، 1975، ج 5، ص. 550.

(7) - نفسه: ص. 550.

(8) - العنزي: ترصيع الأخبار...، ص. 10.

(9) - الاصطخري: المسالك والممالك...، ص. 38.

تطيلة إلى لاردة أربعة مراحل، ومن قرطبة إلى طليطلة ستة أيام، ومن صنيعة إلى وادي الحجارة يومان...»⁽¹⁾ مكرر.

يتضح مما سبق أن الطرق والمسافات إلى الثغور بعيدة، لكنها تكنس أهمية قصوى بالنسبة للجند الذي يسلكها كل عام. تقدم المصادر بعض الإشارات يمكن من خلالها تمييز ما بين المسافات العسكرية والمدنية. إن الفارس الجاد أو الفاصد، الذي يغد السير ويطوي المراحل حسب ابن حيان⁽²⁾، يقطع مسافة طويلة في ظرف وجيز مقارنة بتمسدة التي تقطعها المحلات العسكرية التي تتوقف في محطات رئيسية للاستراحة أو التموين. يذكر الرازي⁽³⁾ أن المسافة بين قرطبة وتدمير سبعة أيام من المشي للفارس اراكب وأربعة عشر يوماً، أي الضعف، لمحلة عسكرية. وهي المسافة ذاتها ما بين طليطلة وقرطبة، فهي للفارس الفاصد سبعة أيام ولمحلات العساكر أربع عشرة مرحلة⁽⁴⁾. والمسافة ما بين مرردة وقرطبة للراكب القاصد خمسة أيام ولمحلات العساكر عشرة أيام⁽⁵⁾.

يقطع الجند عادة المسافات نحو الثغور عبر محطات أو محلات ضرورية. وذلك ما فعله الخليفة عبد الرحمن الناصر في غزوة مونس سنة 308 هـ، إذ نهض بجيوش كبيرة من وادي الحجارة إلى مدينة سالم، إلى طريق ألبه والقلاع. وتابع السير حتى بلع وادي دويرد. وبعد ذلك نزل إقليم طليطلة؛ وقطع ذلك في خمس محلات⁽⁶⁾. إن الحديث عن المسافات والطرق، باعتبارها جزءاً مهماً من البنيات التحتية، وذكر المصادر للطرق الرومانية القديمة بالأندلس يدفعنا إلى التساؤل حول دور قرطبة أي الخلافة، أو السلطة السياسية في توسيع تلك الطرق أو تشييد أخرى تبعاً لقوتها ونفوذها في المجالين الاقتصادي والعسكري. يمكن القول إن الخلافة الأموية في الأندلس قد اعتمدت، بالفعل،

(10) - نفسه: ص. 38.

(10) مكرر - تستعمل المصادر الفاظاً مختلفة لقياس المسافات كاليوم والمرحلة والفرسخ والميل إلخ... (انظر المسافات في باب الأسطول).

(1) - ابن حيان: المقتبس... ج 5، ص. 65.

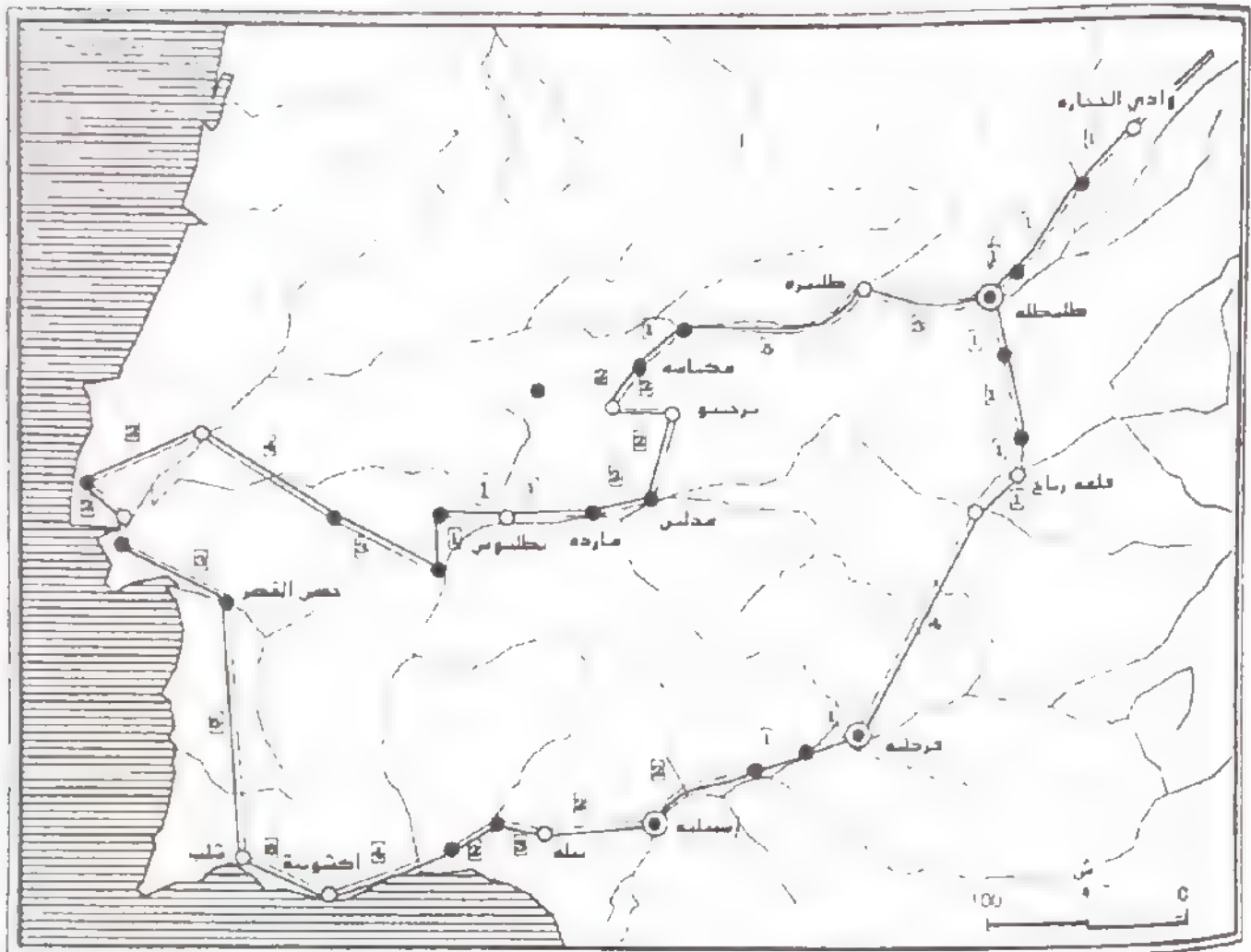
(2) - الرازي: وصف الأندلس... ص. 71.

(3) - الرشاطي وابن الخراط... الأندلس في اقتباس الأنوار... ص. 151.

(4) - ابن غالب: تعليق منتقى... ص. 288.

(5) - ابن حيان: المقتبس... ج 5، ص. 163، 165.

المسافات حسب ابن حوقل الذي زار الأندلس في منتصف القرن IV هـ
الأرقام بين المدن تدل على عدد الأيام مشياً



الطرق والمسالك الرومانية الموحدة في شبه الجزيرة. لكن لم تقتصر عليها، بل امتدت إلى بناء وتشديد أخرى، وذلك بشكل يتماشى والتطورات الاقتصادية والتجارية والعمارية التي عرفتها الأندلس طيلة القرن الرابع الهجري (X م) على الأقل. فالحلافة، في شخص عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، شيدت مجموعة من المدن وأحضعت أخرى كانت تلعب أدواراً هامة في مواجهة أعدائها سواء في الداخل أو في الخارج، وكان لابد أن تشق إليها المسالك والطرق، لتسهيل الاتصال والتواصل معها كما هو شأن لما بنى الخليفة الناصر مدينة الفتح⁽¹⁾ سنة 318 هـ على مقربة من طليطلة وأمر بتعميرها، كما أخضع مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى و"قوم إليها الطرق من البلاد البعيدة"⁽²⁾. وعنى غراره دأب المنصور بن أبي عامر الذي كان يشق الطرق حتى إبان الحملات العسكرية. ففي إحداها على مدينة ننت ياترب، واجه جبلاً شديداً الوعورة "لا مسلك فيه ولا طريق.. فقدم الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه"⁽³⁾.

انطلاقاً من هذه المعطيات لا نشاطر رأي كل من ل. بروفنسال⁽⁴⁾ و Manzano-Moreno⁽⁵⁾ القائل باعتماد الخلافة الأموية بالدرجة الأولى على المسالك والطرق الرومانية، التي أنشئت حول المراكز السكنية الرئيسية خاصة في جهات الثغور. ربما يمكن القول إنه بعد سقوط الخلافة آخر القرن الرابع الهجري توقفت أو بالأحرى نقصت المشاريع الكبرى بما في ذلك تشييد الطرق، واعتمدت السلطة خلال القرن الخامس للهجرة (XI م) على إرث الخلافة في مجال الطرق وغيرها⁽⁶⁾.

(1) - نفسه: ص. 283.

(2) - نفسه: ص. 360.

(3) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 295.

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne... op. cit, T. 3, p. 57.

(5) - MANZANO MORENO (Ed); La Frontera de AL-Andalus..., op. cit, p. 107, 150.

(6) - انظر رسم بعض الطرق التي تسلكها الحملات العسكرية على مستوى المحلي أو الإقليمي في:

PUNAL FERNANDÍZ (Tomas), « Las rutas militares del Henares Jarama en la Edad Media » dans: Revista de las Armas y Servicios, Ejército N° 621, Octubre, 1991, p.66, 73.

ج - التموين والنقل العسكري

إن الإعداد للحملات العسكرية في حجم الصوائف والشواتي والأوقات التي تستغرقها، يتطلب توفير المؤن المختلفة ونقلها بشكل موازي لتحرك الحملات. يقول ابن هذيل⁽¹⁾ «على الأمير إعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد وعلوفة يفرق ذلك بينهم في وقت الحاجة، وإذا نفذ زادهم لتسكن نفوسهم إليه...». يمكن النظر إلى ما يرافق الجند من زاويتين، تتعلق الأولى بما يُنتج من المواد المتنوعة والمخصصة للجند والدواب إبان الحملات، أو ما يؤخذ من أراضي العدو من الممتلكات لينتفع بها الجند المحارب. لاشك أن الجندي المحارب يصحب معه، بعد سلاحه، ما خف من المؤونة وما يمكن أن يصمد لمدة طويلة أمام تقلبات التنقل وأحوال الطبيعة. ولذلك يتم عادة إعداد الأقوات والأغلاف⁽²⁾، "كالقمح والإدام والملح والخطب"⁽³⁾، أو "التين والخبز والزبيب"⁽⁴⁾. ويوصي أحدهم⁽⁵⁾ الجندي المحارب بالقول «أول ما تحمله معك خبزاً ثم خبزاً ثم خبزاً». وللمقارنة كانت الروم تحمل في الحرب مواد مختلفة كالكمك والزيت والخمر والجبن⁽⁶⁾. يحمل الأندلسيون أيضاً مواد وأدوات تدخل في إعداد الأقوات للجند كالأرحاء. يقول ابن الخطيب⁽⁷⁾ في هذا الصدد بأن المنصور بن أبي عامر كان يخصص دواباً تحمل الأرحاء "لطحن الأزواد". وأكثر من ذلك كانت ترافقه أدوات أخرى ضرورية للجند أو لحاشية السلطان، كالآلات المطبخ والوضوء ودار الصناعة والمال وأرسل النساء وأخبيّة الفتيان⁽⁸⁾ أو العطاء وتوابيت الكسي⁽⁹⁾ وغيرها. ناهيك عما كان يُزرع لدواب السلطان من الشعير. فالمنصور

(1) - ابن هذيل: تحفة الأنفس...، مخطوط، الإسكوريال.. 21.. ب.

(2) - ابن حيان: المفتيس...، ج 5، ص. 211، 401، 456؛ ابن بلقين: المصدر السابق، ص. 128، 135؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 102؛ ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 297.

(3) - ابن حيان: نفسه، ص. 456.

(4) - فيكيرا (م. خ): التأثير الحربي العربي في إسبانيا، 1975، ص. 159.

(5) - ابن رضوان: الشهب اللامعة في السياسة النافعة...، ص. 405.

(6) - ابن خرداذبة (أبو العاسم عبيد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، ليدن - بريل، 1885، ص. 112.

(7) - ابن الخطيب: أعمال...، ص. 100.

(8) - نفسه: ص. 101.

(9) - نفسه: ص. 101.

العامري كان « يزرع في كل سنة ألف ألف مدي من شعير فصلاً له »⁽¹⁾ . وفي كل يزرع لدواب ابن أبي عامر « من شعير الفصيل لفصم حن الحمل وعرفه مفتح الرريعة من كل شتوة، بالأحفال السلطانية في أعم السنين خمسمئة مدي من شعير »⁽²⁾ . من يتكلف أو كيف تتفل المؤن الضرورية للجند؟ لاشك أن عملة عن سلاح والمؤونة تتم بواسطة بهائم مخصصة لذلك كالبغال والجمال إضافة إلى آلات نحر⁽³⁾ . تشير المصادر إلى « دواب الأكرباء المستاجرة للحمل »⁽⁴⁾، أي نخمة حمالات العسكرية كما حدث بالفعل خلال غزوات المنصور بن أبي عامر المتعددة. لقد كان من «البغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف رأس سوى الزوامل الخائمة لخيز ومطرب الوكلاء...»⁽⁵⁾. ناهيك عن الجمال «المتصرفة في حمل الأثقال»⁽⁶⁾. وبصدد الجمال سرد إشارات مصدرية متعددة تفيد أنها كانت ترافق الحملات العسكرية الإسلامية الأولى في المشرق، ولا تكفي بحمل أثقال الجند المقاتل، بل تتعدى ذلك لتلعب أكثر من دور. فهي تحمل الأثقال والزاد، وأحياناً يُستخدم بعضها "كصهاريج" تحمل المياه في بطونها بعد كم مشافرها، وتُنحر عند الضرورة لأكل لحمها والزاد الذي تحمله، وسرب الماء الذي تحمله في بطونها من قبل باقي الدواب المرافقة للحملة العسكرية⁽⁷⁾. يبدو أن آلات العجل قد استخدمت في الأندلس لنقل المؤن العسكرية منذ الفتوحات وظلت تُستعمل طيلة الخلافة والطوائف على الأقل كما يتبين من المعلومات المصدرية. يقول ابن عذري⁽⁸⁾ بأن موسى بن نصير لما قفل من الأندلس بعد مكوثه فيها «أمر بالعجل فحملت الذهب». وأحصى ابن

(1) - ابن عذري: البيان، ج 2، ص. 298.

(2) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 102.

(3) - العجلة، عجل وأعجال وعجال، محرك الآلة التي يجرها الثور وتحمل الأثقال.

البستاني (عبد الله البستاني): فاكهة البستان: معجم لغوي، بيروت، 1990، ص. 910.

(4) - ابن الخطيب: أعمال...، ص. 101.

(5) - نفسه: ص. 100.

(6) - نفسه: ص. 100.

(7) - الموسوعة العسكرية، مرجع سابق، ج 2، ص. 30.

(8) - ابن عذري: البيان، ج 2، ص. 17.

أبي دينار⁽¹⁾ العجلات مشيراً إلى أن موسى بن نصير «أقبل بمائة عجلة وثلاثين عجلة»⁽²⁾. وقد كان لذريق يحارب طارق بن زياد و«معه العجل تحمل الأموال والمتاع»⁽³⁾. أي أنها تحمل الغنائم⁽⁴⁾. وتستعمل العجل أيضاً في أشغال البناء كما يتضح حين مر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 340هـ ببناء صومعة كبيرة «وبُنيت بصخرة الحجارة المنقولة إليها على العجل»⁽⁵⁾. كما استخدمت خلال العصر الطائفي لنقل مؤن الجند في جهات أندلسية متعددة. ففي إحدى معارك منذر ابن يحيى التجيبي (ت 430هـ)، استعملت العجل لحمل أزواد عسكريه⁽⁶⁾. لا غرو فالمعلومات المصدريّة تؤكد انتشار العجل في أنحاء أخرى غير الأندلس وربما بأشكال مختلفة وتستعمل في أغراض محددة خاصة من لدن فئات اجتماعية ميسورة. يقول البكري⁽⁷⁾ بأن ملوك الصقالبة كانوا يسافرون «بالعجل العالية الجارية على أربعة أفلاك وقوائم، في زوايا أعمدة وثيقة وعلق منها هودج بسلاسل حصينة، وكسي بالديباج فلا يتقلقل الجالس فيه.. يعدّونه للمرضى والجرحى».

رغم توفير وسائل وأدوات عديدة لمساعدة الجند في النقل والتموين، ومهما بلغت مجهودات قواد الجند في إعداد الأقوات والأعلاف الضرورية للجند والدواب، فقد يحدث النقص في تلك المواد خاصة، إذا طالت الصائفة أو الشتاتية. ولهذا كثيراً ما يلجأ إلى «الإكتراء من الناس من بلد لآخر»⁽⁸⁾. أو الاستعانة بما يقدمه السكان في القرى والمدن والأقاليم التي تمر عبرها الحملات العسكرية. وفي حالة التغلب على العدو أو التوغل في أراضيه، فإن الأمر يختلف لأن الجند يستفيد مباشرة من ممتلكاته أو يعمل على نهبها أو إحراقها كي يتم إرهابه وإخضاعه. ولكن هل للجند الحق في الاستفادة من كل ما تقع عليه يده في دار الحرب؟ تجدر الإشارة إلى أن كتب الجهاد والنوازل تحدد بدقة أنواع المواد التي يمكن التعامل معها في الأرض المسيحية وما يجوز نهبه وتحريقه لتسهيل التغلب على

(1) - ابن أبي دينار: كتاب المؤنس...، ص. 35.

(2) - المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 240.

(3) - نفسه: ج 1، ص. 272.

(4) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 228.

(5) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 1، م 1، ص. 184.

(6) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 191.

(7) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 100.

العدو. يقول ابن هذيل⁽¹⁾: «يجوز تحريق أرض العدو وزرعهم وعقر دوابهم... يمكن أن يملكها المسلمون. وكذلك قطع شجرهم وتخریب بلادهم، إذا رأى الأعداء في ذلك صلاحاً... فقد قطع النبي ﷺ كرم الطائف فكان سبب إسلامهم». وحدد نفقته الماوردي⁽²⁾ المواد التي يمكن الاستفادة منها أو استهلاكها بأرض العدو حين قس: «لا يمنع الجيوش في دار الحرب من أكل طعامهم وعلوفة دوابهم غير محتسب به عليهم. ولا يتعدوا القوت والعلوفة إلى ما سواهما من ملبوس ومركوب. فإن دعيتهم انصروا لذلك، كان ما لبسوه أو ركبوه أو استعملوه مسترجعاً منهم في المغنم. إذا كان باقياً، ومحتسباً عليهم من سهمهم إذا كان مستهلكاً». لكن يمكن القول إن مضمون النصوص الفقهية في الغنائم والتعامل مع المسيحيين في المعارك كثيراً ما ظل نظرياً، أي بعيداً عما تقوم به الحملات العسكرية على أرض الواقع المعيش. لاغرو فقد عكست أغلب النصوص المصدريّة حقائق تاريخية قائمة على نفس ونهب زروع وممتلكات الأعداء سواء في الجهة المسيحية أو ضد المعارضين داخلياً. قال ابن خلدون⁽³⁾: «العلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا انتهاب الزرع والتعم وانتهاب البلاد ممّا يمرون عليه...». ولذلك ما فتى قواد الجند يأمرّون بكل ما من شأنه أن يخضع العدو. حدث ذلك سنة 312 هـ لما واجه عبد الرحمن الناصر الطنج شأنجه، إذ بات المسلمون في محلتهم «وانبسطت العلالة في قرى الناحية فانتسفت ما فيها...»⁽⁴⁾. وفي إحدى الحملات ضد سرقسطة عام 325 هـ، أمر الخليفة الناصر قواده بالخروج إلى كل جهة في «أعداد من الخيول للتدمير وجلب العلالة... وانفرد عبد الله ابن بدر منهم بقطع الشجر المثمر... وأتوا على دنيا عريضة، واحترق العسكر ما مرّ به من أرض بنبلون، على هذا التدمير المحكم... ينسف الآثار ويخرب الديار ويحرق القرى...»⁽⁵⁾. ولم يتردد جند الناصر في غزوة أخرى في: «الهدم والحرق حتى لقد اتصل الحريق في بلاد المشركين عشرة أميال واجتمع عند الناس من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله ولم يجدوا له ثمنًا تباع به،

(1) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط، 31 ب.

(2) - الماوردي: الأحكام السلطانية...، ص. 54.

(3) - ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 297.

(4) - ابن حيان المقتبس...، ج 5، ص. 195.

(5) - نفسه: ص. 401.

وكان القمح في العسكر تدل سنة أفقرة بدرهم، فلا يوجد من يشتريه فجمعت الاطعمه
وادخلت النار»⁽¹⁾.

د - الجواسيس والبريد ولغة التواصل بين الجند

1 - الجاسوسية : إن التاريخ للحروب التي تخوضها الدول ضد أعدائها والإمكانيات
التي تستغفرها من أجل مراقبة أطرافها داخليا وخارجيا، هو في الوقت ذاته تاريخ
للجاسوسية والمراقبة واستخبار الأوضاع في محالات متعددة. وقد يزداد نشاط الجاسوسية
وكل وسائل المراقبة إذا كانت الدولة تجاور أعداء كثيرين، أو كانت لها ثغور هامة كما
هو الحال في شبه جزيرة الأندلس. لكن يمكن للثغور كذلك أن تساعد على دينامية وحركة
الجاسوسية المضادة كما حدث من الجهة المسيحية. لقد أطنبت كتب الأخلاق السلطانية في
أهمية الاستخبار والاستعلام وإدكاء العيون والجواسيس في صفوف العدو خاصة إبان
الأزمات السياسية والعسكرية. وأوصت باتخاذ الإذلاء والبريد والرجال العارفين بشؤون العدو:
قوته وضعفه وأسراره. يقول ابن أبي النور⁽²⁾ في هذا المعنى موجه الكلام لأحد أمراء الجند،
بضرورة بث الجواسيس في عسكر العدو» وإظهار الكتب على ألسنة خواصه، بطلب الأمان
منك وتضمينها ما صحّ عندك من أسرار له ليحمل هذا جواسيسه إليه، فيضطرب أمره ويرتاب
ممن كان يثق به».

لاشك أن القرن الرابع الهجري (X م) الذي شهد قوة ونفوذ السلطة السياسية بقرطبة،
وامتداد الرقعة الجغرافية التي تحكم فيها الدولة، إلى جانب امتلاكها لجند قوي يستعمل
بحزم في الداخل وفي الثغور وفي مناطق أخرى بالمغرب، قد واكبه نشاط «العيون
الراصدة والجواسيس الكامنة»⁽³⁾.

عكست المصادر هذا الأمر إذا علمنا أن الخليفة عبد الرحمن الناصر نشطت
جواسيسه واستخباراته في كل الميادين. بحيث جعل عيونه «على ما قرب وبعد وصغر

(1) - نفسه: ص. 167؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 179.

(2) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط... 47، أ، 48 ب.

(3) - ابن أبي حجة: رعاية الرعية...، مخطوط... 60 أ

وكثير»⁽¹⁾. وكانت للخليفة الحكم بدوره العيون المراقبة في كل صفوف نجد. فلما قتل
 شأن المنصور بن أبي عامر: «وجعلناه عينا على العسكر»⁽²⁾. لقد حرص هذا الحاكم على
 أنواع التجسس والمراقبة في الإدارة والقضاء إذ تكلف بهما لمدة ليست قصيرة، وكانت في
 الميدان العسكري الذي نظمه وأشرف على كافة خططه سواء داخل الأندلس أو خارجها؛
 في الثغور. كان المنصور بن أبي عامر يراقب السادة والفاة في المجتمع الأندلسي خاصة
 لما تولى الحجة وأبان عن نفوذه وسيطرته، كما ينبغي من إحدى الروايات نضربها على
 كشفت عن تواطؤ المسيحيين في مدينة الزاهرة ضد مستعمرين أحد النبوح لمسير الذي
 يكون آخر من يشك في أمره، مما دفع المنصور العامري إلى قتل الجميع⁽³⁾.

إذا كان عصر الخلافة، كما سبق القول، قد عرف نشاط الجاسوسية، فمن نقرن
 الخامس الهجري (XI م) شهد بدوره حركة الاستخبار سواء فيما بين الولايات الطائفية أو
 ضد المسيحيين، أو عكس ذلك نشاط التجسس المسيحي ضد الطوائف وذلك بشكلى موري
 لزيادة أطماعهم الاقتصادية والعسكرية في الأندلس. لقد استخدم ابن بلقيس في دولة غرناطة
 ما كان يُعرف بالرقاصة السودان⁽⁴⁾، أو الرقاصة المغاربة⁽⁵⁾، الذين كانوا يحصرته. كما
 كان يدس⁽⁶⁾ إلى الرعية من يستقي أخبارها وتفاصيل حياتها اليومية. وأشيء نفسه سنكه
 المعتمد بن عباد في إشبيلية مع جيشه ورعيته، وكذا مع المرابطين في موقعة الزلاقة

(1) - ابن سعيد (المغربى): المغرب في حلى المغرب، تحقيق ضيف (سوقي)، القاهرة، دار المعرف، 1978، ج 1، ص. 180.

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 253.

(3) - تقول الرواية باختصار أن المنصور بن أبي عامر أمر في إحدى الليالي المصطرة حد فرسانه بحراسة ممر حنى
 وإحضار أول شخص يصادفه. فحدث أن كان شيخاً هزماً يحصب على دابة فساقه إلى المنصور. وفي طريق سلكه
 الشيخ، "ما عسى أن يربد المنصور من شيخ مثلى..". وما وصل أمر تلقته فلم يعثروا عده على شيء، ومرت
 نفس بردة راتته، "فوجدوا داخلها كذباً من نصارى كانوا قد برعوا إلى المنصور يخدمون عده. لى اصحبهم
 من النصارى ليقبلوا ويحضرُوا في إحدى البواحي.. وخرج المنصور أولئك النصارى من لرهرة فصررت أعينهم
 وكذلك رقبة الشيخ معهم ..".

(4) - ابن بلقيس: السير، ص. 157. تدل كلمة الرقاص على الرمنون الذي يحمل الأحدر ويرسل في المغرب
 والأندلس اعتد الباحث ذنون طه أن أخبار الرقاصة من السودان مرتبط بحركة احسانهم تاء متهم، ويعمل قاتنهم
 لكن قد تنطبق هذه الصفات على عنصر آخرى ليست - لضرورة من السودان لمعربة - ذنون طه: تنصبت
 الجيش، مرجع سابق، ص. 45، 48.

(5) - ابن بلقيس: نفسه، ص. 157؛ ابن بسام: الذخيرة، ق 2، م 1، ص. 50. ق 4، م 1، ص. 74.

(6) - ابن بلقيس: نفسه، ص. 111.

الشهيرة، لما أذكى «عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكدهم...»
الذي امتدت جواسيسه وعيونه إلى أوساط جند المستعين بن هود بالبحر (١).

2 - البريد والدليل والحمام الزاجل

يعتبر البريد، كالجاسوسية، وسيلة أساسية للاتصال. استخدم بطرق مختلفة من الحضارات القديمة الإغريقية أو الفارسية. واختلف في مفهومه ودلالته. فبل في «السير» إثني عشر ميلاً، وبالشام وخراسان ستة أميال، وقيل البريد عشرون ميلاً. وقال المنصور البريد الرسول، وإيراده إرساله...»^(٣). لا تقف مهمة البريد عند التكيف مع الأخبار من إقليم لآخر أو من مركز إلى آخر، بل الأمر يتعدى ذلك، إذ يتحمل البريد مسؤولية لا تقل خطورة ودقة، إن لم نقل أكثر من مهمة الجاسوس نفسه. عليه أن يكون ملماً بمعارف ومعلومات، بل بعلوم مختلفة كمعرفة "الطرق والفراسخ والسكن ونحوها والجسور واتصالات الطرق..."^(٤). أي يكون ممن لا يحتاج في الرجوع معه إلى غيره في المسافات والفراسخ والخرائط^(٥). إضافة إلى ذلك يكون من "أهل الدلالة في الطريق والبصير بالقبائل"^(٦). بناء على ذلك يستفيد البريد ورجاله من امتيازات متعددة في كل المناطق والأقاليم التي يمرون بها، كاستضافتهم دون تقصير، أو تقديم العلف لدوابهم^(٧)، إلى غير ذلك. كما أن البريد يستفيد من علامات يحملها تسهل مروره وعدم مراقبته، لأن من شأن تلك المراقبة أن تؤدي إلى بطله وعدم وصول معلوماته في الوقت المحدد لها خاصة وأن مهمته تكمن في "الركض بالأخبار"^(٨). ولذلك كان بريد الروم

(١) - المقرئ: النفج...، ج ٤، ص. 364.

(٢) - الطرطوشي: سراج الملوك...، ج ٢، ص. 685.

(٣) - الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي): معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1955، ج 1، ص. 35.

(٤) - ابن منكلي (محمد بن محمود المصري): الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، مخطوط 35، القاهرة، دار الكتب المصرية، نسخة خاصة، ص. 8.

(٥) - ابن خرداذبة: المسالك والممالك...، ص. 134، 184.

(٦) - ابن رضوان: الشهب اللامعة...، ص. 329.

(٧) - نفسه: ص. 329.

(٨) - مكرر. كان البريد الحفصي الذي يقوم به عبيد السلطان يجهز بغلاً يكون ملكية أو مستعاراً ويسافر عليه فإذا "عبي في مكان تركه عند الوالي... وأخذ منه بغلاً عوضه يعده الوالي أو بسخرة من الرعايا".

العمرى: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وصف إفريقية، تحقيق: حسن حسني (عبد الوهاب)، تونس، ص. 27.

(8) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 136.

يستعمل "براذين لطاف محذفة الأذنان خفاف"⁽¹⁾. وقرر الفرس أن «تكون دس حرس الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرؤون بها»⁽²⁾ مكرر.

نشط البريد⁽³⁾ والأدلاء⁽⁴⁾، والاتصال بواسطة الحمام الزاجل⁽⁵⁾ بتلك المدن حال الخلافة والطوائف. ذكر ابن حيان أن الخليفة المستنصر عثا أصبح يرسل الخصيان⁽⁶⁾. و"كتاب الفرائق" (7) مكرر. و"الفرائق من السلطان"⁽⁸⁾.

استخدم الحمام الزاجل (المسافر) بدوره في الاتصال المستعمل منذ تقديم. وقد ضف عليه الحمام الرسائل نظراً لإعداده وتربيته في حمل المراسلات. يقول صاحب المخصص⁽⁹⁾: «زجل الحمام يزحلها زجلاً، أرسلها على بعد». ومن خصائص هذا الحمام «حسن الاهتداء وجودة الاستدلال وثبات الحفظ والألف لوطيه»⁽¹¹⁾. وهو أشد طيراً من جميع سباع الطير⁽¹¹⁾. يقطع الجيد منه أي المدرب أحسن تدريب ما بين 500 إلى 1000 كلم بمعدل 60 كلم في الساعة⁽¹²⁾. تكتب الرسائل التي يحملها على ورق رقيق يعرف بورق الطير⁽¹³⁾، ويبخط يعرف بالغبار نظراً لدقته وشبهه لذرات الغبار⁽¹⁴⁾. يبنو

(1) - ابن خرداذبة: المسالك والممالك...، ص. 112.

(2) - الحموي: معجم البلدان...، ج 1، ص. 35.

(2) مكرر. يورد الحموي تفاصيل حول أسباب إلصاق علامات بخيل بريد الفرس: منها أن أصحاب البريد اشتكوا إحدى المرات من الولاة الذين لم يسهلوا مرورهم في أقاليمهم. ولما استدعاهم السلطان لاستفسارهم أجابوا بأنهم لم يميزوا خيل البريد عن غيرها.

(3) - ابن بسام: الخيرة...، ق 1، م 1، ص. 160.

RADHI BASHIR (Hassan), EL ejercito en la Epoca del califato de Al Andalus, Tesis Universidad complutense, Madrid, 1989, 1990, T.1, p.570

(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 120، 420؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 295؛ أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب...، ص. 67، 65.

(5) - مجهول: للحل الموشية...، ص. 63؛ المقرئ: النفع...، ج 4، ص. 246.

(6) - ابن حيان: الحجي، ص. 91.

(7) - نفسه: ص. 136.

(7) مكرر - الفرائق/ فرنق: دليل الجيش. لسان العرب، المجلد 2، ص. 1090.

(8) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 1، ص. 34.

(9) - ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي): المحصص، بيروت، دار الكتب العلمية، ج 8، ص. 170.

(10) - الجاحظ: الحيوان، تحقيق هارون (عبد السلام)، بيروت، دار الفكر العربي، 1969، ج 3، ص. 214.

(11) - نفسه: ص. 220، 221.

(12) - Dictionnaire encyclopédique. Quillet, Paris, A. Quillet, 1975, T 10, p 5237 (Pigeonramme)

(13) - الطيبي (أمين التوفيق): "حمام الزاجل: عرض تاريخي حول استعماله في المراسلات السريعة في العالم الإسلامي في القرون الوسطى". في: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا تونس، الدار العربية للكتاب، 1984، ج 1، ص. 106، 119.

(14) - نفسه: ص. 117. يضيف المؤلف تفاصيل تتعلق بالكيفية التي يحمل بها الحمام الزاجل الرسالة التي تعلق بجناحه أو ذنبه بشكل لا يعيق طيرانه، وتكتب بدون عنوان ومن صورتين مع حمامتين، وذلك للتلف أو الهلاك وفي حالة الأخبار السارة تلتخ الرسالة بالعطر وفي العكس أي في حالة الأخبار السيئة يسود ريش الطير..

أن الحمام الزاجل قد استعمل بشكل أوسع خلال الطوائف والمرابطين بالأندلس. يقول المقرئ⁽¹⁾ لما قدم المرابطون إلى الأندلس طيّر ابن المعتمد بن عباد الحمام إلى أبيه الذي أمره بإخلاء مدينة الجزيرة الخضراء. ولما تحقق النصر للمرابطين والأندلسيين في الزلافة «تناول المعتمد بن عباد إضبارة كاغد على عرض الأصبع وكتب فيها سطرين إلى ابنه الرشيد.. وعلق الإضبارة في جناح حمام كان احتمله معه لهذا الحال فقرئت على الناس بمسجد إشبيلية فعم السرور»⁽²⁾.

3 - لغة التواصل بين الجند

إن الحديث عن البريد والاتصال والتنقل وكثرة الحملات العسكرية، وتعدد فئات الجند الأندلسي واختلافاتها يفرض الحديث عن قضايا تهم لغة التواصل بين كل مكونات ذلك الجند. تجدر الملاحظة إلى أن الأبحاث المعاصرة وإن حُلَّ بعضها القضايا اللغوية التي لها علاقة بتعدد العناصر العرقية والفئات المكونة للمجتمع الأندلسي، لم تُعر لغة التواصل بين أفراد الجند أي اهتمام، مع العلم أن الجند الأندلسي يتكون بدوره من فئات عرقية مختلفة كالعرب والبربر والصقالبة كما بيّنا في الفصول السابقة. فهل كانت لغة التواصل اليومي بين صفوف الجند في السلم كما في الحرب، هي اللغة العربية؟ أم ظلت اللغة البربرية تستعمل إلى جانب لغات أخرى؟

دأبت مجموعة من الأبحاث⁽³⁾ بعد ل. بروفنسال⁽⁴⁾ على تأكيد مقولة التعريب السريع والشامل الذي عم الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها. ولذلك سادت اللغة العربية وانتشرت بشكل واسع إلى جانب اللغة العجمة المعروفة «بالرومانس» (Romance). وفي المقابل تحدث بعض الدارسين ذوي الاتجاه الإنثولوجي أو الأنثربولوجي⁽⁵⁾ عن تشابك العلاقات الإثنية والثقافية في الأندلس نتيجة التحولات المختلفة التي أصابت المجتمع منذ الفتح. ولا

(1) - المقرئ: النفح... ج 4، ص. 246.

(2) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 63.

(3) - ARD (P), Structures sociales «Orientales et "Occidentales" dans l'Espagne musulmane», Paris, La Haye Mouton, 1977, p.250 et sv.

مونس: فجر الأندلس... مرجع سابق، ص. 394، 395، 396.

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., T. 3, p. 169 et sv

(5) - GLICK THOMAS (F) ; Cristianos y musulmanes..., op. Cit, p. 217, 219

عرو والاختلاف اللغوي نتج عنه اختلاف لغوي. لكن دون أن يشكل ذلك عائقاً أمام التطورات التي مست العديد من الميادين⁽¹⁾.

ومن الدارسين⁽²⁾ من مال إلى الاعتقاد بأن اللغة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ظلت تستعمل في الأوساط العلوية، في حين سادت الرومان في الأوساط السفلى. لكن دون الحديث عن اللغة البربرية⁽³⁾. إذا صعب تكوين تصور واضح عن لغة البربر التي عرفها المجتمع الأندلسي عامة، نظراً لتطوراته المختلفة، فإن فهم لغة البربر في العصور الوسطى لا يقل صعوبة نظراً لشح المادة المصدرية في هذا الباب. يمكن عندئذ أن نعبر عن العصر العسكري البربري الأولي، أي تلك التي استقرت في الأندلس في عصر الأندلس، طلت تستعمل اللغة البربرية أثناء الحروب والقتال. كما يشهد على ذلك كلام ابن القوطية⁽⁴⁾ الذي أشار إلى أن عبد الرحمن بن معاوية (ت 192 هـ) لم يثر في عسكره في إحدى المناسبات «سمع كلام البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية. فدعا مؤلفه عن البربر فقال لهم خاطبوا بني عمكم وعظوهم...». وعلى غرار ابن القوطية وروى عن الخطيب⁽⁵⁾ إشارة تفيد أن اللغة البربرية كانت تستخدم بين البربر إذ قال: «وحدث برضى أحدهم بالبربرية». يبدو أن عصر الخلافة خاصة عهد الخلفيتين عبد الرحمن الناصر وحكم المستنصر، قد طبع بسيادة اللغة العربية في صفوف الجند نظراً لمكانة الأندلس في العربية في قيادة الجند، وفي دواليب الإدارة. ومع مجيء المنصور بن أبي عامر واستقدامه للعناصر البربرية من شمال إفريقيا بكثافة لاعتماده في الجندية ضاماً على الأندلسية العربية والبيروقراطية الصقلية، أعطيت الأهمية، في اعتقاده، للغة البربرية في أوساط الجند. وبعد فترة المنصور العامري اشتعلت النزاعات والصراعات العرقية العربية البربرية، الصقلية، ولاشك أنها انعكست بشكل مباشر على اللغة والتواصل اليومي بين كل مكونات المجتمع الأندلسي. فلا غرابة إذا تعصب كل جنس للغة نظراً لسيادة

(1) - نفسه: ص. 218، 219.

(2) - (Gab) , L'ideologie omeyyade. , op Cit. p. 45, 46 MARTINEZG-GROS .

(3) - انظر التفاصيل عن البربر عموماً في:

حقي (محمد) البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة أتية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية، 29 هـ 416 هـ

(1031-711 م)، رسالة السلك الثالث، الرباط، 1996، (مرقونة).

(4) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 53.

(5) - ابن الخطيب: الإحاطة...، ج 1، ص. 262.

التعرات العرقية من جديد. فالجند العربي تعصب للعربية، وتمسك البربري ببربريته. وعاد الصقلي لعجمته⁽¹⁾. ومع ذلك نلاحظ أن عالم الجند يخضع لخصوصيات واستثناءات تفرضها أوضاعه وضوابطه الأمنية. إذ يمكن مثلاً في معركة من المعارف اللجوء، إلى كل الوسائل بما في ذلك اللغة أو اللغات من أجل البحث عن النصر والغلبة أو تسهيل الاتصال والتواصل.

ج - التعبئة وأساليب القتال خلال المعارك: الكمائن والكر والفر والزحف:

تعتبر التعبئة خلال المعارك مسألة حاسمة في مصير وحياة الجند المحارب. عليها يتوقف الانتصار أو الاندحار. ولذلك ينتقي من الجند لخوض غمار الحرب والمعارك "خيارهم وذوي النباهة فيهم"⁽²⁾، أو "أهل المسالة والنجدة والجدالة والسدة"⁽³⁾، على حد تعبير ابن هود الأندلسي. يعمل الجند على تطبيق كل الأساليب التعبوية التي من شأنها أن توفر شروط التغلب على الأعداء. يجب التذكير أن كتب الأخلاق السلطانية، وكتب الفروسية وآداب الحرب، قد فصلت الكلام في مختلف خطط وأساليب التعبئة التي يمكن تطبيقها في المعارك، كالحيل والمكايد⁽⁴⁾، والكمائن والخديعة⁽⁵⁾، وتقنية تنظيم الصفوف⁽⁶⁾، كالملاصقة والمفارقة والمخارجة والمضايقة⁽⁷⁾. والقتال بالكر والفر والزحف بالصفوف⁽⁸⁾، والحصار⁽⁹⁾. وأكثر من ذلك تناولت كيفية قتال العدو في المعركة بحسب أنواع سلاحه، والمسافة التي ينبغي اختيارها ليسهل التغلب عليه⁽¹⁰⁾، إلى غير ذلك من الأساليب العسكرية التي طبقت في تاريخ الحروب والمعارك منذ الأمم القديمة.

(1) - انظر: الصقالبة الخرس في الفصل الأو من هذا الباب.

(2) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، الأسكوريال، 7 ب.

(3) - ابن مكي: الأحكام لمملوكية...، مخطوط، ص. 13. تحدث ابن مكي عن كتاب ابن هود ناقلاً منه تفاصيل حول آداب القتال وهو بعنوان: يقطعة الناعس وتدريب المجاهد الفارس. لعل العثور على هذا المصدر الهام من شأنه أن يكشف عن جوانب هامة من النظام العسكري الأندلسي خاصة في عصر الطوائف نظراً لأهمية صاحبه في الميدان السياسي والعسكري.

(4) - البطريق: كتاب السياسة...، مخطوط، ص. 225.

(5) - ابن المناصف: كتاب الإتجاد...، ميكروفلم، 65 أ، 66 ب.

(6) - نفسه: 30 أ.

(7) - مجهول: كامل لصناعة في لفروسية. مخطوط، خ. ع ميكروفلم 666، ص. 51، 53.

(8) - نفسه: ص. 376؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار...، ج 1، ص. 113؛ ابن خلدون: المقدمة، ج 2، ص. 715، 716، 720، 717.

(9) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، 48 أ.

(10) - مجهول: كاملة الصناعة...، ص. 53، 58.

فصل ابن خلدون⁽¹⁾ في أنواع الحروب وصفاتها وما يطبق فيها من أساليب لتعشئة
مُبتينا أن نظام الزحف بالصفوف، وهو الأشد والأقوى، من اختصاص العدد. أما لغرب
والبربر من أهل المغرب فقد تَفَنُّوا في القتال بأسلوب الكر والفر. إن الأمم القديمة من
الفرس والروم ذات الجيوش الكثيرة الأعداد برأي ابن خلدون كانت تقسم عساكرها إلى
مجموعات تسوى فيها الصفوف على شكل نظام خاص. فبين يدي الملك يرتب عسكر
يُعرف بالمقدمة، وعن يمينه فرق تدعى الميمنة، وإلى شماله الميسرة، ووراءه الساقة،
وفي وسط هذه المجموعات يقف الملك ليُشكِّل ما يسمى بالقلب⁽²⁾. هل عرفت هذه
الأنظمة بأندلس الخلافة والطوائف؟ لا شك أن المسلمين قد تأثروا منذ الفتوحات الأولى
بالتقاليد الحربية الفارسية. يشير ابن خلدون⁽³⁾ إلى أن أول من ألغى نظام الصفوف في
الحروب، هو مروان بن الحكم حين كان بصدد قتال الخوارج. ولإلغاء هذا النظام علاقة
بمضمون الآية الكريمة {إن الله لا يحب الذين يُقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بُنيان
مرصوص} ⁽⁴⁾. وقيل كذلك إن خالد بن الوليد كان أول قائد عسكري عربي استخدم نظام
الكراديس⁽⁵⁾. يتبين أن الأساليب القتالية الساقة الذكر قد انتقلت إلى الأندلس لتتطور فيها
منذ وقت مبكر نظراً لطبيعتها وظروفها. وقد انتقل النظام الخماسي الذي ذكره ابن خلدون
أنفاً إلى الأندلس منذ فترة الكور المجندة على حد تعبير البكري⁽⁶⁾ الذي أوضح أن لواء جند
حمص الذي نزل إشبيلية كان في الميمنة. وتذكر المصادر أن عبد الرحمن الناصر استخدم
هذا النظام الخماسي القائم على المقدمة والميمنة والميسرة والساقة والقلب في غزواته ضد
الإفرنج. ففي غزوته عام 312 هـ إلى حصن بقيرة «أمر بإتقان التعبئة.. وضبط
الأطراف (..) وتظاهر أعداء الله لأهل الساقة»⁽⁷⁾. وحاول المسيحيون من جهتهم عام

(1) - ابن خلدون: المقدمة... ج 2، ص. 715 وما بعدها.

(2) - ابن خلدون: نفسه، ج 2، ص. 717. أشار ابن خلدون إلى أن الروم وملوك القوط بالأندلس كانوا يتحور أسراً في
الحروب، يتصبون للملك سريراً وسط الخدم والحاشية والجنود، نفسه، ص. 720.

(3) - نفسه: ص. 720.

(4) - السورة 61، الآية: 4.

(5) - الموسوعة العسكرية...، مرجع سابق، ج 2، ص. 31.

(6) - جغرافية الأندلس وأوروبا...، ص. 115.

(7) - ابن هيان: المقتبس...، ج 5، ص. 194.

308 هـ - البيل من جيش الناصر تباعراض المقدمة أو انتهار فرصة في الساقة⁽¹⁾. استعمل المنصور ابن أبي عامر بدوره هذا الأسلوب. فخلال إحدى المعارك «كان في القلب وجعفر بن علي في الميمنة والحسن بن عبد الودود في الميسرة»⁽²⁾. وظل الأسلوب نفسه قائما خلال الطوائف. ففي أخبار منذر بن يحيى (ت 430 هـ) أنه كان يخرج إلى الحروب في «تعبئة محكمة وكراديس منتظمة»⁽³⁾. إن أحسن نموذج لما استعمله الأندلسيون من أساليب قتالية هامة تحدث عنها الطرطوشي⁽⁴⁾. مؤكدا أن «أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا.. في لقاء عدونا هو أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطول والمزاريق المسنونة النافذة، فيصقوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألتم الأرض ركبته اليسرى وئرسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون الذين تمرق سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة من هياتهم ولا يقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب، والزجالة بالمزاريق، وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يُمْنَةً ويُسْرَةً، فتخرج خير المسلمين بين الرماة والرجالة فتتال منهم ما شاء الله». ونهج المرابطون والأندلسيون في الزلاقة النظام الخماسي السالف الذكر مع اعتماد أهل الأندلس في قلب المعركة مباشرة، واتباع المرابطين أسلوب الكمائن المتفرقة وربما يعود ذلك إلى خبرة الأندلسيين في قتال المسيحيين في الأندلس نفسها، وكون المرابطين حديثي العهد بطبيعة شبه جزيرة الأندلس. يقول صاحب الحلل الموشية⁽⁵⁾ بصدد الزلاقة: «كان المعتمد في قلب المقدمة، والمتوكل بن الأفطس في ميمنتها، وأهل مشرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس في الساقة، والمرابطون وأهل العدو كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء». وربما استفاد

(1) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 178.

(2) - ابن حزم: الرسائل...، ج 2، ص. 94.

(3) - ابن بسام: التخيصة...، ق 1، ص. 184.

(4) - الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 2، ص. 698، 699.

(5) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 59.

يوسف بن تاشفين من نصائح صاحب كتاب السياسة في دسر الرئاسة⁽¹⁾ لدى اوصى الأمير قائلا: «اجعل ميمتك اهل الضرب وميسرتك اهل الطعن، والغلب اهل امر رفة والرمي بالسها م». وقد فصل أحدهم⁽²⁾ أكثر في الفنال الناح مشيرا الى ان لاقت هم الوفوف على بعد مائة وخمسين ذراعا من الخصم والنظر إليه لتمير حلوسه وركوبه في السرج حتى يمكن ضربه بصدر الرمح.. وإن كان ماهرا سريعا «اجعل رمحت فوق رمحه الكبسه إلى أسفل واعصف على يمينك ولا تفارقه حتى تطعنه»⁽³⁾. تحذر الملاحظة إلى أن المسلمين الذين استفادوا من الأمم القديمة في تطبيق أساليب قتالية متعددة، قد برعوا بدورهم في تلك الأساليب، بل ألفوا مصنفات في اداب الحروب مد الفتوحات الإسلامية الأولى، وخلال العصر الوسيط. كما طوروا الحوائص النظرية والتطبيقية في ذلك حتى أن تاليفهم شكلت قاعدة اعتمد عليها خلال فترات تاريخية لاحقة. للتأكد من ذلك يكفي الإطلاع على بعض المصنفات الحديثة في مجال الحروب خاصة تلك التي ألفت خلال الأزمات الحربية المختلفة. إنها تستبطن خطط وأساليب قتالية وجدت من قبل⁽⁴⁾. فالناصرى⁽⁵⁾ مثلا تحدث عن حرب الإسبان (الإصبيول) في المغرب عام 1276 هـ/ 1859/1860 م، مذكرا اعتمادهم على أسلوب الزحف بالصفوف بينما التحا المغاربة إلى المطاردة بالكر والفر.

لم يقتصر الأندلسيون على ما وصفناه من الأساليب القتالية بل تعدوا ذلك إلى استخدام أخرى لقتال المسيحيين كالكمائن والحصار للمدن والحصون. لقد برعوا في كمر الكمائن خلال الصوائف⁽⁶⁾، وفي اعتماد المفاجآت لحسم القتال. ولتحقيق شروط النجاح في ذلك اتخذوا

(1) - البطريق: كتاب السياسة...، مخطوط 228.

(2) - مجهول: كامل الصناعة...، مخطوط، ص. 53، 58.

(3) - نفسه: ص. 58.

(4) - انظر نماذج من ذلك في:

مجهول: الحياك والسلاح، مخطوط، خ. ع، الرباط، د 1184؛ الكردودي (محمد بن عبد القادر): سياسة حربية،

مخطوط، ح. ع، مجموع 2071، لسملاي (علي لسوسي). غلية الاستعانة بحكم للتوظيف ولعمونة، مخطوط ح. ع، د 480.

(5) - الناصري (ابو العباس أحمد بن خالد): الاستقصاء لآخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الناصري (جعفر)،

الناصرى (محمد)، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956، ج 9، ص. 85، 86، ص. 58.

(6) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 84.

الكمائن من الجند "أهـ جرأة وشجاعة وثيقظ وصرامة، وليس بهم أنين ولا سعال، ولا غطاس. ويختار لهم من الدواب ما لا يصهل ولا ينهث"⁽¹⁾. كما التجأوا إلى حصار المدن والحصون التي يعتصم بها الأعداء. ومن أمثلة ذلك أن الخليفة الناصر في إحدى غزواته سنة 310هـ ناهض الأعداء «في حصنهم من جميع جهاته... وأمر بالبنيان عليه والشّد لمحاصرته... فأقام عليه خمسة وثلاثين يوماً، مُحاصراً مُضيّقاً حتى أباد كثيراً منهم.. فجُهدوا وعيل صبرهم»⁽²⁾. طور الأندلسيون كذلك تقنية عالية لحصار الأسوار والحصون كما فعل الحاجب المظفر عام 398هـ لما احتل شنت مرتين «وأرسل البتائين والنقابين لحفر السور المحدث وحل حجار. ودأبوا في ذلك حتى أوسعوا التلم ثم حشوه حطباً مُضَرَّجاً بالقطران وأطلقوا فيه النار»⁽³⁾. ولم يتردد المقتدر ابن هود سنة 457هـ إذا واجه سور مدينة بربشتر "وأمر الرماة أن يتفقوا السور لئلا يمنع الكفرة النقاية من النقب... فنقبوا شقة كبيرة ودعموا السور وأطلقوا النار في الدعائم.. وافتتح عليهم المسلمون البلد"⁽⁴⁾.

1. الأعداد في المعارك

إن المواجهة في المعارك الحاسمة كالزلافة مع المسيحيين واستخدام كل أساليب التعبئة الممكنة من أجل النيل من العدو، ومن معنوياته، يؤدي إلى إثارة قضية أساسية مرتبطة بأعداد الجند التي تشارك مباشرة في المعارك وكذا أعداد القتلى بعد المعركة. تجدر الإشارة إلى أن موضوع الأعداد على العموم يطرح قضايا شائكة يصعب الحسم فيها، لأنها لها علاقة مباشرة بمصادقية المصادر وموضوعيتها. لا شك أن المعلومات المتوفرة تعتمد التضخيم والمغالاة سواء في إحصاء جند الأعداء أو عدد قتلاه في المعارك. وفي المقابل تقلل من عدد الجند والقتلى في الجانب الآخر. ويصعب التأكد من المعلومات الواردة في هذا الباب نظراً لغياب معطيات عديدة، سبقت الإشارة إليها، تهم أعداد السكان وأعداد الجند نفسه. ولذلك عادة ما يختلط الواقع التاريخي المعيش بالأساطير. ولا غرو

(1) - ابن قتيبة: صيون الأخبار...، ج 1، ص. 113.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 180.

(3) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 21.

(4) - نفسه: ص. 227.

فالأمر يصدق في المصادر المسيحية نفسها⁽¹⁾. ونشير إلى أن بعض الأحداث نمعصرة⁽²⁾ تكفي بإيراد المعلومات المصدرية المرتبطة بأعداد الجند. ومن أمثلة المنعاب تحددني تقع فيها المصادر: في عام 240 هـ قاد محمد بن عبد الحميد بن المنذر حذا في معركة وادي سليط «وَقُتِلَ فِيهَا مِنَ الرُّومِ ثَلَاثُونَ أَلْفًا، وَصَعِدَ الْمُؤَذِّنُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ فَأَذَنُوا»⁽³⁾. وفي سنة 244 هـ غزا الأمير الحكم إلى دار الحرب «وَقُتِلَ مِنْ مُسَرِّكِينَ مَا لَا يُحْصَى وَاجْتَمَعَ مِنْ رُؤُوسِهِمْ أَكْدَاسُ كَالْجِبَالِ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ يَقِفُ مِنْ نَاحِيَةٍ فَلَا يَرَى صَاحِبَهُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى..»⁽⁴⁾. أما في الزلافة الشهيرة سنة 479 هـ / 1086م فقتل: «نحو ثلاثمائة ألف... قطع رؤوس النصاري وكُدس منها أكْداس كالصوامع لمِعة.. عدد الرؤوس أربعة وعشرون ألف رأس»⁽⁵⁾.

خلاصة

تم في هذا الفصل رصد لمعلومات المصدرية المختلفة والمرتبطة بحظوظ وأساليب القتال لدى الجند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف. والحديث عن أساليب القتال يعني كذلك مناقشة القضايا التي تهم القيادة في صفوف الجند والوسائل الأساسية التي تدخّل في إعداداته كالذّواب والطرق والمسافات والحمّلات العسكرية (الصوائف والشوّاتي)، والجاسوسية والبريد ولغة التواصل أو الاتصال والأعداد التي تشارك في المعارك إلى غير ذلك من القضايا التي لها صلة مباشرة بأساليب قتال الجند الأندلسي.

تبين من خلال الجرد الواسع للمعلومات المصدرية أن الخلفاء أنفسهم في الأندلس كانوا يحرصون على قيادة الحملات العسكرية، ولا يتخلّون عن ذلك إلا في ظروف معينة، يتم خلالها تكليف من ينوب عنهم من قواد مشهورين يحظون بثقة كاملة. ويُساعد هؤلاء القواد مجموعة أخرى من مراتب الجند كالعرفاء وغيرهم. إلى جانب ذلك يتم الاعتماد

(1) - FLORI (J), «Un problème de methodologie la valeur des nombres chez les chroniqueurs du Moyen Age», dans : *Le Moyen Age*, N° 3, 4, 1993, p.400,422.

(2) - انظر على سبيل المثال الدراسة الجيدة التي أجزها "Lagardère" حول الزلافة، إنها من أهم الدراسات السّولوجية للحرب في الغرب الإسلامي، لكنها اكتفت في جانب الأعداد بسرد ما ورد في المصادر. انظر التحليل الذي خصصه محمد بن عبود لدراسة Larardère بعنوان "ملاحظات حول كتاب جمعة الزلافة". مجلة: البحث العلمي.

LAGARDÈRE (V) ; *Le vendredi de Zellaqa*., op Cit, p 30,43

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 148.

(4) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 85.

(5) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 62.

على وسائل مادية مختلفة من بينها الدواب خاصة الخيول والبغال والتي أغفلها البحث المعاصر رغم أنها تشكل، كما بينا، نصف المجهود الحربي في الأندلس. إن إحداث حفر للخيول من قبل السلطة بقرطبة إضافة إلى تخصيص كتب الحسبة والنوازل والحمد والفروسية لحيز كبير منها لتحبس الخيل من أجل القتال عليها في الثغور، لدليل كثر على المجهودات العسكرية التي تساهم بها. وإلى جانب الخيول تحدثت المصادر عن ترسة البغال في الأندلس. وتبين كذلك أنها لم تستعمل في الأنشطة الاقتصادية والتجارية والركوب فحسب، بل ساهمت بدورها في المجهودات الحربية خاصة في مجال نقل المؤونة والسلاح خلال الحملات العسكرية. وإليها تضاف الجمال التي بينا أنها وُحِدَت بالأندلس منذ بداية عصر الخلافة وليس خلال المرابطين كما ذهب إلى ذلك بعض المصادر المشرقية. لاحظنا أن وفرة الدواب واستخدامها بشكل واسع في مجالات متعددة أدى إلى نشاط علم البيطرة الذي برع فيه بعض الأندلسيين أمثال ابن العوام الإشبيلي وغيره. إنه علم لم يقتصر على معرفة شؤون الدواب وعللها بل يقترح علاجاتها بطرق متعددة خاصة الجراحة. ورغم ازدهار الطب البيطري في الأندلس وأهميته في المجال العسكري لاحظنا أن البحث المعاصر لم يُعَرِّه الاهتمام الكافي.

إن الحديث عن الدواب ونقل مؤونة الجند وسلاحه له ارتباط مباشر بطرق المواصلات وبالمسافات العسكرية بالأندلس. لقد اتضح عكس ما ادعاه البعض - ن الطرق التي استخدمت من قبل الحملات العسكرية وإن كانت أصولها رومانية قوطية، قد اتسعت شبكتها - بل تم تشييد أخرى خلال الخلافة والطوائف أدت إلى سهولة تنقل الحملات العسكرية على شكل الصوائف والشواتي من قرطبة نحو الثغور. وبذكر الصوائف والشواتي والثغور تبين من خلال المعلومات المصدريّة أن الحملات قد تطول وتتحول إلى الحملات الربيعية أو الخريفية عكس ما هو معروف. وبشكل موارٍ للجهاد والحملات العسكرية المتعددة نشطت الجاسوسية والمراقبة ونقل المعلومات المختلفة بالبريد العسكري أو بالحمام الزاجل وهي أمور كشفت المصادر إتقان الأندلسيين لها. كما برعوا في أساليب التعبئة والقتال في المعارك وجربوا الزحف والكر والفر والحصار إلى غير ذلك. اتضح في الأخير أن المعلومات المصدريّة على اختلافها وتنوعها تتسم بنوع من

التصحيح والمنعة بصدد أعداد الحشد المتشاركة في الحملات ونمعة كسيرة ، من
لأسباب متعددة. ولذلك يجب التنبيه والتحلي بالحدس الضروري في العمل مع ردة
المصادر في هذا المجال.



خاتمة

تقودنا التحاليل التي سبقت في الكور المجندة وجند الحضرة، ونظام الثغور وأوراق الجند إلى إثارة مجموعة من الأسئلة والقضايا التي لها علاقة مباشرة بالأرض والضرائب سواء في الكور المجندة أو باقي الأقاليم عبر الأندلس وكذا في الثغور التي كانت تخضع لأنظمة خاصة. وحاولنا في الوقت نفسه تبيان علاقة الجند بكل مكوناته بما سبق دون إغفال طبيعة السلطة السياسية وأدوارها والعلاقات التي نسجتها سواء مع الجند أو في المجالات الأخرى الاقتصادية وغيرها. انطلاقاً من ذلك يمكن مناقشة مجموعة من الألفاظ والمصطلحات الواردة في ثنايا الأسطرغرافيا المعاصرة والتي تقف عند طبيعة النظام أو الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت في الأندلس خلال الخلافة والطوائف. من تلك المصطلحات نذكر على سبيل المثال "النظام الإقطاعي"، "نظام القنانية"، "النظام القبلي"، "النظام البيروقراطي"، "النظام الأرستقراطي العقاري"، أو "تعايش أنظمة مختلفة". من الباحثين من دافع عن خصوصيات الأندلس ضمن التاريخ الإسلامي عموماً. ومنهم من سجّل إمكانية مقارنة الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية الأندلسية بمثيلاتها في مناطق أخرى كأوروبا. تزعم الباحثة الإسبانية شالميتا⁽¹⁾ منذ أواسط السبعينات الرأي المدافع عن الخصوصية الأندلسية. بعد طرح سؤال أساسي حول إمكانية القول "بفيودالية" إسبانية إسلامية، استعرض مجموعة من المعطيات والمصطلحات المرتبطة بالاقتصاد الأندلسي، مشيراً إلى غلبة الأنشطة الزراعية فيه منذ البداية أي من القرن الثاني الهجري إلى نهاية الإسلام بالأندلس. إن علاقة الدولة بالفلاحين كانت قائمة على مجموعة من الواجبات والرسوم والزكوات والجزية إلخ. والدولة أيضاً كانت حاضرة في مراقبة أغلب الأنشطة السالفة الذكر، كما كانت تراقب الجند الذي يستهلك ثلث المداخيل الضرائبية كما كشفت المصادر عن ذلك بوضوح. إن هذا الجند الأندلسي لا يفكر في نظر شالميتا إلا في جمع الغنائم ويسير وفق أنظمة معقدة ولذلك تُعوزة الدينامية كما هو الحال لدى الفرسان

(1) - CHALMETA (P); Concesiones territoriales ., op cit, p 5 et sv « Al Andalus Société féodale » dans Etudes d'Ethonographie Historique du Proche-Orient Hommage à M Rodinson, Paris Maisonneuve-La Rose, 1982, p. 179,190

في الفيو دالية الأوربية. وفي السياق ذاته حاول الباحث Lagardere \ (١) مدققة ضعة العلاقة التي كانت تربط السلطة بالسياسة أو الدولة بالأرياف والمدن. وعلى عرار ستمبض لاحظ أن الدولة أو السلطة كانت تتحكم في الأرض والنقد والصرائف الشرعية وغير الشرعية. أي أن العلاقة بين الطرفين كانت مبنية على الضرائب. إن هذا التوزيع في عصر Lagardère لا يترك المجال لمناقشة استقلال الأرستقراطية العقارية أو العسكرية على النحو المعروف في "السنيرورة" الأوربية. ومن ثمة يمكن الحديث عن طبيعة إقطاع الاستغلال" الذي عرف بالأندلس منذ استقرار الجند الشامي بالكور المجندة.

ولاحظ الباحث بن عبود⁽²⁾ من جهته بصدد حقبة الطوائف أن المجتمع لم يكن إقطاعياً رغم ما اتسم به من مظاهر توحى بذلك. انطلق دارسون آخرون من مجموعة من المعطيات للقول إن الأنماط الإنتاجية في الأندلس خلال مراحل تاريخية محددة يمكن أن تقدم نوعاً من التشابه مع النظام "الإقطاعي" الأوربي في نواحي متعددة. لم يتردد القادري بوتشيش⁽³⁾ في القول إن المجتمع الأندلسي خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (IXم)، أي عصر الإمارة «شبيه بالإقطاع الأوربي» لأن «طبقة العسكر شأنها شأن طبقة المحاربين أو الفرسان الذين أفرزهم الإقطاع الأوربي»⁽⁴⁾. وحلل أحمد الطاهري⁽⁵⁾ من جهته مظاهر المجتمع الأندلسي خلال الخلافة والطوائف مبيناً أن عصر الخلافة عرف أنماطاً إنتاجية متنافرة. فالإقطاع العسكري المزدهر في الثغور تراجع في مناطق وأقاليم أخرى لفائدة «التحول الرأسمالي». وأضاف بالنسبة لحقبة الطوائف (القرن الخامس الهجري) «أننا أمان مجتمع مؤسس على قواعد نظام الفرسان الإقطاعي الذي غدا لمكانته وتآلق مظاهره حقيقة مسلمة»⁽⁶⁾، أي أنه «نظام القنانة الإقطاعي في أبرز جلياته»⁽⁷⁾.

لاشك أن الباحثين السابقين، اعتمدوا معطيات مصدرية متعددة في بناء تصوراتهم حول الأنماط الإنتاجية التي سادت في الأندلس خلال مراحل تاريخية مختلفة. نعم يمكن

(1) - LAGARDÈRE (V), Campagnes et paysans d'A-l Andalus , op cit, p 25, 29, 32, 38 « Structures etatiques et communautés réales... », op cit, p. et sv.

(2) - بن عبود (أحمد)، جوانب من الواقع الأندلسي...، ص. 94.

(3) - بوتشيش القادري: أثر الإقطاع...، ص. 92.

(4) - نفسه: ص. 170.

(5) - الطاهري (أ) : عامة قرطبة...، ص. 62، 85، 88، 118.

(6) - نفسه: عامة إشبيلية في عهد بني عباد...، ج 1، ص. 136.

(7) - نفسه: ص. 206.

الاتفاق حول الخصائص والمميزات العامة التي طبعت كل فترة من فترات التاريخ الأندلسي، لكن وإن كانت تلك الخصائص أساسية فهي فيما نرى، غير كافية لأن هناك جزئيات ومعطيات كثيرة وأحيانا دقيقة يلزم استحضارها قبل عقد مقارنات أو بناء تصور أو رأي من الآراء. إن القول بالشبه ما بين النظام الإقطاعي الأندلسي ونظيره الأوربي قد يكون صحيحا من حيث المظهر أو الشكل فحسب. والأمر يحتاج في اعتقادنا إلى نوع من التدقيق. من ذلك مثلا، أن الفرسان في الفيودالية الأوربية ليسوا عادة هم الأرستقراطية العقارية الكبرى. إن هذه الأخيرة تسخر أولئك الفرسان، نظرا لاختصاصهم في استعمال السلاح، من أجل ضبط العالم القروي في المجال الأمني والاقتصادي أي الإشراف على الفلاحين كي يؤدوا واجبات مختلفة للأرستقراطيين. والفرسان ليسوا إلا شريحة دنيا من الأرستقراطية، ولا يسمح لهم بالاندماج اجتماعيا واقتصاديا في صفوف الأرستقراطية العليا إلا بعد اجتياز مجموعة من المراحل واكتساب خبرات متعددة⁽¹⁾. إن ما يؤديه الفلاح الأوربي للأرستقراطي من واجبات مختلفة وضرائب عبر ما يُعرف بحقوق "الإلزام"⁽²⁾ كان على العموم محددا ومعروفا حسب الوثائق والنصوص المخصصة لذلك. وقد يؤدي جزءا من الضرائب نقدا أو عينا أو يشتغل على شكل سخرة في الأرض الأرستقراطية يوما أو يومين في الأسبوع أو في مناسبات سنوية معروفة كالصيد والأعمال الغابوية الخ. وفي المقابل يحظى الفلاح بنوع من الحماية من قبل الأرستقراطية. إلى جانب ذلك اتسمت الأرستقراطية العسكرية في الفيودالية الأوربية بنوع من الحركة والحيوية والدينامية كما عبر شالميطا عن ذلك، لأنها تشارك في تطوير وتنظيم الاقتصاد على المستوى المحلي، وذلك في غياب السلطة السياسية المركزية القادرة على ذلك. إن هذه السلطة وإن كانت ضعيفة في أندلس الإمارة والطوائف لم تكن غائبة تماما، بل كانت حاضرة بشكل من الأشكال. في حين كانت قوية ونافذة إلى حدود الإشراف على كل شيء،

(1) - انظر ذلك بتفصيل في:

BLOCH (M), *La Société féodale...*, op. cit, p.183 et sv.

BOUTRUCHE (R); *Seigneurie et féodalité*, Paris, Aubier, 1970, T.2, p.158 et sv

DUBY (G); *La Société chevaleresque...*, op. cit, p.9 et sv.

FOSSIER (R). *Enfance de l'Europe. Aspects économiques et sociaux*, Paris, P U F, 1982, T 2, p 951 et sv

POLY (J.P); BOURNAZEL (E); *La Mutation féodale...*, op. cit, p 155 et sv

(2) - حناوي (محمد): «الأرستقراطية والفلاحون في الفيودالية الأوربية»، في: *جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط*، سلسلة ندوات 2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1991، ص.84، 96.

خلال الخلافة أي طيلة القرن الرابع (Xم) تقريبا. ومن هنا لا يخفى مع سلفه ، لاكاردير (Lagardère) حين ركز على ثنائية الدولة والعالم القروي، أو نحو سبده لأسسه الزراعية في الأندلس من الفتوحات إلى آخر الدولة النصرية، بحيث يمكن تمييز في الفترات التاريخية وطبيعتها كالقول مثلا إن عصر الخلافة تميز بقوة الدولة وسيطرتها في أغلب المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والإدارية وغيرها إلى حد حضور أنشطة أخرى غير الزراعية في ظل الخلافة خاصة في المجال الاقتصادي والتجاري. أكثر من ذلك إذا أشرنا إلى أن الأرستقراطية العسكرية والعقارية في أوروبا الفيودالية كانت نشطة لأنها تشارك في تنظيم الاقتصاد وتطويره، فقد حدث العكس بالنسبة للأندلس لأن الدولة هي التي تصرف ثلث المداخيل الضرائبية على شكل رواتب الجند المسجلين في الديوان حسب المصادر. إنه يستهلك ثلث الضرائب دون أن نعرف بدقة كيف تصرف له. فحتى بالنسبة لعصر المنصور بن أبي عامر الذي تميز بالإصلاح العسكري لا نكتف بالمصادر عن حجم الضرائب التي تؤدي سنويا ومقادير رواتب الجند منها مباشرة. وهو ما عبر عنه Barceló⁽¹⁾ بالقول إن الغائب في النظام الاقتصادي الأندلسي هو طبيعة العلاقات التي كانت تربط القرويين بالأرستقراطية العسكرية والإدارية. انطلاقا من هذه الملاحظات نعتقد أن التاريخ الأندلسي لا يزال في حاجة إلى دراسات جزئية تهتم بميادين أو مجالات مختلفة، اقتصادية وبشرية وعمرانية وغيرها. إن من شأن تراكم تلك الدراسات الجزئية أن يقدم أرضية خصبة تسهل نتائجها القيام بمقارنات متعددة الجوانب.

(1)- BARCELÓ (C) «Toponymie tribale ou familiale et organisation de l'espace dans l'aire valencienne à l'époque musulmane», dans Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée (RO.M.M.) N° 40 1986, p 29, 38

الباب الثاني

الحصون والقصبات والأسوار والأسلحة

الفصل الأول : الحصون في الأرياف؛

العمران والوظائف.

الفصل الثاني : القصبات والأسوار في المدن.

الفصل الثالث : الأسلحة والألبسة الحربية؛

الأنواع والوظائف.

تقديم

إن دراسة النظام العسكري في الأندلس خلال الحافة، لقد غلبت، تفصيلى الأهمية، أيضا بالوسائل المادية، أي بالبنيات والأدوات المختلفة التي اعتدتها لحد الان في تحركاته. فإذا كانت الأسلحة القتالية على نوعها تحلل حبرا هاما في حد ذاته، كانت محط اهتمام واضح من لدن البحث المعاصر، فإن الحصون والقلاع، قصبات والأسوار وما إلى ذلك أنظمة مادية وأدوات دفاعية لا تقل أهمية عن السلاح نفسه لم تحظ انتصينات أو ظاهرة العمران العسكري في تاريخ الإسلام عموما، وفي تاريخ العرب الإسلامي بالخصوص - بعناية واهتمام الدارسين إلا في السنوات الأخيرة. وفي عر L. Torres Balbas ⁽¹⁾ رائد البحث في المجال المعماري عن ذلك حين سر إلى انبحث التاريخي المعاصر لم يهتم بالعمران العسكري. وقال مورينو حرمه من انحصون من الموضوعات التي لم يستوف بحثها خاصة في مجا انعمه لحرته. ثم أصبح هذا النقص خاصة في البحث العربي المعاصر الذي اعتمد بالدرجة الأولى على وصف مواقع بعض الحصون والقصبات والأسوار المشهورة تبعا لما ورد في المصادر، إنها أوصاف لا تتعدى في الغالب الأعم، الحوانب المعمارية والهندسية و ذكر لحصون والقصبات والأسوار في علاقتها بالسلطة الإقليمية أو المركزية وأدوارها في التورات والحمالات العسكرية.

لقد سادت هذه النظرة، إن لم نقل البعد السياسي في النظرية المعمارية منعقة التحصين في الأبحاث الأجنبية ذاتها إلى أواسط السبعينات. وعبر الباحث Jean Gautier-Dalche ⁽²⁾ عن هذه النظرية بامتياز حين قال: « إن الحصون والقصور الأندلسية لا تعدو أن تكون مجرد بنايات أو مؤسسات تُقدّم للباحث وللشائح أيضا نماذج عسكرية ومعمرية، تعكس

(1) - TORRES-BALBAS (L) , *Ciudades Hispano musulmanas...*, op. cit, p. 437

(2) - مورينو جوميث (مدون)، الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرنين، ترجمة لطفي (عبد البديع) سالم (عبد العزيز)، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1995، ص. 205.

(3) GAUTIER-DALCHE (J) - Chateaux et peuplements dans la péninsule iberique (X-XIII siècles) Flaran I Chateaux et peuplements en Europe occidentale du X^e au XVII^e siècle. Premières journées internationales du centre culturel de l'abbaye de Flaran (Gers), Auch, 1979, p 93, 107

بشكل من الأشكال حضارة بانيها». وأردف قائلا: «إن الأمراء والحكام يختبئون في حصونهم وقصورهم خوفاً من الثورات الداخلية... وخلقوا أنظمة دفاعية في المدن والأرياف، وتحصنوا وانعزلوا فيها...»⁽¹⁾. قَدَّم J.L. Torres Balb، بأبحاثه المتعددة، أرضية خصبة في مجال توطين الحصون والقصبات ووصفها الهندسي والمعماري ومواد بنائها إلخ، كان ذلك بداية لتطوير البحث في التحصين الأندلسي وتجاوز النظرية السياسية الكلاسيكية التي تقدم الحصون والقصبات والأسوار باعتبارها مؤسسات منعزلة عما يجري في المجال من تطورات اقتصادية وبشرية. ولاشك أن الالتفات إلى دراسة التحصين في الأندلس من زوايا متعددة يعود إلى أسباب منها التأثير المنهجي الذي مارسه البحث في التاريخ الفيودالي الأوربي والذي يعتبر الحصن والحياة حوله إحدى القواعد الأساسية التي قامت عليها الفيودالية في أوروبا. إنه النواة التي وجهت الحياة العسكرية والاقتصادية والسياسية برمتها. لم يكن الحصن الفيودالي وما ارتبط به من ألفاظ تدل على التحصين في مواقع محددة⁽²⁾ وسيلة عسكرية محضة، بل أداة هامة ساهمت إلى حد كبير في تأطير المجال الجغرافي والاقتصادي والبشري، إلى جانب كونه مقراً للسلطة الفيودالية على المستوى الإقليمي⁽³⁾.

إن موقع الأندلس المجاور لما كان يُعرف "بدار الحرب" ساهم في انتشار ظاهرة التحصين التي خضعت لتطورات مختلفة منذ عصر الإمارة إلى حدود العصر الموحدى على الأقل - كما تشهد بذلك المصادر. وتعدد الحصون والأسوار والقصبات يدفع إلى تساؤلات حول أهميتها وأدوارها ووظائفها خاصة خلال الخلافة والطوائف. إن من

(1) - نفسه، ص. 95.

(2) - عن المصطلحات والألفاظ المرتبطة بالتحصين والعمران العسكري في أوروبا المتوسطة نذكر (Incastelamento Castri Castrum)، ومن الباحثين الأوائل الذين درسوا الدلالات المتعددة لتلك الألفاظ:

TOUBERT (P), Les Structures du Latium médiéval, Ecole-fr. de Rome, Rome, 1973.

نشير إلى أن دراسة الحصون الفيودالية في حانيتها الميداني أي الأركيولوجي والطبوغيمي قد تطورت بشكل كبير ولافت حتى أمكن الحديث عن علم مستقل بذاته في مجال التحصينات يعرف بـ "الكستلوجيا" (Castellologie)، وأول الأبحاث في هذا الباب ظهر بجامعة CAEN، 1983 تحت عنوان:

Château Gaillard. Etude de Castellologie medievale, XI Actes du Colloque international tenu au DANEMARK du 30 Août au 4 Sep, 1982, Publ. Centre de Recherches archéologiques médiévales, Université de CAEN, 1983.

(3) - انظر مثلاً:

FOURNIER (G), Le Château dans la France médiévale, essai de sociologie monumentale, Paris, Aubier, 1978
BOUNASSIE (P); La Catalogne..., op cit, T. 2, p. 575 et sv.

المنصف القول إن ثلثة من الباحثين الفرنسيين⁽¹⁾ والإنسان⁽²⁾، انكبت مدد عدة سنوات على تنشيط البحث الأثري والطبونيومي المرتبط بالتحصينات في الأندلس معتمدين على بعض المصادر العربية المترجمة وكذا المصادر المسيحية. ولأشك أن لهذه العملية فوائد علمية مؤكدة، لعل أهمها تحقيق وتوطيق العديد من المواقع الإسلامية في حريرة الأندلس والتي ذكرت في مصادر مختلفة لكنها طُمست بفعل عوامل متعددة⁽³⁾.

إذا كانت "النظرية" السياسية والمعمارية في التحصين الأندلسي، والتي سادت لس وقت قريب، تقتصر على تقديم مجموعة من الأشكال الهندسية التي تعيب فيها حياة الاجتماعية أي الحركة والتطور⁽⁴⁾، فمن المفيد الاهتمام بدراسة تاريخ وحفرية وأركيولوجية التحصين عبر الأندلس. ونعني بذلك دراسة التحصين والعمران العسكري من خلال زوايا متعددة، وذلك في إطار ربط الحصون والقصبات والأبراج والأسوار وغيرها بمحيطها الريفي والحضري أي بالمجال، دون إغفال دور السكن والسكان

(1) - نقصد الباحثين الذين اهتموا بالتاريخ الأندلسي واشتغلوا في إطار معهد "velazquez Casa de" منذ بداية ثمانينات على الأقل من هؤلاء نذكر: BAZZANA (A) GUICHARD (P) , CRESSIER (P) , PH. SÉNAC

من آخر أعمال هؤلاء: Le Chateaux ruraux d'Al-Andalus Histoire et archeologie des Husun du Sud-Est de l'Espagne, Madrid, CASA de Velazquez, 1988

(2) - ومن الباحثين الإسبان نذكر على سبيل المثال لا الحصر: AZUAR RUIZ, ACIÉN ALMANSA, CARLOS ESCO, JUAN A. SOUTO, MIKEL DE EPALZA, M. J. VIGUERA, P. MAGDALENA VALOR, ANTONIO MALPICA CUELLO.

(3) - إلى جانب الضمى والتغييرات التي طرأت على المواقع الإسلامية بفعل تطلت الزمن وهي صعبة نلاحظ طمسا من نوع آخر، عادة ما يكون مقصودا ونعني به أن عملية الاسترداد أو إعادة التعمير المسيحي (re poblacion) التي بوشرت من الشمال منذ وقت مبكر نتج عنها إتلاف أو على الأقل تغيير معالم الكثير من المآثر التاريخية لمدينة والمنشآت الإسلامية التي أقيمت على امتداد شبه جزيرة إيبيريا منذ الفتح الإسلامي. ناهيك أن هذا الضمى زكته المدرسة التاريخية الإسبانية التقليدية بز عامة المؤرخ Claudio SANCHEZ ALBORNOZ والتي اعتقدت أن الحضارة الإسلامية في شبه جزيرة الأندلس كانت عابرة لم تترك بصماتها في المنطقة. ولذلك أمكن الحديث في نظر المتعصبين منها عن حضارة إغريقية رومانية قوطية ثم مسيحية دون ذكر الحضارة الإسلامية. وحتى بعض المعامح المعاصرة التي تدعي العلمية في سردها لتاريخ الأندلس لا تذكر ولا إشارات عن الماضي الإسلامي انظر مثلا:

BURGUIERE (A) , Dictionnaire des sciences Historiques, Paris, P U F, 1986, Espagne, p 259 et ss للمزيد من التفاصيل عن التصورات المختلفة للتاريخ الإسباني والماضي الأندلسي انظر مثلا:

GUICHARD(P), Les Musulmans de Valence et la Reconquête XI-XIIIe siècles, Damas, 1990 11 p 75 et ss بن عبود (أحمد): "التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا"، مجلة دعوة الحق، عدد 34، الرباط، 1984، ص. 33، 58.

لعل فائدة البحث الأركيولوجي الجاري في إسبانيا سواء في بعض أريافها أو مدنها، بفضل الباحثين المشار إليهم أعلاه أو بمبادرة من بعض البلديات نفسها، أن يكشف عن بعض حصائص المؤسسات أو المواقع الإسلامية التي ما تزال قائمة إلى الآن.

(4) - انظر الملاحظات الواردة في:

MAZZOLI-GUINARD (Ch) , Villes d'Al-Andalus, l'Espagne et le Portugal a l'époque musulmane VII-XVe siècles, Paris, P U R, 1996, p 13

والسلطة السياسية فيها. ناهيك عن أشكال البناء ومواده إلى غير ذلك مما يساعد على التدقيق في بعض جوانب التحصين التي ما يزال يشوبها الغموض. لكن لن يأتي ذلك إلا بالانطلاق أولاً من الأساس، أي من العملية التاريخية نفسها، والقائمة على جمع ورصد ما أمكن من المادة المصدرية المتنوعة الواردة في التحصين ومحاولة تصنيفها بشكل بحدود القضايا المشار إليها.

نبادر إلى القول بأن المصادر العربية بكل أصنافها تزخر بالفاظ ومصطلحات كثيرة مرتبطة بالتحصين في الأندلس. ورغم صعوبة تتبع كل تلك الألفاظ والمصطلحات. فإن العديد منها كالحصن والقلعة والصخرة والمغل والقصبة. إلخ...، وإن اختلف في الحقل الدلالي واللغوي، فإنه ينطبق أحياناً كثيرة على مُسمى واحد يتميز بخصائص محددة. لكن في الوقت نفسه تذكر المصادر مصطلحات أخرى تتسم بالعمومية، إن لم نخر بنوع من الغموض كإطلاق لفظ الحصن على قرية أو مدينة أو ما شابه ذلك مما يصعب معه ضبط مضمون المصطلح نفسه. ونشير في هذا الصدد إلى أنه رغم التغييرات المختلفة التي تعرض لها العديد من المواقع الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا إبان نشاط حركة الاسترداد، فإن اللغة القتالية نفسها احتفظت بألفاظ كثيرة ودالة ذات الأصل العربي مثل القصبة (Alcazaba)، والصور (Azore) والبرانية (Albarrana) ⁽¹⁾، إلخ.

وانطلاقاً مما سبق يمكن استغلال المادة المصدرية المتنوعة لمحاولة رصد لائحة بأسماء الحصون والقصبات والأسوار وغيرها مع تبيان وظائفها وأدوارها في الريف والحوضر الأندلسية خلال عصري الخلافة والطوائف.

وحتى تكتمل الصورة عن الوسائل والأنظمة الدفاعية في الأندلس لابد من تحليل وظائف الأسلحة القتالية وطرق استعمالها من قبل الجند الأندلسي في حصار الحصون والقصبات والمدن، أو في المواجهات المباشرة مع الأعداء. إن الأسلحة، كالحصون والأسوار والقصبات، وسائل مادية لعبت أدواراً هامة في تاريخ الجند الأندلسي.

وبناء على ما سبق يمكن النظر إلى موضوع العمران العسكري في الأندلس من الجوانب الآتية.

(2) -LÉVI-PROVENÇAL (E): L'Espagne musulmane au Xe siècle..., op. cit, p. 150

- 1 - الحصون في الأرياف: العمران والوظائف.
- 2 - القصبات والأبراج والأسوار في المدن.
- 3 - الأسلحة والألبسة الحربية: الأنواع والوظائف.



الفصل الأول

الحصون في الأرياف، العمران والوظائف

كيف انتشرت الحصون في الأرياف الأندلسية وما هي طبيعتها ووظائفها؟

إذا كان الغموض ولا يزال يكتنف أصول الحصون الإسلامية وتاريخ تطورها في شبه جزيرة إيبيريا لأسباب متعددة منها الخلط القائم أحيانا في الكثير من المواقع ما بين الأصل الروماني والقوطي والأصل الإسلامي فلاشك أن المسلمين أعادوا استغلال واستعمال مختلف المواقع القديمة التي وجدوها في البلاد⁽¹⁾. وأكثر من ذلك وسعوا نطاق البناء والتحصين ليشمل أقاليم واسعة، وبذلك أضافوا وأسسوا حتى أمكن الحديث عن حصون وقصبات وأسوار إسلامية محضة. ويعتقد أحد الدارسين⁽²⁾ في تتبع ظاهرة التحصين في شبه جزيرة إيبيريا منذ الفتوحات الإسلامية اعتمادا على فرضية تقول. إن الكثير من السكان المحليين (الأهالي) استغلوا مجيء المسلمين في إطار الفتوحات، وهربوا من السيطرة القوطية إلى الجبال والمناطق الوعرة. وقال آخرون⁽³⁾ بانتشار التحصين عبر الأندلس منذ مطلع القرن الثالث الهجري (IX م)، وتطور خلال المراحل اللاحقة. ونور الخوض في تفاصيل الأصول يمكن القول إن المصادر على تنوعها وخاصة تلك المعاصرة لفترة الخلافة والطوائف تتفق على أن التحصين عم الأندلس خلال عهد الإمارة - أي منذ ما قبل إعلان الخلافة بوقت طويل، بدليل واضح يتجلى في كون السلطة الأموية بقرطبة انشغلت في البداية بإخضاع كل التأثيرين المحتملين أو المنتزعين في حصون متعددة عبر شبه جزيرة إيبيريا. وقد استغرقت تلك العملية من الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقتا طويلا تمكن خلاله من تغيير بنيات جل الحصون القائمة، وذلك بهدمها بعد حصار بعيد منها. لقد كانت الحصون تشكل، بالفعل، أداة فعالة في يد المنتزعين الذين يستولون عليها لأنها توفر الحماية والأمن والقوة كما يتبين من أحد الأمثال الشعبية الذي يقول: «حصني ولا من يقبطني»⁽⁴⁾. وبإمكان المحتملين بالحصون أن يشكلوا معارضة قوية

(1) - أوضح البرزي الحفري في الأندلسي المشهور (ت 955 م)، وهو من الأوائل الذين كتبوا عن الحصون في الأندلس، ما رواه إلى شبه جزيرة الأندلس أفسسوا العديد من حصونها مع أهلها.

وصف الأندلس...، مصدر سابق، ص. 51، 108.

(2) - AGÜEN ALMANSA (M), La fortificación en A-Andalus Arqueología medieval, XXI 1985 pp. 106-107.

(3) - BAZZANA (A), CRESSIER (P), GUICHARD (P), Les châteaux ruraux... op. cit. p. 20 et ss.

ESCO (Carlos), GIRALT (J), SÉNAC (Ph), Arqueología Islámica en la Marca Superior de Al-Andalus, Madrid, 1987, pp. 7, 38.

(4) - الزجالي: أمثال العوام في الأندلس...، مصدر سابق، ج 1، رقم 841، ص. 211.

تُحيف السلطة المركزية وتهدها. ونموذج حصن بُشتر⁽¹⁾ الذي تمسك به عمر بر حفصون واحتّمى به لمدة طويلة غني عن البيان. ولم تغب أهمية الحصون عن ذهن عبد الرحمن الناصر الذي كان يشرف بنفسه على الحملات العسكرية ضد المحتمين بها. لأنه يشترط عليهم في الكثير من الحالات التنازل عن الحصن أو الحصون مقابل التفاوض معهم أو منحهم الأمن والأمان. يشير ابن حيان⁽²⁾ يصدد حصن إشتين من عمل البيرة أن أهله كانوا على مكيدة باطنة «فعرض عليهم (الناصر) النزول عن حصنهم إلى البساتين حوله أسوة بالجماعة». وفي حالة المواجهة العسكرية مع الرافضيين يعمد الناصر وجيشه إلى هدم حصونهم وإتلافها، أي تغيير البنية المادية التي يتقوى بها أولئك المعارضون. ويُفهم ذلك بوضوح من خلال إشارات متعددة واردة في ثنايا المصادر: «وهتم الحصن (سكتان) فألحق أعلاه بأسفله»⁽³⁾. «...» وهُدمت حصون الكفرة... فلم يبق فيها صخرة قائمة»⁽⁴⁾. و «أهبطهم من أجبلهم ففترقوا في بسائطهم واستقصى الحصون خراباً ونسفا»⁽⁵⁾.

تجدر الإشارة إلى أن عملية الهدم التي طالت العديد من الحصون، وإن كان الهدف منها تغيير البنيات السائدة في المجالين العسكري والبشري، فإن الخليفة عبد الرحمن الناصر كثيراً ما أمر أيضاً ببناء حصون وقصبات جديدة، كانت أساسية في العمليات العسكرية نفسها كالحصار مثلاً. وقد اعتبرت تلك الحصون والقصبات محطات أو مراكز ضرورية لمختلف الحملات كالصوائف والشواتي التي نُظمت ضد المسيحيين، أو وُظفت لاستنزاف وإخضاع المعارضين لسياسة قرطبة.

«وفيها (308 هـ) افتتحت الميقات بحوز قرطبة من كورة ريه، وبنى السلطان هناك حصن قشتره دكوان وأدخل فيها يحيى بن زكريا بن أنثله بالحشم والعدة»⁽⁶⁾.

(1) - ابن حيان: المنتبى...، ج 5، ص. 138، 151، 153، 210.

ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 181، 183.

(2) - ابن حيان: نفسه، ص. 200.

(3) - نفسه: ص. 122.

(4) - نفسه: ص. 191.

(5) - نفسه: ص. 218.

(6) - ابن حيان: المنتبى...، ج 5، ص. 169.

و«(...) حصن مربيط (جهة سرقسطة) المنتنّى هنالك لمحاصرة اهلب»⁽¹⁾. و مرّ تحفة الناصر «ببنيان صخرة عودان المشرفة على بسيط بلدة»⁽²⁾. كما سى حصن لمره على حصن أقوط وأخل فيه جميل بن عقبة البلوي عاملاً وصير معه فيه عدة كثيفة من فرس»⁽³⁾.

يجب التذكير أيضاً أن الخلافة، التي عمدت إلى هدم حصون وبناء حرى لأسباب محددة قد تركت بعضها، كما كانت على عهد الإمارة بيد أصحابها بشروط محددة كنّت كالنزام الطاعة لقرطبة أو الخدمة في جند الحضرة حين تدعو الضرورة ذلك: فيؤنّاء أهل جند دمشق الذين كانوا يستغلون كورة البيرة لما تخلوا عن حصونهم ومعاقليم وتوحيوا إلى قرطبة، ولاهم الناصر «ما كان بأيديهم من حصونهم بعد أن توثق منهم على النزام الطاعة...»⁽⁴⁾. وهذا أبو كرامة هابل بن حريز قد أظهر التمسك بالطاعة «لنمّ إقراره بحصنه على أن يُقيم الخدمة ويغزو في الجيش متى استنهض إلى جهة...»⁽⁵⁾.

يتضح مما سبق أن عملية هدم الحصون لم تكن "شمولية"⁽⁶⁾ في مختلف مناطق الأندلس، بل كانت الخلافة تراعي مصالح محددة في الهدم أو البناء أو الإبقاء على بعضها كما كانت سلفاً.

ويمكن رصد لائحة بأسماء الحصون والمواقع الدفاعية الأساسية عبر الريف الأندلسي وتبيان أهميتها ووظائفها على امتداد القرنين الرابع والخامس للهجرة. تقدّم المصادر، وخاصة المصنفات التاريخية⁽⁷⁾، وكتب التراجم والطبقات⁽⁸⁾ والمعاجم الجغرافية⁽⁹⁾، وكذا كتب المسالك والممالك⁽¹⁰⁾، معلومات هامة حول تلك الحصون والمواقع الدفاعية الكثيرة

(1) - نفسه: ص. 361.

(2) - نفسه: ص. 148.

(3) - نفسه: ص. 88.

(4) - نفسه: ص. 58.

(5) - نفسه: أنطونية، ص. 28.

(6) - الطاهري (أ) : عامة قرطبة...، ص. 59.

(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 60، 61، 64، 177، 284...

ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 170، 177، 179، 264...

(8) - ابن الأثير: الحلة السيرة...، ج 2، ص. 204، 206، 207، 214...

(9) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 74، 75، 76...

ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 2، ص. 80، 81.

الحموي (ياقوت): معجم البلدان...، ج 1، ص. 334، 338. ج 2، ص. 73، 265.

(10) - ابن خرداذبة: المسالك والممالك...، ص. 110، 112...

الإصطخري: المسالك والممالك...، ص. 38.

والمنتشرة عبر بلاد الأندلس. إن اختيار نماذج منها ومحاولة توطينها حسب المعلومات المصدريّة المتوفرة من شأنه أن يساهم في فهم مختلف التحولات التي عرفتّها الدّينيات الدفاعيّة الأندلسيّة في مجالات متعددة.

I - التوزيع الجغرافي للحصون

1 - حصون الثغور

من المواقع الهامة التي تحتاج إلى الاهتمام والدراسة، الحصون المواجهة للعالم المسيحي، أي حصون الثغور التي احتفظت بأنظمة عسكرية وبشرية خاصة تميزت بها عن باقي الحصون الواقعة إلى الجنوب، نظراً لسياسة قرطبة نحوها من جهة، ونظراً لكونها تراقب باستمرار عدواً مجاوراً ما فتئ يتحين الفرص لإخضاعها والتوغل في عمق الأندلس. من المواقع المحصنة في نواحي لاردة ووشقة تذكر المصادر حصوناً عديدة مثل بلكانة⁽¹⁾، ولرباس⁽²⁾، وأيراش⁽³⁾، وزناتة⁽⁴⁾، ورباس⁽⁵⁾، وطولبة⁽⁶⁾ وغيرها من التحصينات التي يصعب توطينها نظراً لانفراد الرازي بذكرها ولم ترد في المصادر اللاحقة له. ومن الحصون أيضاً نشير إلى القليعة⁽⁷⁾ الذي وصف محيطه أو المجال القريب منه بالخصوبة. وحصن منزون⁽⁸⁾ القوي الذي يشرف على نهر الزيتون⁽⁹⁾. وحصن مكناسة⁽¹⁰⁾.

- (1) - الرازي: وصف الأندلس، ص. 74. حصن بلكانة (Belcan) في النص الأصلي أو (Belcaire) حسب ل. بروفنسال محقق الرازي.
- (2) - الرازي: ص. 74. لرباس (Loribas) أو Sorribas حسب SÉNAC وهو موقع (SAN Llorenç de Mongay) حيث الآثار الإسلامية ما تزال قائمة إلى الآن، انظر: SÉNAC (Ph), Note sur les Husn de Lérida Mélanges de la CASA de Velazquez, T XXIV, Madrid 1988, pp. 53, 69.
- (3) - الرازي: نفسه، ص. 76. أيراش (Ayrás) أو (Ilche).
- (4) - نفسه: ص. 76. (ZNATA) للحصن، ربما، علاقة بقبيلة زناتة البربرية.
- (5) - نفسه: ص. 76. (Ribas).
- (6) - نفسه: ص. 76. (Tolia).
- (7) - نفسه: ص. 74؛ ابن حيان: المقابس...، ج 5، ص. 161؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 176.
- (8) - الرازي: ص. 74. (Monzón).
- (9) - وادي الزيتون في الرازي يقابل (Cuenca)، ص. 74. وأكد ذلك ل. بروفنسال نفسه و SÉNAC في المرجع السابق، ص. 60، وفي نصوص أخرى يطلق على وادي شيقر (Segre) انظر مثلاً: الفاسي (محمد): "الأعلام الجغرافية الأندلسية"، وحي البيّنة، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1970، ص. 121.
- (10) - الرازي: نفسه، ص. 74.

وحصن فراغة⁽¹⁾ على نهر الزيتون السالف الذكر، وحصن بلجي⁽²⁾ على نهر شفر . وذكر ابن حيان من جهته حصناً باسم بلقي⁽³⁾ ويقع في إقليم لاردة. كما ذكر حصوناً أخرى في الثغر الأعلى منها حصن بلعر⁽⁴⁾ أو بلغي⁽⁵⁾ حسب العذري، وهو من دوت سرقسطة. وبمحاذاة جبال أركون ذات الطابع الاستراتيجي، نجد حصني أو صخرتي سان ومان⁽⁶⁾ حسب الرازي، وفان ومان⁽⁷⁾ برأي ابن حيان أو الثان ومان⁽⁸⁾ وسان ومان⁽⁹⁾ حسب العذري. إنهما حصنان مشهوران يقعان في أعلى منحدر يسيطر على سلسلة جبال أركون، ويجري بينهما نهر فلومين⁽¹⁰⁾. وتجدر الملاحظة أن الحصنين ذكرا بكثرة في المصادر التي اهتمت بأحداث قيام الخلافة بقرطبة واهتمامها الكبير بإعادة ترتيب الأوضاع في المناطق الثغرية المواجهة للمسيحيين⁽¹¹⁾. إن الاختلافات الواردة في الحصنين السابقين ونطقهما يدفع إلى تساؤلات حول أصولهما أو تاريخ بنائهما في أقصى التخوم (جبال أركون)، واهتمام الخلافة بهما.

ليس هناك من الأدلة، إلى حد الآن، ما يكفي للحسم في ذلك، رغم أن أحد الدارسين⁽¹²⁾ مال إلى تأويل ينطلق من الاختلافات في كتابة أسماء الموقعين في النصوص العربية، وعدم ذكرهما إلا نادراً في النصوص والوثائق المسيحية المصاحبة لحركة الاسترداد أو الموضوع بعددها، (آخر إشارة إليهما واردة في هبات عقارية ترجع إلى سنة 1188م)، للقول بأن الأمر لا يعدو أن يكون تضخيم لفظي سان ومان

(1) - الرازي: ص. 74. (Fraga). ذكر الحميري حصن إفراغة إلى الغرب من مدينة لاردة. الروص المعطار، مصدر سابق، ص. 50.

(2) - الرازي: ص. 74، يعالبه موقع (Bolcare) الحالي حسب تنقيبات الباحث SI NAC : انظر . Note sur les Husun . مرجع سابق، ص. 61.

(3) - ابن حيان: المقتبس... أنطونية، ص. 126. هل يمكن ربط بلجي وبلقي؟

(4) - نفسه: ج 5، ص. 378. ذكر محفو ابن حيان أن الصحيح هو بلغي وليس بلعر، الهامس 12، ص. 378.

(5) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 39.

(6) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 76.

(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 469، 480.

(8) - العذري: نفسه، ص. 56.

(9) - نفسه: ص. 69.

(10) - نهر فلومين هو المعروف حالياً باسم Solto de Roldán ويقع 15 كلم إلى شمال وشقة.

(11) - انظر تفاصيل بعض الصراعات الحادة بين عامل مدينة وشقة الذي لجأ إلى صخرتي فان ومان، وسكان المدينة في: العذري: نفسه، ص. 68، 69.

(12) - SÉNAC (P), ESCO (C), «Une forteresse de la marche supérieure d'al-Andalus Le Easn de SEN et MEN», Province de Huesca, Annales de Midi, T 100, N° 181, Janv-Mars 1988, Toulouse Privat 1988 p 17-33

على المستوى الطبونيمي لحقبة ما قبل الإسلام. وهكذا تكون كلمة سان هي (Peña de SAN Miguel)، وكلمة مان هي (Peña de Aman). لكن لماذا لا نعكس الأمر لنقول إن المسيحيين احتفظوا بما وجدوه من إرث تاريخي في تلك المناطق سواء أكان رومانيا أم قوطيا أم إسلاميا. وإذا تركنا جانبا الخوض في فرضيات تهم أصول الأسماء⁽¹⁾، نقول إن بعض المواقع الجغرافية خاصة في أقاليم الثغور تحدد إلى حد كبير خصائص ووظائف الحصون كما هو الحال في موقعي سان ومان.

إن الوظيفة العسكرية والدفاعية تحتل المرتبة الأولى في هذا النموذج من الحصون. ولذلك نفهم انشغالات الخلافة الأموية في قرطبة بتحصين الموقعين الاستراتيجيين السابقين قصد حماية إقليم وشقة الغني اقتصاديا، من الهجمات المسيحية المحتملة من جهة بنبلونة. يتعلق الأمر إذن بحراسة الحدود عبر الحصون الثغورية. ولفظ الصخرة الذي أطلق على سان ومان له دلالة في مجال الدفاع والتحصين⁽²⁾.

لقد فصل ابن حيان في ذكر الحصون والقلاع على امتداد الريف الأندلسي مبيّنا أهميتها وأدوارها منذ آخر الإمارة وعلى امتداد عصر الخلافة، وتابع ابن بلقين (الأمير عبد الله) أهمية تلك المواقع الدفاعية طيلة القرن الخامس الهجري مع الكشف عن

(1) - لقد أفادت الدراسة السابقة الذكر في توطين الحصنين السابقين سان ومان (فان ومان)، وقدمت أرقاما أولية مفيدة في ميادين المعمار والأشكال الهندسية المستعملة في البناء، والفخار المعتمد في بناء الأبراج والقياسات في ذلك الخ... انظر: ص. 25 وما بعدها.

(2) - يمكن اعتبار الصخرة أو المعقل نوعا من التحصين الطبيعي الذي عُرف بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف. تشير الباحثة بلحاج إلى صعوبة تحليل الألفاظ والمصطلحات المرتبطة بالتحصين في الأندلس من حيث المعاني المعجمية فالمعنى يختلف من نص مصدرى لآخر. فالحصن والقلعة والرباط والقصبة تختلف من مؤلف لآخر. ومحاولة تفكيك معاني مصطلحات التحصين الأندلسي صعبة رغم مفارقتها بتمثيلات في الغرب الأوربي. إنها مصطلحات تنتمي إلى حقول دلالية ونماذج اجتماعية وثقافية مختلفة: فالحصن مثلا قد يكون لفظا عاما يعني مؤسسة معمارية هدفها الدفاع عن المجال. وقد يستعمل للدفاع عن السكان أو ينطبق على مدينة أو مكان استراتيجي أو مركز اقتصادي. انظر:

DALLIÈRE-BENELHAJ (V); «Le château en Al-Andalus un probleme de terminologie, Habitats fortifiés et organisation de l'espace en Méditerranée médiévale»,

Lyon, Maison de L'Orient, 1983, pp 63, 67.

BAZZANA (A); CRESSIER (P); GUICHARD (P); Les châteaux ruraux. , op cit, pp 17, 124, 125, 126, 127, 128, 129, 130.

Guerre, fortification et Habitat dans le monde méditerranéen au Moyen Age, Castrum 3 Ecole France de Rome CASA de Velazquez, Madrid, 1988.

MAZZOLI-GUINTARD (Ch); Villes d'al-Andalus..., op cit, p. 25 et sv.

LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., T. 3, op cit, pp. 62, 63.

التحويلات التي طرأت على أدوارها خلال عهد الطوائف. فإذا أفاد ابن حيان في ذكر أسماء لأكثر من مائة وثلاثين حصناً في القطعة الخامسة من المقتبس وحدها⁽¹⁾، سواء كانت التي هدمها الخليفة عبد الرحمن الناصر في مستهل القرن الرابع الهجري، أو التي هُدمت إليه يصعب وضع لائحة مضبوطة قصد محاولة توطينها لأسباب منها أن المؤلف لا يميز أحياناً بين تلك الحصون، بل يكتفي باستعمال تعابير عامة تدل على كثرتها. من ذلك مثلاً أن الخليفة الناصر خلال حملاته المختلفة لهدم حصون معارضيه، «فتح سبعين حصناً من أمهات الحصون»⁽²⁾. و«هدم حصوناً لا تحصى»⁽³⁾. وفتح: «مر قصابها ومراقبها وبناتها قرابة الثلاث مائة ما بين حصن وبرج»⁽⁴⁾. أو يورد أسماء الحصون باسم الفئات أو المناطق التي تقع فيها مثل: «حصون بني هابل»⁽⁵⁾، أو «حصون لبشارات بأسرها»⁽⁶⁾، و«حصون تاكلرثا»⁽⁷⁾، و«حصون مغيلة»⁽⁸⁾.

تصدق الملاحظة ذاتها على ابن عذاري⁽⁹⁾ الذي لا يفصح أحياناً عن أسماء الحصون، بل يكتفي بسرد أعدادها. ففي إحدى حملات الحاجب عبد الملك المظفر أشار إلى غنيمة «سنة حصون»، و«تدمير خمسة وثمانين حصناً».

وعلى غرار الرازي ذكر ابن حيان مجموعة من الحصون جهة الشَّرق الأقصى، مثل بلنيرة⁽¹⁰⁾ أو بلنيرة⁽¹¹⁾ على نهر إبره. وكان غرضه لهجمات المسيحيين باستمرار وحصن

(1) - أحصى الباحث Acien Almansa في أحواز قرطبة وحدها حسب العذري حوالي 148 حصناً و 294 نرحاً في 1079 قرية. ووضع Guichard لائحة لـ 180 حصناً ما بين القرنين XII و XIII م. انظر:

ACTIÉN ALMANSA (M) «Sobre la función de Husun en el Sur de Al-Andalus. La fortificación en el Califato», Coloquio Hispano-italiano de Arqueología Medieval, Universidad de Siena, Univ. de Granada Abril 1990, Granada, 1992, pp. 263, 273

GUICHARD (P) , Les Musulmans de Valence..., op cit, T. 1, pp. 195, 203

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 61.

(3) - نفسه: أماكن متعددة.

(4) - نفسه: ص. 61.

(5) - نفسه: ص. 60.

(6) - نفسه: ص. 64. حاول Cressier توطين بعض حصون إقليم البشَّارات في دراسة بعنوان

Fonction et évolution du réseau Castral en Andalousie Orientale: le cas de

PALPUJARRA, dans Castrum 3 Guerre, fortification et l'habitat..., op cit, pp. 123-134

(7) - ابن حيان: نفسه، ص. 218، 219.

(8) - نفسه: ص. 236.

(9) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 8.

(10) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 143.

(11) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 172.

وخشمة⁽¹⁾، وقاشتره مورش⁽²⁾ أو قصر موسى⁽³⁾. وحصن مؤزيرل⁽⁴⁾ غير بعيد عن مركز طرسونة. وحصن قلهرة⁽⁵⁾ الذي هدمه الخليفة عبد الرحمان الناصر خلال أحداث العام 308 هـ. وحصن أرنيط⁽⁶⁾ على مقربة من تطيلة في الواجهة المسيحية، وحصن نقيرة⁽⁷⁾ أو بقيرة⁽⁸⁾ الذي يُعتقد أنه من بناء لب بن موسى في الثغر خلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة⁽⁹⁾. ثم حصن مؤيش⁽¹⁰⁾ وهريز⁽¹¹⁾ أو هدين⁽¹²⁾. ومن حصون الثغر الأعلى تشير المصادر إلى قانسية⁽¹³⁾ (قلنسية)، وشمالق⁽¹⁴⁾، والمريّة⁽¹⁵⁾ وهي مواقع بجهة سرقسطة. وقشيل⁽¹⁶⁾ وفالجش⁽¹⁷⁾ من عمل بنبلونة، وقرنيل⁽¹⁸⁾ أو قرقسثال⁽¹⁹⁾، على وادي أركون، وطفالية⁽²⁰⁾ أو تفالية⁽²¹⁾، وصخرة قيس⁽²²⁾، وحصن روطة اليهودي⁽²³⁾ أو روطه⁽²⁴⁾. وإلى جانب تلك المواقع المحصنة نذكر حصون تاجرة وغويتور⁽²⁵⁾ التي بُنيت أيضا خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أي إبان عهد الأمير محمد وابنه المنذر. وكان الهدف من بنائها إيواء من هرب من الأسرى⁽²⁶⁾. ولما أمر الأمير محمد

- (1) - ابن حيان: نفسه، ص. 160؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 177، 284.
- (2) - ابن حيان: نفسه، ص. 160.
- ابن عذاري: نفسه، ص. 170. يتفق ابن عذاري مع ابن حيان في القول إن حصن قاشتره مورس هو شنت أشنتين: ابن حيان، أنطونية، ص. 127؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 177.
- (3) - قاشتره مورس ينعث كذلك بقصر موسى: ابن عذاري: نفسه، الهامش (2)، ص. 170.
- (4) - ابن حيان: نفسه، ج 5، ص. 360.
- (5) - نفسه: ص. 191؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 186.
- (6) - ابن حيان: نفسه، ص. 165؛ الرازي: وصف الأندلس...، ص. 77؛ العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 30، 36.
- (7) - ابن حيان: ص. 167. ذكره أيضا في مكان آخر من المصدر ذاته، ص. 186، 187 باسم بقيرة.
- (8) - ابن عذاري: نفسه، ص. 179.
- (9) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 31، 35.
- (10) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 79.
- (11) - نفسه: ص. 143.
- (12) - ورد هذا الاسم في الهامش (1) من ابن عذاري: نفسه، ص. 143.
- (13) - ابن عذاري: نفسه، ص. 178.
- (14) - العذري: نفسه، ص. 50.
- (15) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 360. العذري: ص. 45، 47.
- (16) - ابن عذاري: نفسه، ص. 97.
- (17) - ابن حيان: نفسه، ص. 191، 336؛ ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 186.
- (18) - ابن حيان: نفسه، ص. 192.
- (19) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 186.
- (20) - ابن حيان: نفسه، ص. 191.
- (21) - ابن عذاري: ص. 186.
- (22) - ابن حيان: نفسه، ص. 194.
- (23) - نفسه: ص. 335.
- (24) - ابن الكريبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 119؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 64؛ ابن الخطيب: أعمال الأعل...، ص. 197.
- (25) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 36.
- (26) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 36.

بالغزو إلى مدينة برشلونة تم فتح حصن طراحة⁽¹⁾ أو طراخة⁽²⁾. وفي آخر عهد خلافة وحيث شاتية نحو قطلونيا بقيادة الحاجب عبد الملك المظفر واستهدفت حصون مست مرتين⁽³⁾، ومدنيش⁽⁴⁾ ومقصّر⁽⁵⁾. وبجهة بربطانيا (بلطانيا) في اتحاد شات مدينة لارده. ذكرت حصون بربسترو⁽⁶⁾ واثنسر⁽⁷⁾. ولم يفت العذري⁽⁸⁾ الحديث عن حصون حية وسفة بالقول «ومن معاقلها المتناهية حصن بيطرة شلج، وهو حصن اهل. ومنها حصن عبردة، ومنها حصن نوبة، ومنها حصن ربرش، ومنها حصن يلويه، وهو حصن له سور نفيس...». وذكر ابن عذاري بعض حصون ومعاقل أحواز ألبه مثل غرنون وبائيس وإيلاس⁽⁹⁾. وإلى الجنوب من ألبه أي في عمل سوريا، اشتهر حصن عرماج⁽¹⁰⁾ أو غرماج⁽¹¹⁾ على وادي دويره، وهو من إحداث الخلافة على غرار حصون أخرى⁽¹²⁾.

(1) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 95.

(2) - نفسه: هامش (3)، ص. 95.

(3) - نفسه: ج 3، ص. 21.

(4) - نفسه: ص. 6.

(5) - نفسه: ص. 6، 7. وصف حصن مقصّر بنوع من التفصيل في:

LÉVI-PROFÉNÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 62.

SÉNAC (Ph) ; Note sur les Husun de Lérida..., op. cit, pp 61, 63.

(6) - المرادي: وصف الأندلس...، ص. 75؛ العذري: نفسه، ص. 67؛ البكري: جغرافية الأندلس وأورد...، ص. 92، 93.

(7) - العذري: نفسه، ص. 60.

(8) - نفسه: ص. 55، 56.

(9) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 141.

(10) - ابن حيان: ج 5، ص. 341. وذكر "غرماج" في مكان آخر من المقتبس. الحجى، ص. 218.

(11) - المقرئ: التفتح...، ج 1، ص. 383.

يقع حصن عرماج (Gormaz) على هضبة علوها 130 مترا على نهر دويره الأعلى غير بعيد من مركز أسنة (Osma)، في حزام مرمرم أو مبني خلال عهد الحكم الثاني، عام 354 هـ / 965 م. كان يشكل القاعدة الأساسية لحيد الخلافة في اتجاه الحدود الشمالية.

أخبت الأبحاث المعاصرة المعمارية والأركيولوجية بحصن عرماج منذ مدة غير قصيرة وكشفت عن طبيعته وأهميته ومواد بنائه وأشكال هياكله المعمارية. إنه شكل من الألواح والأشرطة المسننة والدقيقة مما يوضح القدرة العالية في رسم الأبراج والزوايا بالأحجار والطابية التي سادت كمواد البناء عصري الخلافة والطوائف. (انظر الصورة).

لاحظت بروفنسال من خلال مواد البناء وطريقة البناء والموقع في حصن عرماج أن المسلمين عصر خلافة كانوا يجيدون البناء ويتقنون في الخطوط المعمارية. وقد استفادوا إلى حد كبير. وبشكل عقلائي من المجال أكثر من المسيحيين. يتضح ذلك من خلال الإمكانيات التي كانت تتوفر عليها الخلافة ووظفتها في المجال العسكري والبناء حتى أنها كانت تصدر المتخصصين في بناء الحصون إلى شمال إفريقيا كما ذكر ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 388.

LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne... op cit, T. 3, p. 64.

AZUAR RUIZ (R) , Las Técnicas constructivas en Al-Andalus , El Origen de la Sillería y del Hormigon de TAPIAL, Semana de Estudios Medievales, Najera, 1-5 de Agosto, 1994 Instituto de Estudios Riojanos 1995 pp. 125, 142.

ZOZAYA (J) ; Evolucion de un Yacimiento. EL-Castillo de Gormaz (SORIA),

Castrum. 3, Guerre, fortification..., op. cit, pp 173, 178.

(12) - انظر في هذا الفصل الحصون الأخرى التي أسستها الخلافة كمحطات للجديد بدءا من طريقة في أقصى الجنوب، وعقبة البير شمال قرطبة إلى عرماج وذلك على شكل خط استراتيجي يمتد من جنوب شبه جزيرة إيبيريا نحو الشمال.

ليكون محلة أو محطة أساسية يجتمع بها الجند المستعد لمواجهة المسيحيين.
وفي واجهة جليقية بأقصى الشمال الغربي تشير المصادر إلى حصن الحامة⁽¹⁾ الذي
ذكر كثيرا إبان حملات المنصور بن أبي عامر ضد المسيحيين. وهو يختلف عن حصن
الحمه⁽²⁾ (sLos Ban) الذي يقع في إقليم البيرة ما بين غرناطة ومالقة.

(1) - ابن حيان: المقتبس ، ج 5، ص. 174؛ ابن عذاري: البيان ، ج 2، ص. 264؛ ابن الخطيب: أعمال
الأعلام...، ص. 60.

(2) - ابن بلقين: كتاب التبيان ، ص. 114؛ ابن الأبار: الحلة السراء ، ج 1، ص. 258؛ الإدريسي: نزهة
المسافر...، ص. 561، 566.

LÉVI-PROVENÇAL (E) , Histoire de l'Espagne..., op cit, T. 1, p. 352; T. 2, P ; 211



حصن غورماز إقليم سوريا



أخذت الصورة في أكتوبر 1997

2 - حصون المتوسط والغرب

وترد إشارات مصدرية متعددة حول حصون المتوسط من الأندلس وغربها وهي كثيرة منها: أليشة⁽¹⁾ وموزة⁽²⁾ وجرنكش⁽³⁾ وهي من عمل طليطلة. وقنالش⁽⁴⁾ أو قبلش⁽⁵⁾. والفهمين⁽⁶⁾، وأربقيرة⁽⁷⁾، وطرנקوشة⁽⁸⁾، وأقلبش⁽⁹⁾، ومولة⁽¹⁰⁾ بنواحي مدينة مجريط والذي عُرف خلال غزوات ابن أبي عامر نحو الثغر الأوسط. إضافة إلى حصني المال وزنبق⁽¹¹⁾، وكذا بنياني⁽¹²⁾ غير بعيد من مدينة شنترين. ثم حصن الرقاع⁽¹³⁾ أو الوقاع⁽¹⁴⁾ في اتجاه أكثونبة، والحنش⁽¹⁵⁾ من عمل مدينة ماردة. ويذكر البكري⁽¹⁶⁾ لائحة بأسماء مواقع محصنة جهة ماردة وبطليوس منها: مدلين⁽¹⁷⁾ ومورش وأم غزالة، وحصن الارش وأم جعفر⁽¹⁸⁾ والحزيرة، وحصن الصخرة (صخرة أبي حسان، حصن لقروشان، وشنت أقروج⁽¹⁹⁾). أما الإدريسي فأشار إلى حصن المعدن⁽²⁰⁾ الواقع على البحر قبالة مدينة

(1) - ابن حيان: نفسه، ج 5، ص. 279.

(2) - نفسه: ص. 282 - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 203.

(3) - نفسه: ص. 203، 207.

(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 283.

ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 83.

ابن القبطان (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك المراكشي): نظم الجمان، تحقيق: مكي (محمود علي)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص. 70.

(5) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 203.

(6) - ابن حيان: ج 5، ص. 283؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 203.

(7) - ابن حيان: نفسه، ص. 382.

(8) - نفسه: ص. 382.

(9) - نفسه: ص. 362؛ ابن الخطيب: شرح رقم الحلال في نظم الذول، تحقيق: عدنان (درويش)، دمشق، 1997، ص. 164؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 11.

(10) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 265.

(11) - نفسه: ص. 267.

(12) - ابن حيان: نفسه، ص. 104.

(13) - نفسه: ص. 248.

(14) - ابن عذاري: نفسه، ص. 200.

(15) - ابن حيان: نفسه، ص. 239؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 193.

(16) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 120.

(17) - ذكر ابن حيان حصن مدلين على وادي أنة - لمصدر سابق، ج 5، ص. 121؛ الإدريسي: نزاهة المشتاق، ص. 550؛ الحموي: معجم البلدان...، ج 1، ص. 77.

(18) - ابن حيان: نفسه، ص. 239.

(19) - البكري: نفسه، ص. 120؛ حصن شنت أقروج هو شنت أقروج (أفرج) وهو المقابل لكلمة SANTACRUZ de la SIERRA حسب ل. بروفنسال.

انظر البكري: المصدر السابق، هامش ص. 120. وليس هو حصن شنت أقلاج الوارد في التبيان للأمير عبد الله، المصدر السابق، ص. 99، أو عد العذري: ترصيع الأخبار، ص. 92. يقع شنت أقلاج في بحيرة النيرة.

(20) - الإدريسي: نزاهة المشتاق...، ص. 577.

لشبونة. وسُمِّي كذلك لأن البحر يقذف «بالذهب والتبر إلى هذا الحصن الذي ربيته عياناً»⁽¹⁾.

وفي نواحي جيان حصن المنتلون⁽²⁾ الذي استنزل منه الخليفة عبد الرحمن الناصر المنّزي المشهور سعيد بن هديل، مع مطلع القرن الرابع الهجري. وحصون بكوروقاشتره، وشنّرة وأقلّيق⁽³⁾، ومارتش⁽⁴⁾، وتشن⁽⁵⁾، وبغتيوة⁽⁶⁾ وشودر⁽⁷⁾، وشنّرة⁽⁸⁾ ومورينة⁽⁹⁾. وكذا حصن الحمة⁽¹⁰⁾ المعروف ب (Banós de la Encina) إلى الشمال قليلاً من مدينة جيان والذي بُني عهد الخلافة عام 357 هـ / 968 م على غرار حصن غرماج السالف الذكر. وتفيد إحدى النقائش الجدارية المحفوظة كوثيقة على بنائه حين تقول: «أمر ببنيان هذا البرج عبد الله بن الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين أطل الله بقاءه على يد موله وقائده ميسور بن الحكم، فتمَّ وكمل بحول الله وتأييده في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وثلاث مائة»⁽¹¹⁾.

وحصن قنبيل⁽¹²⁾ إلى القبلة من جيان كذلك، وحصن فرغليط⁽¹³⁾ في نواحيها. وغيرها من الحصون خريطة والمعازل وهي كثيرة. قال الإدريسي⁽¹⁴⁾ بهذا الصدد: «وفيما بين مدينة جيان وبسطة ووادي آش، حصون كثيرة عامرة ممدنة أهلة...». وأضاف في مكان آخر: «(...) وما بين مالقة وقرطبة من الحصون العامرة التي هي

(1) - نفسه: ص. 547.

(2) - ابن حيان: المقابس، أنطونية. ، ص. 25؛ نفسه: ج 5، ص. 60؛ ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 161-136.

(3) - ابن حيان: نفسه، ج 5، ص. 60، 63.

(4) - نفسه: ص. 65؛ ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 102.

(5) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 142. يبدو أن حصن مارتش عند ابن حيان هو "تش" عند ابن عذاري، ويقابل اليوم مارتو (Marto) بكورة جيان والأصل هو Tucci أو Acci اللاتينية التي أصبحت (توشي)، انظر: كتاب التبيان...، ص. 102، والهامش (222)، ص. 228.

(6) - ابن حيان: ج 5، ص. 63.

(7) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 136؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص. 569.

(8) - ابن عذاري: ص. 161. وأحياناً تستعمل كلمة "حصون البشارت"؛ ابن حيان: ج 5، ص. 64.

(9) - ابن عذاري: نفسه، ص. 137.

(10) - لاحظ ل. بروفنسال أنه رغم أهمية حصن الحمة، لم يتل ما يستحقه من لعناية والبحث على غرار حصن غرماج المعاصر له. تشير إلى أن بعض آثاره ما تزال قائمة إلى الآن: (انظر الصورة).

(11) - LÉVI PROVENÇAL (L); Inscriptions Arabes d'Espagne, Paris, La rose, Leyde- Brill, 1931, pp 134-135
Inscription N° 150.

(7) - ابن الزبير (ابو جعفر أحمد): صلة الصلة، ذيل للصلة البشكالية في تراجم أعلام الأندلس، تحقيق: ل. بروفنسال، باريس، 1937، ص. 204.

(8) - نفسه: ص. 126.

(9) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 569.

حواضر في تلك النواحي...»⁽¹⁾. ويبدو أن الإدريسي، الذي يقارن الحصن بالمدينة، يعكس نوعاً من التحول في بنية الحصون خلال القرن السادس الهجري (12 م) (عصر الإدريسي) والذي ساد فيه نوع من الانتعاش والتطور الاقتصادي، أي الانتقال من تأدية الحصن لوظيفة عسكرية وأمنية بالدرجة الأولى خلال القرن الخامس الهجري (الطوائف) إلى وظيفة أو وظائف أخرى لها علاقة بتأطير المجال اقتصادياً وبشريا وعمرانياً: (الحصن المدينة)⁽²⁾. ومن هذه المعازل والحصون التي ذكرها الإدريسي في الوسط الجنوبي الأندلسي، نذكر: أشتين⁽³⁾ في نواحي البيرة، وفنيانة⁽⁴⁾ والمنثوري⁽⁵⁾ ما بين غرناطة وألمرية. ويتبين أن بناء حصن المنثوري من قبل الأمير عبد الله كان أمراً ضرورياً لأنه كان يستجيب لضرورة أمنية مرتبطة بالنزاع الحدودي والمجالي مع صاحب ألمرية. يقول صاحب التبيان⁽⁶⁾: «ووافق ذلك أن وقعت بين قائدي النظر ما بين فنيانة والمنثوري مشاجرة على الجهات، ولم يتهأ حيازة ذلك النظر، إلا ببناء المنثوري المذكور...». ثم حصن قبره⁽⁷⁾، وقبريره⁽⁸⁾ على مقربة من غرناطة في طريق وادي أش. وعلى غرار حصن المنثوري كان معقل قبريرة يلعب دوراً استراتيجياً بالنسبة لدولة غرناطة. إنه كان يحرس ويراقب الطريق الذاهب من غرناطة نحو قادس في اتجاه الغرب. ولقد لعب دوراً في إزعاج ابن صمادح بألمرية⁽⁹⁾. وذكرت المصادر حصونا ومعازل كانت ملاذاً لعمر بن حفصون كحصن منت روي⁽¹⁰⁾ بالبيرة أو منت

(1) - نفسه: ص. 571.

انظر ملاحظات:

(2) - CRESSIER (P); Fonction et évolution du réseau castral... op pp. 123, 134. cit. MAZZOLI-GUINTARD (Ch); Villes d'al-Andalus... op cit, p 23 et sv

(2) - ابن حيان: المقتبس... ج 5، ص. 61، 200؛ ابن عذاري: البيان... ج 2، ص. 146.

(3) - ابن حيان: نفسه، ص. 66؛ ابن بلقين: التبيان... ص. 112.

(4) - نفسه: ص. 113.

(5) - نفسه: ص. 112. يقع حصن المنثوري على جبل (Cerro Montaire) بين غرناطة وألمرية. والمنثوري بالعربية برأي محقق التبيان محرف، ربما، من اسم (Monte aurio/ aureo)، وهو حصن على أميال معدودة إلى الجنوب الغربي من حصن فنيانة

كتاب التبيان، الهامش (264) ص. 235.

(6) - ابن حيان: ج 5، ص. 71، 80.

(7) - ابن بلقين: نفسه، ص. 85.

(8) - حاول أحد الدارسين توطين حصن قبريرة اعتماداً على نص ابن بلقين وعلى بعض الخرائط والطوبوغرافيا. وبعد التذكير بوظيفته الدفاعية أشار إلى ضرورة البحث في البنيات العمرانية والسكانية التي كانت في مجال الحصن لتبيان أدوارها. ولم يغفل الحديث عن مواد البناء (الطابية) وأحجامها في الحصن وطرق استعمالها. انظر:

MALPICA CUELLO (Ant), « Un Hisn en Las Memorias del Rey Abdelah », QABRIRA dans REVISTA del Centro de Estudios Historicos de Granada y Su Reino, N° 1, Granada, 1987, pp 53, 67

(9) - ابن حيان: ج 5، ص. 179، 204.

روني (1)، وبُنُسْتَر (2) ما بين مالقة ومورون. وقد ذاع صيت حصن سُتْر نَخْر نَكاهه المعقل الرئيسي لعمر بن حفصون، وحاولت الخلافة في شخص عبد الرحمن الناصر، عن لوسائل بما في ذلك هدم وبحرب حصون أخرى، قصد الوصول له؛ حصصه، فإن من عذاري (3) مكر في هذا المعنى: ودمّر الناصر «حصون قرذارش ونحارش و"حاش" و"بيطر"» (4). وأمن حصن فامرة الخاصع لعمر بن حفصون، وكذا حصن ضخرة (5) بانبُسْتَر. كما أخضع حصون طرُش (6) أو طرُش خشين (7)، ومنت ماس (8) (ماس) وحطرون (9)، وريينة (10) القريبان من مالقة. وحصن بلدة (11) عر بعد من حصن وفي الوقت نفسه أمر الخليفة الناصر «(...) بينيان صخره عودان نسرفه على حصن بلدة، فانتظم بنيانها بحصني صخرة عصام، وبني بشير، وهما ممّا نيا (نسي) في بلد الأمير عبد الله» (12). وذكر حصن دوش أمانتش (13) بنواحي بلدة، وحصن

- (1) - ابن عذاري: البيان... ج 2، ص. 191.
- (2) - ابن حيان: نفسه، ص. 138، 151، 153، 210؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 181، 183.
- (3) - نفسه: ص. 184.
- (4) - ذكر صاحب ذكر بلاد الأندلس أن لحريزه قدس حصنين أحدهما سبت بيطر، وأخر النعب، وفي ماس صر كيبه معظمه عند النصارى. مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 65.
- (5) - وأشار ابن حيان إلى أن حصن سبت بيطر بكورة ثدير، ج 5، ص. 238.
- (6) - ابن حيان: ج 5، ص. 86؛ ابن بلقين: كذب الساس...، ص. 116 قال الأمير عبد الله في صر عنه مع حبه عبد الله، وقتت بيده الحصون العريسة من قرطمة ومشش، وحمارش، وأعطاه فامرة بلد الررخ ليسع في سحر...، ص. 196.
- (7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 152.
- (8) - نفسه: ص. 85.
- (9) - نفسه: ص. 154 ذكر العربي حصن "سبت طرش" و "سبت طرش"، بنواحي أسيلية وهو من بلد عبد الله عن عبد الله ذكر صعبه لمحمد بن الإمام عبد الله. ترصيع الأخیل...، ص. 104، 105.
- (10) - ولاحظ، بروفنسال أن ابن حيان يطق اللفظ العربي طرش خشين والمصدر الآخرى عَصْر على لغة النصارى، وهو مركز على بعد 9 أميال من ميناء مربلة الحالي، مرتفع بحوالي 320 مترا.
- (11) - LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 2, p. 11.
- (12) - ابن بلقين: كتاب التبيان، ص. 114، 115.
- (13) - نفسه: ص. 115؛ ابن حيان: ج 5، ذكر (نطرون)، ص. 218؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 196.
- (14) - ابن حيان: نفسه، ص. 86؛ ابن بلقين: نفسه، ص. 115 يقول ابن بلقين «وكذا في أول وجيف في حاربته نفسه قبرا، وطاعت لنا جطرون، وهما قصبتا مالقة»، نفسه، ص. 115.
- (15) - حول محقق التبيان أن ربيعة هو ربحانة أو ربحانة وتقع في مقاطعة بلش مالقة، وهي مهمورة لأن كانت تسمى «الهامش (283)»، ص. 236.
- (16) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 85، 148.
- (17) - تحدث ابن عبد ربه عن حصن بلدة في أحداث 307 هـ على شكل نظم شعري قائلا:

وبعدها كانت غزاة بلدة * وهي التي أودت بأهل الردة
حتى إذا مرّ بحصن بلدة * خلف فيه قائدا في عدة.
- (18) - العقد الفريد: المصدر السابق، ج 4، ص. 510، 511.
- (19) - ابن حيان: نفسه، ص. 148.
- (20) - نفسه: ص. 148 قال ل. بروفنسال أن حصن دوش أمانتش Roche des Amants. عر بعد عن حصن بلدة لسانو

الذكر Histoire de l'Espagne..., op. cit, T 2, p 17, 18.

ذكوان⁽¹⁾ بالغرب من مالقة وقد ذكر ابن حيان حصن قاشطرة ذكوان⁽²⁾ بكورة ريه، على حصن بليش⁽³⁾ شرقي مالقة، ومنتميو⁽⁴⁾ ومورور⁽⁵⁾ بالقرب منها كذلك. وفي النباهي: «ومن ناحية الغرب حصن الورد المعروف الآن بمنى ميور الفريث من مينة. ومن حبه الجوف وادي سنيل، حيث حصن بني بشير»⁽⁶⁾. وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر كذلك ببناء حصن أشب⁽⁷⁾ من أجل حصار أنصار عمر بن حفصون. وقد ذكرت حصون حري خلال أحداث مطلع القرن الرابع الهجري التي واجه فيها الناصر معارضة. منها بمارش⁽⁸⁾ أو قمارش وكمارش وممارش⁽⁹⁾، على بعد أميال من مالقة. وحصون أشرا⁽¹⁰⁾ وسهيل⁽¹¹⁾ إلى جهة البحر في إقليم ريه، وهو من أهم أبراج المراقبة على البحر حتى إن موقعه لا يترك أيا كان صغيرا أو كبيرا يتحده نحو الساحل دون أن يبرى⁽¹²⁾ والمنكب⁽¹³⁾ غرب ألمرية وشرق مالقة. وكذلك حصون شنت أو لالية⁽¹⁴⁾، وسب مريّة⁽¹⁵⁾، وبنيّة⁽¹⁶⁾، وأشبره⁽¹⁷⁾ أو أشبر غيرة⁽¹⁸⁾ الذي بناه الناصر على حصار أقوط⁽¹⁹⁾. وفي نواحي قرطبة وإشبيلية تذكر حصون مثل القصر⁽²⁰⁾، وقلعة

- (1) - ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. دراسة وترجمة اسديّة للنص العربي ترجمة (محمد كمال)، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977، ص. 67.
- (2) - ابن حيان: نفسه، ص. 169.
- (3) - ابن الزبير: صلة الصلة... المصدر السابق، ص. 11، 59.
- (4) - ابن حيان: نفسه، ص. 86؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 12.
- (5) - ابن سعيد: المغرب...، ج 1، ص. 448.
- (6) - النباهي: تاريخ قضاة الأندلس...، ص. 82.
- (7) - ابن حيان: ج 5، ص. 211.
- (8) - نفسه: ص. 218، 234؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 196.
- (9) - بن حزم: الرسائل...، ج 2، ص. 206؛ الحميدي: جذوة المقتبس...، ج 32؛ الضبي: بعية الملتزم...، ص. 27.
- (10) - ابن عذاري: نفسه، ص. 115؛ ابن الخطيب: الإحاطة...، المجلد 2، ص. 82.
- (11) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 99؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 68.
- (12) - الرازي: ص. 99.
- (13) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 548؛ ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين دار جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: التازي (عبد الهادي)، بغداد، 1979، ص. 196.
- (14) - ابن حيان: نفسه، ص. 151.
- (15) - نفسه: ص. 151.
- (16) - نفسه: ص. 181.
- (17) - نفسه: ص. 88.
- (18) - نفسه: ص. 173 وقطعة أنطونية، ص. 31؛ ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 181.
- (19) - ابن حيان: نفسه، ج 6، ص. 88؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 181.
- (20) - نفسه: ج 3، ص. 191؛ ابن الزبير: صلة الصلة...، ص. 191؛ المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد): الدليل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق: بنشريف (محمد)، بيروت، دار الثقافة، د.ت، ص. 301.

جابر⁽¹⁾، وحصن الوادي⁽²⁾، وبُلّاي⁽³⁾ الواقع على عشرين ميلاً من قرطبة، وحصن شبت ياله⁽⁴⁾ القريب منه. إضافة إلى حصن أشونة⁽⁵⁾ في نظر قرطبة، وعنده نهر⁽⁶⁾ إلى الشمال منها قليلاً. وحصن شدفيلة⁽⁷⁾ بجهة إشبيلية، تحدر الإشارة إلى أن أشونة التي اعتبرت من الكور المجنّدة الأساسية وقاعدة بني عباد طيلة القرن الخامس الهجري⁽⁸⁾ قد لعبت بها الحصون والمواقع الدفاعية الكثيرة أدواراً عسكرية وعمرانية هامة. يكفي الإشارة إلى حصون مثل زعبوقة⁽⁹⁾ أو زغبولة⁽¹⁰⁾ وقورة⁽¹¹⁾، والرعووق⁽¹²⁾ شمال إشبيلية، ولبخس⁽¹³⁾، وقلعة الحصادي⁽¹⁴⁾ إلى الجنوب منها، إضافة إلى حصن القلعة⁽¹⁵⁾، والفرج⁽¹⁶⁾، والورد⁽¹⁷⁾ ونيبة⁽¹⁸⁾.

(1) - ابن الزبير: نفسه...، ص. 209.

(2) - المراكشي: نفسه، ص. 485.

(3) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 25؛ مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 133. الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 572. أشار ل. بروفنسال إلى أن حصن بُلّاي هو موقع "Aguilar" لحنّي على بعد 50 كلم إلى الجنوب من قرطبة.

Histoire de l'Espagne... op cit, T. I, p. 372.

(4) - الإدريسي: نفسه، ص. 572.

(5) - الحموي: معجم البلدان...، ج 1، ص. 202؛ السلفي: أخبار وتراجم أندلسية...، ص. 124.

(6) - ابن حزم: الرسائل...، ج 2، ص. 205. يقع حصن عقبة البقر في المرتفعات المطلة على نهر قرطبة من الشمال بحوالي 20 كلم. ما تزال بعض أجزائه قائمة إلى الآن (انظر الصورة). بُني على غرار غرماح في سوريا حيث لحافة ليكور مركزاً أساسياً للجند. له شكل هندسي رياضي مبني بالطابية.

(7) - العنزي: ترصيع الأخبار...، ص. 106.

(8) - انظر تفصيل في: الطاهري: عامة إشبيلية...، مرجع سابق، ج 1، ص. 58، 60، 70.

(9) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 190.

(10) - نفسه: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: الكتاني (محمد إبراهيم) ولحرون، بيروت، دار العرب الإسلامي، دار البيضاء، دار الثقافة، 1985، ص. 61.

(11) - ابن حيان: أنطونية، ص. 72.

يذكر العنزي قرية قوزة بنواحي إشبيلية، ترصيع الأخبار...، ص. 99.

يقع حصن قورة شمال غرب إشبيلية وما يزال يحمل هذا الإسلام العربي (AZNALCOLLAR).

HUNTORTIZ (MA) «El Castillo y la Torre de Aznalcollar (Sevilla) - dos edificaciones almohades» dans Fortificaciones en al-Andalus, 1er congreso internacional, Algeciras, 1998, pp. 379-388.

الطاهري: عامة إشبيلية...، مرجع سابق، ج 1، ص. 52.

(12) - ابن حيان: أنطونية، ص. 113. ينكر ابن القوطية (قلعة الزعواق)، تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 80.

(13) - العنزي: نفسه، ص. 105، 106.

(14) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 3، م 1، ص. 147.

(15) - ابن عذاري: ج 3، ص. 130. حصن القلعة هو الموقع المعروف (Alcala guadare) على أميال من إشبيلية في الطريق إلى جهة مالقة. الطاهري: المرجع السابق...، ج 1، هامش (302)، ص. 70.

(16) - ابن عذاري: قسم الموحدين...، ص. 215.

(17) - ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 232.

(18) - ابن القوطية: المصدر السابق، ص. 48.



حصن عقبة البقر
20 كلم شمال قرطبة يطل عليها من الجهة الجبلية



اخذت الصورة في اكتوبر 1997

3 - حصون الجنوب والشرق

والى جنوب خط إشبيلية قرطبة اشتهرت عدة حصون منها لورة⁽¹⁾ ، سحر ، نمدية ،
الجزيرة الخضراء حسب ابن حيان⁽²⁾ . ثم حصون عوجير وسارش وشمسة ، ، دى
يرو⁽³⁾ ، القريبة من الجزيرة الخضراء أيضاً، وحصن طريفة⁽⁴⁾ المواحه لحسن طريف
والبحر المتوسط.
ولم تغفل المصادر ذكر الحصون والمعقل بشرق الأندلس وهي كثيرة منها: سمعوس⁽⁵⁾
بكورة بلنسية ومنت أقوط⁽⁶⁾ بجهة مرسية، وحصن ينشته⁽⁷⁾ القريب من جنجلة. وحنشة⁽⁸⁾
حصن بشمال مرسية. وفي نواحي مرسية كذلك ترد حصون المنارة⁽⁹⁾ ، والبونيت⁽¹⁰⁾ ،
وشريون⁽¹¹⁾ وغيرها من المواقع المحصنة.

- (1) - ابن حيان: ج 5، ص. 71.
- (2) - نفسه: ص. 86، 87. نلاحظ أن ابن حيان ذكر حصن لورة مرة في طشانة جهة إشبيلية، ومرة ذكره محاور الجزيرة الخضراء.
- (3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس ، ص. 68.
- (4) - على عرار حصن عقبة البقر شمال قرطبة رُمم حصن طريفة وأنشئ برجه الأساسي من قبل الخلافة عم 319 هـ 960م وذلك لمراقبة التحركات الفاطمية انظر:
- LÉVI-PROVENÇAL (E) , Histoire de l'Espagne ..., op. cit, T. 3, p. 63.
- ACTÉN ALMANSA (M) , Sobre la función des Husun..., op. cit, pp. 266, 267.
- SOLER ALVARO ZOZAYA (Juan), « Castillos Omeyas de planta cuadrada su re acion funcional, dans III congreso de Arqueologia Medieval Española, Oviedo, 1989, pp. 265, 274
- (5) - ابن حيان: ج 5، ص. 249.
- (6) - ابن الأثير: رحلة السيرة ، ج 2، ص. 123. وهو اليوم مركز "MONTEAGUIDO" التابع لبلدية مرسية
- (7) - المراكشي: الذيل والتكملة...، المصدر السابق، ص 1، ق 1، ص. 381، 390.
- (8) - نفسه: ص. 381، 390.
- (9) - العذري: المصدر السابق، ص. 19. أشار Guichard إلى أن حصن المنار الذي يبعد عن بلنسية بعشرين ميلاً، وظل قائماً إلى الغزو المسيحي لإقليم بلنسية هو المنارة الذي أورده العذري:
- GUICHARD (P) , Les Musulmans..., op. cit, T. 1, pp. 195, 203
- (10) - المقرئ: النفع ، ج 1، ص. 142؛ ابن بسام: الدخيرة ، ج 1، ص. 455؛ ابن سعيد: المغرب في حلى
لمغرب ، ج 1، ص. 75؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، قسم المغرب ، ص 143؛ ابن خاقان
(ابو بصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي): قلاند العقيان، تحقيق: ابن عاشور (محمد الطاهر)، تونس، الدار
التونسية للنشر، 1990، ص. 307.
- (11) - السلفي: أخبار وتراجم أندلسية...، ص. 41.

II - وظائف الحصون

لا يمكن، في الواقع، تجاهل مجموعة من الأبحاث الحادة التي اهتمت بالتحصين في جهات أندلسية متعددة وفي مراحل تاريخية متباينة⁽¹⁾. ومن أهم هذه الأبحاث، دراسة الهامة التي أنجزها كل من Bazzana و Guichard و Créssier بعنوان الحصون الريفية في الأندلس؛ تاريخ وأركيولوجية الحصون في جنوب شرق إسبانيا⁽²⁾. وتعتبر الدراسة تركيباً ومنوغرافية في الآن نفسه. فهي تؤرخ للحصون في جنوب شرق الأندلس خلال فترة طويلة نسبياً تمتد ما بين القرن التاسع الميلادي والخامس عشر، وتقدم خلاصات عامة بعد إجراء مقارنات واسعة مع جهات أندلسية أخرى أو مع حصون أوروبا الفيودالية⁽³⁾. لقد اعتمد المؤلفون على نصوص مصدرية متنوعة مسيحية وعربية وخاصة المترجم منها، إلى جانب المادة الأركيولوجية المتوفرة كالخزف والمطامير والصيرج الخ، للتفصيل في دراسة نماذج من الحصون في الجنوب والشرق الأندلسي معتمدين على ما سمّوه بالتحليل السوسيولوجي والسوسيوسياسي القائم على النظرية الانقسامية⁽⁴⁾ التي ترى

(1) - نكتفي بالإشارة إلى بعض أهم هذه الأبحاث كالتالي:

- BAZZANA (A), Problèmes d'architecture militaire au Levant espagnol: Les châteaux d'Alcala de chivert. Château Gaillard Etude de Castellologie médiévale, N° 8, 1976, pp 21, 46
- «Elements d'archéologie musulmane dans Al-Andalus: Caractères spécifiques de l'architecture militaire arabe de la région valencienne» dans: Al-QANTARA I, 1980, pp 339, 363.
GUICHARD (P), «Castrum et société rurale musulmane dans la région de valence au Moyen Age», dans Bulletin d'archéologie marocaine, XIII, Rabat, 1980
Les Musulmans de valence., op cit, T. 1, T. 2
AZUAR RUIZ (R), Denia islamica, Arqueologia y poblamiento Alicante, 1989.
EPALZA (M) de: «Funciones ganaderas de las albacares en las fortalezas musulmanas». Sharq-al-Andalus Estudios árabes I, 1984, pp. 47, 55
Guerre, Fortification et Habitat dans le monde Méditerranéen., Castrum 3, op. cit
ESCO (C), SÉNAC (Ph): Un Hisn de la Marche supérieure d'Al-Andalus: Piraces (Huesca). Mélanges de la Casa de Velazquez, T. XXIII, 1987, pp. 125, 150.
CRÉSSIER (P), «Le château et la division territoriale de l'Alpujarra médiévale: du hisn à la t a a», Mélanges de la Casa de velazquez, XX, pp. 115, 144

(2) - BAZZANA (A), GUICHARD (P), CRÉSSIER (P), Les châteaux ruraux., op cit

(3) - لم ينس الباحثون مفهوم "الحصن الفيودالي" الأوروبي بطرا الخصوصيات التي لا تنطبق على الأندلس، وإنما استقلوا من الدراسات الأوربية المهتمة بالحصون في علاقتها بالمجال والسكن. ولا غرو فقد قدم لهذا البحث المؤرخ TOUBERT الذي اشتهر بدراسة السكن المحصن أو ما يُعرف (incastellamento) في إقليم Latium الإيطالي. فقد تساءل Toubert في التقديم عن إمكانية الحديث عن هذا النوع من السكن في أرض الأندلس مع مراعاة خصوصياتها إذ يلاحظ أن السكن المحصن الذي بدأ في إيطاليا منذ مطلع القرن العشر للميلاد أي حوالي 920 م/940 م، كما أوضح Toubert نفسه، قد عُرف بشكل من الأشكال في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري (IX م) على الأقل وقد تبين من المصادر الخلافة استعرفت سنوات عديدة في بداية القرن الرابع الهجري (X م) من أجل التغلب عليه وسرل المتمسكين به، بل وهنمه وتغيير بنياته. لكن ما تزال قضايا مرتبطة بالسكن والسكان كالبنا والأعداد والهجرات وغيرها في حاجة إلى تعمق والبحث، عكس ما حدث في أوروبا، ومن شأن الاهتمام بها أن يساهم في فهم طبيعة وخصوصيات التحصين في الأندلس

عن التحصين والسكن في إيطاليا انظر التفاصيل في: TOUBERT (P), Les Structures du Latium médiéval, op cit

(4) - BAZZANA (A), GUICHARD (P), CRÉSSIER (P), Les châteaux ruraux., op cit, p. 35 et ss

يبدو أن هذه "النظرية الانقسامية" التي حاول البحث P. GUICHARD الدفاع عنها منذ مدة أصبحت متجاوزة.

أل المحنمعات الإسلامية تميزت بنوع من الاستقلال القبلي خاصة في الفترة ما بين القرن التاسع والثالث عشر للميلاد. ثم أبرز المؤلفون أمثلة من الحصون منها ما كانت له طبيعة سياسية وعسكرية، ومنها ما كان يراقب المجال والطرق، ومنها ما يُعرف بـحصون الحماية أو حصون/ ملاجئ، قصد حماية السكان في حالة الأخطار. إن هذا النوع الأخير من التحصين دفع الباحثين إلى تأكيد تصوّرهم لما يُعرف بمصطلح "البقار" (1) (ALBACAR) الوارد في النصوص المسيحية المعاصرة لحركة الاسترداد وينطبق على تلك الأجزاء من التحصين أو النطاقات المحصنة في شرق الأندلس (جهة بلنسية) والتي تقع عادة في أماكن مرتفعة طبوغرافيا يصعب الوصول إليها وولوجها؛ وقد تكون خالية من السكّن إلا في حالات استثنائية. ومن المحتمل أن يكون لفظ "البقار" من أصل عربي أخذته المصادر المسيحية، ويُقصد به البهائم خاصة الأبقار التي يُنتجها العالم الريفي ويحميها لأنها تشكل أحد موارده الأساسية. ومن الإنصاف القول إن ل. بروفنسال (2) قد تحدث من قبل عن الحصون ذات الطابع الحمائي (Châteaux refuges)، التي تحلّ عادة مواقع مرتفعة وتضم نطاقاً أو حزاماً محصناً بشكل طبيعي، أو بواسطة الحجارة. وتتخللها أبراج خاصة في الزوايا مجهزة بشرفات للدفاع عن الحصن في حالة الهجوم عليه. وقد يأوي النطاق المحصن بعض الأدوات الضرورية كالصهاريج التي تستقبل مياه الأمطار، أو مخازن السلاح والمؤونة. وخارج هذا الحزام المحصن في اتجاه المنحدر، تتشكل أرباض الحصن حيث سكن الجند وعائلاتهم، إلى جانب بعض الحرف الضرورية للحياة اليومية حول الحصن.

و-ون اندخول في تفاصيل الأمثلة من الحصون التي درسها الباحثون السابقون في إقليم بلنسية. يمكن القول إن الدراسة أثارت نقاشاً واسعاً في الأوساط العلمية المهمة. وأكثر من ذلك واحيت انتقادات مختلفة وأحياناً عنيفة منها: ما لاحظته MIKEL de

(1) - Les châteaux ruraux ., op. cit., p. 25, 29, 30, 31, 32

GUICHARD (P) "Château et communauté rurale dans l'Espagne musulmane du XIIe siècle" Les textes et l'archéologie dans : L'Espagne et la Sicile musulmanes aux XI et XIIe siècles, P.U.F. 1990, pp. 196-201

(2) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne..., op. cit., T. 3, p. 59, 60, 61, 62

MAZZOLI-GUINARD (Ch) "Châteaux et rebelles" L'exemple de l'Al-Andalus à la fin du IXe siècle, dans "Châteaux, nobles et aventuriers" 3è rencontre internationale d'archéologie et d'Histoire en Périgord, Périgueux, 27, 29 Septembre, 1996, Bordeaux, 1999, pp. 19, 49

EPALZA (1) الذي انطلق بدوره من نظرية عامة حول الحضارة الإسلامية قائمة على ثنائيه المدينة والريف، والغلبة في نظره للمدينة لأن الحضارة الإسلامية ساد فيها الطابع الحضري. ولذلك فمصطلح "البقار" ليس حصنا أو ملجأ حائيا للسكان، بقدر ما هو خزان تمويني أو غذائي تودع فيه البهائم التي يقدمها العالم القروي للمدن والحوضر المجاورة. إن غلبة المدينة وحمائتها للريف تدفع بهذا الأخير إلى ضرورة توفير حاجياتها باعتبارها مجالا احتياطيا في التغذية⁽²⁾. أما الباحث R. AZUAR RUIZ⁽³⁾ فدرس بدوره بعض المواقع بشرق الأندلس خاصة دائية ولقنت معتمدا على المعطيات الميدانية، الأركيولوجية والطبونيمية، ودافع عن أطروحة تعدد وظائف الحصون. ولقد بين أهميتها في النظام السيوإداري الأندلسي، مشيرا إلى أن الحصن الإسلامي لا ينطبق على الكلمة بالمعنى المادي، أو يقتصر على الجانب الدفاعي فحسب، وإنما يُفهم في إطار تطورات العالم الريفي على المستوى البشري كذلك. فالسكان هم الدعامات الأولى التي يركز عليها فهم وظائف الحصون⁽⁴⁾. فعلى السكان يُمارس الحصن تأثيره في مجال القضاء أو الإدارة مثلا، وليس على المجال⁽⁵⁾ كما ذهب إلى ذلك كل من BAZZANA-CRESSIER - GUICHARD. ثم إن المجال ذاته قد يضم حصونا قوية ومهمة كالقنت⁽⁶⁾، أو ثانوية وهي بمثابة قرى. أما العلاقات ما بين الحكم المركزي (السلطة) والسكان فتتم بواسطة الولاة أو القواد الذين يحاولون التحكم في السكن بطرق متعددة. ولاحظ الباحث Acién Almansa⁽⁷⁾ من جهته أن التفسيرات التي قدمها مؤلفو "الحصون الأندلسية"، وإن كانت مهمة وجديّة، لا يمكن تعميمها أو تصديرها إلى جهات أندلسية أخرى⁽⁸⁾ لأنها منبئة على خصوصيات المجتمع القبلي في شرق

(1) - EPALZA (M de), Funciones ganaderas de las albacares.., op. cit, pp 47, 55

(2) - نفسه، ص. 48.

يصعب الإتيان برأي EPALZA لأسباب منها أن ثنائية المدينة والريف لا يمكن تعميمها في كل أنحاء العالم الإسلامي بشكل يجعل الريف تابعا باستمرار للمدينة. إضافة إلى ذلك، إذا كان حصن البقار (الملجأ) في مكان مرتفع يصعب ولوجه فمن الصعب أن يخصص مكان للبهائم الذاهبة إلى المدن.

(3) - AZUAR RUIZ (R), Una interpretación del "Hsn" musulmán en el ámbito rural, Revista del instituto de Estudios Alicantinos, Nº 37, 1982, pp 33, 41

(4) - نفسه، ص. 34.

(5) - نفسه، ص. 38.

(6) - (AZUAR RUIZ (R), Castellología medieval alicantina área meridional Alicante, 1981, pp. 213, 226

(7) - ACIÉN ALMANSA (M); Sobre la función..., op. cit, p 263, 273.

(8) - نفسه: ص. 264.

الأندلس. ولذلك يقترح دراسة التطور البشري والاجتماعي في شبه جزيرة إيبيريا منذ الفتح الإسلامي، وهو أمر معقد وشائك، لكنه يفسّر العديد من القضايا المرتبطة بالتحصين والسكن. فخلال الفتوحات الإسلامية لشبه جزيرة الأندلس حدثت صراعات مختلفة بين تشكيلات اجتماعية قبلية متباينة عرب وبربر من جهة، وأنظمة موروثية من "الفيودالية الأهلية"⁽¹⁾ القوطية من جهة ثانية. وفي خضم تلك الصراعات عمت ظاهرة التحصين عبر كل الجهات الأندلسية وتعددت وظائف الحصون. فأمهات تلك الحصون أي المدن كانت مراكز لجمع الضرائب من المجموعات البشرية المحيطة بها، إلى جانب كونها ملاجئ للمعارضين والثوار من كل صنف سواء من المسلمين المعادين لقرطبة أو من الأهالي، وذلك في فترات تاريخية محددة. ومن أمثلة ذلك حصون دوش أمانتش، وبلدة وقامره⁽²⁾ وغيرها.

وفي مرحلة انتقالية بنت قرطبة مجموعة من الحصون بالتعاون مع السكان المحليين، وكان الهدف منها صد الهجمات التي تنطلق من الحصون الأولى. ولذلك يفهم لماذا كانت تلك الحصون تملأ بالمؤونة والذخائر والمرتقة، مثل ما حدث في حصن ذكوان⁽³⁾ الذي كان يقوم بدور حماية التجمعات القبلية المجاورة. ولما استقرت الأوضاع اتجهت الخلافة إلى بناء بعض الحصون كطريفة ومربلة لمواجهة الخطر الفاطمي الشيعي⁽⁴⁾. وثمّ بناء حصن Banos de la Encina بإقليم جيان عام 357 هـ (968 م) من أجل مراقبة المجال، وليس لإخماد الثورات كما ادعى ل. بروفنسال⁽⁵⁾.

يلاحظ من خلال التحليل السابق مدى الاختلافات بين الباحثين حول أدوار ووظائف الحصون في الأرياف الأندلسية. ولعل تفسير ذلك يعود إلى الاختلافات الواردة في

(1) - نفسه: ص. 264.

(2) - نفسه: ص. 265.

لقد درس Crésier بعض هذه الحصون من الزاوية الأركيولوجية والطبوغرافية في:

Le château et la division territoriale de l'Alpujarra..., op. cit, pp. 115, 144

Fonction et évolution du réseau castral ..., op. cit, pp. 123, 124.

ACIÉN ALMANSA (M); Sobre la función..., op. cit, p. 265.

(3) - اعتمد الباحث في هذا على نص ابن حيان، ج 5، ص. 169، والقائل بأن الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر ببناء «حصن قشتره ذكوان وأدخل فيه يحيى بن زكريا بن أنتله بالحشم والعدة».

(4) - ACIÉN ALMANSA (M); ... op. cit, p. 266.

(5) - نفسه: ص. 266.

تحدث كل من BAZZANA - CRESSIER - GUICHARD عن حصون المراقبة للطرق الرئيسية والواقعة في المسالك الضرورية للمرور وسموها: (Château d'itinéraire) انظر:

Les Châteaux ruraux..., op. cit, p. 110 et sv

المصادر نفسها بصدد أسماء الحصون ودلالاتها. لقد سبق القول بصعوبة وضع لوائح محددة بأسماء تلك الحصون نظراً لكثرتها. وبالعودة إلى النصوص المصدرة نفسها نلاحظ تبايناً وتراتبية واضحة في أهمية ووظائف الحصون عبر الأرياف في الأندلس. ويُفسّر ذلك التباين، فيما نرى، بعاملين أساسيين يتعلّق الأول بمواقع الحصون نفسها. ويتعلّق الثاني بالظروف السياسية والعسكرية القائمة. وانطلاقاً من ذلك يمكن النظر إلى أهمية ووظائف الحصون على الشكل الآتي.

أ - وظائف حصون الثغور

سبقت الإشارة إلى أن السلطة بقرطبة كانت تتعامل مع الثغور باعتبارها أقاليم حربية⁽¹⁾ متميزة عن باقي الكور والأقاليم. ونعتقد أن حصون الثغور كانت تلعب أدواراً مختلفة عسكرية واقتصادية وبشرية. إنها كانت تحمي مجالات الحدود وتحرسها باستمرار من الهجمات المسيحية المحتملة. وتحمي في الوقت ذاته تلك المجالات الخصبة كما هو الشأن في أودية دويره وإبره⁽²⁾. وقد ذكرت المصادر دور حصني فان ومان أو التان ومان⁽³⁾ في إقليم وشقة ودورهما العسكري والاقتصادي. لقد كانت الخلافة تتدخل لبناء أو ترميم حصون وقصبات وتسجل لقوادها عليها قصد ضبطها والتحكم أيضاً في محيطها الطبيعي والبشري. فهذا ابن حيان⁽⁴⁾ يؤكد اعتناء الخليفة عبد الرحمن الناصر «ببناء قلعة خليفة بجهة طليطلة، وادّخر فيها العدة والذخائر، وأخرج إليها قائداً لسكناها وضبطها... وسجّل لقاسم بن مطرف عليها...». والتسجيل على الحصن يعني التصرف في مجاله البشري والاقتصادي شريطة إدرار الجباية المنتظمة على قرطبة. وقد كشفت المصادر عن معلومات كثيرة في هذا المعنى. يذكر العذري⁽⁵⁾ في حصون وشقة عام 309 هـ أن فرنون بن محمد بن عبد الملك خرج إلى حصن بليش من أقاليم وشقة و«وردت كتبه إلى

(1) - انظر فصل "نظام الثغور" في الباب الأول.

(2) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne ..., op. cit. 1 3, pp 60, 63

(3) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 76.

ابن حيان: المقابس...، ج 5، ص. 469، 480.

العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 56.

SENAC (Ph); ESCO (C), Une forteresse de la Marche supérieure...op. cit pp 17, 33

(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 456.

(5) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 69.

أمير المؤمنين عند الرحمن يسأله السجيل له على وشفه فسجل... والسر قد طبع من الجبابة». وجدد له التسجيل عام 319 هـ.

وفي إحدى الحملات العسكرية افتتح الناصر حصن الرقاع (الوقاع) الذي كان دأب كرك، وتوسل إليه هذا الأخير لبقره في حصنه و«دعا إلى إقراره بمكانه على أن يحصل الطاعة ويلتزم إدراج الحباية الوافرة»⁽¹⁾. لكن تكشف المصادر، أحيانا، عن معلومات يستفاد منها، عكس ما سبق، أن السلطة السياسية بقرطبة تقدم إغراءات مختلفة كإعفاء من الضرائب أو منح استغلال الأرض وغيرها للذين يرغبون في الاستقرار بحوار بعض الحصون المواجهة للعدو المسيحي. فقد حدث أن اشتكى أهل طرطوشة للحاكم الناصر «(...) نقل مغارمهم مع مكانهم من الدنو إلى العدو الشديد الشوكة... وسألوهم التضرع لهم فأسقط عنهم الزكوات والصدقات وكتب لهم بذلك عهدا»⁽²⁾. وفي عام 393 هـ/ 1003 م وحده عبد الملك المظفر حملة مشهورة إلى حصن مَقْصَر، وأمر بعدم هدمه لأنه راد «إسكان المسلمين فيه... ونادى من أراد للإثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحراث...»⁽³⁾. ويجب التذكير أن هذه الإغراءات ذات الطابع العمراني والبشري (تشجيع السكن والإقامة) والاقتصادي كانت تشكل استثناء للقاعدة، لأن السلطة كثيرا ما كانت تجبر السكان والفلاحين والحناء على سكنى بعض الحصون والقصبات. ففي سنة 328 هـ «شرع أحمد بن محمد بن إسماعيل في بنيان مدينة سكتان الخراب بثغر الجوف، وأدّخرها بها الأقوات، وألزم الجند سكانها مع من نُقل إليها من المرحّلين»⁽⁴⁾.

يبيّن مما سبق أن حصون التّغور تلعب أدوارا مختلفة: فهي تقوم بحراسة ومراقبة لغزو على المستوى العسكري، كما أنها تسوّط المجال على المستوى الاقتصادي وتعمري. وأكثر من هذا قد يُخصّص بعضها لأغراض محدّدة كاستقبال الأسرى في وقت محروب، كما هو الشأن في حصون جهة تطيلة خاصة «تاجرة، وغوينز وغيره

(1) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 248، 249.

(2) - نفسه: ص. 468.

(3) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 6، 7.

(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 457.

التي كانت ملاذا لمن هرب من الأسرى»⁽¹⁾. وفي مقابل ذلك يتمتع أهل تلك الحصون ببعض الامتيازات حسب ظروف تاريخية محددة يفرضها الجوار المسيحي. وقد سبقت الإشارة أيضا إلى ظاهرة التحبّيس لفائدة حصون الثغور في ميادين الأرض والعقار والغلال والدواب وغيرها⁽²⁾. ولذلك لا نتفق مع Guichard⁽³⁾ حين تحدث عن حصون من نوع "سنيوري" في الثغور.

ب - وظائف حصون الخلافة

لاحظنا سلفا⁽⁴⁾ أن السلطة الأموية بقرطبة عمدت في مطلع القرن الرابع الهجري إلى هدم واسع للحصون الموروثة من عهد الإمارة لأنها كانت ترى فيها أداة عسكرية وبشرية تهدد كيائها. ولم يتردد عبد الرحمن الناصر في قيادة الحملات العسكرية بنفسه للإشراف على استئزال معارضيه من حصونهم ومعاقلمهم وهدمها. وقد كان في الوقت نفسه يبني بعض الحصون والقصبات ذات الطابع الاستراتيجي ويضع فيها الأقوات والعدة من أجل حصار أعداء قرطبة. وحين نجحت سلطة قرطبة بعد سنوات عديدة، في تغيير البنيات التحصينية والبشرية السابقة وتمكّنها من إخضاع المجال الجغرافي الأندلسي تغيّرت نظرته للحصون. وانطلاقاً من ذلك يمكن في اعتقادنا فهم وظائف الحصون من خلال ثلاثية تربط الحصن بطبيعة السلطة السياسية القائمة وبمجال جغرافي محدد (الحصن، السلطة، المجال). ففي مرحلة يمكن نعتها بانتقالية وتمتد من مطلع القرن الرابع للهجرة إلى إعلان الخلافة، اتجهت أنظار السلطة إلى بناء قوتها ونفوذها السياسي والعسكري عبر إخضاع المجال الجغرافي أولاً، ولذلك لعبت الحصون خلال هذه الفترة، سواء تلك الموروثة من عهد الإمارة، أو التي بنتها سلطة قرطبة في الأقاليم الأندلسية، وظائف عسكرية بالدرجة الأولى. وانتهت المرحلة الانتقالية مع إعلان الخلافة بقرطبة سنة 316

(1) - العزري: ترصيع الأخبار...، ص. 36.

(2) - ابن سهل: الأحكام الكبرى...، مخطوط، ص. 155، 317.

ابن رشد: الفتاوى...، مصدر سابق، ج 3، ص. 1401 و 1340.

الونشريشي: المعيار...، ج 7، ص. 151، 218.

LAGARDÈRE (V), Histoire et société en occident musulman au Moyen Age, Analyse du Miyar d'Al-Wansarisi, Madrid, Casa de Velazquez, C.S.I.C, 1995, p 165 et sv

(3)- GUICHARD (P). Château et pouvoir politique, dans: Fortificaciones en Al-Andalus, op. cit, pp 25, 31

(4) - انظر بداية هذا التفصيل.

هـ، وبدأت فترة جديدة تزامنت مع ارساء قواعد الدولة في كل المحاولات حاصصة الـ
الخلافة قد نحدث في إقصاء المعارضين وإحضار كل المحال الأدلسي، إضافة إلى بناء
حيث بطامي حديد، حشد الحضرة⁽¹⁾، الذي أصبح أداة فعالة يمكن استعمالها لأحمد
الثورات أو لمراقبة كل المجال الجغرافي الواسع والخاص لسلطتها. وبتعبير آخر، حل
حد الحضرة القوي محل بعض الحصون التي كانت تلعب الأدوار العسكرية بالدرجة
الأولى. والدليل على اعتماد قرطبة على حشد الحضرة وإمكانية استعماله في ميادين
متعددة، إرساله مرات متعددة لقمع الثورات أو لردع الرافضين لتأدية الضرائب. فهذا
الوزير عبد الحميد ابن بسيل توجه بالجند إلى سكان إحدى الجهات لأنهم، «امتنعوا عن
أداء الجباية وخرجوا إلى المعصية... فلما بلغهم خروج الجيش إليهم أقبلوا عما هموا به
ولاذوا بالطاعة وسألوا الأمان»⁽²⁾.

إن قوة ونفوذ السلطة السياسية بقرطبة وسيطرتها على المجال وامتلاكها لجند
قوي انعكس بشكل مباشر على التحصين. لقد أجمعت المصادر على أن عصر الخلافة
خاصة عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والحاجب المنصور بن أبي عامر،
تميز بالاستقرار والتطور في المجالات الاقتصادية والبشرية والعمرانية. ولأنك أن
الحصون قد ساهمت بشكل من الأشكال في ذلك التطور، ولا غرابة إذا تحدثت المصادر
عن الحصون القرى أو الحصون المدن. أي أن الحصن، الذي يتطابق أحياناً مع القرية أو
المدينة، يكون مركزاً لأنشطة اقتصادية مختلفة، وأكثر من ذلك يمكن اعتباره أداة عمرانية
هامة تساهم في تأطير المحال على المستويين الاقتصادي والبشري، وذلك تحت إشراف
عمال وولاة الخلافة الذين يُعيّنون في الكور والأقاليم ويتخذون من الحصون والقصبات مقراً
لسكانهم وتواجدهم⁽³⁾. إن التحول الذي طرأ على وظيفة الحصون مرتبط إلى حد بعيد، فيما
نرى، بالأنوضاع السياسية والعسكرية القائمة بقرطبة. وهذا التحول لا يعني أن الحصون قد
تخصّصت في أنشطة اقتصادية معينة ومحددة أو كان بعضها «محطات تجارية، مما يشير
إلى تحول نمط الإنتاج في اتجاه تغليب الطابع التجاري». كما أشار إلى ذلك أحد

(1) - انظر فصل: الكور المجندة وجند الحضرة في الباب الأول.

(2) - ابن حيان: المقتبس... ج 5، ص. 486.

(3) - انظر لوائح بسماء مختلف العمال والولاة الذين عُيّنوا من قبل الخلافة في الأقاليم والكور الأندلسية المختلفة في.

ابن حيان: مقتبس... ج 5، ص. 376، 377، 468، 488، 489؛ العذري: ترصيع الأخبار... ص. 69، 115، 121.

الدارسين⁽¹⁾. يحب انتظار القرن السادس الهجري (XII م)، للحديث عن «الحصون العامرة التي هي حواضر مُمدّنة»⁽²⁾ كما يتبين من مصادر القرن السادس نفسها.

إن الاستقرار الاقتصادي والسياسي والعسكري الذي طبع عصر الخلافة، جعل هذه الأخيرة تتطلع إلى منافسة أعدائها خارج المجال الجغرافي الأندلسي، سواء في الثغور الشمالية المسيحية أو في شمال إفريقيا. نتج عن ذلك، الاهتمام بحصون أخرى غلب عليها طابع المراقبة أو ما يمكن أن نطلق عليه 'الحصون الثكنات' التي كانت تخصص لتجميع الجند الخلافي قبيل أو أثناء الحملات العسكرية خاصة تلك الذاهبة إلى الثغور.

والمُتممَن في خريطة شبه جزيرة إيبيريا يلاحظ أن الخلافة بنت أو رُممت سلسلة من الحصون والقصبات. وهي على شكل خط استراتيجي يمتد من طريفة في أقصى الجنوب ويمر بعقبة البقر شمال قرطبة لينتهي في عرماج (غرناج) جهة الثغور شمالاً. أي أن حصن طريفة أنشئ لمراقبة التحركات الفاطمية في شمال إفريقيا واستقبال الجند القادم من هناك إلى قرطبة أو إلى الثغور. ورُممت قصبات مالقة وألمرية للغرض ذاته⁽³⁾. وكان حصن سهيل غير البعيد عن مالقة (إقليم رِيّة) يُراقب البحر، وهو لا يترك أياً كان صغيراً أم كبيراً يتجه نحو الساحل دون أن يُرى⁽⁴⁾. وبُني حصن عقبة البقر في المرتفعات المطلّة من الشمال على قرطبة ليحرسها، ويستقبل أيضاً الجند باعتباره محطة عسكرية أساسية نحو الشمال أو نحو الجنوب. أما حصن عرماج في عمر سوريا على نهر دويره، فهو آخر محطة عسكرية هامة قبيل الثغور.

ج - وظائف حصون الـلوائف

بمجرد انتهاء القرن الرابع الهجري، انهارت سلطة الخلافة الأموية القوية، وانحصر نفوذها في كافة المجالات، وأصبحت عاجزة عن مراقبة المجال والتحكم في الأقاليم والثغور. وقد أثر ذلك بشكل مباشر وسلبي على عملية التحصين والعمران العسكري. لقد توقف الانتعاش الاقتصادي والعمراني والأمني الذي أرسيت الخلافة قواعده، وعاد هاجس

(1) - الطاهري (أ): عامة قرطبة...، ص. 60.

(2) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 569، 571.

لاشك أن الإدريسي وهو من أهل القرن السادس قد عكس تلك التحولات التي طرأت على البنيات التحصينية والحضرية، ففي هذه الفترة أصبح لفظ الحصن المدينة أو الحصن الحاضرة أكثر تداولاً.

(3) - ACTEN AL MANSA (M), La fortificación en Al-Andalus... op cit, p 20 Sobre la función... op cit, p 266

(4) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 99.

الأمن إلى الواجهة ليذكر بالأوضاع التي عمّت الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. ولاشك أن ظاهرة اتخاذ الحصون والاحتماء بها قد غدت من السمات البارزة للعصر الطائفي الجديد. وقد عبر أحد الدارسين⁽¹⁾ عن هذا الأمر بدقة انطلاقاً من نموذج إشبيلية العبادية بالقول إن التحصين أصبح من أولويات الاهتمام العمراني. نظراً لتحول جل المناطق والأقاليم الأندلسية إلى ثغور، واضطرت القرى إلى اتباع ذلك التحول. وذلك عبر تحصينها أو تهميشها. وهكذا حل الحصن من جديد محل القرية والمدينة. وللوقوف عند مظاهر مختلف التحولات السالفة الذكر في ميدان العمران العسكري، يكفي أن نقرأ بنوع من التأنّي بعض نصوص "كتاب التبيان" الذي يُعد مؤلفه أحد المعاصرين لتلك التحولات، بل من المشاركين فيها بشكل فعال، يقول ابن بلقين⁽²⁾: «فلما تمت الدولة العامرية وبقي الناس لا إمام لهم، ثار كل واحد بمدينته، وتحصن في حصنه، بعد تقدمة النظر لنفسه، واتخاذ العساكر، وادخاره الأموال...». وعبر صاحب الذخيرة⁽³⁾ عن هذا المعنى بالقول: «كان كل واحد يختفي عن قرنه بقصره ويُطيل الهز لسيف غيره، ويسلّه على جاره، حتى غدا ذلك السيف مسلّوا عليه...». ولقد سلك أمراء بني زيري هذا المنحى منذ البداية كما يتضح من كلام زاوي بن زيري لأهل البيرة: «أرى من الصّواب أن نرتحل عن هذه المدينة، ونختار لأنفسنا، فيما يقرب منها معقلاً ناوياً إليه بأهالينا، وأموالنا، ونجعله وراء ظهورنا، ونسند إليه ظهورنا فإن الحرب سجال...»⁽⁴⁾.

إن إخضاع الحصون خاصة تلك القريبة من المدن من شأنه أن يُقوّي ويُضاعف النفوذ السياسي والعسكري، بل والاقتصادي للذي يخضعها. ولقد عبر ابن رشد⁽⁵⁾ عن ذلك لما أشار إلى أن أحدهم استبد بحصن شقورة لأعوام يُجبي الفوائد ويضرب الضرائب على الرعايا. مما يبيّن التحكم الإقليمي في الحياة الاقتصادية عبر السيطرة على الحصون. وأكد ابن صمادح صاحب ألمرية ذلك إثر نزاعه الدائم مع الأمير عبد الله حول بعض الحصون، بالقول: «هيهات! ليست تُملك الأقطار إلا بالبنيان والسيف...»⁽⁶⁾.

(1) الطاهري: عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 22، 70، 79...

(2) ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 58.

(3) ابن بسام: الذخيرة...، ق 2، م 1، ص. 253، 254.

(4) ابن بلقين: نفسه، ص. 60.

(5) ابن رشد: الفتاوى...، ج 1، ص. 288، 289.

(6) ابن بلقين: المصدر السابق، ص. 112.

بعدُ بدار الحصون، وتعداها ومواقعها من المعابر والمباهاة أمام الأعداء. يقول ابن بغير: «(وكان عدة ما بُني عليه (صاحب المرية) سبعة حصون... وإني إنما بنيتها صولةً وتهيئاً...» (1). وأضاف: «(فاعلمت بصخرة دومس ولا معنى لرية إلا بها، وهي موسطة البلد... فلو انتزعت تلك الشوكة كان أمر غيرها يسيراً...» (2). «(أما حصن نمت ماسر، فلا سبيل إلى مألقة إلا بالراحة منه» (3). وكذلك الأمر بالنسبة لحصني قشنة ومارتش، «(المعقلين اللذين... لم يكن لجيان معنى إلا بهما...» (4) مكرر. لقد تجلّت أهمية التحصين في الأمثال الشعبية الأندلسية نفسها كما يتبيّن من إحداها حين تقول: «(حصني ولا من يقسني» (5). لا شك أن المسيحيين الذين كانوا يتربصون بالأندلس كانوا على بيّنة بأهمية الحصون الأندلسية خاصة إبان الأزمات كما هو الشأن خلال الطوائف. ولذلك جعلوا منها ومن الجزية أدوات فعالة تضمن توغلهم في عمق الأندلس. ويكشف عن ذلك انحول الذي دار بين المامون بن ذي النون صاحب طليطلة وأحد زعماء الإفرنج الذي لم يخف رغبته في الحصون حين قال: «(وحق الإنجيل لا نجوت مني حتى تعطيني الحصن الفلاني والحصن الفلاني، وسمي حصونا من المسلمين بين طليطلة، وتجعل لي مالا في كل سنة...» (6).

إن العودة إلى الصراعات العسكرية والتسابق نحو الحصون وبنائها أو ترميم القديم منها والامتراء بها وإشهار القوة على الجار، يؤثر بشكل مباشر على السكان وأنشطتهم، بل أصبح الحديث في المصادر عن السكن المحصن وبحث السكان عن الحماية والارتباط بالحصون وقد عبرت نوازل فقهية متعددة عن هذه الظاهرة في مناسبات عديدة منها: انتقال الناس من القرى إلى حصن من الحصون (7)، أو جلتهم الفتن إلى حصن وسكنوا و «(صار

(1) - نفسه: ص. 113.

(2) - نفسه: ص. 114.

(3) - نفسه: ص. 114، 115.

(4) - نفسه: ص. 102.

(4) مكرر - فلاحظ أن مصادر عصر الطوائف خاصة "كتاب التبيان"، تستعمل في التحصين الفاظاً ومصطلحات أكثر دقة إذ تعكس أكثر ظاهرة الخوف وانعدام الأمن والحماية كغلبة لفظ المعقل والصخرة. استعمل الأمير عبد الله لفظ "معقل" 22 مرة، ولفظ "القصب" 14 مرة، والحصن 14 مرة كذلك.

(5) - الزجلي: أمثال العوام...، ج 1، رقم: 841، ص. 211.

(6) - التويري: نهاية الأرب في فنون الأدب... قسم المغرب...، مصدر سابق، ص. 147.

(7) - ابن رشد: الفتاوي...، ج 2، ص. 783، 784.

اهل كل قرية إلى ناحية من الحصن وبنوا»⁽¹⁾ ، «وهرية سكنت بجانب حصن من
الحصون»⁽²⁾، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تعكس بوضوح تأطير الحصور للسكان الذين
يبحثون عن الملاد والأمن المفقودين خلال الصراعات الطائفية الطائفية او الطائفية
المسيحية.



(4) - ابن الحاج: التوازل، مخطوط، ص. 121، 145.

(5) - نفسه: ص. 116.

خلاصة

أصبح من خلال تتبع المادة المصدريّة المتنوعة الواردة في حصون الأندلس، غرار ذلك المادة وغناها، لكن لاحظنا في الوقت نفسه أنها لم تستغل بما فيه الكفاية من قبل البحث العربي المعاصر الذي ما يزال عند التصور الكلاسيكي الذي ينظر إلى الحصون باعتبارها مؤسسات عسكريّة سياسيّة أو معماريّة. إن غزارة النصوص والإشارات حول الحصون في متون المظان المختلفة يتطلب أولاً رصد تلك المادة واستغلالها في اتجاه يبدأ من العمليّة التاريخيّة نفسها، أي محاولة وضع لوائح أوليّة للحصون⁽¹⁾ والمواقع الهامّة عبر الأقاليم والكور اعتماداً على المصادر المعاصرة للخلافة والطوائف بالدرجة الأولى. إن من شأن ذلك أن يساعد على توثيق وتوطيد ثم تصنيف الحصون والمواقع حسب الأقاليم. كما يساعد في تتبع أصولها وأهميتها بحسب المراحل التاريخيّة، خاصة أن الكثير منها قد تعرض للتلف بفعل عوامل متعدّدة طبيعيّة وبشريّة وسياسيّة.

بعد القيام باستعراض لائحة أوليّة من الحصون الهامّة عبر مختلف الأرياف في الأندلس حاولنا القيام بقراءة أولى في أدوارها ووظائفها، انطلاقاً من مجموعة من المعطيات لها علاقة بالمجال الاقتصادي والبشري والجغرافي، وبطبيعة السلطة السياسيّة القائمة في قرطبة. هكذا ميّزنا بين وظائف حصون أقاليم الثغور ذات الطبيعة الحربيّة، ووظائف حصون الخلافة والطوائف عبر باقي الكور والأقاليم. واتضح أن حصون الثغور قد جمعت ما بين الوظائف العسكريّة والاقتصاديّة والعمرانيّة نظراً لمواقعها في مواجهة المسيحيين. وميّرنا في حصون الخلافة ما بين مرحلتين أساسيتين، ارتبطت الأولى بانسغال سلطة قرطبة قبل إعلان الخلافة بإرساء بنياتها وأسسها في المجال الجغرافي وفي الميدان السياسي والعسكري. ولذلك تميّزت حصون هذه المرحلة سواء تلك الموروثة من الإمارة، وهي كثيرة، أو التي بنتها قرطبة بالأداء العسكري بالدرجة الأولى لأن هاجس إخضاع المجال والمعارضين كان أقوى. وبعد التغلب على المعارضين والسيطرة على المجال وبناء جند مركزي قوي (جند الحضرة) بقرطبة، وإعلان الخلافة بدأت المرحلة

(1) - لاشك أن هذه العمليّة وحدها تتطلب مجهودات كبيرة نظراً لكثرة الألفاظ والمصطلحات المرتبطة بالتحصين وغموض بعضها. ناهيك عن كثرة وتنوع المصدر وقد سبق القول إن أحصينا في القطعة الخامسة من المقتبس لابن حيان، وحدها أكثر من مائة وثلاثين حصناً.

الثانية في تاريخ التحصين. لقد أدت الوضعية الجديدة المنسمة بالاستقرار، لأمس والانتعاش الاقتصادي، إلى تحول في وظائف الحصون، بحيث أصبح الحصن لم يعد للقربة أو المدينة يوطر المجال اقتصادياً وعمرانياً وشرباً وذلك تحت اثر ف سنى السلطة المركزية أي الولاة والعمال في الأقاليم. وإلى جانب ذلك، اهتمت سلطة فرطية القوية سياسياً وعسكرياً (هي قوة إقليمية كبرى في الغرب الإسلامي)، بإنشاء نوع آخر من الحصون لعب دوراً هاماً في مراقبة تحركات ومجال أعدائها سواء القوى المسيحية في الشمال أو القوى الفاطمية في الجنوب. وهكذا أنشئ خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري خط من الحصون يمتد من طريفة جنوباً إلى غرماج في الشغور شمالاً.

وبانتهاء الخلافة وحلول الطوائف في مطلع القرن الخامس الهجري حدث تحول عميق آخر في وظائف الحصون. لقد عاد هاجس الأمن والحماية إلى الواجهة بفعل الانقسامات السياسية والعسكرية التي طبعت دويلات الطوائف. وأصبحت الحصون مركزاً للحياة من جديد، ولذلك صار التهافت والتسابق نحو بنائها أو ترميم القديم منها عملة رائجة مما أدى إلى تهميش الأنشطة الاقتصادية والعمرانية والبشرية التي كان الحصن نواتها في العصر الخلافي السابق.

تجدر الملاحظة إلى أن بعض الأبحاث الأجنبية المعاصرة قد اهتمت بالتحصين بالأندلس من الزاوية الأركيولوجية، وخلال فترات تاريخية مختلفة. وتمكنت من الكشف عن العديد من المواقع الإسلامية الهامة، وبيّنت بعض خصائصها المعمارية وطبيعة مواد البناء فيها. ويمكن القول إن كتابة تاريخ التحصين في الأندلس خاصة خلال الخلافة ولطوائف، التي تعرضت حل حصونها إلى التلف بفعل عوامل متعددة، يتطلب، إلى جانب البحث التاريخي المصدري تضافر جهود باحثين في حقول معرفية أخرى كالأثار والطوبوغرافيا والجغرافيا. وإن من شأن ذلك أن ينير الكثير من القضايا التي لا تزال في بداية البحث.

الفصل الثاني

القصبات والأسوار في المدن

على عرار الحصون في الأرباب الأندلسية، أوردت المصادر قنعاً من المعومات حول قصبات والقصور وأدسوار والحدائق والأبراج التي منرت المدنة الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا وشكلت جزءاً هاماً من ببنائها العمرانية والدفاعية منذ تأسيسها. كانت الحصون في الأقاليم قد أنارت قصايا مرتبطة بالأصول وصعوبة الوصول، فإن القسبات والقصور والأبراج لا يزال بعضها قائماً في المدن الرئيسية على امتداد الأندلس، لكن أدخنت عليه ترميمات وتعديلات كثيرة مما يصعب معه رصد مختلف التحولات التي تعاقبت على البنيات المحصنة في العالم الحضري منذ البداية.

سعت الإشارة إلى أن المصادر تحلط، أحياناً، أو تتعت الحصن بالمدينة الألهة والعامرة⁽¹⁾. إنها نتعت كذلك المدينة بالقصبة لأن «قصبات الأندلس هي مدن مثل طليطنه، وسرقسطة، وماردة وإشبيلية»⁽²⁾. وتعتبر القسبات النواة الأولى التي ينطلق منها توسع المدينة⁽³⁾.

وتقدم المصادر إشارات ومعلومات مفيدة في أصول المدن وتحصيناتها المختلفة.

أ - الأصول

يمكن تحديث عن المدن التي وجدها المسلمون في شبه جزيرة إيبيريا وقت فتحها، وهي في لغالب الأعم من أصل روماني وقوطي، والمدن التي أحدثت وتطورت خلال فترة الإسلامية وفق ظروف متعددة وفترات تاريخية محددة. يرى الرازي⁽⁴⁾ وهو من قدم كتب كتوا عن المدن المحصنة أن إقليم تطيلة كان يضم مدناً كثيرة، وحصر أربعين كن - رعا تسمين وهو مدينة قديمة جداً. ومدينة باجة هي أيضاً من أقدم المدائن لأنها تعود إلى عهد الفياصرة⁽⁵⁾. أما فرمونة فمدينة قديمة شرق إشبيلية قوبسة

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 569، 571.

(2) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس، ص. 307.

(3) - انظر أهمية القسبات في المدن الأندلسية في:

IZQUIERDO BENITO (Ricardo): Las alcazabas en Al-Andalus: sentidos y funciones. *Estudios de Historia de Al-Andalus*, op cit, pp 103,110

(4) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 77.

(5) - نفسه: ص. 87.

باسوارها⁽¹⁾. واستجة بدورها مدينة قديمة تقع على نهر شليل⁽²⁾ الذي ينبع من حب النج. ويتفق الرازي مع الإصطخري⁽³⁾ الذي أشار إلى أن مدن الأندلس كلها "جاهلية" إلا بحانه. يقول في هذا المعنى: «ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليلة ونفزة وسرقسطة ولاردة، ووادي الحجارة، وترجالة، وقورية، وماردة، وباجة، وغافق ولبلة، وقرمونة، ومورور، واستجة ورية، وهي كلها مدن عظام، وليس فيها ما يقارب قرطبة في العظم والكبر، وأكثر أبنيتها من حجارة وهي أبنية جاهلية لا تعرف فيها مدينة محدثة إلا بجانة...»^{(4) مكرر}. لم تبخل المصادر اللاحقة للإصطخري والرازي في إبراز قدم وأهمية المدن عبر شبه جزيرة الأندلس، وكيفية توسيع بنياتها وتطويرها خلال العصر الإسلامي. كما بينت في الآن نفسه الهدم والخراب الذي طال الكثير منها خلال فترات تاريخية مختلفة. يرى ابن حيان⁽⁵⁾ أن مدينة أريولة أقدم مدن تدمير وأمنع معاقها اتخذها «الأعاجم في الدهر الأول ملجأ، فاستبلغت في تقوية أركانه...». ومدينة استجة "كانت في الجاهلية ذات شأن"⁽⁶⁾. أما مدينة سرقسطة فبناها «القوط وسورها من الكدان الأبيض المنجور الذي يشبه الرخام الأبيض...»⁽⁷⁾. وقال بصدها الحميري⁽⁸⁾ إنها تُعرف بالببيضاء لكثرة حصنها وجيارها. وزارها الزهري⁽⁹⁾ الجغرافي الكبير وعانين تحولاتها خلال منتصف القرن السادس الهجري (XII م)، وذكر أن بنيانها من عمل قسطنطين، وسورها

(1) - نفسه: ص. 94.

(2) - نفسه: ص. 99.

(3) - الإصطخري: المسالك والممالك...، ص. 35.

(4) - نفسه: ص. 35.

(4) مكرر - اعتمد الباحث L. Torres Balbas على البحث المعماري والطبوغرافي في بعض مواقع المدن ووضع لائحة بحوالي 22 مدينة محدثة لأسباب متعددة أهمها استراتيجي وعسكري.

«Ciudades Hispano musulmanas de nueva fundación» Etudes d'Orientalisme dédiées à Lévi-Provençal, Paris, Maisonneuve- La Rose, 1962, T. 2, pp 781, 803.

(5) - ابن حيان: المعقبس...، ج 5، ص. 128.

(6) - نفسه: ص. 55.

(7) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 70.

ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 150.

(8) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 319.

(9) - الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري): كتاب الجغرافية، تحقيق: صادق (محمد حاج)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، ص. 81.

من الكتلان، ومن عثاننها أنها مردومه. وأوضح الإدريسي⁽¹⁾ في الساق دله من سرقسطة من قواعد الأندلس لها سور من الحجارة حصين⁽²⁾.

ومن المدن القديمة أيضاً سموره دار الحلالقة التي عراها الحلفاء عند الرحمن الناصر. وهي من سبل الملوك السالفة⁽³⁾، وقاعدة من قواعد الروم⁽⁴⁾ على صفه نهر كبير. ومنه وشقه شرق سرقسطة أولية قديمة⁽⁵⁾. ومارده إلى الحوف من قرية. «كانت مدينة يربطها عندهم الأول فكثر بها ثارهم...»⁽⁶⁾. أما البيرة فـ «أرلبه حربها بانس بن حنوس...»⁽⁷⁾.

ويندو من حلال هذه النماذج من المدن المؤسسة في شبه حريده استراليا فنز محيء المسلمين إليها كانت قواعد هامة وحصونا قاومت المد الإسلامي. ولذلك لم يتردد الأمراء ثم الحلفاء وخاصة عند الرحمن الناصر خلال النصف الأول من القرن الرابع للهجرة، في إخضاعها أو تدمير أجزاء منها وبناء أخرى، أو الاحتفاظ بقصباتها وفصورها تستغل من قبل ممثلي السلطة المركزية في قرطبة أو من قبل الحند. ومن المدن أيضاً - ما أعيد بناؤه. يقول العذري⁽⁸⁾ بصدد وشقة ابن الأمير محمد بن عبد الملك صرف «ثلاثة عشر ألف دينار كثمان بيع سبي النصارى عام (290 هـ/903 م)، في سبع مدينة وشقة وإغنائها». وفي سنة (276 هـ/889 م)، انتفض بكر بي يحيى واقعد مدينة ست مرة من كورة أكسونية وبهاها حصنا اتخذ عليها أبواب حديد⁽⁹⁾. ومن المدن الهامة التي أحدث عصر الخلافة مدينة سكتان جهة الثغور. يقول ابن حيان⁽¹⁰⁾: «فيها (329 هـ/914 م) استتم التورير القائد أحمد بن محمد بن إلياس بنيان مدينة سكتان، من فاصية الجوف، وشحدها سرجال، وأعد فيها الأطلعمة والأسلحة». ولما توحه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى جهة

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق، ص. 570.

(2) - انظر بعض التفاصيل في الأنظمة الدفاعية لسرقسطة في:

SOUTO (JA), Sistemas defensivos andalusies, op. cit, p 275, 285

(3) - المقرئ: النفع، ج 1، ص. 355.

(4) - الحميري: الروض المعطار، ص. 324.

(5) - العذري: ترصيع الأخبار، ص. 56.

(6) - البكري: جغرافية الأندلس، ص. 119.

(7) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص. 69؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص. 569؛ المقرئ: نفسه، ص. 150.

الحميري: نفسه، ص. 48.

(8) - العذري: نفسه، ص. 56.

(9) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 137.

(10) - ابن حيان: المقابس، ج 5، ص. 456-465.

طليطلة سنة (318هـ/930م) احتل بمحلة جرنكش و«أمر بالبنيان في جبل جرنكش لمدينة سماها بالفتح، وأرتب لبنيانها سعيد بن المنذر الوزير، وأمر بنقل الأسواق إليها والتمدين لها لتكثر مرافق أهل العسكر بها»⁽¹⁾. ولما شعر الناصر بأخطار القشتاليين على الثغر الأوسط أمر ببناء مدينة سالم به سنة (335 هـ/946 م). وهكذا «ابتنى (الناصر) مدينة سالم القديمة التعطيل بالثغر الأوسط الشرقي المواجهة لبلد قشتيلة (دمرها الله)، وهي يومئذ خالية مقفرة، وأرسل لذلك غالباً مولاة، في جيش جرّده معه من الحضرة، وأنفذ العهد إلى قواد الثغر بالاجتماع إليها لبنيانها... ونقل إليها البناؤون من بلاد الثغر للاختطاط لديارها..»⁽²⁾.

ومن المدن التي احتفظت الخلافة بقصباتها وأسوارها وقصورها، أو عملت على بناء قصباتها من أجل إعادة ضبطها وإسكان الجند أو ممثلها فيها، نذكر ببشتر قاعدة عمر بن حفصون التي أخضعها الخليفة عبد الرحمن الناصر عام (316 هـ/928 م)، وأمر بهدمها عن آخرها «حاشى القصور والقصاب التي أبقى لعماله وحشمه، الذين بوّأهم للمقام بها، فدكّت أسوارها، وحطّت أعلامها، واعتدت قاعاً صنفافاً..»⁽³⁾. وأشار ابن عذاري⁽⁴⁾ إلى أن الناصر لما افتتح مدينة ببشتر قلّد أمرها سعيد بن المنذر لضبطها وأكمل البنيان فيها. وأضاف أن الخليفة تجوّل في المدينة ولاحظ حصانتها وعلوها و «دبر بنيان قصبتها على أحسن ما دبره وأحكمه في غيرها..»⁽⁵⁾. وفي العام (317هـ/929 م)، أخضع الخليفة مدينة باجه «ونذب فيها قوة وأكثف لها الجمع والعدة، وأمر بابتناء قصبة فيها ينفرد فيها العامل عليها ويسكنها برجاله..»⁽⁶⁾. وذكر ابن حيان⁽⁷⁾ أن إستجة القديمة البنيان هدمها الخليفة الناصر ولم يبق فيها إلا «القصر لسكنى العمال والقواد». أما البيرة المدينة

(1) - ابن عذاري: نفسه، ص. 203. قال Torres Balbas إن مدينة الفتح (chalencas) كانت قاعدة أساسية ما بين قرطبة وطليطلة، كن هدف الناصر من إنشائها هو اخماد الثورات الدائمة في تلك الجهات. لكن يبدو أنها قد تكون كذلك محطة أساسية نحو الثغر الأقصى المواجه للإفرنج.

TORRES-BALBÁS (L.) , Ciudades Hispanomusulmanas de nueva fundacion..., op.cit. p. 792

(2) - ابن عذاري: نفسه، ص. 214.

ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 60.

(3) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 232.

(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 196.

(5) - نفسه: ص. 196.

(6) - ابن حيان: نفسه، ص. 248.

(7) - نفسه: ص. 55.

الأزلية حسب المصادر⁽¹⁾ فـ«حربها بادي بن حبوس وبنى بنقصها قصبة عرطة وأسوارها»⁽²⁾. نلاحظ من خلال مضمون الإشارات السابقة في بناء القصب في نفس اهتمام السلطة السياسية بقرطبة بتلك القصب بل وجودها الفعلي فيها عبر عملي وولائي ورجالهم الذين يسكنون تلك القصب. وإذا كان الهاجس العسكري المرتبط بالحصان المحال والمعارضين هو المسيطر في بداية تكوين الخلافة، فيمكن القول إن القصب قد لعبت كذلك أدوارا بشرية واقتصادية باعتبارها كانت مراكز هامة لتحصن الصراة من سكان الأرباض⁽³⁾. وبذلك تقارن بالحصون في الأرياف والتي سبق القول إنها كانت سطة، إبان استقرار الخلافة، في تأطير المجال البشري والاقتصادي.

يظهر أن العصر الطائفي قد شهد بدوره إنشاء القصب أو ترميم العديد منها وذلك في إطار ازدهار البنيات التحصينية المرتبطة بالتجزؤ الدياسي والإقليمي الذي عرفه القرن الخامس الهجري. وقد لاحظ أحد الدارسين⁽⁴⁾ أن انتشار الحصون والقصور والمنيات له علاقة بتطور وازدهار النمو الحضري الإقليمي، الطائفي. لقد طال الترميم قصبة غرناطة⁽⁵⁾، وحصن الحمراء⁽⁶⁾، وقصبة ألمرية⁽⁷⁾، ومالقة⁽⁸⁾، وقصور إشبيلية وقصبتيها⁽⁹⁾ على عهد بني عباد وغيرها. ومن الطبيعي أن تتحصن المدن أكثر خلال العصر الطائفي نظرا للأوضاع السياسية والعسكرية أو الأمنية آنذاك، بل منذ أواخر الخلافة ذاتها. يقول ابن عذاري⁽¹⁰⁾ في بناء المنصور بن أبي عامر لقصره بالزاهرة إنه أمر «بناء قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمره، وظهر استدادده، وكثر حساده.. وبالع في رفع أسوارها». لكن يظهر أن هذا القصر ومدينة

(1) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص. 69؛ المقرئ: النفج، ج 1، ص. 150.

(2) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص. 69؛ الانديسي: نزهة المشتاق، ص. 569؛ المقرئ: النفج، ج 1، ص. 150.

(3) - IZQUIERDO BENITO (R), Las alcazabas..., op. cit., p. 105

(4) - LAHIRE (A) — Problemas de una reconstrucción urbana en al-Andalus: el ejemplo de la Sevilla abbadi dans: Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental, Madrid: Casa de Velazquez CSIC, 1998, p. 219, 227

(5) - ابن بلقين: الثبيان، ص. 58.

(6) - نفسه: ص. 86.

(7) - نفسه: ص. 112، 113.

(8) - نفسه: ص. 114، 115.

(9) - الطاهري: عامة إشبيلية، ج 1، ص. 59 وما بعدها.

(10) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 275.

انهرءاء كلها قد تعرضت للهدم والتخريب عن آخرها خلال الفتنة التي اشتغلت بقرطبة بعد غياب المنصور بن أبي عامر مباشرة. لقد أقدم محمد بن هاشم على «هدمها وحط أسوارها وقلع أبوابها، وتسعيت قصورها وطمس آثارها»⁽¹⁾.

إنى جانب القصبات تشير المصادر إلى إنشاء مجموعة من القصور التي كانت رمز للسلطة ونفوذها في المراكز الحضرية الأساسية منذ الإمارة. فهذا عمرو بن يوسف قد بنى في عهد الحكم بن هشام القصر على باب جسر طليطلة وأتقن أمره⁽²⁾. وفي سنة (301هـ/913م) افتتحت طليطلة من جديد وأمر الأمير عبد الرحمن بتجديد القصر الذي كان بناه عمرو بن⁽³⁾. ويذكر ابن حيان⁽⁴⁾ في شأن قصر إشبيلية أن حاجب الخليفة الناصر بدر دخل سنة (301هـ/913م) هذا القصر «فاحتل بالمجلس المعروف بالأخيضر منه». ولما افتتح بدر إشبيلية قلدها سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم فهتم سورها، وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة، وحصنه بسور حجر رفيع وأبواب منيعة⁽⁵⁾. يبدو أن القصبات والقصور كانت مقرات دائمة لأصحاب النفوذ السياسي والعسكري التابعين للسلطة المركزية بقرطبة. لكن هل كانت القصبات باعتبارها النواة الأساسية في المدن، تأوي أيضاً الجند الذي يعتمد عليه على المستوى الإقليمي؟ لاشك أنها تأوي القواد بالدرجة الأولى، وقد لا تكفي لإسكان أو إيواء مجموع الجند المتواجد بالمدينة. ومن ثمة لا نستبعد أن يتخذ الجند سكناه في أحياء أو أرباض خاصة به في المدينة وبجانب السكان داخل الأسوار. ومما يؤيد ذلك ما ذهب إليه ابن حيان⁽⁶⁾ حين أوضح أن الحاجب بدر لما أخضع إشبيلية سنة (301هـ/913م)، «كتب أماناً للجند الخارجين من مدينة إشبيلية من الفرسان على الدخول إلى منازلهم منها، وأمر بترك أبوابها مفتوحة».

(1) - نفسه: ج 3، ص. 64؛ الإدريسي: نزهة المشتاق ، ص. 580؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ص. 111.

(2) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 84.

(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 85.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 79.

(5) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 59.

(6) - ابن حيان: نفسه، ص. 79.

إن تواجد الجند في القصبات أو داخل الأسوار بجوار السكان قد يفيد حمايتهم ومراقبتهم في الآن نفسه. انظر بعض التفاصيل في:

JEHEL(G) ; RACINET (Ph): La ville médiévale de l'occident chrétien à l'orient musulman, V-XV^e siècle, Paris, A. Colin, 1996, p. 45, 46.

واجهة لقصر طليطلة



اخذت الصورة في اكتوبر 1997

ب - المواقع

تجدر الإشارة إلى أن المدن في شبه جزيرة إيبيريا سواء القديمة منها أو المحدثّة كان يراعى في تأسيسها مجموعة من الشروط يمكن تلخيصها في الأمن (المواقع) ووجود الماء وما يرتبط بذلك من المعطيات الاقتصادية والبشرية. وإذا كان الرومان والفوط قد اتبعوا هذه الشروط، فإن المسلمين بدورهم لم يحدوا عن القاعدة في إنشاء المدن وتوسيع الشبكة الحضرية في الأندلس منذ القرن الثاني الهجري⁽¹⁾ (الثامن الميلادي). إن أغلب المدن القديمة أو المحدثّة أنشئ على الأنهار أو بالقرب منها. فبطليوس مثلاً تقع على "النهر الأعظم المسمى بوادي يانه"⁽²⁾. و"سرقسطة وطرطوشة على نهر إبره"⁽³⁾. وتقع تطيلة في الضفة اليمنى لنهر إبره في منتصف الطريق بين سرقسطة وبنبلونة. وقد أنشئت لحماية الأراضي الخصبة في وادي إبره، من الهجمات المسيحية⁽⁴⁾. وتطل مدينة لاردة على نهر شقر⁽⁵⁾، وقلمرية على نهر منديكو بالبرتغال⁽⁶⁾. ويعسر سور مدينة طليطلة بسبب الوادي المتصل به⁽⁷⁾.

وتقع مدينة استجة على نهر شنيل المنحدر من جبال الثلج⁽⁸⁾. أما قلعة رباح فمدينة كبيرة على واد كبير⁽⁹⁾، ومريد وطليلة بالقرب من نهر التاج⁽¹⁰⁾. وإشبيلية وقرطبة بالقرب من الوادي الكبير⁽¹¹⁾. إن هذه الأمثلة كافية لتبيان الدور الحيوي الذي تلعبه الأنهار في الحياة اليومية للحواضر الأندلسية. إنها تتزود بالمياه وتقيم عليها الأرحى إلى غير ذلك من الأنشطة الضرورية لساكنتها. وفي مقابل ذلك تقوم الأجزاء المحصنة في المدينة

(1) - TORRES BALBÁS (L); *Ciudades Hispano Musulmanas...*, op. cit, p. 455

(2) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 89.

(3) - الرازي: وصف الأندلس، ص 42؛ الرشاطي، وابن الخياط: الأندلس في اقتباس الأنوار، ص. 80.

(4) - TORRES BALBÁS (L); op. cit, p. 788

أوضح أن مساحة المدينة داخل الأسوار (muramuros) وقت احتلالها من قبل الفونسو الأول عام 1119 م، بلغت

23 هكتاراً. نفسه، ص. 788.

(5) - الرازي: نفسه، ص. 74.

(6) - نفسه: ص. 89.

(7) - ابن القطان: نظم الجمان، ص. 69.

(8) - الرازي: نفسه، ص. 99.

(9) - ابن حوقل: معادن الأندلس، ص. 111.

لك، ص. 36.

ص. 103.

خاصة القصبات بحماية الأراضي الخصبة الواقعة في محيطها، أو ما يُعرف بالمحار الحيوي للأنهار حيث الأنشطة الاقتصادية والبشرية قائمة⁽¹⁾. والحديث عن مواقع المدن على الأنهار يقتضي إقامة الجسور والقناطر للربط ما بين ضفافها. ولم تغفل المصادر الحديث عن أهمية القناطر وأدوارها خاصة في حصار المدن أو الدفاع عنها في حالة الحروب. وأحيانا كثيرة تعطى الأولوية لبناء القناطر قبل الأسوار. ويتجلى هذا الأمر فيما أورده صاحب أخبار مجموعة⁽²⁾ من أخبار السمرقند والي الأندلس الذي تردد في بناء سور قرطبة أو بناء القنطرة في جهتها الغربية وساور في ذلك الخليفة عمر قائلا: «إن أمرى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت... وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم، فيقال والله أعلم إن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور، وأن يُبنى السور باللّين إذ لا يجد له صخرا...». ولاشك أن الخلافة الأموية بقرطبة قد استفادت من إمكانيات متعددة وظففتها في تطوير وتوسيع شبكة المواصلات بين المدن الأساسية، وتبديت في الوقت ذاته الكثير من الجسور والقناطر استغللتها في المجال الأمني والعسكري.

لقد سبق القول إنه إلى جانب الأنهار أو الشبكة المائية يتم عادة اعتماد مواقع طوبوغرافية دفاعية هامة في تخطيط المدن. وذلك ما لاحظته الباحث المعماري الكبير L.TORRES BALBÁS⁽³⁾ حين اعتمد في الواقع، علي ابن أبي زرع⁽⁴⁾ الذي أشار إلى أن الحكماء قديما قالوا: «أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها». أما الباحثة Mazzoli-Guintard⁽⁵⁾ فصنفت المدن الأندلسية إلى خمسة أنواع.

(1) - TORRES BALBÁS (L); Ciudades..., op cit, p 788

LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op cit, T. 3, p 60

(2) - مجهول: أخبار مجموعة ..، ص.31.

(3) - TORRES BALBÁS (L); Ciudades..., op cit, p 781

(4) - ابن أبي زرع (الغسي) الأيبس المطرب يروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص.33.

(5) - MAZZOLI-GUINTARD (Ch), Les villes d'al-Andalus ..., op cit, p. 51, 52, 53,54

1- المدينة المرتفعة أو المعلقة (perchee): تقع في منحرج أو في نقطة التقاء نهرين. وعادة ما تكون من حجم صغير مثل رنده. يمتاز هذا النوع من المدن بصغر نطاقاتها المحصنة إذ لا تتعدى في الغالب نصف هكتار.

2- المدينة التقليدية المحصنة في جزئها الأعلى. عادة ما تكون نواتها أو البنية الأساسية فيها على الساحل. كما هو الشأن في ألمرية ومالقة، ودابية والقنت وغيرها. أو على ضفة نهر كما في بطليوس وغيرها. وقد يكون موقعها بعيداً نسبياً عن المجرى النهرى أو عن الساحل، كشاطبة وجيان. وفي هذه الحالة تتمتع المدينة بموقع مرتفع نسبياً كان تكون على هضبة أو تل، كمالقة أو جيان أو غيرها. ولذلك تؤسس قلاعها على صخرة تميزها عن السكن المجاور لها، الشيء الذي ينجم عنه عدم التناسق ما بين العمران في داخل مجال المدينة والحزام أو النطاق المحصن منها، مما يجعل قلعة المدينة الدفاعية منزوية.

3 - مدينة الهضبة: عادة ما يُختار موقعها في نقطة التقاء نهرين أو مجريين مائيين صغيرين، كما هو الحال في مدينة قبرة أو وشقة أو مدريد.

4 - مدينة السهل المحاطة بحزام من المياه: يلعب عامل الهدروغرافيا، وليس الطبوغرافيا دوراً حاسماً في هذا النموذج من المدن من حيث أمنها وتطور شبكتها العمرانية مثال مرسية وطريفة وغيرهما. ويخضع التطور الحضري أو العمراني في هذا الصنف من المدن لضوابط منها:

أ - الدفاع ضد الهجومات المحتملة والحذر من المياه ابان الفيضانات.

ب - مراقبة نقط العبور. فالحصن قبالة البحر في طريفة، والقلعة في طليطيرة تحرس نهر التاج.

5 - المدينة القنطرة: عادة ما تُكوّن خطاً مستقيماً مع النهر كسرقسطة الواقعة على

نهر إيره.

وتقدم مدينة طليطلة نموذجاً خاصاً⁽¹⁾ من المدن الكبيرة التي تقع على مرتفع في منحدرات نهر التاج، وقلعتها الهامة (انظر الصورة)، تحرس مدخل المدينة والفنطرة في الآن نفسه.

ويبدو من خلال التحليل السابق أن الباحثة Mazzoli-Guintard، قد وضعت تصديقاً مفيداً، يساعد على تكوين صورة عامة عن المواقع الحضرية في الخريطة الأندلسية. لكن في الوقت الذي حاولت فيه تجاوز آراء L. TORRES BALBÁS، القائمة على الرواية المعمارية المحضة⁽²⁾. تبنت وصف الإدريسي (القرن السادس الهجري) للمدينة الأندلسية، وهو وصف يعكس تطورات وتحولات كبرى في الحواضر الأندلسية خلال عصر الموحدين، مما يصعب معه رصد التحولات أو التطورات التي لحقت ازدهار المدن خلال الفترات السابقة، أي الخلافة والطوائف. وللدلالة على ذلك نلاحظ أن مدينة ألمرية على الساحل، والتي صنفها الباحثة ضمن المدن التقليدية قد احتلت الصدارة في الأنشطة الاقتصادية والعسكرية طيلة القرن الرابع الهجري (X م). فهي ميناء تجاري ضخم ساهم إلى حد بعيد في الأنشطة التجارية الداخلية والخارجية. كما لعب دوراً أساسياً في صناعة الأساطيل الحربية التي واجهت بها الخلافة المسيحية والفاطميون. قال فيها العذري⁽³⁾: «وإدار صناعيتها القديمة.. قد قسمت على قسمين، فالقسم الواحد فيه المراكب الحربية والآلة والعدة، والقسم الثاني فيه القسارية... قد أمن فيها التجار بأموالهم...». أما مدينة طريفة فقد رُمّم حصنها خلال الخلافة⁽⁴⁾ لمراقبة المضيق من جهة ولاستقبال الجند القادم من شمال إفريقيا إلى جهة الثغور من جهة أخرى.

يتضح من المثالين السابقين أن المدن في الأندلس اختلفت أهميتها وأدوارها حسب المراحل التاريخية. وقد تلعب، كذلك، في فترة معينة وظائف مزدوجة وهامة.

(1) - MAZZOLI-GUINTARD (Ch), Les villes..., op. cit, p 54

(2) - يتفق مع الباحثة حين لاحظت أن Torres Balbas، قدم أشكالاً معمارية هامة لكن عابت فيها الحياة الاجتماعية القائمة على الحركة والتطور.

MAZZOLI-GUINTARD (Ch) : Les villes... op. cit, p.13.

(3) - العذري: ترصيع الأخبار ..، ص. 86.
انظر دور ألمرية في صناعة الأساطيل الحربية خلال الخلافة في باب الأسطول الحربي.

(4) - انظر فصل الحصون.

ج - الأسوار والخنادق والأبواب

تعتبر الأسوار والخنادق والأبواب من الخصائص العسكرية البارزة في مدينة العصر الوسيط عموماً. إن طغيان هذه الجوانب الدفاعية في المدينة دفع البعض⁽¹⁾ إلى نعتها كأنها في حالة دائمة من المواجهة وهي مستعدة على الدوام للدفاع. سبق القول إن المدن الأندلسية خضعت لتطورات كثيرة منذ نشأتها، مما يصعب معه تتبع مراحل التأسيس وبناء الأسوار لأن هذه الأخيرة كثيراً ما أصابها التلف والهدم لأسباب طبيعية أو بشرية. فهي تتعرض للهدم والتخريب المقصودين إبان الحملات والحصار. وتلك ظاهرة كشفت المعلومات المصدرة عن تفاصيلها سواء مع قدوم المسلمين إلى شبه جزيرة إيبيريا أو خلال مطلع القرن الرابع الهجري مع حروب عبد الرحمن الناصر ضد معارضيه، أو خلال الحملات العسكرية والهجمات المسيحية كحملات النورمان، وما صاحبها من إتلاف معالم المدن والآثار فيها. وعادة ما تعرضت الأسوار كذلك للتلف بفعل عوائد الطبيعة. فكثيرة هي الإشارات الواردة في ثنايا المصادر تكشف عن هول الهدم والدمار الذي يصيب الأسوار من جراء فيضانات الأمطار والأنهار. يقول النويري⁽²⁾ في أخبار سنة (212هـ/827م): «فيها كانت سيول عظيمة وأمطار متتابعة فخرّبت أكثر أسوار مدن الأندلس. وفي سنة (401هـ/1010م) «كان بنهر قرطبة سيل عظيم هدم في أرباض قرطبة نحو ألفي دار... والمساجد والقناطر، وهدم أكثر السور وردم كثير من الخندق...»⁽³⁾.

وتنّضح الأهمية القصوى للأسوار في الحياة العسكرية للمدينة الأندلسية في وقت الحروب، والهجمات الخارجية كالنورمانية مثلاً، أو إبان الصراعات المحلية على السلطة. ولذلك تعتمد السلطة السياسية القائمة إلى بنائها أو ترميمها، قبل الانصراف إلى الاهتمام بالمؤسسات الدينية نفسها. وقد نأكد ذلك من خلال ابن حيان⁽⁴⁾ لما تحدث عن أسوار

(1) - HEERS (J), La ville au Moyen Age en occident paysages, pouvoirs et conflits, Paris, 1990, p 328 .

قال: « Chaque cité se montrait dressée ».

(2) - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، قسم المغرب...، ص. 95.

(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 105.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 244.

نفسه التي واجهت باستمرار الأخطار النورمانية من جهة البحر، بالقول أن عبد الرحمن بن حبيب رسل الأمير عبد الرحمن بن الحكم اثر محبة اهل اسبيلية. «»، في ذلك السور روع الأمير عبد الرحمن في بناء ريادة بالجامع بقرطبة... وذكر أنه في حربه أن سار سور مدينة اسبيلية وتحصينها وأكد عليه من سبيل الريادة في المسجد الجامع، فعلى سبيله في سار سور اسبيلية «». لقد اتجهت الجهود في أول الأمر إلى بناء الأسوار في أماكن لمعرضة أكثر للهجمات الخارجية سواء في الثغور أو على امتداد السواحل الاطلسية والمتوسطية. وكان ذلك منذ عصر الإمارة الذي تزامن مع تقايم الحظر النورماني على شبه جزيرة ايبيريا. ونشط الترميم في الأسوار أيضا خلال الصراعات الطائفية ضده فخر الخامس للهجرة حتى قال صاحب الفتح⁽¹⁾: وأكثر مدن الأندلس مسورة من أهل الاستعداد لعدو ذلك الثريين والتشييد. لاشك أن المسلمين وحدوا في المدن التي أحصعوها أسوارا قائمة من تأسيس الأوائل حسب المصادر، ووجدوا صعوبات كثيرة في هدمها؛ تذكر من حذور⁽²⁾ أن عساكر الإمام عبد الرحمن ذهبت إلى حليفة عام 231 هـ «فدحوها وحاصروا مدينة ليون ورموا سورها، فلم يقدروا عليه لأن عرضه سعة عشر ذراعاً فتموا فيه ثمة ورجعوا...». ويضيف صاحب ذكر بلاد الأندلس⁽³⁾ أن برطانية كانت مدينة محصنة بثلاثة أسوار.

1 - أسوار سرقسطة

ومرر ذلك كانت أسوار سرقسطة حصينة للغاية. لقد دخلها الخليفة عبد الرحمن ناصر سنة (326هـ/938 م) وعابن مناعتها «فراى من حصانة سورها، وإقبال سيئه، وبعد عنه، ما علم أنه الساعث لخلاف أهلها في الأوقات والمقوي لنفوسهم على المعصية فمر بدمه وإصااق نواسقه بقواعده، فشرعت الأيدي في ذلك»⁽⁴⁾. ويندو أن الذين عابو سرقسطة من المؤرخين والحقرافيين قد لاحظوا أن سورها من حجر الرحام لا يبرص

(1) - المقرئ: الفتح ، ج 1، ص. 205.

(2) - ابن خلدون: كتاب العبر ، مصدر سابق، ق 2، م 4، ص. 282.

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس ، ص. 73.

(4) - ابن حبان: المتكس ، ج 5، ص. 419، المقرئ: ترصيع الأخبار ، ص. 45.

نفسه⁽¹⁾، و ترجمه لمعتوه⁽²⁾، و حنة لرمصاص⁽³⁾، أو من الكدان الألبس نسجه⁽⁴⁾، و ترجمه⁽⁵⁾، فتر و سنا لمره فلوينه. يقول الزهري⁽⁶⁾ الذي شاهد أسوار شمشة «سنة سرقسطة من نفس أسوار المنحل ذكرنا في أنى، ارتفاعه في خارجها أربعون ذراعاً، و قمر و كنز، و من - حطب معسل مع الأرفه والنوارع، و أبعاد ما يكون من حطب من حشمة بارعة، و سره كنها بارزه على أسوارها». و لاحظ الإدريسي⁽⁷⁾ أن سرقسطة سور منى من أحدره حصين. و يظهر أن بناء الأسوار بالحجارة الصلبة في سور شمشة شعريه أو القريه من النور كان أمراً شائعاً، و أكثر من ذلك نقلت لمعتوه إشارات متعددة عن تعدد الأسوار في المدينة الواحدة.

2 - سور وشقة وبريشتر

في إطار وصف مدينة وشقة أشار العذري⁽⁸⁾ إلى «السور الثاني»، كما ذكر ال إمام محمد كتب إلى عمرو بن و الي وشقة يأمره ببيان «سور المدينة في إحدى و من و منين، فاستأ في بنيته...»⁽⁹⁾. و لما أساء الوالي عمرو بن السيرة إلى أهل وشقة فرأى في سنة (300هـ / 918 م) إلى بريشتر و ابتنى بها «سوراً بالصحر، و شاد أبرجتها...»⁽¹⁰⁾. و ستر إلى أن أحد الدارسين⁽¹¹⁾ أخرى بحثاً ميدانياً هاما في وشقة أبرز من خلاله أهمية قصية لمدينة و أبراجها و تصور السكان داخل الأسوار و خارجها، كما بين بالأرقام أهمية سور لمدينة و التي بلغت 1800 متراً على مساحة 22 هكتاراً، و ساكنة وصل عددها 7000 نسمة خلال قرن نحس لبحري (XI م)، مقابل 17000 نسمة في سرقسطة في الفترة نفسها.

(1) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 319.

(2) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص. 150، الرشاطي وابن الخراط: الأندلس في اقتناص النور...، ص. 150.

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 70.

(4) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 81.

(5) - الإدريسي: رحلة نعتوه...، ص. 555. أصناف من لمدينة طركونة سور من الرجم وسية و راج ميعه...، ص. 555.

(6) - العذري: ترميع الأخبار...، ص. 55.

(7) - نفسه: ص. 63.

(8) - نفسه: ص. 67.

(9) - SENAC (Ph) - La Muralla islamica de Huesca, dans: Arqueología medieval española. II congreso Madrid, 1987, p. 590, 601.

3. سور سمورة

وكان بمدينة سمورة قاعده الحلالفة سبعة أسوار من أعحب النيان احكمه المنوك اساقفة، وبنى الأسوار فصلا، وحدائق ومياه واسعة⁽¹⁾. وطول سور سمورد الحوفي ألف وخمسة دراع والفني ألف وثلاثمائة دراع، والشرقي سعمائة دراع⁽²⁾.

4. أسوار طرطوشة وطلبطة ووادي الحجارة وقلعة رباح

وتكشف المصادر عن مدعة اسوار من الثعور. فقد تمّ إبن أسوار طرطوشة⁽³⁾، وامتعت كل حيات طلبطة «بوتاقه اسوارها، واكتساف وادنها لفصينها ووعوره مستكيا»⁽⁴⁾. ومدينة وادي الحجرة كبيرة وتعر مشهور الحال، مسور بحجارة، وبها سكر ولاة الثعور كاحت بن يعنى وعال وعليها أكثر جهاد حليقية». أما مدينة قلعة رباح التي كت حالية إلى حدود عصر الإمارة «فاحتلها الحكم»⁽⁵⁾ وأمر ببنيان سورها واسترحاع من فر من أهلها إليها»⁽⁶⁾. وقد أصبحت خلال عصر الخلافة «مدينة كبيرة ذات سور من حجرة»⁽⁷⁾ سيطرة اس حوقل الذي رار الأندلس خلال منتصف القرن الرابع الهجري.

5. أسوار يابرة

اهتم السلطة حصين من الكور الغربية وبناء أسوارها ترقباً للهجمات المسيحية. وقد تحدث الرازي⁽⁸⁾ بنوع من التفصيل عن هدم أسوار يابرة عام (301 هـ/913م). من فر رعيم الحلالفة أريون س أدفونش. ويمكن أن تكون الأسوار أداة هامة للدفاع عن ناحية، ولكي قد لعب دوراً سلبياً وتساعد على انهزام المدينة واستسلامها. فهذا ما عسر

(1) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 324؛ المقرئ: النفج...، ج 1، ص. 356.

(2) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 188.

(3) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأندلس...، ص. 285.

(4) - ابن حيان: المتقن...، ج 5، ص. 319.

(5) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 111.

(6) - ابن عذري: ...، ج 2، ص. 94؛ ذكر صاحب "ذكر بلاد الأندلس"، أن محمد بن عبد الرحمن بن موسى

بنى السور والقصبة على مدينة رباح؛ مجهول: نفسه، ص. 147.

(7) - ابن حوقل: نفسه، ص. 111.

(8) - ابن حيان: المتقن...، ج 5، ص. 94، 95.

عنه ابن حيان⁽¹⁾ بالدرج ان اردور لما تقدم إلى يابرة «استدار بسورها وتامله، فراه منظماً لا سارة له ولا شرفات بأعلاه، وبحية من حارحه كوم مرتفع من ربول أهل المدينة، قد اعتادوا إلقاءها عند أصله من داخلها... فاستبان له العورة فيها وأطمعته في فتحها... فأحاط بها من جهاتها وجد في منارلة أهلها.. ولصق العدو إلى أعلاه (السور). على تلك الأكوام الزبولية، وهدموا ثلثة منه كانت حديثة البنيان، فما شعر أهل المدينة إلا وهم قد دخلوا عليهم.. ثم كاثروهم العدو حتى قهرهم والجاهم إلى موضع بشرقي المدينة قرب من سورها تصايقوا فيه فقتلوا أجمعين». ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ان عبد الله بن محمد صاحب بطليوس خاف من استقرار البربر بياطرة ومناوشتهم له، فخرج إليها «وهدم أبراجها وحط بقية أسوارها حتى ألصقها بالأرض»⁽²⁾. لكن أعاد بناءها لصاحبه مسعود بن سعدون السرنباقي عام (302هـ/914م)⁽³⁾. إن ما تعرضت له مدينة يابرة من هدم وتحريب كان الحافز والسبب المباشر في اندفاع أهل الغرب بالأندلس، وتسابقهم في تحصير المدن وبناء أسوارها. لقد «احتدوا في إصلاح أسوارهم وحفظ عورتهم، وشد معقلهم...»⁽⁴⁾.

6 - سور بطليوس

ثبت ما قام به أهل مدينة بطليوس، إذ كان سور مدينتهم إلى ذلك الوقت (301م/913م) مبنياً يثرب الطابية المرزوم بالمداوس وبالطوب المشمس»⁽⁵⁾. وقد رُمم لاحقاً بالحجر الطوابي⁽⁶⁾. طلب سكان المدينة من الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف أن يساعدهم في البنيان «فشد عزائمهم في ذلك وتولى النظر في ذلك بنفسه مع منيحتهم وجميع العملة على بنيان السور وتقوية منته، فصيرهُ في عرض عشرة أشبار لوحاً واحداً، واتصل العمل فيه حتى كمل في أسرع مدة»⁽⁷⁾.

(1) - نفسه: ص. 94، 95

(2) - نفسه: ص. 96

(3) - نفسه: ص. 96

(4) - نفسه: ص. 96

(5) - نفسه: ص. 96

(6) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 93.

(7) - ابن حيان: نفسه، ص. 96

7 - سور مارده

يبدو أن سور مارده — إلى الشمال الغربي من قرطبة لم يبق بدوره من عتبات الهند و تخریب ثم محاولة إعادة ترميمه أو بنائه منذ وقت مبكر . وقد لاحظ البكري⁽¹⁾ أن المنصة كل: «يرليها الملوك الأوائل...أحرق بها سور عرصه اثنا عشر دراعا، وارتفاعه بمنه عشر دراعا، وعلى بابها كنانة ترحمتها: براءة لأهل إيلياء من عمل في سورها حصه عشر دراعا». وأشار ابن الكردبوس⁽²⁾ وعيره⁽³⁾ إلى المعنى نفسه بالقول «وحد في مكان من سورها (مارده) لوح رحام شديد الصفاء كثير الماء فيه، مكتوب بالأعجمي براءة لأهل إيلياء من عمل حصه عشر دراعا في السور». ويلاحظ أن الهجومات المتكررة التي تعرضت لها منية مارده أنت إلى إحداث تغييرات كثيرة في أسوارها وفي مواد بنائها منذ عهد الأمازيغ⁽⁴⁾. ولما أن الترميمات الأساسية أدت بالحجارة الصلبة عهد المرابطين أو بداية الموحدين على حد تعبير الإبريسي⁽⁵⁾ الذي أوضح أن سور مارده من حجارة «منحورة من أحسن صنعة ولوثق بناء».

8 - سور لبلة

على عرار مارده تميزت مدينة لبلة بسور عحبيب ومنفرد باعتبارها تصمم آثار الأول و فرد سورها بكونه مبنيا على تماثيل أصنام. وقد لاحظ محمد عبد الله عنان⁽⁶⁾ أن لبلة هي المدينة الوحيدة بين مدن الأندلس المسلمة التي ما تزال تحتفظ بأسوارها حتى اليوم، وهي كاملة من كل جهة إلا من جهة الشرق. ويذكر القزويني⁽⁷⁾ أن سور المدينة «قد عُدَّ -وه على تصوير أربعة أصنام». وقد اكتفى الإبريسي⁽⁸⁾ بالإشارة إلى أن لبلة مدينة «حسة

- (1) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 119.
- (2) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 147.
- (3) - الرشطي وابن الخراط: الأندلس في اقتباس الأنوار...، ص. 55.
- (4) - ابن خلدون: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 278.
- (5) - الإبريسي: نزهة المشتاق...، ص. 545.
- (6) - عنان (محمد عبد الله) - دول الموحدين منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، مكتبة الخديجي، الطبعة الثالثة، 1988، ص. 42.
- (7) - القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد...، ص. 555.
- (8) - الإبريسي: نفسه، ص. 541.

أرسله فيها سور منع». وفصل الحميري⁽¹⁾ قللاً في ذلك منسباً أن «سور الله قد عرف على أربعة تماثل صمد، تسميه العامة دريت، وعليه صمد آخر، وصمد تسميه العامة مكح، وعليه صمد آخر، فبحيث إلى الناظر أن ذلك التباين موضوع في اعتناهم».

9 - سور إشبيلية

ومن المدن الأساسية التي تقدم نموذجاً هاماً لتتبع ورصد التطورات والتحولات التي طرأت على بناء الأسوار منذ العهد الروماني: إشبيلية، التي تميزت بموقع ستراتيغي هام على الوادي الكبير، وتتطور واسع في الشبكة العمرانية والتحصينية منذ عصر الخلافة على الأندلس. وقبل الحديث عن الاختلافات ما بين الدارسين حول مدى مساهمة العناصر والرموز والمواحد في بناء أسوار المدينة، يلزم، فيما يرى، رصد المعطيات المعمارية التي توضح لتلك الأسوار منذ ما قبل الخلافة لمحاولة تبيان مختلف التطورات التي طرأت على أسوارها قبل القرن الخامس الهجري. لقد تمّ الالتفات إلى تحصين المدينة وتوسيعها منذ المراحل الإسلامية الأولى خاصة عصر الإمارة لما كانت مستهدفة من قبل الهجمات النورمانية المتكررة خلال العام (230 هـ/845 م). يقول ابن القوطية⁽²⁾ «بنى عند الرحمن (الأمير) الحامع بإشبيلية، وبنى سور المدينة بسبب تغلب المجوس عليها عند دخولهم سنة ثلاثين ومائتين». ونقذ البناء في السور عند الله بن سنان رجل من نمونى الشاميين واسمه على أبوابها⁽³⁾. وفي السياق نفسه ذكر ابن حيان⁽⁴⁾ بناء الأمير عند الرحمن لسور إشبيلية بسبب تطروق المجوس لها من ناحية البحر الرومي سنة (230 هـ/845 م). وأفاد البكري⁽⁵⁾ بتفاصيل تكشف عن أهم مراحل بناء أسوار إشبيلية وكذا مواد البناء المعتمدة. ويبرهن أن المدينة من بناء الأوائل أي من تشييد القيصر بليزوس الذي أحرق عليها أسوار صخر صلد وبنى في وسط المدينة قصبتين⁽⁶⁾. واتفق البكري مع

(1) الحميري: الروي للمعبر، ص 507.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص 78.

(3) نفسه: ص 81.

(4) ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص 244.

(5) البكري: حصر قسطنطين...، ص 107، 108. الحميري: الروي للمعبر، ص 58.

(6) البكري: نفسه، ص 112.

ابن القوطية ؛ بن حيان. حين أوصح ابن الأَمر عبد الرحمن بنى سور المدينة بالحجر^(١).
لمواجهة خطر المحوس. ولما اقتُحبت أسبيلية من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر عد
(301 هـ / 913 م). وحته إليها عامله سعيد بن المنذر المعروف بابن السلم و «هزم سور هـ
ونحو أعاليه بأسافله، وبنى القصر القديم المعروف بدار الأَماره، وحصنه بسور صحر
رفيع وأَراح مبيعة»^(٢). وإبان الفتنة، أحر الخليفة، «بنى سور المدينة بالتراب وله من
الأَوتاب باب أبي الفليص عري، ومنه الخروج إلى الشرف، وباب حمدة عري بصلبا
بأراء المقررة، وباب قرمونة شرفي...»^(٣). وأشار العدري^(٤) إلى الظروف التي بُني فيها
سور إسبيلية بالتراب من قِبل الموالى على عهد الإمام عبد الله. لقد انفص في صدر اسمه
بكرة المدينة محمد بن خطاب، إذ لما «ولى إسبيلية الولد محمد بن الإمام عبد الله ظهرت
من بعض العرب أحوال أوجبت إخراجهم عن المدينة إلى بواديهم، وانفرد بمدينة إسبيلية
لموالى وبنوا سورها»^(٥). وتحدث ابن حيان^(٦) عن أهمية أسوار إسبيلية من خلال حوار
حرى ما بين الحاحب بدر الدين انتدبه الخليفة الناصر للنظر في مصالح أهل المدينة،
وعامليا سعيد بن المنذر القرشي ولقد أيد الأول الإنقاء على أسوار إسبيلية في حين
عرض الثاني على ذلك وأمر بهدمها. وقد احتكما إلى وُجهاء المدينة الذين اختلفوا
سورها في الأمر وقال «فريق منهم هي مدينة ساحلية لا يؤمن عليها من قبل البحر.
وبغاء سورها أحرز مع أنه من ببيان عبد الرحمن بن الحكم، فلج سعيد بن المنذر في
هيمه... وأن ذلك حوط على سلطان وأحمد لطمع من يبغى الفتنة... وجمعت الأيدي
على هدم أسوارها فسويت بالأرض»^(٧).

لم ينف الأمر عن هذه التحولات التي طالت سور إسبيلية إلى آخر الخلافة، بل
حصعت تحصينات المدينة وأسوارها إلى بناء وترميم وتوسيع خلال فترات الطوائف

١١١- نفسه: ص ١١٢

١١٢- نفسه: ص ١١٤

١١٣- نفسه: ص ١١٤

١١٤- العدري: الموضع: ص ١١٢

١١٥- نفسه: ص ١١٢

١١٦- ابن حيان: ص ٨٠، ج ٢، ص ٨٠

١١٧- بن عدري: ص ٢، ص ١٦٣، ١٦٤: الحميري: الروض المعطار...، ص ٥٩.

والمرابطين والموحدين. وذلك بشكل مواز لتطورات هامة حدثت في شبكتها العمرانية وبنياتها السكنية في تلك الفترات.

اختلف الدارسون المعاصرون حول تحديد الفترات التاريخية الأساسية في بناء أسوار إشبيلية. وساد اعتقاد واسع إلى وقت قريب، معزز ببعض الأبحاث الأركيولوجية في المدينة⁽¹⁾، يقول بغلبة الأسوار الموحدية. لكن ثم تجاوز هذا الرأي بالقول إن أغلـب أسوار المدينة بُنيت إبان المرابطين⁽²⁾. وقد دافع عبد العزيز سالم⁽³⁾ بحماس عن هذا الاتجاه مشيراً إلى أن جل أسوار إشبيلية مرابطية وليست موحدية، لأن الموحدين اقتصروا على ترميم ما أنشأه المرابطون⁽⁴⁾. وانطلاقاً من ذلك يمكن التمييز ما بين ثلاثة أسوار إسلامية. فالسور الأول بُني بواسطة الأحجار التي استعملت في الأسوار الرومانية القديمة والتي اختفت معالمها. ولما تهدم هذا السور إبان عصر الخلافة أعيد بناؤه زمن الفتنة بالتراب وهو السور الثاني. وتجدر الملاحظة أن الطابية كانت آنذاك سهلة وسريعة الصنع. أما بنو عباد فقد استغلوا بدورهم أحجار الأسوار الرومانية في بناء قصورهم، أو في بناء أسوارها على الأقل. ولم يحد الموحدون عن هذا النهج لأنهم استخدموا أحجار قصور بني عباد بدليل أنها لا تزال قائمة في أسس صومعة إشبيلية وعليها كتابات رومانية. أما السور الثالث فهو مرابطي كما سلف الذكر. لقد اضطر المرابطون إلى بنائه نظراً للتطور العمراني الذي عرفته المدن الأندلسية في عهدهم⁽⁵⁾، بحيث دفع الاكتظاظ إلى الخروج عن الأسوار القديمة. كما أدى الخوف من الهجمات المسيحية إلى بناء أسوار أخرى. لاشك أن الاكتظاظ أو الازدهار العمراني في المدن الأندلسية الذي تحدث عنه عبد العزيز سالم قد بدأ في بعضها على الأقل قبل مجيء المرابطين، وخاصة في إشبيلية التي توسعت بنيانها

(1) - VALOR MAGDALENA (P) La Arquitectura militar y Palatina en la Sevilla musulmana, Sevilla, 1991

(2) - سالم (عبد العزيز). أضواء على مشكلة تاريخ بناء أسوار إشبيلية. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 8، مدريد، 1974 - 1975، ص. 1 - 25.

MAQUEDA JIMENEZ (D), « Algunas precisiones cronologicas sobre las murallas de Sevilla » dans Fortificaciones en al-Andalus..., op cit, p.333, 339.

(3) - سالم عبد العزيز: نفسه، ص. 10 وما بعدها.

(4) - دافعت الباحثة Valor Magdalena عن أطروحة تميز الدور الموحي في تحصين إشبيلية وترميم أسوارها... نفسه، ص. 30، 32، 49، 57، 60.

(5) - سالم عبد العزيز: نفسه، ص. 20.

سكينة على عهد بني عباد⁽¹⁾، الذين لم يذخروا جهداً في تطوير وتوسيع أسوار المدينة⁽²⁾. وربما أمكن القول إن تهديدات المرابطين دفعت بالمعتمد بن عباد إلى الاهتمام بالأسوار⁽³⁾. لقد كتبت المصادر بالفعل عن اعتناء المعتمد بـ «بناء الأسوار وعمل القطره»⁽⁴⁾. وكثر من ذلك يلزم سكان إشبيلية في بعض الأحيان بأن يساهموا في تحصين أسوار مدينتهم، كما حدث أيام الفاصي أبي بكر بن العربي⁽⁵⁾ قاضي إشبيلية لما كان سور المدينة في حاجة إلى تحصين إحدى جهاته ففرض على الناس جلود أضحياتهم، «فأحضروها كارهين»⁽⁶⁾.

ويتضح من المعلومات السالفة الذكر أنه من الصعوبة الحسم في تاريخ الأسوار الإشبيلية. لكن نبيّن من الإشارات المصدرية المتنوعة التي أمكن جمعها أن أسوار وحصين المدينة خضعت لتطورات ولتحولات متعددة منذ عصر الإمارة. وذلك ارتباطاً بأوضاعها العمرانية والدفاعية، وبالتهديدات الخارجية التي كانت تستهدفها نظراً لموقعها الهام.

10. أسوار وخنادق قرطبة

خضعت قرطبة بدورها كمدينة وكعاصمة سياسية لفترة طويلة للتحصين وبناء الأسوار والخنادق منذ وقت مبكر. فقد ذكر ابن خلدون⁽⁷⁾ أن الأمير عبد الرحمن شرع في بناء الأسوار الإسلامية بها عام (173هـ/789م). في حين أشار صاحب ذكر بلاد الأندلس⁽⁸⁾ إلى أن الأمير الحكم أقدم سنة (179هـ/795م) على بناء سور قرطبة وحفر حديقته. ثم تقف المصادر عند أصول الأسوار، بل اتجهت إلى الحديث أكثر عن أهميتها وخدمتها وضونها، وبلى أهمية الخنادق حولها. ولاشك أن لذلك علاقة بأحداث الفتنة التي

(1) - الطاهري: (أ): عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 40، 41، 42، 43.

(2) - TAHIRI (A), Problemas de una reconstrucción urbana . op cit, p 224, 225

(3) - نفسه: عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 41.

(4) - مجهول: الحقل الموشية...، ص. 72.

(5) - من قصائد أبي بكر بن العربي رآوا المشرق، توفي 543 هـ انظر بعض التفاصيل حول كراهته لعامة له لما فرض عليهم تحصين أسوار إشبيلية في:

المعري: النفع...، ج 1، ص. 27.

(6) - المعري: نفسه، ص. 27.

(7) - ابن خلدون: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 267.

(8) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 132.

عبث من فرضه في أواخر الخلافة. كما دلت المصادر على اتساع ما ذكره الرازي⁽¹⁾ الذي أوضح أن أسوار القصر الخلافي بالمدينة بلغ في الطول حوالي 33.000 ذراع⁽²⁾ وشر ابن حوقل⁽³⁾ الذي رار المدينة إلى أنها مسورة بالحجارة، ولها بوابان في سورها وهي مستديرة ذات سبعة أبواب حديد. «دبرت سورها عبر يوم في قدر ساعة»⁽⁴⁾. وعلى عرار الرازي ذكر ابن غالب⁽⁵⁾ أن «دور قرطبة كلها ثلاثة وثلاثون ألف ذراع، وعدد أبوابها سبعة، وعدد أبراجها سبعة، وعدد أبراجها المنتظمة بدور السور من جهة الأربعة، مائتان واثنان وسبعة أبراج، وعدد أبراجها عشرون ربضاً». ولاحظ مؤلف ذكر بلاد الأندلس⁽⁶⁾ من جهته أن تحصين المدينة خضع لعدة تطورات منذ أن فتح الإسلام إلى أن دمرها المسيحيون. ففي مرحلة أولى دامت إلى سنة (400 هـ / 1010 م)، عرفت قرطبة تطوراً في بنيتها العمرانية، وكان «تفسير مدينة قرطبة ومساحتها التي دار السور عليها دور الأبراص طولاً من القبلة إلى الجوف ألفاً وسبعمائة ذراع، وعرض من المشرق إلى المغرب ألفاً وأربعمائة ذراع...»⁽⁷⁾. وبالمثل لاحظ المقرئ⁽⁸⁾ أن سور قرطبة من حجارة وطوله أقل قليلاً مما ذكر، فهو من القبلة إلى الجوف ألف وستة ذراع. ويلاحظ من الإشارات المصدرية المتنوعة أن أسوار قرطبة تحددت وترممت مرات عديدة خلال عصري الخلافة والطوائف⁽⁹⁾. فلقد أنقن سور المدينة في خلافة الحكم وفي عهد أبي الوليد محمد بن جهور الذي بنى سور قرطبة وحصنها ومات سنة (462 هـ / 1070 م)⁽¹⁰⁾. وقد استجد بالمعتمد بن عباد الذي جاء المدينة وبنى سورها⁽¹¹⁾. كانت قلعة معروفة بالبربرية، مناسبة للحديث عن الخنادق التي حُفرت حول مدينة قرطبة. وتحرر الإشارة إلى أن الخنادق كأدوات دفاعية ليست خاصة بمدن الأندلس

(1) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 64.

(2) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 108.

(3) - نفسه: ص. 108.

(4) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 296.

(5) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 31، 32.

(6) - نفسه: ص. 32.

(7) - المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 458، 460.

(8) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 71.

(9) - مجهول: نفسه، ص. 216.

(10) - نفسه: ص. 216.

وحدثها. إنها تقنية عسكرية باحثة في الحصار والحروب في المدن منذ القدم، وقد اشتهرت في التاريخ الإسلامي منذ الفتوحات، إذ برع المسلمون في حفرها واحداث مسالك واستخدام الكمائن والحيل المتعددة فيها⁽¹⁾. يقول ابن غالب⁽²⁾ في حياض قرطبة: «وَيَدُورُ بِحَمِيعِ هَذِهِ الْأَرْبَاصِ، الْحِذْقُ الْمَشْهُورُ، لَمْ تَقْدِرْ عَلَى مِثْلِهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَهُوَ السَّحْطُ بِحَمِيعِ أَرْبَاصِ قَرْطَبَةَ وَمَسَاكِنِهَا وَدَرَعِ دَوْرِهِ مِنْ جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ ثَلَاثَةً وَعِشْرُونَ مِثْلًا...». ويبدو أن الحياض بقرطبة لم تكن أقل أهمية من الأسوار والتحصينات الأخرى، حتى أن كل خليفة أو حاكم كان يشرف على الاعتناء بها أو حفرها. فلقد حفر خندق أيام الحكم بن هشام⁽³⁾. ولم يتردد محمد بن عبد الجبار في حفر الحفائر حول قرطبة على أفواه الأرباص عام (400هـ/1010م)⁽⁴⁾. كما حفر خندقًا حول فحص السراق تحسبًا للبربر⁽⁵⁾. ولحماسة كل الأرباص التي لم تكن لها أسوار، تم اللجوء خلال الفتنة إلى حفر خنادق تدور جميعها⁽⁶⁾. وقد قدر ابن الخطيب⁽⁷⁾ المسافة التي دار عليها خندق قرطبة حين أشار إلى ذرع مسافة الخندق المضروب على قرطبة أيام قتال البرابرة من جهاتها الثلاث «أعني النهر الأعظم عن مد الحفير عليها من الجهة القبالية، سبعة وأربعين ألف ذراع وخمسمائة ذراع، يحب لها ستة عشر ميلًا غير سدس الميل»⁽⁸⁾.

11 - أسوار استجة وبلنسية

تشهد المصادر بحصانة ومنعة أسوار مدينتي استجة وبلنسية. يقول ابن حيان⁽⁹⁾ في حصار سنة (300هـ/913م) لما فتح الناصر مدينة استجة إن «سورها الأول معقود بين حنطين أحدهما من صخر أبيض والآخر من صخر أحمر لا يؤثر في شيء منه الحديد.

(1) - انظر بعض التفاصيل في طرق حفر الخنادق في الحروب والحيل المستعملة فيها في:

النصري: كتاب حيل في الحروب، مخطوط الحرة العامة، الرباط ميكرو فلم رقم 2216، 40 ذب 173 174

174 ب؛ ابن أبي حجة (يوسف): رعاية الرعية...، مخطوط سابق...، 64 ب.

(2) - ابن غالب: تعليق منتقى...، ص. 296.

(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 71.

(4) - نفسه: ص. 87.

(5) - نفسه: ص. 87.

(6) - المقرئ: النسخ...، ج 1، ص. 466.

(7) - ابن الخطيب: أعمال الأعمال...، ص. 103.

(8) - نفسه: ص. 103.

(9) - ابن حيان: المختار...، ج 5، ص. 56.

قد رُددَ بينهما إلى أعلاهما أو ثو ردم بأحكم صناعة، وخُعل أعلاه مواضع الشرف من حجرة منحوتة من الرخام الأبيض محيطة بالسور من جميع أعلاه فكان رائتها من عدد قائل السور من جميع جهاته لم يشك أن الرجال قيام عليه». ويبدو أن هذا السور قد هدمه الناصر لما احتل المدينة وأحكم سيطرته عليها. إنها أول مدينة دخلها الحاحب بدر بن أحمد والورير أحمد بن محمد بن حدير، وضُبطت وهُدم سورها»⁽¹⁾. وذكر العذري⁽²⁾ أن بلنسية «مدينة التراب»، قد «أُتقن سورها المنصور بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سي عامر، ولا يعلم ببلاد الأندلس أُنقن بناء من سورها ولا أجمل منه». ولها عدة أبواب، باب القنطرة، وباب الوراق إلى الشرق، وباب ابن صخر بالقبلة، وباب الحنش في الخوف. وباب بيطالة، ويليها باب القيسارية⁽³⁾. وقد بدأ مظفر ومبارك عهدهما ببناء «بلنسية وتحصينها وسد عورتها بسور أحاط بالمدينة تحت أبواب حصينة»⁽⁴⁾. وهو من الححر والطوابي⁽⁵⁾.

12 - أسوار ألمرية ومالقة

تعتبر ألمرية ومالقة من المراكز الهامة على البحر المتوسط، واشتهرتا خاصة ألمرية كقواعد مهمة للأسطول الخلافي⁽⁶⁾. وقد لعبت المدينتان دوراً هاماً كذلك خلال العصر الانطاقي ولذلك اهتمت السلطة السياسية المركزية أو الإقليمية بتحسينهما طيلة القرون الرابع والخامس للهجرة. وقد أشار العمري⁽⁷⁾ إلى أن مدينة ألمرية ثلاث مدن الأولى على المغرب. تعرف بالحوض الداخلي «لها سور محفوظ من العدو بالسُّمَار والحراس ولا عمارة بها»⁽⁸⁾. وإلى الشرق المدينة القديمة، ثم المدينة المعروفة بمصلى ألمرية⁽⁹⁾. لقد

(1) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 160.

(2) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 17، 18.

(3) - نفسه: ص 18 اقتصر الحميري على ذكر أربعة أبواب لمدينة بلنسية الروص المعطار ، ص. 97.

(4) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 3، م 1، ص. 16.

(5) - الحميري: نفسه، ص. 97.

(6) - انظر باب الأسطول.

(7) - العمري: مسالك الأمصار وصف إفريقيا والأندلس...، ص. 46.

(8) - نفسه: ص. 46.

(9) - نفسه: ص. 46.

فقد رهبر القى العامري (ت 129 هـ / 1038 م) على بناء السور في ساحل رخص
لمصنى⁽¹⁾. وبنى أخوه خيران العامري قبله (دخل المربة عام 105 هـ / 1014 م) «سور
ينبسط من حبل لينهم إلى النحر، وجعل له أربعة أبواب، باب في الحبل... وباب نحر مـه
إلى بحانة، وباب يُسمى باب المربي، وباب قرب صفة البحر يُعرف باب السودر. وهو
الآن يُعرف بباب الأسد»⁽²⁾.

أما قلعة المربة أو قصبتها فهي في الواقع «قصبتان في عاية الحس والمنعة»⁽³⁾. أو
هي «القصبة العظيمة التي ليس أمنع منها ولا أحصن»⁽⁴⁾. وكما حدث بالنسبة لبني
حـ المنصور بن عبد العزيز بن أبي عامر بمدينة المربة وولى ابنه أبا يحيى محمد بن
معن «وله في بناء القصبة آثار جميلة في منعها وسمو سورها، وإتقان بناء
قصورها»⁽⁵⁾. وذكر ابن الخطيب⁽⁶⁾ أن خيران العامري توجه إلى مدينة المربة
(سنة 405 هـ / 1014 م)، وكان بها أفلح الصقلبي، وتغلب على قصبتها «و حصن (ها) وحد
عورتها إلى أن صيرها في الحد الذي هي اليوم فيه. فلاة يرام التعلق بها». وهو ما عبر
عنه العامري⁽⁷⁾ قبله حين أكد أن قصبة المربة «في جبل منفرد عليه سور متقن لا يصعد
إلى قصبتها إلا بكفة». وفصل الحميري⁽⁸⁾ أكثر في بناء أسوار المربة لما أوضح أنها
محاطة بسور حصين منيع من بناء عبد الرحمن الناصر. ويحيط بربرض المصلى سور
تراب بنه خيران العامري⁽⁹⁾. وللمدينة باب شرقي خارج من أسوارها. و«عرض ممسى
السور الدائر بالقصبة خمسة أشبار»⁽¹⁰⁾ مكرر.

(1) - العامري: نفسه، ص. 83.

(2) - نفسه: ص. 83.

(3) - العامري: المصدر السابق، ص. 46.

(4) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 101.

(5) - العامري: نفسه، ص. 84.

(6) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 211.

(7) - العامري: نفسه، ص. 86.

(8) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 537.

(9) - نفسه: ص. 537.

(10) - نفسه: ص. 538.

(11) - كتب مجموعة من الأحداث المدائية التي احرقت بالمربة وسفقت عن حوت همه من الأسوار سببه
بالطابية أو استعمال مواد أخرى كالحجارة في القصبات انظر:

ACIÉN AL MANSÁ (M), La fortificación en al-Andalus ,op cit,p 20 - Sobre la función des Husun ,op cit,
p 267 ARRUÍZ (R), Las técnicas constructivas op cit, p 126, 127

والى الجنوب الغربي من المدينة مائة مئة التي تشير المصادر الى تحصين
سكن أهم حلال القرن الخامس الهجري. لقد تمت سورها الأول لصحري⁽¹⁾، ووسع له
حتى ان بعض ارباصها لا أسوار لها⁽²⁾. أما قصبتها المنيرة فظهرت همتها الدفاعية والعسكرية
في تصراعات التي كانت تنور بين عبد الله بن بلقين⁽³⁾ وصاحب مائة. ويذكر بن نقر من حده
«... قصبتها ببناء لم يفدر على مثله احد في زمانه، وأعدده عدة تمهت...» (و)
يحتصن فيها من استطاع»، حتى ان المعتمد بن عباد لما دخل مائة امتنع له الفصة⁽⁴⁾
وهي وسيلتها الدفاعية الأساسية.

د مواد البناء

إذا كانت الإشارات المصدرة المرتبطة ب مواد البناء في العمارة الحربية قليلة، فإن نجد
الأثرى، الأركيولوجي والطبوغرافي الذي أجري في العديد من المواقع عبر الأقاليم والمدن
الأندلسية، كشف عن طبيعة البناء وكذا المواد التي استعملت في المعمار العسكري خلال
عصري الخلافة والطوائف. فإلى جانب الكشف عن الأشكال الهندسية المتبعة في بناء وتصميم
الحصون والقصبات والأبراج والأسوار، تم ضبط أحجام الكثير من المواد وضرق صناعاتها
واستخدامها. لقد سادت مواد مثل الحجر والطابية والرخام والتراب، والكذان، والصنصن
والفخار وغيرها في البناء عامة، وفي العمارة العسكرية خاصة.

ونجد الإشارة إلى أن اتخاذ الحجارة والطابية لم يكن وليد عصر الخلافة، بل ساد
استعمال هذه المادة في التحصين والعمارة عبر شبه جزيرة إيبيريا منذ العصر الروماني
دائه، وإن تغيرت أحجام المواد المستعملة⁽⁵⁾. تؤكد المعلومات المصدرة أن الرومان
استخدموا الحجارة في العديد من المدن والمواقع التي أسسوها عبر شبه جزيرة الأندلس.
فيذا يوليس قيصر قد أحرق مدينة إشبيلية بسور من صخر صلد⁽⁶⁾. وبني سور مدينة

(1) - الحميري: نفسه، ص. 517.

(2) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 570.

(3) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 76.

(4) - نفسه: ص. 89.

(5) - AZUAR RUIZ (R), Las técnicas constructivas..., p 133

(6) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 107، 108.

استحّة الرخام الأبيض المنحوت⁽¹⁾، وأصيف له سور من صخر أحمر⁽²⁾، وكانت أسوار مدينة لاردة بالحجارة منذ مطلع القرن الثالث الهجري (٨م)⁽³⁾، كما نسب أسوار مدينة سرقسطة من الحجارة⁽⁴⁾، ومن الرخام المعقود بالرصااص⁽⁵⁾، أو من الخشب الأبيض الذي يشبه الرخام حسب صاحب ذكر بلاد الأندلس⁽⁶⁾، وعلى عرار لاردة إلى الأوائل سور مدينة قرمونة بالحجارة المرتفعة ثلاث وأربعون ذراعاً⁽⁷⁾.

إضافة إلى ذلك استخدمت مواد أخرى في البناء الحربي والمواقع الدفاعية كالحجارة المحتلطة بالرمل أو التراب أو الحجارة والحس (الحير) كما هو الحال في سور مدينة الحيرة الخضراء الذي بُني بالحجارة المفرغة بالجير⁽⁸⁾، ولأنك أن الخلافة الأموية بقرطبة قد عادت إلى استعمال الحجارة التي وُجدت بالحصون التي هُدمتها في مطلع القرن الرابع الهجري نسباً كانت بصدد إنزال المعارضين لها. وقد وظفتها في المواقع الدفاعية ذات الأهمية القصوى كالحصون والقصبات والأبراج والأسوار الواقعة في الثغور المواجهة للإفرنج، فمدينة برسير وأبراجها ابتناها أحد القواد المحليين عام (306 هـ/918 م)، بالصخر⁽⁹⁾ المنيع. ووصف في حاله ابن حوقل الذي زار مدينة قرطبة في منتصف القرن الرابع الهجري ما لاحظته بأسوار هذه المدينة قائلاً: «قرطبة مدينة ذات سور من حجارة... وُثرت بسورها غير يوم...»⁽¹⁰⁾. وأضاف أن الحجارة استعملت في أسوار مدينة قلعة رباح⁽¹¹⁾، ونظراً لأهمية مدينة أُمريّة برا وبحراً، لم يتردد الخليفة عبد الرحمن الناصر في بناء سورها بالصخر سنة (343 هـ/954 م)⁽¹²⁾. وإلى جانب الحجارة استخدمت الخلافة أيضاً الطابية والتراب كما يتبين من إشارات مصدرية متعددة.

- (1) - ابن حيان: المقابس...، ج 5، ص. 56.
- (2) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 53.
- (3) - ابن خلدون: كتاب العبر...، ص. 62.
- (4) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 554.
- (5) - ابن الكريبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 150.
- (6) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 70.
- (7) - الحميري: نفسه، ص. 461.
- (8) - نفسه: ص. 232.
- (9) - الغزي: ترصيع الأخبار...، ص. 67.
- (10) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 107، 108.
- (11) - نفسه: ص. 111.
- (12) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 77.

فسور مدينة بطليوس مثلاً كان «بالبطانية المرزوم بالمداوس وبالطوب المشمس» (1). كما في سور مدينة إشبيلية أيام الفتنة بالتراب (2). واستغلت كذلك مادة اللبن منذ فترة مبكرة في أسوار مدينة قرطبة (3). وكان سور مدينة طريفة على البحر الشامي من تراب (4). وقد تخطيط الأحجار بالبطانية في بعض الأسوار كما هو الأمر في مدينة بلنسية (5) شرق الأندلس؛ أو يُخلط التراب بالكلس كما حدث في أسوار مدينة بطليوس عام (421 هـ/1030م) حسب الحميري (6).

تجدر الإشارة إلى أن البحث الميداني، الأركيولوجي والطوبوي قد انطلق من الإشارات المصدرية السالفة الذكر، وكشف عن معلومات دقيقة للغاية تهم مختلف المواد التي كانت تدخل في بناء الكثير من الحصون والقصبات والأبراج والأسوار عبر الريف والمدينة بالأندلس منذ الفتوحات الإسلامية. لقد أجمعت تلك الأبحاث الميدانية أن الأسوار والقصبات والحصون كانت تشكل جزءاً أساسياً من البنية السكنية والمعمارية، والحربية بشبه جزيرة الأندلس. وأكثر من ذلك كشفت عن معطيات مفيدة تتعلق بأحجام المواد المتخذة في البناء ومقاييسها، وكذا الأشكال الهندسية المتبعة في العمارة الحربية؛ كالقول بالأبراج المصلعة الشكل التي انتشرت خلال عصر الخلافة (7)، وأخرى ذات شكل رباعي (8) عرفت في أقاليم أندلسية مختلفة. فبصدد الأحجام تبين أن الأندلسيين استخدموا البطانية التي بلغ حجمها خمسين سنتمتراً، وعرض ألواحها حوالي متراً واحداً (9). ويبدو أن البطانية كانت توضع في مكانها بواسطة قوالب جاهزة من الخشب (10). وقد تترك شرفات

(1) - ابن حيان: المقابس...، ج 5، ص. 96.

(2) - البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا...، ص. 114.

(3) - مجهول: أخيار مجموعة...، ص. 31.

(4) - الإبريمي: نزهة المشتاق...، ص. 539.

(5) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 97.

(6) - نفسه: ص. 93.

(7) - MAZZOLI-GUINARD (Ch); Villes d'al-Andalus..., p. 60.

(8) - ESCO (C); SÉNAC (Ph); Un HSN de la Marche supérieure..., p. 136.

ESCO (C); GIRALT (J); SÉNAC (Ph), Arqueología islámica en la marca superior..., p. 22

حسب سكر الأراضي في بعض النطاقات أو الأحزمة المحصنة والتي تبلغ حوالي 5,70 متراً طولا و 4,70 عرضاً
انظر لتفاصيل في:
ESCO (C); SÉNAC (Ph); Un HSN..., p. 135, 136.

(9) - SOLER (Alv), ZOZAYA (J), Castillos Omevas..., p. 265, 267 GAZUAR RUIZ(R); Las técnicas constructivas..., pp. 126, 128; SOUTO (J. A), Sistemas defensivos..., p. 275, 285

(10) - BAZZANA (A), « Éléments d'archéologie musulmane dans al-Andalus. Caracteres spécifiques de l'architecture militaire arabe de la région valencienne » dans AL-QANTARA, vol XI Fasc 1-2 Madrid, 1980, p. 339, 363

في مكان معينة من الحدران لتسهيل النظر والمراقبة. ويُعد أحيانا إلى حلط الطابية بحجر صغير كلسي أو رملي، وتستخدم أيضا أحجار ذات الحجم الصغير لتشد الطابية خاصة في الزوايا، مما يمكنها من الشدة والصلابة. وأكثر من ذلك تبني بعض الحدران من الطابية على سر و قواعد من الحجر تضمن قوتها ومتانتها⁽¹⁾. وقد كشفت بعض الأبحاث نمطية عن بقايا من الطابية في العديد من القصور والأسوار كما هو الشأن في السور الثاني الذي بناه الفتي خيران العامري بمدينة ألمرية في القرن الخامس للهجرة⁽²⁾؛ أو في بعض حذاء سور مدينة قرطبة خلال العهد العامري⁽³⁾. وفي أبراج وأسوار العديد من المدن الأخرى⁽⁴⁾.

أما أحجام الأحجار المتخذة في العمارة العسكرية فتختلف حسب أهمية ودور تحصينات. ففي بعض الأبراج، استعملت أحجار رملية من حجم أربعين (40) سنتمرا تقريبا. ومن الجدران ما بلغ عرضه 0.90 سم⁽⁵⁾. كما استخدمت أحجار منجورة بلغت 0.80 سم⁽⁶⁾. ولاشك أن هذه الأحجار كانت تستخرج من مقالع تكون عادة قريبة من مناطق البناء. ورغم ذلك فإنها تحتاج إلى يد عاملة في الإعداد والنقل. أما الطابية فيبدو أنها تقنية هامة وسريعة. لقد اعتبرها البعض⁽⁷⁾ رخيصة وشعبية لكنها، مع ذلك، تحتاج إلى موارد محددة تتحكم في نجاح العمل بها. من ذلك مثلا أنها تحتاج إلى مياه متوفرة وقرية وسبيل الاستعمال، مما نفع بأحدهم⁽⁸⁾ إلى القول بأن صنعها يكون عادة في أماكن غير مرتفعة كثيرا عن الأدوية. ناهيك عن أن تجفيفها يحتاج إلى وقت طويل نسبيا مما يسبب علة في بقاء استعمالها عكس ما يتبادر إلى الذهن أحيانا. أكثر من ذلك تعتبر الطابية تقنية ومدة غير صلبة إذا قورنت بالحجر، ولذلك تخضع باستمرار إلى عملية الترميم.

(1) - نفسه: ص. 339.

AZUAR RUIZ (R), Las técnicas..., p. 134

(2) - نفسه: ص. 134.

(3) - MAZZOLI-GUINTARD (Ch), Villes d'Al-Andalus. . p 57, 174

TORRES BALBÀS(L); Ciudades Hispanomusulmanas..., p.482, 491

(4) - « Ciudades Hispanomusulmanas de nueva fundación », op. cit, p 781, 803

(5) - ESCO (C), GIRALT(J), SÉNAC (Ph), Arqueología islamica . , p 31

(6) - AZUAR RUIZ (R), Las técnicas . , p 151

(7) - نفسه: ص. 126-127.

MAZZOLI-GUINTARD (Ch), Villes d'Al-Andalus. . p 57

(9) - BAZZANA (A), Éléments d'archéologie musulmane . , p 356, 357

وللمقارنة المفيدة نشير إلى أن الأوربيين قد استعملوا الحجارة التي تتوفر في المدينتي
الجبليّة الوعرة حيث المواقع أو الصخور المعلقة ذات الطابع الحمائي⁽¹⁾. وذلك عكس ما
نحده مثلاً لدى الصقالبة الذين تميزوا بطريقة خاصة في بناء وإعداد الحصون. فعادة ما
يعمدون إلى المروج ويخطون ويحفرون ويوثقون ذلك بالألواح والأخشاب حتى ينسج
الصور ارتفاعاً معيماً، ويتركون له باباً يأتون إليه على جسر من خشب⁽²⁾.

يمكن القول إن انتشار العمارة العسكرية بالأندلس رافقه رواج مواد البناء خاصة
الحجارة والطابية. ولاشك أن عصر الخلافة الذي شهد نوعاً من الاستقرار الاقتصادي
والبنائي والأمني قد طوّر تقنيات البناء بدليل أن الخلافة بقرطبة عمدت إلى تصدير
البنائين المتخصصين في العمارة الحربية إلى شمال إفريقيا بشهادة ابن حيان⁽³⁾.

(1) - BOUTRUCHE (R). Seigneurie et féodalité, t. 2, p. 128. CONTAMINE (Ph) La guerre au Moyen Âge, Paris, P.U.F., 1980, p. 128.
MOUTON (D) « L'édification des Mottes castrales de Provence, un phénomène durable X-XIIIe siècles » dans: Château Gaillard..., op. cit, p. 309, 321.

(2) - البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا...، ص. 160.

(3) - ابن حيان: المقنن...، ج 5، ص. 388.

خلاصة

إذا كانت الحصون تشكل جزءاً هاماً من البنيات الدفاعية والعمرانية في الأرياف الأندلسية، فإن القصبات والأسوار والخنادق تقدم نموذجاً آخر من البنية الدفاعية والشمزية في المدن. لقد اتضح من خلال استعراض المعلومات المصدرة المتنوعة عن أهم المدن في سده حزيره إبيريا أن العديد منها ذات الأصول الرومانية، قد عمل المسلمون على استغلالها وتطويرها في المجال المعماري والدفاعي. كما أسسوا أخرى وانحدر طابعاً إسلامياً واضحاً في المجالين السالفي الذكر. ولقد تبين أن المسلمين لم يحدوا عن سابقيهم في اختيار مواقع المدن وفق شروط طبيعية توفر الأمن والمياه. وقد دفعت هذه الشروط السلطة في قرطبة مع مطلع القرن الرابع الهجري إلى إخضاع أهم تلك المدن وتحصينها وتسويرها انطلاقاً من الثغور. ومع إقرار نفوذها وإعلان الخلافة تحكمت في الشبكة الحضرية كما هو الحال مع الحصون في الأرياف، إذ عملت على تأطير المدن في الميادين الاقتصادية والمالية والبشرية والعسكرية، وذلك عبر الولاة أو ممثليها الذين كانوا يتخذون من القصبات والأحياء المجاورة لها مقراً لسكناهم وجندهم. كما اهتمت الخلافة كذلك بتحسين وتسوير المدن خاصة تلك الواقعة في جهات الثغور أو تلك الواقعة في الجنوب لمراقبة المضيف بجانب بعض الحصون. وهنا تصدق ملاحظة Jacques Heers⁽¹⁾ التي تقول إن عملية التحصين في قصبات المدن وأسوارها تجعلها كأنها في حالة استنفار دائم. وتبين من خلال استعراض المادة المصدرة المرتبطة بالأسوار أن بناءها وتوسيعها وترميمها بدأ منذ عصر الإمارة على الأقل، وكان خاضعاً لظروف أو لعوامل بشرية وطبيعية. فكثيراً ما كانت الفيضانات وراء هدم أسوار العديد من المدن مما يدفع إلى إعادة بنائها من جديد. ولقد بينا في الوقت ذاته أن الهجمات الخارجية أي حصار المدن، خاصة أيام الحملات النورمانية التي كانت تتكرر على بعض المدن كإشبيلية مثلاً، كانت وراء الاهتمام بالأسوار والتحسينات. كما لاحظنا أيضاً أن الأسوار التي هي أداة أساسية للدفاع عن المدينة في حالة حصارها، يمكن أن تصبح وسيلة سلبية تساهم في إخضاع

(1) - HEERS (J), La ville au Moyen Age..., op. cit, p 328

المدينة في مناسبات عديدة. فقد يستغلها المعارضون أو الثائرون في وجه السلطة المركزية للاحتماء بها والاستلال بالمدينة، أو يستغل الأعداء بعض ثغراتها وعيوبها للانقضاض عليها. بل أكثر من ذلك يمكن أن تكون الأسوار، شأنها شأن الخنادق، عقبة ولو مؤقتة في وجه توسيع المجال المعماري للمدينة. وقد يضبط ذلك التوسع مما يؤدي بالساكنة إلى الاندفاع خارج الأسوار بعد هدم أجزاء منها، وبناء أخرى مما يؤدي إلى صعوبة رصد مختلف التحولات التي رافقت عملية بنائها وترميمها. ولاشك أن عملية النمو الحضري والعمراني على المستوى الإقليمي باندلس القرن الخامس الهجري (عصر الطوائف) قد أحدث تحولات كبرى وعميقة في تحصين المدن وبناء قصباتها وأسوارها. إن عملية البناء في الحصون والقصبات والأسوار أدت إلى الوقوف عند طبيعة البناء والمواد المستخدمة فيه. ولقد كشفت المصادر عن استعمال الأحجار والطابية أو التراب المجفف خلال عصري الخلافة والطوائف. وتبين من خلال إشارات متعددة دالة انتشار البناء بالأحجار⁽¹⁾ خلال الخلافة. في حين استعملت الطابية بشكل أوسع خلال الطوائف نظراً لسرعة إنجازها لقلة تكاليفها. ومن البديهي القول إن انتشار البناء بالحجر الصلب خلال القرن الرابع الهجري، إلى جانب توفر تقنية عالية في عملية البناء (مرحلة الاستقرار) قد أدى إلى صمود العديد من المواقع في وجه التطورات الطبيعية والبشرية. وما بعض القصبات والحصون والقلاع التي ما تزال قائمة إلى الآن إلا دليل على ذلك. وإن تضافر مجهودات البحث المصدري التاريخي والتوثيقي، والبحث الميداني الأركيولوجي والطبونيومي من شأنه أن يساهم في إثارة الكثير من القضايا، بل وحل العديد من الألغاز المرتبطة بالحصون والقصبات والأسوار، أي دراسة العمران العسكري دراسة تكشف عما غمض في العديد من جوانبه.

(1) - قال ابن عذاري أن الخليفة عبد الناصر، لما كان بصدد بناء مدينة الزهراء عام 325 هـ كان «يُصرف فيها من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة في اليوم». البيان... ج 2، ص 209.

الفصل الثالث

الأسلحة والألبسة الحربية، الأنواع والوظائف

(...)«عن هشام بن عطية عن أبي منيب الحرشي عن عبد الله بن عمر قال:

قال الرسول: "إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي".».

السيوطي(حلال الدين عبد الرحمن بن كمال): السماح في أحبار الرماح، تحقيق

القنيسي (فوري حمودي)، مجلة المورد، عدد 4، المجلد 12، 1983، ص. 83.

«قالت الحكماء، خير السلاح ما خف حمله على الأعضاء ودفع عنها الأذى».

مجهول: البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار، مخطوط، الخزانة العامة،

لربط، ق 32 (مجموع)، ص. 34.

تُرَوِّدنا المصادر العربية القديمة الجغرافية والأدبية، وكتب التراجم والطبقات، والنوازل، وكذا المعاجم اللغوية المتخصصة، وكتب الأداب أو الأخلاق السلطانية. بمعلومات مفصلة عن الأسلحة وأنواعها وكيفية صناعتها وحملها واستعمالها. وقد ألفت مصنفات بكاملها في السلاح⁽¹⁾ وأنواعه والمشهور منه منذ الحضارات القديمة خاصة في المشرق. أما في الغرب الإسلامي فيعدُّ ابن خلدون⁽²⁾ وابن هذيل⁽³⁾، رغم أنهما من المتأخرين، من الرواد في هذا المجال⁽⁴⁾. أما الأبحاث المعاصرة سواء في تاريخ المغرب أو الأندلس، فلم تهتم بموضوع السلاح إلا بشكل عرضي أي أنه لم يحظ بتأليف مفصل أو منفرد. ولذلك نعتقد أن "تاريخ السلاح" في الغرب الإسلامي لا يزال في حاجة إلى العناية والاهتمام والكتابة. خاصة وأن المصادر تتفق على وفرة الأسلحة في الأندلس منذ مطلع القرن الثالث الهجري على الأقل. فالأمير الحكم (ت 206 هـ) كان أول من جُنِّد الجنود وجمع الأسلحة والعدد واستكثر الحشم والحواشي وارتبط الخيل على باباه⁽⁵⁾. وامتاز الأندلس بـ «تبحر العمران وجودة اللباس وشرف الأنفة وكثرة السلاح وإحكام التمدن»⁽⁶⁾. بل أكثر من ذلك يُنعت الأندلسيون بأنهم «ركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلتها، فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب، وذلك بحسب ما يقتضيه إقليمهم»⁽⁷⁾. وهم كذلك «صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصورية، ومعالجة آلات الحرب

(1) - ابن سلام (أبو عبيد القاسم توفي 224 هـ) كتاب السلاح، تحقيق الضامن (حاتم صالح)، المورد، عدد 4، المجلد 12، 1983، ص. 223، 253؛ الكندي (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي): فيما يُطرح على الحديد والسيوف فلا تتلثم ولا تكل. رسالة الكندي الثالثة، المورد، نفسه، ص. 119، 171؛ ابن القيم الجوزية (تسم) الذين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): الفروسية، تحقيق: الحسيني (عزت العطار)، القاهرة، 1994، الطرسوسي (مرضی بن علي بن مرضی الطرسوسي): تبصرة أرباب الإلياب في كيفية النحاة في الحروب من الأسواء، وشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق كاهين (كلود)، بيروت، 1948؛ ابن منكلي (محمد بن محمود المصري): التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، تحقيق: صادق الجملي (محمود)، المورد، عدد 4، ص. 319، 378.

(2) - خصص ابن خلدون فصولاً كاملة لأدب الحرب والسلاح في المقدمة...، ج 2، ص. 700 وما بعدها.

(3) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط سابق.

(3) - سبق وكتب كل من الطرطوشي وابن سيده الأندلسي عن السلاح، لكن الأول لم يفصل في الموضوع كما فعل ابن خلدون، وكتب الثاني عن الموضوع من منظور لغوي معجمي.

انظر: ابن سيده، المخصص...، مصدر سابق، ج 6.

(4) - التويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (قسم المغرب)...، ص. 93.

(5) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 4.

(7) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 282.

والنظر في مهماتها»⁽¹⁾، لقد جربوا واختبروا أنواعاً متعددة من السلاح حتى قيل «وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر، فأكثر هم الأندلس كانت إلى هذا الشأن»⁽²⁾. إن الاهتمام بالسلاح جعل السلطة السياسية في قرطبة خاصة في عصر الخلافة تُحدث ما يُعرف في المصادر "بخطّة السلاح"، أو صاحب "خزانة السلاح" أي الذي يتولى الإشراف على الأسلحة في مجال الصناعة والعناية والتوزيع والمراقبة؛ شأنه في ذلك شأن أصحاب الخطط الأخرى كـ "خطّة الخيل" أو "خطّة القضاء"، والتي ترمي السلطة من ورائها إلى تنظيم الحياة الاجتماعية والعسكرية في الأندلس. ويبدو أن صاحب خزانة السلاح شخصية نافذة، لا تقل أهمية عن قائد الجند في الثغور أو المحتسب أو القاضي بقرطبة مثلاً. وتذكر المصادر العديد من الشخصيات التي عُهد إليها بخزانة الأسلحة منذ مطلع القرن الرابع الهجري. ففي عام 301 هـ تولى موسى بن سليمان الخولاني كاتب الناصر خزانة السلاح⁽³⁾. وفي السنة نفسها «ولي عبد الملك بن سليمان خزانة السلاح»⁽⁴⁾. وفي عام 304 هـ «نقل علي بن حسين عن خزانة السلاح إلى خطّة العرض»⁽⁵⁾. وفي 313 هـ ولي الناصر عبد الله بن محمد الخروبي خزانة السلاح⁽⁶⁾. وفي العام الموالي (314 هـ) عُيّن حسين بن محمد بن عاصم وأحمد ابن يحيى بن حسان، وعبد الوهاب بن محمد بن عبد الرؤوف على خزانة السلاح⁽⁷⁾. وتولاها محمد بن يملح مكان خلف بن أيوب⁽⁸⁾ سنة 329 هـ. تجدر الإشارة إلى أن موقع الأندلس في أقصى غرب "دار الإسلام"، بجوار المسيحيين، وقيام الخلافة بقرطبة مع مطلع القرن الرابع للهجرة، وإرسائها لبنيات اقتصادية واجتماعية وعسكرية جديدة، جعل السلطة تهتم كثيراً بالسلاح كأداة مادية أساسية توفر لجند الحضرة إمكانية الدفاع عن حدود الخلافة في الشمال وفي الجنوب

(1) - المتري: النفع...، ج 3، ص. 151.

(2) - نفسه: ج 1، ص. 202.

(3) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 81؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 164.

(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 97.

(5) - نفسه: ص. 134؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 169.

(6) - نفسه: ص. 190.

(7) - نفسه: ص. 123. يبدو أن الثلاثة عيّنوا في فترة واحدة قصد التعاون فيما بينهم والتنسيق في منصب خزانة السلاح نظراً لأهميته.

(8) - ابن حيان: نفسه، ص. 488.

كذلك. وانطلاقاً من ذلك كان لزاماً عليها أن تتولى صناعة الأسلحة أو استقدامها من المغرب أو من المشرق أو حتى من المسيحيين أنفسهم. لقد عرفت الأندلس الكثير من السيوف والقسي الإفرنجية⁽¹⁾، أو ما عرف بالسيوف البردالية⁽²⁾ المشهورة بالجودة، والتي يُصنع منها في بلاد الكفر ما يُبهر العقول حسب المقرئ⁽³⁾. وقد يبدو الأمر في ذلك متناقضاً مع ما ورد في كتب الفقه والجهاد والنوازل، التي تدعو إلى الاحتراز وعدم التعامل أو التجارة في مجال الأسلحة مع العدو المسيحي الذي من شأنه أن يتقوى على المسلمين. ويُحدّد ابن رشد⁽⁴⁾ المواد التي يُحرّم التعامل بها مع الكفار مُشيراً إلى الكراع والأسلحة والحديد والرايات والنحاس الذي تُعمل منه الطبول لترهيب المسلمين. ويقول ابن زكون⁽⁵⁾ اعتماداً على المدونة: «ولا يباع من الحربيين آلة الحرب من كراع أو سلاح أو سروج أو غيرها مما يتقوّون به في الحرب». وكرّر الونشريسي⁽⁶⁾ المواد التي لا يجوز التعامل فيها مع الأعداء خاصة آلات الحروب وعدة الفرس، بحيث يُمنع على السقطي والصيقي والحدادي ترويجها⁽⁷⁾.

إذا كانت هذه الفضايا الفقهية المرتبطة بالأسلحة تعكس، بالتأكيد، اهتمام بعض الأوساط الفقهية والشعبية معاً ورغبتها في مقاطعة العدو المسيحي، فإنها لا تعدو أن تكون ذات الطابع النظري المحض، لأن الواقع السياسي والعسكري يفنّذها ويتحدّأها. إنها نظريات فقهية انشغلت، في الواقع، برسم ما ينبغي أن يكون، وليس بما هو موجود في الواقع التاريخي العياني الذي شهد، كما أشرنا إلى ذلك، رواجاً في الأسلحة وغيرها⁽⁸⁾ من هذا الجانب أو ذاك. إن الملاحظة ذاتها تصدق أيضاً من الجانب المسيحي الذي حاولت فيه بعض الأوساط السياسية والدينية منذ العهد 'الكارلنجي' —

(1) - ابن حيان: نفسه، ص. 268.

(2) - ابن سعيد (المغربي): كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خنيس فرنيط، ج. تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958، ص. 114.

و"البردالية" نسبة إلى بوردو (Bordeaux) المدينة الأساسية في جنوب غرب فرنسا.

(3) - المقرئ: النسخ...، ج 1، ص. 202.

(4) - ابن رشد (ابو الوليد محمد بن أحمد فاصي الجماعة): كتاب المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المونة من الأحكام الترعيات ولتحصيلات المحكمات، الشرعيات الأمهات مسائلها المشكلات، القاهرة، مطبعة السعادة، د. ت، ص. 613، 614.

(5) - ابن زكون: اعتماد الحكام في مسائل الأحكام...، مخطوط سابق، ص. 389.

(6) - الونشريسي: المعيار...، ج 6، ص. 67، 190، 191.

(7) - نفسه: ص. 67، 190، 191.

(8) - حناوي: جوانب من العلاقات الاقتصادية...، م. س، ص. 151، 166.

منتصف القرن الثامن للميلاد - إصدار قوانين تهدف إلى منع، أو على الأقل الحد من أنشطة التجار الذين "يسرّبون" الأسلحة الإفرنجية الجيدة إلى المسلمين⁽¹⁾.

تعتبر الأسلحة القتالية على اختلاف أنواعها، شأنها شأن الحصون والقصبات والأبراج والأسوار والخنادق، وسائل مادية هامة، تكتمل بواسطتها قوة الجند ونفوذه. وللتأكد من أهميتها يكفي تصفح كتب الجهاد، والأخلاق السلطانية⁽²⁾ التي تؤكد أن الجند بلا سلاح جيد، أعزل، وأن السلاح بلا جند مقدر ومقدام لا قيمة له. ويتأكد هذا الأمر من خلال مضمون مقولة مشهورة وماثورة عن الخليفة عمر بن الخطاب الذي طلب في إحدى المناسبات من القائد عمرو بن معد يكرب الزبيدي، أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة، فضرب به فوجده دون ما كان يتصوره فسأل عن الأمر فأجابه صاحب السيف قائلاً: «إني بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به»⁽³⁾.

ما هي أنواع الأسلحة التي راجت في أندلس الخلافة والطوائف. وما هي وظائفها وطرق القتال بها؟

1- السيوف

تجدر الإشارة إلى أن السيف من الأسلحة الأولى المشهورة في الحروب منذ العصور القديمة. ولا داعي إلى التفصيل في القول إن السيوف عرفت منذ ما قبل الإسلام بكثير، فيكفي العودة إلى الأدب الجاهلي نثره وشعره للاطلاع على ما تزخر به المصنفات القديمة من أوصاف كثيرة ودقيقة حول السيوف وطرق استخدامها في القتال. وقد ازدادت أهمية السيوف في العصر الإسلامي خاصة مع الفتوحات الإسلامية

(1) - GANSHOF (Fr. L), L'Armée sous les Carolingiens Dans : Ordinement militán in Occ dente centro italiano de Stadi Sall'alto medioevo Settemane di Studio, T. XV, Spolete 1968, p.109,130.

(2) - كثيرة هي المصنفات التي فصلت في دور السلاح في تقوية الملك والسلطان. انظر مثلاً:

ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة...، مصدر سابق؛

(المأوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية...، مصدر سابق، وأدب الوزير "قوانين الوزارة وسياسة الملك"...،

مصدر سابق)؛ ابن أبي النور: سياسة الأمراء ولادة الجنود...، مخطوط سابق؛ ابن رضوان: الشهب اللامعة في السياسة

لنافعة...؛ ابن الأزرق: بدائع السلك في طباع الملك...، مصدر سابق؛ العلام (عز الدين): السلطة والسياسة في الأدب

السلطاني، الدار البيضاء، دار إفريقيا والشرق، 1991.

(3) - ابن عبد ربه: العقد الفريد...، ج 1، ص. 179.

ابن هذيل: حلية الدبران وشعار الشجعان...، 1997، ص. 119؛ الصمصامة اسم مشهور لسيف بالغ الأهمية، يبلغ ثمنه

خمسین ألف درهم حسب ابن هذيل...، نفسه، 1951، ص. 190.

كما تشهد على ذلك كتب الجهاد⁽¹⁾ والفروسية⁽²⁾ التي فصلت في الأنواع والأسماء والأوصاف، بل في الأفضل منها، بحيث يتم التباهي ما بين الهندية أو الهنداوية⁽³⁾، والإفرنجية⁽⁴⁾، والقلعية والسليمانية وغيرها، أو الافتخار بما شابه سيف الرسول ﷺ ذو الفقار⁽⁵⁾ الذي غنمه يوم بدر إلى غير ذلك من الأسماء. وكثيراً ما استعمل السيف للدلالة على الأسلحة بشكل عام أو لمنافسة الفلم وكلاهما أي السيف والقلم يشكل أداة أساسية تستخدمها الدولة أو السلطة عند الحاجة. وهو ما أوضحه ابن خلدون⁽⁶⁾ بدقة في باب التفاوت بين المراتب ودور السيف والقلم في الدول بالقول: «اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره. إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم، أشد من الحاجة إلى القلم؛ لأن القلم في تلك الحال خادم فقط»⁽⁷⁾.

لاشك أن أصنافاً عديدة من السيوف قد راجت في الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف. فمنها المجلوب إليها من مناطق أخرى، ومنها ما كان يُصنع محلياً، بدليل أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما اختط مدينة الزهراء، «اتخذ فيها داراً لصناعة آلات السلاح والحرب والحلي للزينة»⁽⁸⁾. كما اشتهرت مدينة طليطلة منذ القديم في صناعة السيوف. ولما فتحها العرب زادوا تلك الصناعة إتقاناً⁽⁹⁾. ويبدو أن الخلافة في مطلع القرن الرابع الهجري، قد لجأت إلى تغليب القوة والسيف من أجل إخضاع المعارضين وإرساء قوتها وبنياتها، بدلاً من القلم كما يتضح من نظرية ابن خلدون السالفة الذكر.

(1) - مجهول: كتب الجهاد...، مخطوط سابق: باب السيوف؛ ابن هذيل: في الرباط والجهاد، مخطوط سابق، الخزائن العامة، 1108 د الاسكوريال، 904. باب السلاح؛ المراكشي: سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد، مخطوط سابق، ص. 22.

(2) - مجهول: كتاب الحيل في الحروب، مخطوط/ميكرو فلم، مصدر سابق. باب السلاح؛ مجهول: كامل الصناعة في الفروسية...، مخطوط. باب السلاح؛ مجهول: كتاب الخيل، مخطوط، الخزائن العامة، الرباط، د 1312. السلاح.

(3) - بن الحاج (النميري): فيض العباب، تحقيق: ابن شقرون (محمد)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص. 302.

(4) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 145.

(5) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 1، ابن هذيل: حلية الفرسان، 1997، ص. 121.

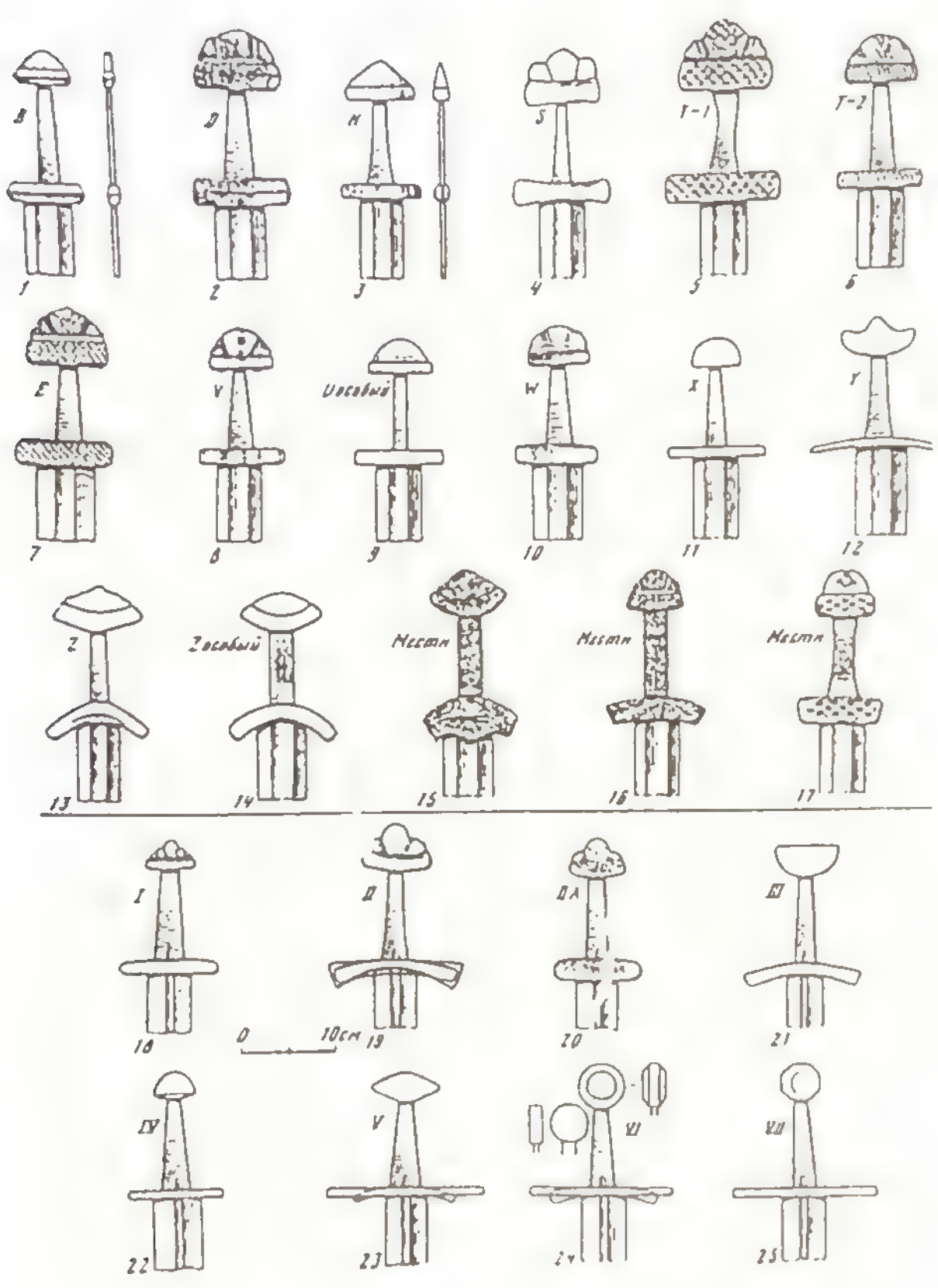
(6) - ابن خلدون: المقدمة...، مصدر سابق، ج 2، ص. 695، 696.

(7) - نفسه: ص. 695.

(8) - نفسه: كتاب العبر...، م 4، ص. 312.

(9) - أرسلان (شكيب الأمير): الحلال السندسية...، ج 1، ص. 440.

نماذج من السيوف الأوربية حسب أشكال مقابضها (IX - XIVم)



المرجع : Le combatant au Moyen Age

والى جانب السيوف المصنوعة محليا التجأت الخلافة والطوائف بعدها إلى السيوف الإفرنجية نظرا لجودتها، بل هي أكثر تفوقا وشهرة عن سيوف الهند حسب البكري⁽¹⁾، أو هي أمضى السلاح حسب الفزويني⁽²⁾. ولا غرو فقد اشتهرت السيوف البردالية⁽³⁾ الإفرنجية في الأندلس. ويقدم ابن حيان⁽⁴⁾ مكررا معلومات دقيقة حول سيف إفرنجي كافا به الخليفة عبد الرحمن الناصر محمد بن خزر. إنه "إفرنجي الجنس صارم مُحلّى بفضة مذهبة منقشة في غمد سفن حوت.. ويتبين مما سلف أن السيف⁽⁵⁾، وإن أضيفت إليه أسلحة أخرى، قد ظل ذلك الموروث التاريخي الذي كان الزعماء يتباهون به على أعدائهم، ويدعون امتلاك أجوده.. ويستفاد هذا المعنى من نص بالغ الدلالة أورده صاحب المجالس والمسائرات⁽⁶⁾ في سلاح المعز لدين الله الفطمي، قائلا: «وجئست يوما بين يديه مع جماعة من أوليائه فذكر ذو الفقار سيف الرسول ﷺ، ثم أمر بإخراجه إلينا، فنظرت فإذا هو حديد كله قطعة واحدة قائمة وبذنه، يكون طوله قدر ثلاثة أشبار، فيما قدرته، وعرضه أقل من عرض ثلاثة أصابع، وعرضه ممّا يلي قائمه أقل قليلا من عرض مضربه، وذبايه حديد، كحديد الرمح، يصلح للضرب والطعن، وله شفرتان، وفي وسطه عمود، وخفي». ورغم أن النص يحمل شحنة إيديولوجية مبالغاً فيها لأن صاحبه لا يُخفي ولائه للفاطميين أعداء الأمويين بالأندلس بفعل النزاع الدائم حول أحقية الخلافة، وادّعاء ملك سيف الرسول إنما يعكس ذلك

(1) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 145.

(2) - الفزويني: آثار البلاد وأخبار العباد...، ص. 494.

(3) - ابن سعيد: كتاب بسط الأرض...، ص. 114.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 268.

(4) مكررا. يبدو أن السفن مادة (شجر أو غيره) تستخدم في صناعة مقابض لسيوف، وهي متوفرة بالأندلس حسب معلومات المقدسي: أحسن التقاسيم...، ص. 239.

(5) - انظر أوصاف السيوف الأندلسية في بعض المصادر ذات الطابع الأدبي مثل:

التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى): ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار التدفئة، 1963، ص. 105، 106، 107.

(6) - الثعمان (أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي القاضي): كتاب المجالس والمسائرات، تحقيق: الفقي (الحبيب) وآخرون، تونس، المطبعة الرسمية، 1978، ص. 114.

البراع، فهو إلى جانب ذلك يعكس طبيعة السيوف آنذاك من حيث المتانة والصلابة والمقاييس المعتمدة في صناعتها، ونوع الحديد المتخذ فيها الخ.

2. أسلحة الرماية الخفيفة والطعن (القسي والنبال، الرماح والمزاريق)

على غرار السيوف ألف الكثير في أنواع القسي والرماح والسهام منذ القديم، حتى أنه خُصّصت مصنفات⁽¹⁾ بكاملها لهذه الأنواع من السلاح منذ أن خطب الرسول ﷺ في رجاله وهو مُتَّكئ على قوس عربية⁽²⁾. لاشك أن الفرس هم أشهر الأمم التي عرفت القسي والرماح على أنواعها، وعنهم أخذ المسلمون والأتراك في هذا الباب. قال ابن الجوزية⁽³⁾: «وأما القوس الفارسية فهي قسي العساكر الإسلامية في هذا الزمان في الشام ومصر وما يُضاف إليهما». وأضاف: «ولا ريب أن القسي العربية أنفع للعرب، والفارسية للعسكر اليوم، وكلاهما يفضل القسي التركية لما فيها من القوة والشدة والسرعة والرطوبة وخفة الحمل، وقوة الفعل، ولم تكن الترك تعتاد هذه القسي الفارسية، ولكن لما خالطت الفرس وعاشرتهم تعلموا منها الكثير من زيهم ولباسهم، وحربهم ونسائهم وآلاتهم»⁽⁴⁾. لكن نلاحظ أن المسلمين الذين تأثروا بالفرس في صناعة الآلات الحربية كالقسي والرماح وغيرها، قد صنعوا أخرى وطوّروها وفق البيئة التي عاشوا فيها. لقد برعوا في إتقان هذا الفن من الأسلحة تاليفاً وممارسة وتجربة. والدليل هو ذكرهم لكل أصناف القسي والرماح وكيفية صنعها، ومواد صناعتها، وتركيبها، وطرق الرمي بها في الحروب. بل أكثر من ذلك ميزوا في الصناعة ما بين القوس التي تصلح للصعود أي لضرب القلاع والحصون، والتي تصلح للرّمي من الأعلى إلى

(1) - مجهول: في علم الرمي وفضل القوس والوتر والنشاب ومعرفة أصول ذلك وسقاية السلاح المهلكة، مخطوط، لحراسة العامة، الرباط، رقم 64؛ مجهول: كتاب علم الرمي وصفاته ومقاديره ومداراته، مخطوط، خ. ع، الرباط، مجموع د 1867؛ أبو عبيد الله (محمد بن يوسف الإخباري الشيعي): كُتال الإيضاح في علم الرمي، مخطوط، ح ع، مجموع د 1867؛ السنخاوي (شمس الدين): القول التام في فضل الرمي بالسهام، مخطوط، الإسكوريال، رقم 765؛ الشورنحي (الفرحاتي): فضل القوس العربية، تحقيق: الجنابي (أحمد نصيف)، عبودي، فتوح حبري، المورد، عدد 4، م 12، 1983، ص. 253، 304.

(2) - مجهول: السدائع والأسرار... مخطوط سابق. باب القوس؛ ابن هذيل: حلية الفرسان، مصدر سابق، 1997، ص. 133.

(3) - ابن القيم الجوزية: الفروسية...، ص. 101.

(4) - نفسه: ص. 103.

الأسفل⁽¹⁾. ناهيك عن ذكرهم للأقاليم والمناخات التي تتلاءم وأجناساً منها دون غيرها. فالقسي تختلف باختلاف البلاد وأهويتها، «فالقوس الكثيرة الخشب تصلح للبلد الشديد الحر والبرد وللبلد الشديدة الرطوبة جداً... وأما القوس الكثيرة العقب الضيقة فتصلح للهواء المعتدل»⁽²⁾. وكل نوع من هذه القسي يصلح له صنف محدد من الرجال تتوفر فيه شروط تضمن حسن استعمالها ونجاحها «فالقسي الكثيرة الأخشاب الواسعة... تصلح للرجال العريضي الأكتاف وقصار البدن والعنق، والقوس الكثيرة العقب، يصلح لها من الرجال طويل الذراعين رقيق العصب ضيق الصدر»⁽³⁾. ولضمان جودة القسي يلزم انتقاء الأخشاب التي تجتمع فيها الصلابة والخفة والرقّة. فالجودة في خشب المشرق تكون في عود الشوحط، وبالأندلس في الصنوبر الأحمر الخفيف الذي قد خرجت دهنته⁽⁴⁾. وفي المعنى ذاته ذكر ابن هذيل⁽⁴⁾ مكرراً أن القسي تُنتخب «من عشرة عيّدان خمسة برية وخمسة بستانية، فالبرية: الطخش وهو النبع بلغة العرب، والزنبوج والذرّدال والكتّم والشبر، والبستانية: النارج، والتّسمان، والتفاح والرمان والسّفرجل»⁽⁵⁾. وأما أنواع القسي فكثيرة وأهمها القسي

(1) - مجهول: البدائع...، ص. 180.

(2) - نفسه، ص. 180.

(3) - نفسه: ص. 180، 181.

(4) - نفسه: ص. 181، 204، 207.

(4) مكرر - ابن هذيل: حلية الفرسان، 1997، ص. 135.

(5) - ترتبط الأخشاب التي تدخل في صناعة القسي، ارتباطاً وثيقاً بالمناخ وبمناطق محددة. يقول محقق ابن هذيل: إن هذا الأخير ذكر أسماء الأخشاب التي تتحد للقسي ولا ترد في المصنفات المشرقية لأنها اندلست محلية ابن هذيل: حلية الفرسان وشعار السحمان، تحقيق محمد عبد الغني (حسن)، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر، 1951. المقدمة.

لكن العودة إلى المعاجم العربية أو المشرقية نفسها نلاحظ أن العديد من أسماء الأخشاب التي تصنع منها القسي لم يثبت إليه المحقق يقول صاحب البدائع والأسرار...، ص 32 / 33 إن أهل بادية الحجاز يستعملون عود السبع والشوحط في القسي والشوحط هو المران من قصيب، والمران أو الرّان يدخل في صناعة الرماح والمراريق، وذكر في المصادر العربية والمشرقية على حد سواء. انظر:

طبيفاً (الأشرفي) كتاب بعية المرامي وعاية المرام للمعاني في علم الرمي، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ص 7، مجموع 1867، ص 123؛ الجاحظ: البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 3، ص 116؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان...، ج 7، ص 118؛ ابن خاقان: قلاند المعيان...، ص 90؛ المقرئ: النفع...، ج 4، ص 368.

ويقول ابن الزنبوج أو الزنبوج لا ينتج في المشرق. إنه عود الزيتون الذكر، وهو نوعان أحدهما يُجلب إلى المشرق من بلاد المغرب، والآخر من بلاد اليمن، انظر:

الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص 8؛ مجهول: البدائع والأسرار...، ص 62.

للمزيد من التفصيل حول المواد التي تدخل في صنع القسي يمكن الرجوع إلى لائحة كتب النبات والفلاحة وهي كثيرة في: الطاهري (أ): الطب والفلاحة في الأندلس، منشورات كلية الآداب، المحمدية، 1997.

العربية وهي أنسب للفارس⁽¹⁾، نظراً لسرعتها. والقوس الإفرنجية أنسب للرجل⁽²⁾. وقسي الرجل ذاتها أنواع منها: «الجرج للإفرنج واللقشة للمغاربة، والدنبورك للعجم والترك، والبندوق للإسلام وهو أنفع قسي الرجل لأهل البر...»⁽³⁾. ويستعمل الفرس كثيراً قوس اليد، أما الترك فيفضلون قوس الرجل، التي كرهها الرسول ﷺ⁽⁴⁾، لأسباب منها أنها على شكل صليب يبعث على الشؤم أو كونها معقدة في التركيب وتتعطل في الرمي⁽⁵⁾. لذلك عدل أهل الأندلس إلى القوس الإفرنجية التي لها جوزة ومفتاح⁽⁶⁾. وينفرد ابن هذيل⁽⁷⁾ بوصف القوس الإفرنجية المعتمدة في الأندلس مقدماً بصددها معجماً لغوياً غنياً. إنها تتكون من «عمود وقضيب وجوزة، ومفتاح. وكان العمود قبل يسمى المجري، ويسمى بذلك لجري السهام عليه، وكان مفتاحه طالعاً من جهة الجوزة، يرمي سهاماً عدة مشتملة»⁽⁸⁾. ويضيف صاحب البدائع والأسرار⁽⁹⁾، ويظهر أنه يعرف الأندلس، أن «أحسن القسي بالأندلس القليلة الخشب المعتدلة من العقب الكثيرة القرن. فإن النكاية والقوة إنما هي في القرن، لكن كلما كثر قرن القوس كثر اعوجاجها...». ويدقق أكثر في أوجه القتال بها وكيفية اعتمادها في قتال العدو وإصابته، حين يقول: «إذا رميت الفارس، إن كان مقبلاً إليك، فاطلب قربوس سرجه، فإن طاش السهم وقع في صدره، أو في وجهه، وإن قصر وقع في بطنه أو في ذابته. وإن كان هارباً أمامك وأردت رميه فاطلب القربوس، فإن طاش السهم وقع في ظهره...»⁽¹⁰⁾.

وإذا اتخذ الأندلسيون القسي الإفرنجية أو الأعمية⁽¹¹⁾ في الحروب فذلك يرجع لأسباب منها أنها سهلة ومناسبة في حروب بعينها. يقول صاحب النفح⁽¹²⁾ بأن

(1) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط الإسكوريال، 190.

(2) - نفسه: 190. حلية الفرسان...، 1997، ص. 134.

(3) - طبيفا الأشرقي: بنية المرامي...، مخطوط، ص. 125.

(4) - مجهول: البدائع والأسرار، مخطوط، ص. 42.

(5) - نفسه: ص. 43.

(6) - نفسه: ص. 47.

(7) - ابن هذيل: حلية الفرسان...، 1997، ص. 135.

(8) - نفسه: ص. 134.

(9) - مجهول: البدائع والأسرار...، ص. 181.

(10) - مجهول: نفسه، ص. 279.

(11) - ابن حيان: المتقبس...، الحجى، ص. 197، 199. يسميها أحياناً "الأسنة الفرنجية".

(12) - المقرئ: النفح...، ج1، ص. 223.

الأندلسيين يُعدّون قسي الأفريج للمحاصرات في البلاد وللرحالة من الحبد عند
 تصفوف للحروب. وإضافة إلى ذلك يعتقد أن الأندلسيين ارتأوا حربه سلاح العدو
 أغريب منهم كي يقاتلوه به عند الضرورة. لكن ينادر إلى القول أن القوس الأفريجية
 لم تكن وحدها الرائجة في الأندلس خلال الخلافة والطوائف، بل تصنع القسي أيضا
 - ر صناعة الأسلحة بقرطبة أو من لدن حرفيين محنّصين بقرطبة والراهرة وربما
 من أخرى في الأقاليم. لقد أفادنا ابن حيان⁽¹⁾ أن المنصور بن أبي عامر، الكثير
 لغزوات ضد المسيحيين، كان يأمر بصناعة القسي التي يُصنع منها حوالي اثنا عشر
 ألف قوس حطّرين عربية وتركية. إن النصف منها كان يصنعه أبو العباس البغدادي
 لعمد الأكر بقرطبة، والنصف الآخر يصنعه طلحة الصقلي بالرهاة⁽²⁾. كما
 صنع أسلحة أخرى كششاب⁽³⁾ والسهم⁽⁴⁾ والرماح⁽⁵⁾ والمزاريق⁽⁶⁾، والقنا
 - أنواعها⁽⁷⁾ كانتوال للرحالة والفصار للفرسان⁽⁸⁾. وأسلحة أخرى كالقنا أو ما

(1) - ابن الخطيب: أعلام الأعلام ، ص 101

(2) - نفسه، ص 101

(3) - ابن حيان: شمس الأنطوية، ص 1103 أبو حامد الغرناطي: تحفة الألب ، ص 110

(4) - مؤرخ لاتيني: عند حسب في معرفة سيف، حقيق حصني (محمد لغري)، الترابط (1990)، ج 2، ص 690 - الغيرواسي (س م ر) -
 رسالة، بيروت، دار الفكر، 1993، ص 324

(5) - من خوضه: تاريخ افتتاح الأسس ، ص 122 ابن حيان: المقس، الحجى، ص 48

لغري: تاريخ آخر ، ص 61 ابن الأبار: مؤس من الأبار، تحقيق الهراس (عبد السلام)، دار بوسنة سنتر، 1985، ص
 330 نفسه: مقتضب من تحفة القام، تحقيق الأباري (!)، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص 168، 169، 190، 198

المقري: شمع ، ج 1، ص 223، 225 ابن سلام: كتاب السلاح ، ص 231، 230

(6) - مجهول: حار مجموعة ، ص 60 أنطونوسي: مصر ديف لآل ، ص 11 ابن رضوان: شبه لأمعه ، ص 395

تحدث كتب السلاح والمعلم النوبة عن أنواع المزاريق ومغليها كل يقل. الموراق مارزق به ورقا وهو الحقيق

ابن سلام: كتاب السلاح ، ص 231 المعجم الوسيط ، ج 1، مادة ورق، ص 392

(7) - ابن سلام: التحيرة ، ج 4، ص 85 مجهول: الحلل المشوية ، ص 22 الجاحظ: الديال والنبين ، ج 3، ص 16 نفسه:
 لرسائل ، ج 1، ص 27 حركات (!) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، الدار البيضاء، د.ت، ص 173

LAGARDÈRE (V), Le vendredi de Zellaqa ..., op. cit, p 47, 49, 50

(8) - الجاحظ: الديال والنبين ، ج 3، ص 16

LAGARDÈRE (V), « Esquisse de l'organisation militaire des Mirabuton à l'époque de Yusuf B... »
 430 H (1039) à 800 (1106) » dans Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, N° 27 Sep
 1979, p 99, 114

يقم لغري بعض التفاصيل عن أسلحة القنا والمزاريق وهي أسلحة هجومية يتراوح طولها ما بين 1,50م إلى ثلاثة أمتار
 لغري: مسلك الأنصار، إفريقيا بقم مصر، ترجمة

Gaudefroy-Demonbynes, Paris, Librairie Orientaliste, 1927, p 9

مثل حفره مع بعض ، ج 1، ص 12 من مؤس من العهد الكارنجي وفسلح السجده في رملها والبال بها، والفسلح فيها،
 كترج من حص صوبه في 12 م ، فسمه بكل مع صعوبه معرفه التوارى عند قصه وصنطه لغري

FLORI (J), Encore l'usage de la lance La technique du combat chevaleresque vers l'an 1100 dans Cahiers de
 Civilisation médiévale, X-XIIIe siècles, 1988, N° 3, Juillet, Sep, 1988, p 236, 237, 238

CIRLOT (Victoria), Techniques guerrières en Catalogne féodale le maniement de la lance Dans Cahiers de
 Civilisation médiévale , op. cit, N°1, Janvier, Mars, 1985, p 35, 43

GABER (C) « Technique des combats singuliers d'après les auteurs byzantins » dans Le Moyen Age N° 198
 pp 5-40

GANSHOFF (F L), L'Armée sous les carolingiens , op. cit, p 122, 123

CONTAMINE (Ph), La guerre au Moyen Age , op. cit, p 310 et sv

يُعرف بالطبرزد⁽¹⁾، والأسل⁽²⁾، والعبرة⁽³⁾، والأقزال⁽⁴⁾، والمطارد⁽⁵⁾، والإلال⁽⁶⁾ وغيرها. وعلى ررار سلاح القسي تفق المصادر عند مواد صناعة هذه الأسلحة كاحشاب الرّان أو المرّان⁽⁷⁾ أو الصنوبر والبُلوط⁽⁸⁾، وهي مواد تُنتج في المغرب والأندلس. كما تتخذ أحشاب الخيزران⁽⁹⁾ في مناطق إفريقية. ولم تكتف المصادر بتبيل أهمية وكيفية صناعة الأسلحة والقتال بها، بل انفردت كتب الطبو النبات بذكر الإصابات التي يتعرض لها المحاربون أثناء المعارك والمواجهات وسبل علاجها، أو التخفيف من حدتها على الأقل. ويؤكد ابن منكلى⁽¹⁰⁾ مكرّر أن «من لوازم الجندي... اتخاذ الذرورات المانعة لخروج الدم، وهو عندي واجب يكاد يكون استصحابه للجندي عند سفره من فروض الأعيان». لكن لا نعرف بالدقة من يتولى أمر مداواة الجندي ومساعدته على استعمال ما توفر من الأدوية خلال المعارك. وهل يرافق الأطباء الحملات العسكرية؟ والملاحظ أن المصادر شحيحة إلى حد الصمت عن ذكر الكيفية التي يزاول بها الأطباء

(1) - ابن حيان: المقنن...، الحمي، ص 150 ابن الأبار: الحلة السيرة...، ج 2، ص 159

انطيرزين: كلمة تركية من أصل فارسي، طبر: الغلس، رين = السرج وهي فأس تعلق بالسرج يقول الجاحظ في مناقب لترك "وسا حيون شهيرة و ضرورية في الأكف والحداح في الأوساط ولنا حسن الجئسة على ظهور الحيل، ولنا لاصوت نتي تسفص منب الحالي"

الرسائل...، المصدر السابق، ج 1، ص 20

قد سمعت هذه غصن وتسمى سلطة حجلة (Flache) من قل الإفرنج وتقرن حوالي 1,2 كج، وطولها حوالي 18 سم وحوالي 40 سم في نصف ويمكن نقل بها في دائرة من 4 إلى 12 مترا

CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit, p. 310.

(2) - ابن الكردوبس: تاريخ الأندلس...، ص 94؛ ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص 142.

المسيوطي: السمع في أخبار لرماح، ص 86 الأصفهاني (العماد) حريدة القصر وحريدة العصر، تحقيق المرزوقي (محمد) عروسي (لطوي محمد) تحيلاي بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، 1973، ج 2، ص 98 الرصافي (معروف) اللالة ولادة ومعه من ملابس والمرافق ونهت، تحقيق الرشودي (عبد الحميد)، بغداد، دار الرشاد، 1980، ص 18 المعجم لوسيط ج 1، مادة أسل...، ص 18

(3) - ابن سلام: كتاب السلاح...، ص 239.

(4) - ثلاث رسائل أنطلمية في آداب الحمية...، ص 28.

(5) - الجاحظ: الرسائل...، ج 1، ص 127 هركات: النظام الميماني والحربي...، ص 179.

(6) - ابن سلام: كتاب السلاح...، ص 231 يقول «للال مثل الغلال، الحراب واحشها آلة، وهي صغر من الحربة وفي منبها عرص...» نفسه، ص 231

ولالة حربة عريضة اتصل منبب ذلك لربيعها ولمعناها يقول المعص لالة كلها حذير والحربة بعضها حشب وبعضها حذير

المعجم الوسيط، مادة آل، ص 24 لسان العرب، المجلد الأول، ص 85، 86

(7) - الجاحظ: البيان والتبيين...، ج 3، ص 16. يقول «إلما كلفت وماحكم من مرّان وأستكم من قرون البقر».

ابن خافق: قلاند العقيل...، ص 90 يقول بيت شعري

وجزعا من منارلة الأقران ● ومقبله ذوي المران

نفسه، ص 190 ابن خلكان: وهيات الأعيال...، ج 7، ص 118

بمقتد الباحث Lagardère أن الران نوع من البلوط (Hêtre) تتخذ منه المزاريق انظر:

LAGARDÈRE (V); Le Vendredi de Zellaqa..., op cit, p 50

- Esquisse de l'organisation militaire..., op cit, p. 108

(8) - سمح حشب لصور و لصور بعض لاورع في المغرب و لاسن و سمع في لاسلحة والاساطير (انظر الأسطوري)

(9) - ينحل نبات الخيزران المجوف وقرون البقر في صناعة المنهام والنبال في بعض المناطق الإفريقية.

العربي: مسالك الأصيل...، ص 26

(10) - ابن منكلى: التنبيهات السلطانية...، ص 365

(10) مكرّر الذرورات: ما ينثر على الجرح لمد مسامحة وشفوه ليقطع نزيل الدم...، نفسه، هامش (136)، ص 365.

والحراحون والبيطرة أعمالهم وهم يرافقون الحملات العسكرية. ونحن ننصوّر أن الأمر في غاية الأهمية لما يتطلبه من إعداد الأدوية وحملها ومراقبة الحرجى إلى غير ذلك من القصايا الصحية المرتبطة بحياة الجند. تفيد بعض الإشارات المصدرة⁽¹⁾ في تبيان دور النساء في ميدان الخدمات الطبية والإسعافات المقدمة للجند خلال المعارك. لقد كان المسلمون في حروبهم يصطحبون «الأطباء والبيطرة والمصمدين، وعالبا ما يفود بهذه المهمة نساؤهم ويسمون الأواسى»⁽²⁾. وقد وفقت بعض الإشارات عند النساء الغوازي⁽³⁾ في أندلس الخلافة. ويعتقد ل. بروفنسال⁽⁴⁾ أنها نساء قادة الحملات العسكرية أو عاهرات يصاحبن الجند الغازي.

ينفرد الطبيب الأندلسي الشهير أبو القاسم الزهراوي⁽⁵⁾ بمعلومات بالغة الدقة والأهمية تتعلق بتجربته الطبية مع شخصيات مسلمة ومسيحية في مجال انتشال أو إخراج السهام والنبال من الجروح، والطرق المتبعة في ذلك، تمسّيا مع طبيعة الجروح وأماكنها في جسم الجريح. ونقد خصص جزءا هاما من كتاب التصريف في الطب لكيفية مداواة وجراحة المصابين في الحروب. دون إغفال وصف الآلات المستعملة في الجراحة. يقول الزهراوي في السهام والآلات إن العمل يكون بالمرود والكلايب⁽⁶⁾ مكرر. أما السهام فتختلف «حسب أنواعها وبحسب المواضع التي تقع فيها

(1) - مجهول: في الوقف والأمور الجهادية، مخطوط، الحراسة العامة، الرباط، ك 2125، (مجموع) باب مداواة النساء للحرجى، 29 أ.

(2) - ابن منكبي: نفسه...، هامش (137)، ص. 365.

للتفصيل عن دور النساء في الحروب منذ الفتوحات الإسلامية الأولى انظر:

جمال محفوظ (لواء) من الحرب عند العرب في الحاهلية والإسلام، تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، 1994، ص 50، الجنابي (جاش حاسم) تضيّعات الجيش العربي في العصر الأموي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1986، ص. 132.

(3) - ابن الخطيب: أفعال الأعلام...، ص. 100.

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E): Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 97

مر بوري في ليق - ته حين ين ان "العوازي" ح / عازية تعني في المشرق (مصر) راقصة أو امرأة عمومية

DOZY (R), Supplément aux dictionnaires arabes, op. cit, T. 2, p. 212

(5) - الزهراوي (أو القاسم حلف ابن علس الزهراوي). اشتهر بكتابه التصريف في الطب. عُرف الزهراوي لدى الأوربيين باسم "ABULCASSIS"، وترجموا له الحرف الشريحي من عمله الطبي حوالي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد واستفدوا منه كثيرا من خلال "نهضة الأوربية" نفسها والتي قدّم بعضهم على أنه الأول في مجال التشريح الطبي انظر شهادة بعض الأوربيين أنفسهم في:

SOURNIA (J Ch), Médecins Arabes Anciens..., op. cit, p. 155 et sv

CLOT (Andre), L'Espagne Musulmane, op cit, p. 258, 259

(6) - SOURNIA (J Ch), Médecins Arabes..., p. 168, 170, 172

نظر التفصيل في آلات الجراحة في:

الطبي (مر بوري) - الأصل في كتب الجراحة لأبي القاسم حلف الزهراوي (ت 404 هـ - 1013 م) في دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، 1997، ج 2، ص. 9-47.

(6) - انظر الآلات المستعملة في مجل البيطرة في فصل خطط وأساليب القتل.

من الجسم... منها ما له ثلاث زوايا، ومنها مالها السنة، ومنها ما لها شظايا»⁽¹⁾ لاشك أن السهام تؤثر بشكل فعال في الجسم، وقد تؤدي إلى الموت، وذلك حسب الأعضاء التي تصيبها. وتصنف تلك الأعضاء إلى أساسية كالدماع والقلب والكبد والعين وغيرها. وثانوية كالأنف وغيره. وقبل الشروع في عملية استئصال السهم تحت الزهرراوي إلى ضرورة التزام الحيطة والحذر اللازمين لأن الماغة لا تفيد المرحر أو الجريح في شيء. ولتأكيد هذا الأمر وقف عند حالات وأمثلة استدعى لعلاجها وتختلف ظروفها حسب الإصابات. ففي إحدى المرات وقع سهم لرجل «(...)» في ماق عينه في أصل الأنف فأخرجته له من الجهة الأخرى تحت شحمة الأذن وبرئ وند يحدث في عينه مكروه»⁽²⁾. كما أخرجت «سهما آخر ليهودي كان قد واقعه في شحمة عينه تحت الجفن الأسفل... وكان سهماً كبيراً من سهام القسي المركبة مربع الحديد أملس، لم يكن فيه أذنان، فبرئ اليهودي»⁽³⁾. وقد نجح الزهرراوي في إخراج سهم آخر من «حلق نصراني، وكان السهم عربياً، وهو الذي له أذنان، فشقت عليه بير الوداجين، وكان قد غار في حلقه فلطفت حتى أخرجته فسلم النصراني»⁽⁴⁾.

لاشك أن أطباء وجراحين آخرين قد ساهموا بدورهم إلى جانب الزهرراوي، في محاولة الطب العسكري خاصة في الأقاليم أو في مناطق الثغور التي كان باستمرار قبلة الحملات العسكرية. ونشير في هذا الصدد إلى الطبيب والمهندس عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرمانى القرطبي الأندلسي⁽⁵⁾ الذي كان مستقراً سرقسطة جهة الثغر الأعلى واشتغل بعناية وحنكة «بالكي والقطع والشق والبط وغير ذلك من أعمال الصناعة الطبية»⁽⁶⁾. إلى أن توفي سنة 458هـ.

(5) - SOURNIA (J. Ch), op cit, p. 164.

(1) - نفسه، ص. 166.

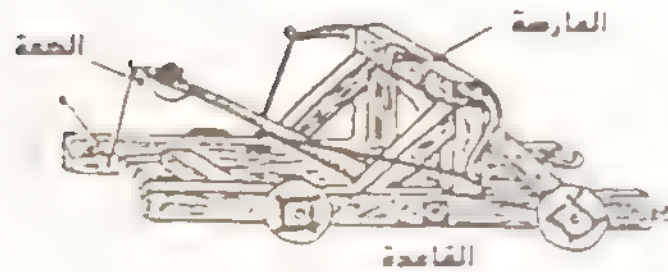
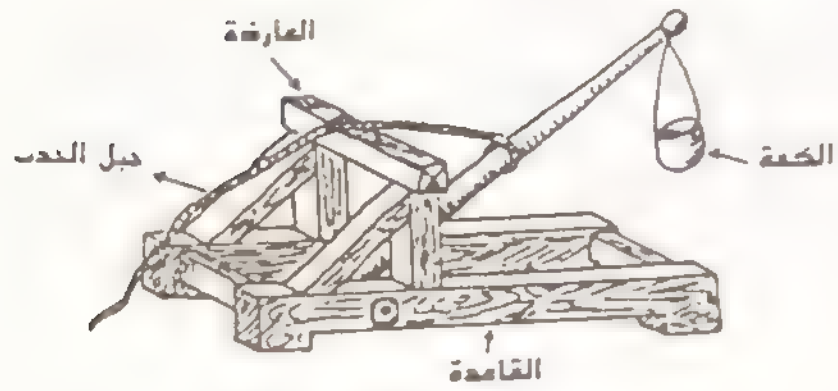
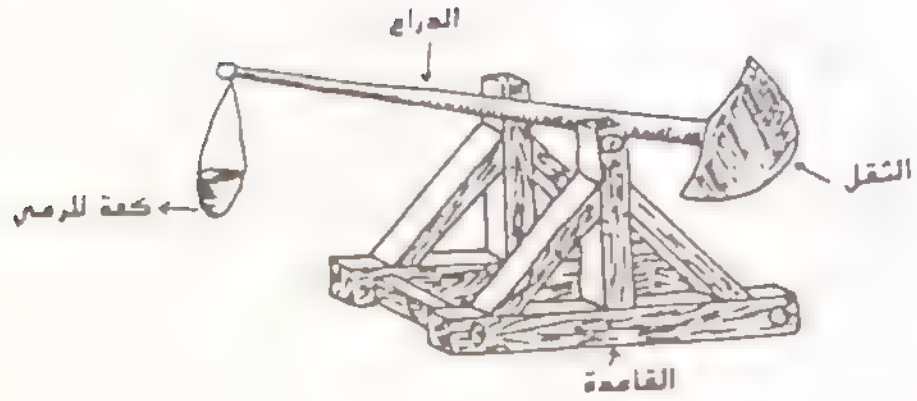
(2) - نفسه: ص. 166.

(3) - نفسه، ص. 166.

(4) - القفطي: كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء...، ص. 162.

(5) - نفسه: ص. 162.

بعض أنواع المغانيق



Radhi BASHIR Hassan Med :
El ejcto en la del Caifato del – Al Andalus. T2 , p : 811

تصرف

3 - المجانيق والعرادات والدبابات

تجدر الإشارة إلى أن المجانيق (المنحنيقات) والعرادات والدبابات أسلحة هجومية قديمة، وليست حديثة كما يتبادر إلى الذهن أحياناً. لقد انتشرت هذه الأسلحة في المشرق خاصة في الحزيرة العربية منذ عهد الرسول ﷺ الذي «نصب على أهل الطائف منجنيقا»⁽¹⁾. والعرادة التي هي نوع من المنجنيق عرفت هي الأخرى منذ حوالي 350 ق.م⁽²⁾. أما الدبابة فآلة حربية قديمة هي الأخرى تتخذ في حصار الحصون⁽³⁾. وعلى غرار القسي والرماح والقنا، تتكون المجانيق من أنواع منها: «العربي المبين، وهو أيقن مصنوعات وأوثق معمولاتها، ومنها التركي، وهو أقلها كلفة، وأحصرها مؤونة، ومنها الفرنجي»⁽⁴⁾. ومنهم من دقق أكثر في المنجنيق المغربي والإفرنجي بالقول إن «المغربي يعمل من الخشب الجيد مثلث متساوي الساقين تكون قاعدته دون القائمة لا زيادة فيها ولا نقصان، وليكن من خشب السنديان...»⁽⁵⁾. أما «الإفرنجي فيعمل مثلثاً من الجيد متساوي الساقين يُركب أعلاه أحد الساقين على الآخر حتى يكون بينهما مثلثاً لطيفاً، ويُصنُّ بالخشب، ولتكن قاعدة هذا المثلث أعظم من أحد أضلاعه...»⁽⁶⁾. ويقدم الطرسوسي⁽⁷⁾ معلومات هامة في كيفية استخدام المجانيق في الرمي والمسافات في

(1) - الماوردي: الأحكام السلطانية...، ص. 52؛ ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط، 30 ب.

انظر أنواع وخصائص المجانيق في:

الزركاش أرنيغا: الأنيق في المناجيق (المجانيق)، تحقيق: نبيل (محمد عبد العزيز أحمد)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981.

(2) - العرادة: آلة حربية أو منجنيق صغير لرمي الحجارة مسافات محددة. ومنهم من قال العرادة رعايد آلة تحدث أصواتاً شبيهة بأصوات الرعد. عرُد/ الرعد، انظر:

(الجاحظ: الرسائل...، ج 1، ص. 69؛ البيان والتبيين...، ج 3، ص. 17)؛ الحموي ياقوت: معجم البلدان...، م4، ص. 92؛ المراكشي: الذيل والتكملة...، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1965، ص. 224؛ ابن منظور: لسان العرب، م2، مادة عرد، ص. 728؛ المعجم الوسيط، ج 2، ص. 592.

DOZY (R); Supplément aux dictionnaires..., op.cit, T. 1, p.536.

(3) - موريز(أ). مدخل إلى التاريخ العسكري، تعريب أكرم بيري، الأيوبي الهيثم، بيروت، 1970، ص. 97.

والدبابة آلة الحصار يدخل في جوفها الرجال وتُدفع إلى أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها. وقد تتكون من عدة مستويات أو طوابق، من الخشب والرصاص والحديد والنحاس وتودع على عجل لتحريكها. انظر:

الرصاصي: الآلة والأداة...، ص. 93.

DOZY (R); Supplément..., op cit, T. 1, p. 421.

(4) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 16. (انظر رسوم المجانيق).

(5) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية...، مخطوط، ص. 23.

(6) - نفسه: ص. 25.

(7) - نفسه: ص. 16.

ذلك. لقد أوضح أن «الرامي إذا وقف تحت الكفة سواء على الخط المستقيم، كان الححر كثير الارتفاع قريبة المسافة، وربما أسقط على الرحال، وإذا خرج عن الكفة، كان الححر كثير الارتفاع قريب المسافة». أما المسافات التي يمكن أن تبليها أحجار المجانيق، فـ «ستون باعاً وأقلها أربعون باعاً، والأصل أيضاً في بعد المسافة وقربها بين السهم ويئسه، فمتى كان السهم في لين بالمفرط، كان ذلك أبعد للرمائية، وأشد للكايه، ومتى كان يابساً كان دون ذلك...»⁽¹⁾. لقد عرفت المجانيق والعرايات والنبات في الأندلس منذ وقت مبكر - أي منذ الفتح الإسلامي لها - كما تشهد بذلك المصادر. وقد أشار ابن عذاري⁽²⁾ إلى فتح مدينة ماردة من قبل موسى بن نصير وحصار سكانها «أشهر حتى عمل دبابة فدب المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها». كما حوصرت مدينة سرقسطة عام 164 هـ، بالمجانيق⁽³⁾، وعزاها الأمير عبد الرحمن بالمجانيق فقيل: «إنها حقاً بسنة وثلاثين منجنيقاً»⁽⁴⁾. وأنزل الأمير محمد بن سعيد الجيش بإشبيلية ونصب المجانيق بها ضد المجوس⁽⁵⁾. ولم يتردد الخليفة عبد الرحمن الناصر في اتخاذ المجانيق والعرايات لإنزال المعارضين والخصوم من حصونهم المنيعه. ويستفاد من إشارات مصدرية متعددة أنه طوّر الأسلحة الحصارية، وأخر عليها تحسينات كي يزيد في فعاليتها ضد أعدائه. يذكر ابن حيان⁽⁶⁾ في هذا المعنى واصفاً حصار حصن شبليش سنة 300 هـ أن الخليفة «اعتاص عليه منها حصن شبليش تبعده وتغذر نيله بحجارة المنجنيق القاذفة له... ولجّ الناصر وبنى رحلاً عليهم نصب المنجنيق عليه فأصابهم بأحجاره، وقطع الماء عنهم حتى قهرهم». وبيان غزوه نكورة ربه سنة 309 هـ أمر عبد الرحمن الناصر الجند «بنصب منجنيق على مرتقى لهم تصل منه حجارتها إلى الكفرة»⁽⁷⁾. وفي عام 325 هـ احتل نخيفة بباب سرقسطة «فزاحف أسوارها بعدته... وقد توارى رجالها... واستسلموا

(1) - نفسه: ص 16.

(2) - ابن عذاري: ليس... ج 2، ص 14.

(3) - مجهول: نكر بلا لائن... ص 117.

(4) - مجهول: حذر مجموعة... ص 105.

(5) - الغري: ترصيع الأحبار... ص 99.

(6) - ابن حيان: نفس... ج 5، ص 61.

(7) - نفسه: ص 171، 172.

للتصغار فتعاورتهم المجانيق من كل جانب»⁽¹⁾. ويبدو أن القتال والحصار بالمجانيق أصبح تقنية فعالة ومنتشرة في الأندلس خاصة خلال الخلافة والطوائف وقد كانت مفيدة للغاية في التغلب على الأسوار والحصون. ففي «سور قرمونة الغربي بُرج يُعرف بالبرج الأجم عليه تنصب العرادات عند القتال»⁽²⁾. ولاشك أن العامريين قد استخدموا المجانيق في غزواتهم المتكررة ضد الإفرنج. يذكر صاحب ذكر بلاد الأندلس⁽³⁾، في حصار جند المنصور بن أبي عامر لمدينة برشلونة، وذلك بأسلوب مليء بالمبالغة اقربية من الأسطورة أنه «نصب عليها المجانيق فكان يرميهم برؤوس الروم عوضاً من الحجارة، كان يرمي كل يوم عليها ألف رأس حتى فتحها عنوة». ولم يتوان ابنه عبد الملك المظفر في اتخاذ المجانيق للتحكم في حصن شنت مرتين⁽⁴⁾. وهكذا يتبين أن المجانيق والعرادات والدبابات أسلحة انتشرت وازدادت فعاليتها في حصار الحصون والأسوار والمدن خلال عصري الخلافة والطوائف⁽⁵⁾. وكما لاحظنا بالنسبة لمواقف انقهاء في استخدام أسلحة المسيحيين والتعامل معهم⁽⁶⁾، كان الجانب السياسي والعسكري يتحدى الجانب الفقهي الذي حاول التنبية إلى عدم حصار حصون وأسوار العدو بالمجانيق في حالات محددة منها وجود النساء والأطفال في الحصون أو اتخاذ أسرى المسلمين فيها كرهائن⁽⁷⁾ الخ.

4 - لباس الحرب والشارات العسكرية

تعد الألبسة الحربية على اختلافها أدوات وقائية هامة في المعارك؛ عملت المجتمعات على تطويرها منذ القديم، وذلك في أفق الحد من الخسائر البشرية وتلافي الإصابات والجراح القاتلة أثناء القتال. وعلى غرار الأسلحة السالفة الذكر انتشرت

(1) - نفسه: ص. 411.

(2) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 461.

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 23.

(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 10.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 101.

(5) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 127؛ مجهول: الحلل الموشية...، ص. 68؛ حركات () لضم السبسي والحربي...، ص. 179.

LAGARDÈRE (V); Le Vendredi de Zellaqa. ., op. cit, p. 47.

(6) - انظر بداية هذا الفصل.

(7) - انظر على سبيل المثال: ابن أبي زمنين: قدوة الغازي...، مصدر سابق، ص. 171، 172.

أنواع الدروع والدرق والتراس. ومع انتشار الحيل واتخاذها في الحروب، وظهرت فئات الفرسان المتخصصة تعممت السروج واللحم وما يرتبط بها، وتم تطويرها بشكل يتلاءم وبيئات طبيعية وبشرية مختلفة. وتزخر المصادر العربية حاصه المعاحم المعوية وكتب الفروسية⁽¹⁾ بمعلومات مفصلة ودقيقة للغاية عن الألبسة الحربية: صفاتها وبعوتها، وأنواعها ومكوناتها وطرق صنعائها، بل وأصواتها⁽²⁾. ودون الحوض في استعراض أهم التفاصيل والمعلومات المرتبطة بأنواع تلك الألبسة نكتفي برصد أهمها باندلس الخلافة والطوائف.

أ. الدروع والجواشن⁽³⁾

وُجدت الدروع على اختلاف أنواعها في الأندلس خلال الخلافة والطوائف بدليل أن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان يهدي العديد منها للمؤيدين لسياسته خارج الأندلس. يشير ابن حيان⁽⁴⁾ إلى تقديمه هدية إلى ابن خزر الزناتي سنة 328هـ- تضم «الالات الحربية الشريفة من الدروع». كما كانت الدروع تعرض بقرطبة خلال مناسبات البروز أو العرض أي إبان استعراض الجند الخلافي وأسلحته أمام الخلفاء. ففي بروز

(1) - الجاحظ: البيان والتبيين... ج 3، ص. 18؛ نفسه: الرسائل... ج 1، ص. 19؛ ابن قتيبة (الدينوري). عيون الاخبار، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1964، ج 2، ص. 130؛ ابن منكلي: تفسيرات لصلابية... ص 338، 339؛ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب... ص. 14؛ الطرطوشي: سراج الملوك... ج 2، ص 551، 671؛ ابن هذيل: حلية الفرسان... 1951، ص. 229، 230، 231؛ نفسه: 1997، ص 143، 144، 146، 147، 148؛ نفسه: في الرباط والجهاد، مخطوط 94؛ المراكشي: سيرة أحواد الاتحاد...، مخطوط، ص 81، 82، 83؛ ابن سيدة: المخصص... ج 6، ص. 72، 73؛ الرصافي: الآلة والأداة...، ص 68؛ المعجم الوسيط... ج 1، ص. 141، 142؛ لسان العرب... ج 1، ص. 317، 516.

(2) - ابن سيدة: نفسه، ج 6، ص. 75، 76.

(3) - شراع قطعة من الخلود أو صفائح حديد تعطي جسم المحارب من لعنق إلى الركبتين لاتقاء ضربات الخصم، وتحف التكتيك وأحجامها ومواد صنعها يقول أحدهم، السروج واسعة رعة وجمعها رعف وليسة فهي حذب و...، و... كت ضويلة قليل فهي د...، فاما كانت منسوجة من خدلاء ومحدولة وكت صدر أعير ظهر فهي جوشن». المراكشي: سيرة أحواد الأنجاد...، مخطوط، ص. 81، 82.

ع... شراع ونحوه من صخر مجهول: كتاب في علم الرمي ومغنيته...، مخطوط، ورقة 38، البطريق: كتاب سيرة في سير الريسة...، مخطوط، ص. 228؛ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 14؛ يقول جوشن من صنع معد من لوح صغار من لحب تارة ومن القرن تارة ومن الخلود... الرصافي: الآلة والأداة...، ص. 68؛ المعجم الوسيط...، ج 1، ص. 147؛ لسان العرب، ج 1، ص. 463، مادة جوشن.

LEVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne, op. cit. T 3, p 94

وضع مؤرخ حمولة... تاريخ كتاب في علم الرمي ومغنيته...، مخطوط، ورقة 38، البطريق: كتاب سيرة في سير الريسة...، مخطوط، ص. 228؛ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 14؛ يقول جوشن من صنع معد من لوح صغار من لحب تارة ومن القرن تارة ومن الخلود... الرصافي: الآلة والأداة...، ص. 68؛ المعجم الوسيط...، ج 1، ص. 147؛ لسان العرب، ج 1، ص. 463، مادة جوشن.

(4) - ابن حيان: تكتيب...، ج 5، ص. 460.

عاد(1)36 هـ كان «العبيد بالزهراء في الدروع السابغة»⁽¹⁾. أما الفرسان «الحمسة» وعبيد الدرق والعبيد الرماة فعلى جميعهم الدروع السابغة»⁽²⁾. إلى جانب الفرسان «لمدرعين وأصحاب الجواشن»⁽³⁾. وكان سلاح الأندلسيين شاكاً من الدروع والبيضات⁽⁴⁾. فهم «لبسوا الدروع الصافية وتقلدوا السيوف الماضية»⁽⁵⁾. ولما بوئى جعفر المصحفي الحجابة أهدى للخليفة الحكم المستنصر «السيوف وعشرين درعاً محتفة الأحاس»⁽⁶⁾. وقد ازدادت أعداد الدروع والجواشن خلال العهد العامري، كما يتبين من خلال تكليف عبد الملك العامري خازن الأسلحة بتوزيع «خمسة آلاف درع، وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر على طبقة الأجناد الدراعين في جيشه»⁽⁷⁾. وذكر ابن الخطيب⁽⁸⁾ أن المنصور بن أبي عامر كان «يغزو بالدروع السابرية والجواشن المذهبة». ويجمع «الدروع والعدة»⁽⁹⁾. وكان بمدينة الزهراء من بين أنواع الأسلحة «خمسة آلاف درع ومن الجواشن التنسية والخراسانية سبعمائة قطعة»⁽¹⁰⁾. ويتضح مما سبق أن الأندلسيين عرفوا وجربوا الدروع المختلفة في الحروب منذ بداية الخلافة على الأقل، وليس بعد ذلك، أي مع الجواز المرابطي الأول عام الزلافة كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين⁽¹¹⁾. ربما يمكن الإشارة في هذا الباب إلى انتشار الدروع الخفيفة أكثر من تلك المصنوعة بشكل معقد والمخصصة للاستعراض والمناسبات كما سلف الذكر، أوللهدايا، وهي كما تعلم مهمة ومكلفة وقد لا تُستعمل إلا من قبل فئة محدودة من الفرسان⁽¹²⁾. ولا غرابة أن تكون موضوع التحبيس⁽¹³⁾ نظراً لأهميتها كما

(1) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 48.

(2) - نفسه: ص. 48.

(3) - نفسه: ص. 48، 49، 196، 197.

(4) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 159.

(5) - ابن الكريمو: تاريخ الأندلس...، ص. 92.

(6) - ابن خلدون: كتاب العبر...، مصر سابق، ص. 312، 313؛ المعري: النفع...، ج 1، ص. 382.

(7) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 4.

(8) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 54.

(9) - نفسه: ص. 101.

(10) - نفسه: ص. 102.

(11) - LAGARDÈRE (V); Esquisse de l'organisation..., op. cit, p 108

(12) - إن المقصود هو الدروع المزودة أي المقرونة بالزرد (Cottes de mailles)، انظر:

المعجم الوسيط، ج 1، ص. 391؛ لسان العرب، ج 2، ص. 19.

LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T.3, p.94

(13) - الباجي (أبو الوليد بن خلف الناحي): فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء الحكام، تحقيق

الباتول (بن علي)، الرباط، 1990، ص. 345.

سبقت الإشارة بالنسبة للحصون والحل و غيرها. وللمقارنة مع أوروبا يشير إلى عملية تجهيز الفارس المقاتل، كانت مكلفة للغاية. فالفارس والحصان والسلاح كل يتطلب مثلاً خلال الكارولنجيين (النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي) ما يس 30 إلى 40 فلساً (sous)، أي ما يعادل 18 إلى 20 بفرّة⁽¹⁾. ولما انحزّت السلطة السياسية المركزية خلال النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد لفائدة السلطات الإقليمية، وازداد نفوذ الفرسان المتخصصين في الحروب، تطورت صناعة الدروع. وأصبح الدرع المررد يساوي ثمن ستين شاة. أما الحصان المجهز كاملاً فلا تقل قيمته عن 2 إلى ثمانية ثيران⁽²⁾. ولذلك لا يتوفر إلا للأغنياء الذين يملكون الأرض⁽³⁾.

ب . التراس والدرق والخوذ والعمائم

تعتبر التراس والدرق والخوذ والعمائم، إلى جانب الدروع، أسلحة وقائية لا يُستغنى عنها. ويُعتبر عنها عادة بالجنّ⁽⁴⁾، أي ما يُنقى به في المعارك والمواجهات. فما صنع للرأس من حديد فهو بيضة ومن أسمائها خوذة وتركّة وتركّة⁽⁵⁾، إن التراس هو المجنّ، وإن كان من الجلود فهو درق⁽⁶⁾. وتزودنا المصادر بمعلومات مفصلة عن أنواع التراس والدرق المتخذة في الأندلس، سواء المصنوعة منها محلياً أو المجلوبة إليها من المغرب أو من مناطق أخرى. تحدث ابن حيان⁽⁷⁾ عن "عبيد الدرق" و "أسلحة التراس والدرق"⁽⁸⁾. وقال في أحداث سنة 362 هـ بأنه حلّ بقرطبة الرجال الشداد

(1) - GANSHOF (L. F), L'Armée sous les Carolingiens..., op. cit, p 124

(2) - CANTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit, p. 147

(3) - GANSHOF (L. F); op. cit, pp. 124, 125.

CANTAMINE (Ph); op. cit, p. 147

(4) - ابن هذيل: حلية الفرسان، 1951، ص. 229.

(5) - نفسه: ص. 230.

(6) - نفسه: ص. 231، ضعة 1997، ص. 147، 148. يقول "إن كان التراس من جلود فهو درق وحفّ وبُنت (دركة، يلبة، جحفة).

حض أيضاً المراكشي: سيرة أحوال الأندلس... مخطوط، ص. 83؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار...، ج 2، ص. 130. يُقال في المعاجم: تراس وتراس وترسة وترس والمتراس. يعرقل العدو، وترس: ثوق، ورحل تراس وتراس وثو تراس.

معجم توبص، ج 1، ص 84؛ لسان العرب، ج 1، ص 317؛ ابن سيدة: المخصص...، ج 6، ص 73، 74.

(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 426، 460.

(8) - نفسه: الحجى، ص. 48.

لايسر «الآفة النبص... وبأيديهم التراس الملوثة»⁽¹⁾. وعلى رؤوسهم المغاريف⁽²⁾ ولبليم أصحاب التحايف⁽³⁾. وذكر المصادر⁽⁴⁾ أن خزانة السلاح على عهد الملك المنصور العامري كان بها «خمسة آلاف بيضة وخمسة آلاف مغفر»⁽⁵⁾. لقد كانت التراس المختلفة الأشكال والأحجام تصنع بكثرة في الأندلس خاصة في فترة الاستعدادات لحملات الصوائف والشوائف التي تنظم ضد المسيحيين. وكان يتولى ذلك أصحاب الحرف المتخصصون. لقد كان «يصنع بدار التراسين من أصناف التراس* / كل سنة حسبما تلقىته من يحيى التراس أحد من بقي من مشيخة التراسين في وقتنا، فقال كان الطريحة من التراس في السنة ثلاثة عشر ألف ترس»⁽⁶⁾. وقيل «اليمى، وكان بالزاهرة على ذلك كله من التراس الحفصونية المعدة للتوزيع على رحالة قرطبة، وغيرهم من المحشودة، أيام البروز والزينة أربعون ألفا»⁽⁷⁾. وأضاف اليماني مندهشا مما عاينه بخزانة السلاح وقت العامريين أن ما راه من «سائر الأسلحة من الدرق والتراس والسيوف... والطشتانيات. والدبابيس. والطبرزين -ات وغير ذلك، ففات إحصائي...»⁽⁸⁾ مكرر. وفي الصانعة التي مات على إثرها المنصور ابن أبي عامر سنة 392 هـ، «أعد الدواب التي تحمل ستمائة ترس

- (1) - نفسه: ص 117 لافه فاء، ضرب من ثياب يعول المقري أبة الاشكر لاط (Fcarlate) أي الفماش الأرواني الذي يوضع على ترس - المقري: السج، ج 1، ص 222، الخشني: قصة فرطة، ص 32، الحظ: النبال والتيس، ج 3، ص 18
(2) - نفسه: الحكي، ص 196، 197 - المغاريف (قرو) نهم منهاها انواع من الفماش أو لباس للراس محروطي الشكل المقتبس، ص 48
يعول المنونى ر نمشة لاسيس، عليهم لاييه المختلفة الألوان، وفوق لرتايل وهم اسم اساني يعنى نوعاً من الفماش لعنه، ورقت عن حصارة المربيين، الرابط، 1996، ص 105
(3) - ابن حيان: نفسه، السج، ص 49، السديف، م سمل من سلاح لوقاية الجراح، الجاحظ: السبل، ج 1، ص 19
(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص 14 ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص 87
(5) - المنقور: ما نرس من نصوص يعول مقري، السج، ج 1، ص 223 وعبار الصوف يلبسها الأندلسيون حمرا وحسرا ونصر حصه لليهود
وعقدت عزيمة لشب منصور - لاس حسب الزوجاني واس، الأنا، مثال العوام، ج 2، ص 170 ابن الأبار: لجنة أسراء، ج 1، ص 178

الطركنك:

DOZY (R); Supplément..., op. cit, T. 2, p.510.

- مقر (محمد): - ترس تمرسي حلال عيدي تر صر والموجدين، دبلوم تر ست العليا، الرابط، 1996، (مرفوع)، ص 80 وما بعدها
(6) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص 101
(7) - نفسه: ص 103
(8) - نفسه: ص 103، 102
(9) - لشتانيات حشية ونشبة، هي نحوه حشيه حسب المقري، السج، ج 1، ص 382 يقول «ونلاحظه حواء وماء بيضه هديه وحسون حوذة حشيه يسمونها الطشتة»
مكرر في بكون كيه حشيه حشيه من سعة بلاسه و سروسشاة سعة لى بقم بروفانس، وتسمى (Festa) (Festina) في ترس يعول ل. بروفانس، سمعت في ترس حواء حواء و حصة من لعمس وافة أو قعة معقل ومنها الكنهة (الاسانه) (taralin) في عطاء حنيني تراس

LÉVI-PROVENIAL (E) : Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 94, 95

الطبرزينات سبق شرحها، في ص 110 من هذا الفصل

عامري، والـف ترس سلطاني، وحمسه الآف ترس سلطاني من مدسه ماله»⁽¹⁾ ويتضح من الأشارات السابقة مدى بحكم السلطة أو الدولة في صناعة الأسلحة والأشراف عليها وذلك عبر أصحاب الحرف المتخصصين الذين ورثوها، وورثوها غيرهم. وإذا كانت الدولة تتحكم في صناعة السلاح وتوزيعه ومرافقته خلال الحلفاء، فإن الأمر تغير منذ آخر القرن الرابع الهجري. فمع ضعف السلطة المركزية والاندلاع الصراعات الإقليمية بات من المستحيل التحكم في صناعة السلاح ومرافقته. بل صار التباين عليه أمراً واقعاً. وللدلالة على ما نذهب إليه يكفي الإشارة إلى ما أقدم عليه أبو الحرم حيور بقرطنة أيام الفتنة المشهورة من اتخاذ أهل الأسواق حنذا وتفريق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه في الدكاكين والبيوت⁽²⁾. وتصنع الأسلحة السابقة الذكر خاصة الحوذ والدرق من مواد متنوعة. فالخوذة تتخذ عادة من صفائح معدنية ومن الحديد⁽³⁾. وللتلطيف من صلابتها على رأس حاملها، تُحشى بمواد رحيوة ورطبه كالإسفنح، «الضيق الأبخاش (المسامات)، لمنع تأثير الصرب القوي»⁽⁴⁾. أما أنواع التراس والدرق فتصنع من خلود حيوانات مختلفة حسب أماكن إنتاجها، كالبقرة ونسك والسمط. وتكاد تتفق المصادر على جودة وصلابة الدرق اللمطية. يقول صاحب تحفة الأثبات⁽⁵⁾ «وعندهم (السودان) حيوان يقال له اللمط مثل النور الكبير له قرننان كزرمح، تطول بطون بدنه ممدودة على ظهره، إن طعن بها حيوان أهلكه في الحال، يتخذ من جذه تراس يقال لها الدرق اللمطية، لا تنفذها النشاب، ولا تؤثر فيها السيوف وهي من أحسن التراس». بل أحسنها وأمنعها حسب الطرسوسي⁽⁶⁾. ولذلك يعتمد عليها الفرسان المعارب⁽⁷⁾ في رأي ابن منكلي المشرقي. ولاحظ الإدريسي⁽⁸⁾ أن مينة نمضة مميوزة بصناعة «الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب منها

(1) - ابن الخطيب: نفسه، ص. 101.

(2) - ابن حزم: تراسل...، ج 2، ص 203، 204، الحميدي: جذوة المفتس...، ص 28، 29، التوبري: بهيه الأرب في قون الألب (قسم المغرب)...، ص. 145، 146.

(3) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 16، 17.

GANSHOE (F. L.), L'Armée sous les Carolingiens..., op cit, p 123

(4) - ابن منكلي: التببيرات السلطانية...، ص. 338.

(5) - أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب...، ص. 41.

(6) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 14.

(7) - ابن منكلي: التببيرات السلطانية...، ص. 339.

(8) - الإدريسي: رحمة المساق...، ص 225.

طهرا وبها بقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة حملها». ويظهر أنها استخدمت في الأندلس خلال الخلافة والطوائف⁽¹⁾ والمرابطين⁽²⁾. كما استعملت درق من حلك أنقر⁽³⁾ أو من «جلك سمك على حلقة القروود من جلوده تكون الدرق التي تنبو عنها السيوف»⁽⁴⁾.

وإلى جانب الدرق والتراس المختلفة الأشكال والأحجام اتخذ الجند الأندلسي قلانس وعمائم ميزته عن باقي الفئات الاجتماعية. وتشير المصادر إلى أن كل فئة تتخذ ربا يميزها. فالبربر مثلا يتميزون بالعمائم والأندلسيون بالقلانس⁽⁵⁾. وانفرد ابن عذاري⁽⁶⁾ بمعلومات هامة ودالة تفيد أن الحاجب عبد الرحمن العامري (شنجول) أرغم أهل الخدمة من دولته على «طرح قلانسهم الطوال المرقشة الملونة، وكانت على قديم الدهر تيجانهم التي يباهون بها طبقات الرعية... وأمرهم بالانتقال عنها إلى العمائم... فاستعان كثير منهم بجيرانهم من البرابر حتى لبسوها على أكره حال، فكانوا بها أقبح وأهجن زي». ويقفهم من إشارات مصدرية متعددة أن الفقهاء والقضاة كانوا يلبسون العمائم ويشتركون مع الجند في ذلك كما يتضح من كلام ابن الخطيب⁽⁷⁾ حين يقول: «والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة (غرناطة)، إلا ما شذ في شيوخهم وقضائهم وعلمائهم والجند العربي منهم». وبين المقرئ⁽⁸⁾ أن «غفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا وخضرا، والصفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمم البتة، والنوبة لا يرخيها إلا العالم، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنما يسدلونها من تحت

(1) - ابن حيان: المفكر، ج 5، ص 462 الحجي، ص 84، 49؛ المقرئ: النفع، ج 4، ص 356، 358.
(2) - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 7، ص 118؛ حركات: النظام السياسي والحربي، مرجع سابق، ص 177؛ سعدون (عاصر نصر الله): دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1985، ص 91.

LAGARDÈRE (V) : Le vendredi de Zellaqa ..., op cit, p 49 et sv

(3) - الطرموسي: نفسه، ص 14، 15.

(4) - ابن الفقيه: كتاب البلدان...، مصدر سابق، ص 9.

(5) - الزجالي: أمثال العوام، ج 1، ص 210 تقول إحدى الأمثال «طالع هابط بحال عماد في رأس مرابط».
ج 1، ص 210، رقم: 1062.

(6) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص 48.

(7) - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة...، ج 1، ص 142، 143.

(8) - المقرئ: النفع، ج 1، ص 223.

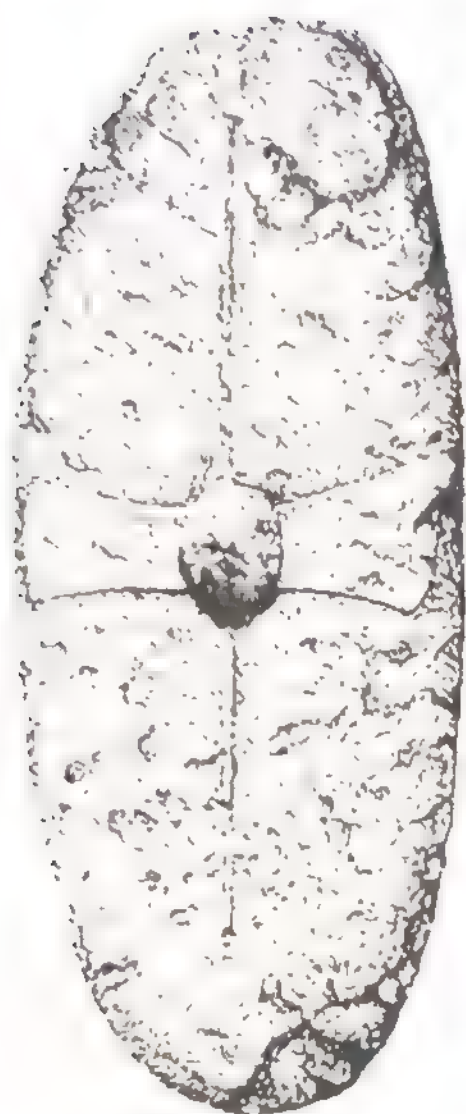
نرى لائحة سحر عند العرب سلم أن لجند الأندلسي كان يفضل اللون الأبيض في زيّه وملابسه.
ملابس الرجال في الأندلس في لعصر الإسلامي»، ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994، ص 249، 274.

لأنّ اليسرى». وأصاف: «وأما زي أهل الأندلس، فإلغالب عليهم ترك العمامة لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فيها مشارا إليه وهو بعمامة، وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمّة في شرق منها أو في غرب... وكثيرا ما يتزين سلاطينهم وأجنادهم بزي التصاري المحاورين لهم»⁽¹⁾. والمقارنة مع زي أهل المغرب قال البكري⁽²⁾ في بورعواطة «كان يلبس السراويل والملحفة ولا يلبس القميص ولا يعتم إلا في الحرب، ولا يعتم في هذه (بورعواطة) إلا الغرباء». وذكر القلقشندي في زي المرابطين والموحدين أن أنسبايحهم وأرباب وظائفهم وعامة جندهم، «يتعممون بعمائم طوال قليلة العرض من كتان ويعمر فوقها إحرامات يلفونها على أكتفاهم... ويلبسون الحفاف في أرجلهم، وتسمى عندهم الأثمة كما في إفريقية يشدون المهاميز فوقها، ويتخذون المناطق، وهي الحوائص ويعبرون عنها بالمضمار.. ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو التمييز..»⁽³⁾.

(1) - المقرئ: النسخ ١، ج ١، ص. 222.

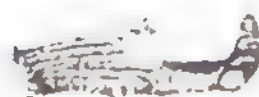
(2) - البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دوسلان، باريس، 1965، ص 137

(3) - القلقشندي: صبح الأعشى... ج 5، ص. 203.



خودقة

قرص



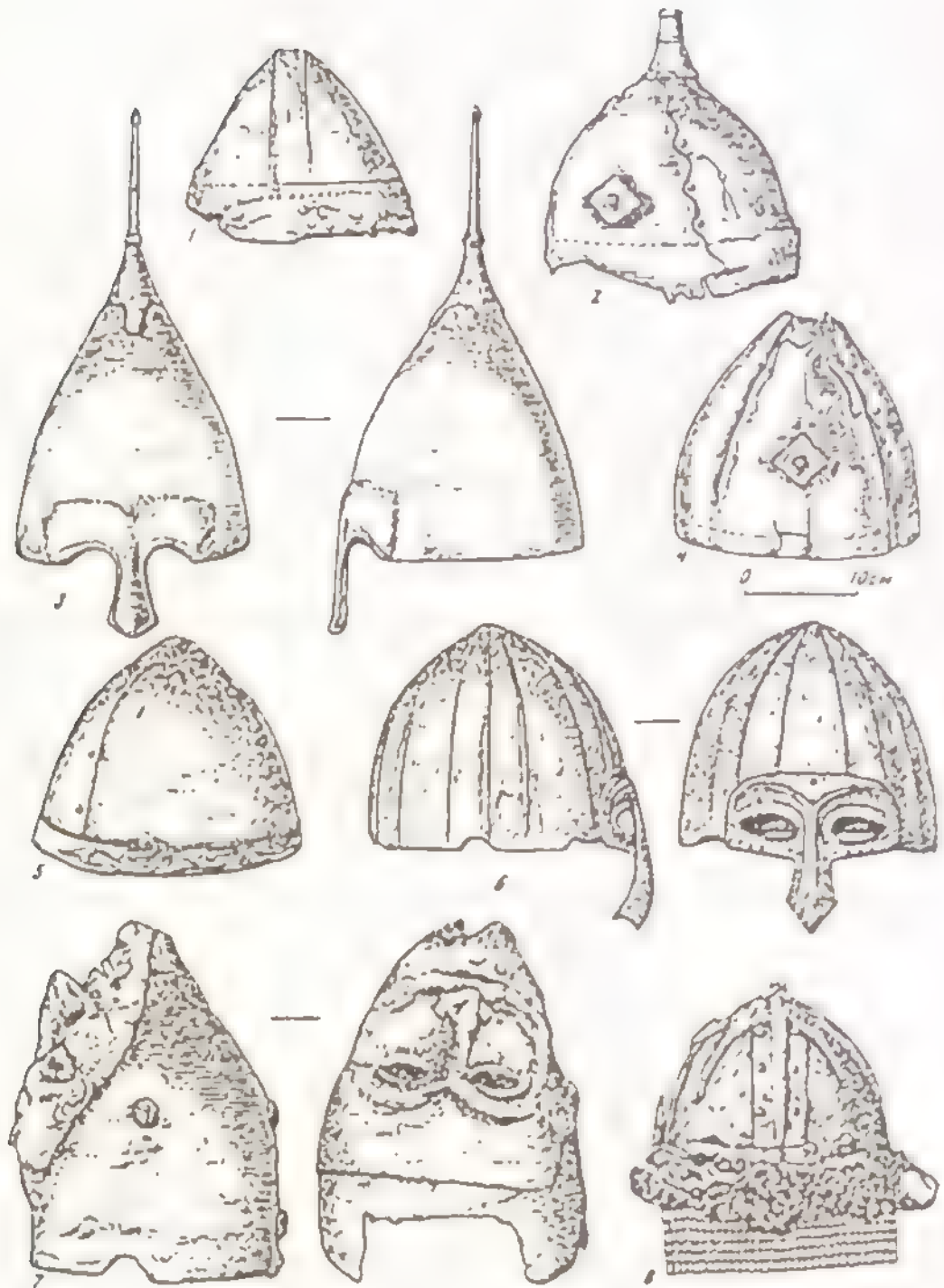
حجر



دراع

المرجع : المتحف الوطني الأركيولوجي مدريد 1997

نماذج من الخوذة (IX-XII م)



المرجع : Le combatant au Moyen Age

ج . لوازم الذيل

ارتبط انتشار وتطور السروج ولوازمها، كما هو معلوم، باستعمالات الحرب في الحروب. ولاشك أن الأمم القديمة، كالفرس وغيرهم قد استعملت، مكان السروج، نفعه أخرى أقل تعقيدا مما عُرف لاحقا، كفرش بسيط من اللبود أو لحام بسيط أيضا يُعرف بالشكيمة⁽¹⁾. والتجأت أقوام أخرى كاهل الحبشة والنوبة إلى استخدام جلود الحيوان في السروج. ومنهم من استعمل جلود الغزلان عوض السروج⁽²⁾. ورغم أننا لا نتوفر على معلومات مضبوطة حول تاريخ ظهور السروج في الغرب الإسلامي عموما وفي الأندلس بالخصوص⁽³⁾، فيبدو أن السرج الأندلسي والإفريقي عرفا في آخر القرن الرابع الهجري⁽⁴⁾ (X م)، أي، مع آخر الخلافة. أما سرج العدو المغربية فلم يتعمم إلا خلال فترة الحجابة العامرية⁽⁵⁾ حسب ل. بروفنسال. لكن بتفحص النصوص المصدرية المتنوعة نلاحظ أن الأندلسيين استعملوا بالفعل السروج خلال الخلافة والطوائف. فقد وقف ابن حيان⁽⁶⁾ عند طبيعة «سروج الخلافة ولجومها المفرغة». وأوضح أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل عام 326 هـ هدية إلى أبي منقذ بن موسى بن أبي العافية ضمت «سرجا إفرنجيا مُدَوَّرا ومزيّنا، ولجام بغلي لزمته عربية مقرطة محببة»⁽⁷⁾. وأهدى لمحمد بن خزر «مهماز ذهب»⁽⁸⁾ سنة 317 هـ. وأشار ابن

(1) - ROSS (D J A), L'Originalité de "Turaldus" le manèment de la lance Dans: Cahiers de Civilisation médiévale, N°2, Av. Juin, 1963, p 127, 138

(2) - ابن سعيد: كتاب بسط الأرض ، ص. 74.

(3) - يعتقد موريز (!): أن السروج انتشرت ما بين سنة 600 م و 1000 م. مدخل إلى التاريخ العسكري ، ص. 99. وربما جاءت إلى أوروبا بمعنى تقنيات أخرى ذات الأصل الشرقي، عبر سب الواسطي، وذلك ما بين القرن الأول والثامن للميلاد، وقد طوّرها الفرسان المتخصصون في الحروب صر

CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., o cit, p. 316 et sv

ROSS (D J A) ; op cit, p. 130 et sv

(4) - LEVI-PROVENÇAL (F) , Histoire de l'Espagne , op cit p 91

(5) - نفسه: ص 91 لكر ل. بروفنسال لم يذكر خصائص تلك السروج. بل اكتفى بالقول إن السرج الإفريقي له قريوس خلفي صغير.

(6) - ابن حيان: المقتبس... ج 5، ص. 426.

(7) - نفسه: ص. 426.

(8) - نفسه: ص. 268.

الخطيب⁽¹⁾ إلى أهمية السروج العامرية. ولم يفعل المقرئ⁽²⁾ ذكر السروج واللحم
الأنلسية وخصائصها. وتتحلى خبرة الأندلسيين بالسروج وصناعتها⁽³⁾ حين يعلم أن
بعض كتب الفقه والنوازل والحسبة تحدثت عن كيفية صناعتها ومراقبة العاملین بها
لأن بعضهم قد يلجأ إلى الغش في مواد تركيبها. فهذا ابن سهل⁽⁴⁾ وردت عليه شكوى
أخذ العامة إلى المحتسب من (عمال السندروس الذي يُصرف في السروج) فد صبعوه
من القصدير لا من الفضة. وقد بين القاضي ابن سهل تباين آراء الفقهاء في الموضوع،
فمنهم من ذهب إلى تحريم صناعة السندروس من الفضة لأنها لا تستعمل إلا في
المصحف والخاتم والسيف، وأن وضعها في سرج الفرس بذخ مكروه وإذا بيع على أنه
فضة فالغش واقع⁽⁵⁾ مكرر.

وتجدر الملاحظة إلى أن السروج تطورت بشكل مواز لتطور سلاح القتال نفسه.
فالقنا الطويلة أو المرمرى يقاتل به الفارس، بثبات وحرية التحرك له علاقة مباشرة
بالتحسن الذي أدخل على السروج بفعل حزام أسفل البطن⁽⁶⁾، وحزام مقدم الحصان⁽⁷⁾، أو
ما يُعرف بطوق العنق⁽⁸⁾، وحزام الخلف⁽⁹⁾.

إلى جانب ذلك نشير إلى أن الركاب يشكل بالإضافة الأكثر أهمية بالنسبة للفارس لأنه
يمكنه من الحركة والثبات والوقوف في السرج⁽¹⁰⁾. (لاحظ الرسم). إذا كان الركاب، شأنه

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 64.

(2) - المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 202.

(3) - أرسلان (شكيب): الحال السندسية...، مرجع سابق، ج 1، ص. 440.

(4) - ابن سهل (بو الأصمغ عيسى القاضي): في شؤون الحسبة، مستخلصة من مخطوط الأحكام الكبرى، حلف
(محمد عبد الوهاب)، القاهرة، 1985، ص. 22.

(5) - نفسه: ص. 22.

(6) - سحر السندروس نوعان الهندي وهو الأجود والسبتي له رائحة طيبة أوراقه دائمة الخضرة تماره سوداء
أو أرجوانية تستخدم في الطلاء (Vernis).

DOZY (R) , Supplément... , op cit, T. I, p 693

(6) - FLORI (J) ; Encore l'usage de la lance... , op. cit, p 214,236,238

(7) - ROSS (D J A) ; L'originalité de Tuoldus... , op. cit, p 130

(8) - موريز () : سجل إلى التاريخ ، ص. 99. يقول بإمكان طوق العنق أن يساعد الحصان على حر أكثر من
500 كلج.

(9) - ROSS ; ... op cit, 130

(10) - CONTAMINI (Ph), L'Histoire militaire et l'histoire de la guerre dans la France medievale depuis treize
ans op cit, p 71,93

مثل نسروج، قد عرف ما بين سنة (600) م و (900) م⁽¹⁾، فتصعب تحديد تاريخ استخدامه في الأندلس نظراً لصعوبة المصادر بصده. ولقد انفرد ابن حوقل⁽²⁾ بحصن هام ودال، رده بعد ربابته بالأندلس في منتصف عصر الخلافة؛ يقول «وما رأيت ورأى عيرى بها (الأندلس) إنساناً قط حرى على فرس فاره أو برنثون محسن ورحلاه في الركابين، ولا يستطيعون تتلحوقهم السقوط، وبقاء الرّحل في الركاب، وهم يفرسون على الأعداء من الحيل». يندرج إلى القول إن هذا النص يثير مجموعة من الملاحظات والتساؤلات لأنه فريد في وصف الفروسية بالأندلس خلال القرن الرابع الهجري. إنه يعاكس كل ما سبق قوله وإنشأه في أوصاف الحند والحيل في الأندلس. مع العلم أنه صادر عن أحد الرحالة المشهورين الذين عاينوا بعض الأحداث السياسية والعسكرية بالأندلس على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر أي خلال أوج الخلافة وقوة الحند الأندلسي. ونلاحظ أنه لم يثر انتباه الدارسين باعتباره يعارض إجماع النصوص التي تنعت الأندلسيين بأنهم «أحق الناس بالفروسية»⁽³⁾. ولا يمكن تفسير الحكم الفاسي الذي أصدره ابن حوقل في حق الأندلسيين باعتبارهم يحيلون نسروج وتركاب، إلا بميولاته غير المعلنة للفاطميين الذين أعلنوا عداوتهم لأُمويي الأندلس. وسير بني أن الركاب قد أحدث نوعاً من «الثورة العسكرية»⁽⁴⁾ في تاريخ السلاح فيودني الأوربي. وقد سبق للباحث الأمريكي المشهور لين وايت⁽⁵⁾ أن قدم نظرية معربة في تحت العسكري الأوربي تعتمد على فكرة أن الأوروبيين منذ الفرنجة بحوا في حروجه ليس بواسطة الفرسان والخيالة وحدهم، بل الفضل يعود أولاً إلى التركاب الذي تعمم في أوروبا خلال القرن التاسع للميلاد⁽⁶⁾.

(1) - موريز (!): مدخل إلى التاريخ العسكري...، ص. 99.

(2) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 108، 109.

(3) - ابن غالب: تغلبت على من فرجه الأندلس...، ص. 282، ابن الخطيب: أعمال الإعلام...، ص. 4، المقرئ: اشجع...، ج. 1، ص. 202.

(4) - CONTAMINE (Ph), La guerre au Moyen Age... , op cit p 316, 317

FLORI (J), Encore l'usage de la lance..., op cit, p 214

(5) - WHITE (J), Technologie medievale et transformations sociales, trad française, Paris, 1969, p 70 et ss

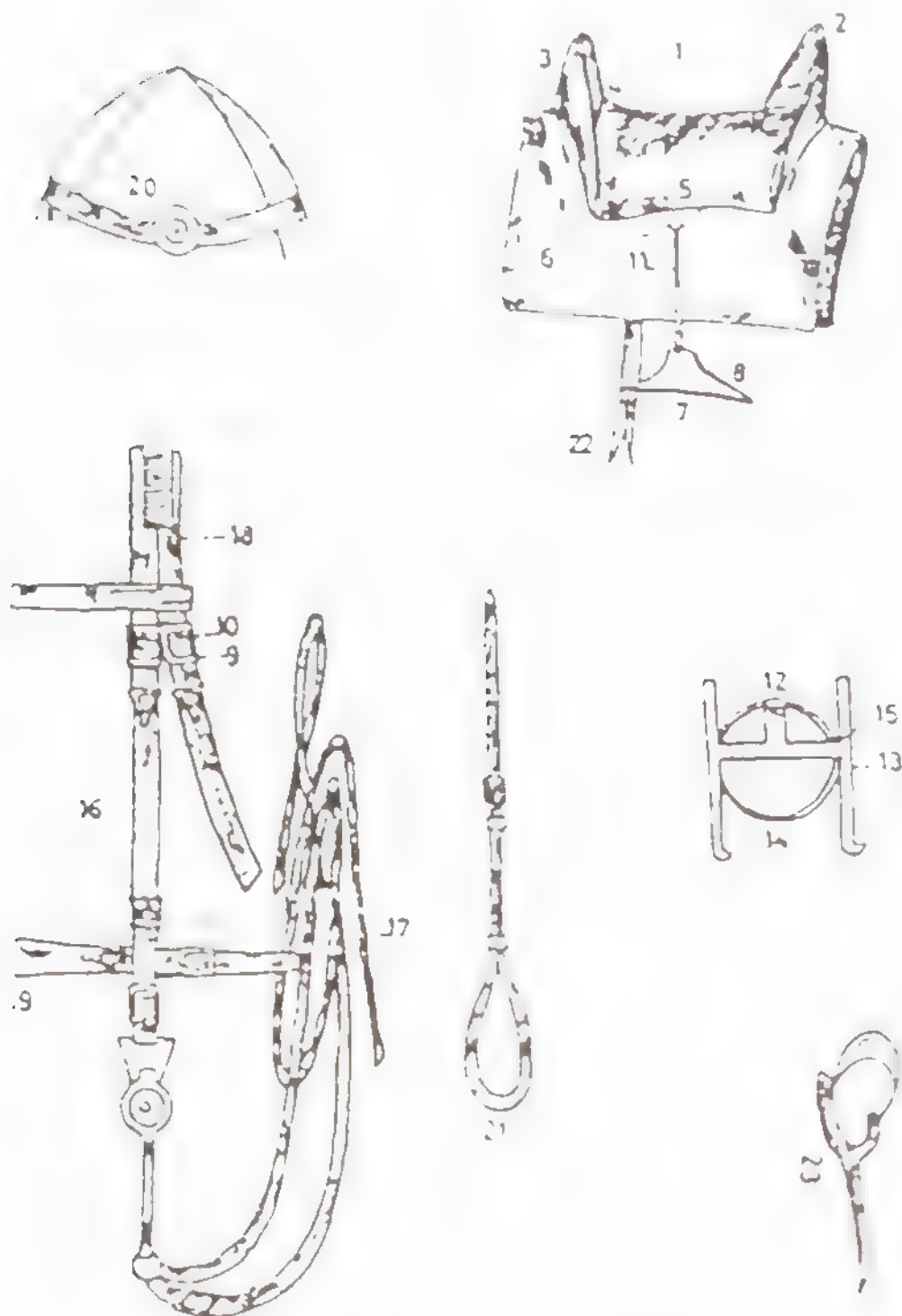
(6) - ...، ص. 108، 109. التركاب الذي لم يعرف في العالم الإغريقي والروماني، صهر خلال القرن الخامس الميلادي في الصين، ثم انتشر وعند سقوط الأندلس (Avars) خلال النصف الثاني من القرن السابع الميلادي وانتشر لدى الفرنجة في أوروبا.

CONTAMINE (Ph), La guerre... , op cit, p 316, 317

السرج واللجام ولوازمها من كتاب الفلاحة لابن العوام

الأندلسي الترجمة الفرنسية بقلم

J.J. Clement Mullet Ed. Bouslama – Tunis 1977



المراجع : ابن جزي (الفرناطي) : كتاب الخيل ... ص 275

د. الطبول والرايات والألوية

للطبول والرايات والألوية دور لا يستهان به في الحروب والمعارك، إذ كثيراً ما ساهمت في الانتصار أو الهزيمة⁽¹⁾. وقد نقلت المصادر معلومات مفيدة في أعين الأمم القديمة عليها قصد تخويف الأعداء وترهيبهم. بل أكثر من ذلك اعتبرت تلك الآلات سمة من سمات الملك كما يتضح من ابن خلدون⁽²⁾، عن كتاب السياسة لأرسطو الذي ذكر أن «من شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول، والنفخ في الأبواق والقرون...» (و) السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس...». وفي المعنى ذاته ذكر صاحب بدائع السلك⁽³⁾ أن من عوارض الملك الآلة وهي ضربان. الأول: الألوية والرايات وهي شعار الحروب والغزوات منذ عهد الخلافة، فلم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب. والثاني قرع الطبول ونفخ الأبواق والقرون وقد كان المسلمون لأول الملة يتجافون عن ذلك تنزهاً عن غلطة الملك واحتقار الأبهة⁽⁴⁾. وقد ظل استعمال الطبول والألوية والرايات قائماً في الأندلس خلال الخلافة والطوائف، بل كان تقليداً خاصة أيام النورز والحملات الصيفية والتتوية ضد المسيحيين. وذلك رغم التنبيه والحذر الذي عبرت عنه كتب الفقه والنوازل بصدد عدم تمكين العدو من آلات تساعد على إضعاف المسلمين، كالرايات وما يلبس في الحروب، وكذا النحاس الذي يستعمل في الطبول لإرهاب المسلمين⁽⁵⁾. وقد يكون اتخاذ هذه الآلات⁽⁶⁾ ردّاً على الإفرنج الذين لا يترددون في استعمال أنواع منها لترهيب المسلمين كالنفخ في القرون والضرب على الطبول. يقول ابن الكردبوس⁽⁷⁾ في عساكر ألفونسو السادس: «قد لبسوا الدروع، طبولهم

(1) - البطريق: كتاب السياسة في تدبير الرياسة...، مخطوط، ص. 228.

(2) - ابن خلدون: المقدمة، ج 2، ص. 296.

(3) - ابن الأثير: بدائع السلك في طبائع الملك...، ج 2، ص. 225.

(4) - نفسه: ص. 228.

(5) - ابن رشد: المعتمد للمهدات، ص. 613، 614، النشرسي: المعبر، ج 6، ص. 67، 190، 191.

(6) - بعض ابن حيان في أشكال السور والنور والرايات ويذكر أنها تحمل صور الأسد والتمور والعفان والتعيس المقابس، الحجى، ص. 49، 179.

(7) - ابن الكردبوس: تزيح الأسرى، ص. 92 السحب الحور هو الكنف والتدبير السواد تسميه بالحيل الأدهم الأسود الدال على الكثرة، نفسه، هامش 92.

الفرون، والوَيْتَهَم كأنها السحاب الحون». وللإفرنج من أهل بيونة وراء قُشتاله أحبار عربية في القتال حسب ابن الخطيب⁽¹⁾، لأنهم يستظهرون في حالة الحرب ببعض الألحان المهيبة. وتحدث الملاحظة إلى أن النفخ في الفرون أو الصرب على الطبول إما هو طريقة هدفها النيل من معنويات العدو أثناء المعارك. لكن قد يستعمل بعض تلك الآلات كالطبول مثلاً لأغراض أخرى غير الحرب، كالأعياد أو الرحيل أو غير ذلك بشهادة ابن صاحب الصلاة⁽²⁾ حين يقول «وضرب الطبل الكبير.. إذا صرنت فيه ثلاث ضربات نبههم (الموحدون) أنه طبل الرحيل ويُسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه». إلى جانب أصوات القرون والطبول تكشف المصادر عن أهمية الأصوات الشعرية في القتال، ودورها في استنهاض همم المتحاربين. لقد لعبت النساء والشعراء أدواراً هامة في تشجيع المقاتلين منذ القديم. قال الجاحظ⁽³⁾ على لسان الترك: «ولنا الطبول المهولة العظام والبنود... ولنا الأصوات التي تسقط منها الحُبالي». وذكر ابن خلدون⁽⁴⁾ وبعده ابن الأزرق⁽⁵⁾ أن قبائل زناتة في المغرب يتقدمها الشاعر «ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي، ويبعث على الاستماتة ويسمى تلك الغناء تاصوكايت»، أو «تازوكايت»⁽⁶⁾. ويتضح مما سبق أن اتخاذ الآلات في الحروب مثل الطبول والقرون واللجوء إلى الأصوات المهيبة ليس بظاهرة محلية تختص بها منطقة محددة أو شعب معين، وإنما هي ظاهرة حضارية موهلة يمكن للباحث أن يرصد أصولها ويتتبع تحولاتها وتطوراتها في المشرق وفي الغرب الإسلامي وفي أوروبا كذلك.

(1) - ابن الخطيب: الإحاطة، المجلد 2، ص. 43.

(2) - ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة...، ص. 540.

(3) - الجاحظ: الرسائل...، ج 1، ص. 19، 20.

(4) - ابن خلدون: المقدمة، ج 2، ص. 697.

(5) - ابن الأزرق: بدائع السلك...، ص. 229.

(6) - المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين...، ص. 103.

فارس بسلحه كاملا ، لاحظ السرج المزود بالركاب وملتوق العنق الجيد للسرج



فارسان بالمزاريق أحدهما واقف بعض الركاب



بتصرف عن CIRLOT (V) Techniques Guerrieres

خلاصة

يتبين من خلال عرض المادة المصدرة المتنوعة والتي تهتم الأسلحة والنسب الحروب أن الأندلسيين برعوا في صناعة تلك الأسلحة واستخدامها مد وقت مكر. لقد عملت الخلافة طيلة القرن الرابع على الإشراف عليها وتنظيمها عبر إحدات دار صاعة سلاح ومنصب خازنها. وانشح من لائحة أسماء الذين تولوا عملنه بنظم السلاح ومراقبته أهمية المنصب ونفوذ ومكانة صاحبه.

لقد كشفت المصادر خاصة كتب الجهاد والفروسية وكذا المعاجم المختلفة عن أنواع السيوف العربية والهندية والإفرنجية وأوصافها ومكوناتها. وفصلت في أنواع وأصول القسي العربي والإفرنجية والتركية، وبيئت طرق اعتماد الأندلسيين على القسي الإفرنجية نظراً لملاءمتها وسهولة استعمالها. ولم تغفل الحديث عن وفرة أنواع متعددة من الأخشاب والحديد أي المواد التي تدخل في صناعة الأسلحة. وإلى جانب ذلك أفادت في طرق وأوجه استعمالها في الحروب. ورغم انفراد بعض تلك المصادر خاصة كتب الطب والبيطرة بمعلومات بالغة الأهمية والدقة حول طرق العلاج من الجراح وأشكال العمليات الجراحية وتطبيقها، فإنها سكنت عن ذكر الأطباء والبيطرة الذين كانوا يتكفون بمرافقة الحملات العسكرية، وكيف يزاولون مهامهم خلال المعارك.

أما أسحة المجانيق والعرادات والدايات التي تستخدم في حصار الحصون ونقصات والأسوار وهي كثيرة، فتبين أن الأندلسيين قد استعملوها وطوروها منذ عصر الإمارة. ولم يقف الأمر عند ذلك بل طوروا كذلك الألبسة الحربية خاصة الشروع والشراس والدرق واللجم والسروج وغيرها. وانشح أن السروج التي انتشرت في الأندلس ارتبط تطورها باستعمال الخيل والفروسية. ولاشك أن الركاب كان أهم حضور على ذلك عنيها. مما يفند رعم ابن حوقل الفائل بأن الأندلسيين بجهلون في الفروسية والركاب.

وانطلاقاً مما سبق يمكن القول إن الأندلسيين وفروا أسلحة مختلفة سواء بالصناعة المحلية أو بالاستيراد من المسيحيين بالدرجة الأولى، وربما صَدَرُوا منها ما فُصِّلَ إلى جهات أخرى كالمغرب وهو ما عبر عنه صاحب الحلل الموشية⁽¹⁾ حين أوضح أن يوسف ابن تاشفين استقبل وفداً من الأندلسيين عام 474 هـ أي قبل الزلافة (479 هـ) و«بعث إلى الأندلس برسم شراء العدة، وآلات الحروب، فاشترى له منها كثير، وكل ذلك العام، عام اقتناء العدة واتخاذ السلاح».

إن وفرة الأسلحة في أندلس الخلافة والطوائف، دفع بالخلافة كما سبق الذكر إلى مراقبتها عبر "خازن السلاح" الذي لا يتصرف إلا بأوامر السلطة من قرطبة. لكن لما ضعفت السلطة آخر القرن الرابع انعدمت إمكانية مراقبة السلاح الذي تحول من أداة فعالة وهامة في يد السلطة السياسية والعسكرية، إلى وسيلة خطيرة ضدها بالدرجة الأولى. وهو ما حدث بالفعل إبان الأزمات والفتن التي عصفت بالأندلس ابتداءً من آخر القرن الرابع الهجري. وقد عبر ابن الخطيب⁽²⁾ عن هذا الوضع بدقة حين أشار إلى أن أنواع السلاح الذي كان متوفراً "أحاط به النهب يوم قيام ابن عبد الجبار". إن ضعف السلطة السياسية المركزية وظهور النزاعات الإقليمية عبر الأندلس خلال القرن الخامس الهجري زكى ظاهرة التهاافت على اكتساب الأسلحة والتباهي بها كما حدث بالنسبة للحصون والقصبات التي عادت وظيفتها العسكرية إلى الصدارة خلال الطوائف.

(1) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 37.

(2) - ابن الخطيب: أعلام الأعلام...، ص. 103.

خاتمة

حاولنا في الفصول السابقة فهم جوانب من السنتة العسكرية الأندلسية عبر دراسه العمران العسكري الذي تجسده الحصون والقصبات والأبراج والأسوار، إضافة الى الأسلحة القتالية باعتبارها أدوات مادية ساهمت في بلورة حصانصر الحند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف. كما لاحظنا أن البحث العربي المعاصر أعقل دراسة التحصين بالأندلس من زاوية تتجاوز النظرة أو النظرية التقليدية التي ترى في الحصون والقصبات والأسوار أدوات عسكرية وسياسية محضة. وذلك عكس البحث الأجنبي المعاصر الذي بذلت فيه مجهودات كبيرة في مجال الأركيولوجيا والطبونيما، وكشف عن العديد من المواقع الإسلامية التي أصابها التلف بفعل عوامل طبيعية وبشرية متعددة.

وبعد إجراء قراءة توثيقية في المصادر، تتوخى ضبط العديد من المواقع وإعداد لوائح بأسماء الحصون والقصبات والأبراج وغيرها، أي البدء بالعملية التاريخية نفسها. تبين كثرة الحصون والمدن وصعوبة تتبعها وتوطيئها عبر الأقاليم الأندلسية من الثغور إلى الجنوب إبان عصري الخلافة والطوائف. ورغم ذلك أمكن وضع لائحة أولى بأسماء نماذج من الحصون في الأرياف والقصبات والقصور في المدن، أمكن من خلالها رصد التحولات والأدوار المختلفة التي لعبها العمران العسكري في الأندلس طيلة القرنين الرابع والخامس للهجرة. لقد اتضح من المعلومات المصدرية التي أمكن الاطلاع عليها أن وظائف التحصين أو العمران العسكري سواء في الأرياف أو في المدن مرتبطة إلى حد كبير، فيما نرى، بالمجال الطبيعي والجغرافي، وبالأوضاع الاقتصادية والبشرية، وبطبيعة السلطة السياسية القائمة. ففي عصر الخلافة الذي تميز بالاستقرار الاقتصادي والسياسي والعسكري ميزنا بين مرحلتين أساسيتين في التحصين. تزامنت المرحلة الأولى مع بداية القرن الرابع الهجري وما رافقها من أحداث سياسية واقتصادية وعسكرية حاول من خلالها عبد الرحمن الناصر أن يؤسس لبنيات الخلافة والسلطة في ميادين متعددة. ولذلك لم يتردد في القضاء على المنتصرين بالحصون والمعارضين عن طريق هدم معظم الحصون التي كانت تشكل خطراً عليه. وقد وقفنا عند حل حالات الحصون التي أقدم عبد الرحمن الناصر على تخريبها وإتلافها والطرق التي اتبعتها في ذلك. إن الهدف من هذه السياسة في الواقع، لم يقتصر

على الجانب العسكري المحصن المتمثل في السيطرة على الحصون، بل الأمر معدي
 تلك إلى إحداث تحولات عميقة في بنيات العمران العسكري والبشري الذي كان سائدًا
 خلال النصف الثاني من الإمارة. لقد كان الأمر يقضي، فيما نعتقد، إخضاع المحل
 لضيعي ومكوناته العسكرية والبشرية والاقتصادية. وبعد تحقيق هذا الهدف وبناء
 سلطة سياسية مركزية وحد نظامي (حدد الحضرة) قوين، وإعلان الخلافة انطلقت
 المرحلة الثانية في تاريخ العمران العسكري. لقد تغيرت نظرة الخلافة إلى التحصين
 بحيث أصبح العمران العسكري يشكل إطارًا هامًا لأنشطة مختلفة بشرية واقتصادية
 وسياسية وعسكرية كذلك. فباستثناء حصون مناطق الثغور التي احتفظت بخصوصيات
 متعددة منها التسهيل لشخصيات أو لعائلات مشهورة عليها، وقيام تلك الحصون بدور
 المراقبة العسكرية والاقتصادية لأقاليم الثغور، فإن الحصون في الأقاليم الداخلية وُحِدت
 فيها السلطة المركزية بواسطة عمالها وولاتها، أي ممثليها السياسيين الذين كانوا
 يساهمون في تأطير الأنشطة الاقتصادية والعمرانية والبشرية في محيط الحصون⁽¹⁾.
 وعملت الخلافة في الآن نفسه على العناية بالعمران العسكري، في المدارات الحضرية.
 لقد اهتمت بـ«عمران الحضري عبر إنشاء أو توسيع المدن التي تراعى فيها شروط
 الارتفاع وتوفر المياه.

وعلى عرار الحصون كانت القصبات والأحياء المجاورة لها في المدن مراكز
 أساسية تأوي ممثلي سلطة قرطبة وكذا الجند الإقليمي الذين يساهمون بدورهم في توجيه
 وتأطير الأنشطة الاقتصادية والعمرانية والعسكرية في الحواضر. ولم تكتف السلطة
 المركزية القوية بإخضاع المجال الداخلي وتأطيره في ميادين متعددة خاصة في مجال
 «عمران العسكري». وقد أصبحت توفر على جند مركزي قوي ينفذ سياستها، بل اتحت
 طموحًا إلى محاولة إخضاع محلات أخرى أو مناطق نفوذ أعدائها خارج الأندلس، أو
 على الأقل مدافعتهم سواء في الثغور الشمالية أو في مجال البحر المتوسط وشمال
 إفريقيا. و انطلاقًا من ذلك بنت الخلافة ورممت حصونًا وقصبات هامة ذات طابع
 عسكري تدافع عن حصن طريفة المقابل لحبل طارق وقصبات مالقة والمرية، مرورًا
 بحصن عفة الفر إلى الشمال قليلًا من قرطبة وصولًا إلى مدينة سالم وحصن عرماج

(1) - لاحظ صعوبة دراسة «لسكر المحصن» نظرًا لندرة معصيات كبيرة تتعلق بأعداد السكر في القرى
 والأقاليم. وصيغة تسميتهم الاقتصادية وعرفهم بالحصون. في حين درس لسكر المحصن في
 أوروبا الفيودالية منذ بداية السبعينات كما بينا سابقًا في فصل الحصون والأرياف.

لقد صوّريا شَمَلا. لكن هذه السياسة المتبعة حال الحاقه في مدن العماران العسكري
ثم تعد عنة لفرس الحامس البحري. فمجرد القول بحم الخلافة على المستوى السياسي
ظهرت الطائفة السياسية، والعمرائة ابن صبح القول على المستوى الاقتصادي. فربما
أمكن ملاحظته من نمو حصري إقليمي على عهد بعض الدويلات الطائفة حصه في
أشلية وعرباطة. فإن ظاهرة التّحصّن في القصبات والحصون بل وانتعاش بعض
العسكري عبر الإنشاء والتّرميم، أعاد إلى الواحنة ظاهرة الانتزاع والاحتواء بالحصن
والأسوار وداخل القصبات التي سادت إبان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري في
فيل الخلافة. لقد أصبح الحصن والقصبه والمقل والصحرة عملة رائجة نفوذ وتربّس
غوذ من امتلاكها كما بيّنا من خلال مصادر الفترة الطائفة نفسها. إن الملاحظة غريبة
نصدق في محال الأسلحة وهي أيضا أداة أساسية مادية ساهمت في بناء الحد الانساني.
ففي الوقت الذي أقدمت فيه الخلافة على توفيرها ومرافقتها والإشراف عليها. غشت
الفن والأزمات لتصبح أداة خطيرة ضد السلطة نفسها.

و انطلاقا مما سبق نعتقد أن التاريخ للعماران العسكري الاندلسي الذي يعكس تحديدا
الهادي انهاء من الحضارة الإسلامية يحتاج أولا إلى البحث التاريخي التوثيقي والعسكري
الذي يمر عبر إجراء قراءة واسعة ودقيقة ما أمكن لمختلف المصادر. تتوحي قيام حرك
في بنيت التّحصين والعماران العسكري الاندلسي عبر مختلف المراحل التاريخية. وبحسب
تأثير على نتائج البحث الميداني، الأركيولوجي والطبونيومي والجغرافي. إن من شأن ذلك
نتائج أن تُبَيّن الكثير من التساؤلات المرتبطة بالتّوطن والمواقع وطبيعة البناء وكذا عمو
بناء. ولأنك أن ننتج سباهم في إبراز التطورات والتحويلات التي لحقت بالعمار
عسكري الاندلسي. ويساعد في الوقت نفسه على التعريف بالعديد من المواقع التي تترك
بفعل عوامل طبيعية وبشرية.

الباب الثالث

الأسطول الحربي

الفصل الأول : الرباطات البحرية.

الفصل الثاني : دور الصناعة ومواد الإنشاء.

الفصل الثالث : السفن الحربية، الأنواع والأعداد

والمسافات والأوقات.

الفصل الرابع : رجال الأسطول، الأعداد الحمولات

والقيادة والأسلحة والألبسة والرواتب.

«(...) يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركذ أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة. هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق...».

جواب عمرو بن العاص والى مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب عن سؤال حول البحر.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: أبو الفضل محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1966، ص. 51.

« (...) وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم (المسيحيون) ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح... » .

ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 692.

تقديم

تعددت المصنفات والدراسات حول البحر المتوسط والعلاقات التي سجت على صفاة منذ وقت مبكر؛ كما ألف الكثير في الأدوار التي لعبها في مجالات مختلفة. فإذا كانت الحضارة الإسلامية قد لعبت دورا أساسيا في توجيه الأحداث الاقتصادية والعسكرية في هذا البحر خلال العصر الوسيط، فكيف كانت الأوضاع العسكرية في الحوض الغربي لهذا البحر خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة؟ أو كيف تعاملت القوى السياسية والعسكرية في الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف مع البحر المتوسط في ميدان صناعة الأساطيل الحربية لمواجهة المسيحيين في الشمال والفاطميين في شمال إفريقيا ومصر أو غيرهم.

إن دراسة الأسطول الحربي في البحر المتوسط خلال الخلافة والطوائف يقتضي استحضار النظرية المنشودة التي وضع أسسها المؤرخ البلجيكي بيري. هـ.⁽¹⁾، حول العلاقات المسيحية الإسلامية في البحر المتوسط، وأثار أو نتائج السيطرة الإسلامية على هذا البحر، على الأوضاع الاقتصادية في غرب أوربا قبل القرن العاشر الميلادي.

لا يتسع المجال لمقاربة نظرية هـ. بيري ومقارنتها بأراء متعددة في الموضوع. يكفي القول إنها أثارت جدالا ونقاشات واسعة حول أهمية البحر المتوسط منذ فترة العصر الوسيط الأعلى على الأقل. إنها نظرية أصبحت كلاسيكية، بل متجاوزة من قبل مختلف الدارسين المهتمين بالموضوع⁽²⁾.

تجدر الإشارة إلى أن الأسطول عموما شكل محورا للعديد من الأبحاث والدراسات العربية والأجنبية خاصة في الجزء الشرقي من البحر المتوسطي. أما أغلب الأبحاث المخصصة لهذا الأسطول في جزئه الغربي فانكبت بالدرجة الأولى على الأسطول التجاري. ولم تنقش الأسطول الحربي إلى بشكل عرضي أو جزئي، أي في إطار تناول نزاعات الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية بين القوى المسيحية أو الإسلامية أو

(1) - PIRENNE (H); Mahomet et Charlemagne..., op. Cit

(2) - BOUTRUCHE (R); Seigneurie et féodalité..., op. Cit. T. 1, p 34 et sv

LOMBARD (M); Mahomet et Charlemagne, le probleme economique dans l'espace et réseaux du Haut Moyen Age, op. Cit, p 31-45

ارشبات. (ل): قوى بحرية وتجارية في حوض المتوسط ، مرجع سابق، ص. 39 وما بعدها

حنوي (م): جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية ، ص. 151، 162.

البرنطية التي تصارعت وتقاومت النفوذ في البحر المتوسطي.

من الاهتمام بالأساطيل التجارية يعود، فيما نرى، إلى توفر جزء هام من المادة التاريخية التي تكونت بشكل من الأشكال موضوع التجارة في البحر المتوسطي. فيكفي استعراض قسمه بأسماء مختلف المصادر والمصنفات من كتب الأسباب والتراجم والطبقات وكتب الرحلات والجغرافيا، وكذا كتب الفقه والنوازل والحسبة، ناهيك عن كتب فقهية اهتمت بالشريعة المرتبطة بالملاحة البحرية وما تطرحه من قضايا اقتصادية وتجارية واحتمالية دقيقة⁽¹⁾. كضيعة السفن والمراكب والسلع والأكرية⁽²⁾ والحمولات التجارية والاتفاقيات بين التجار التي عبرت عن ذلك من القضايا النقيصة التي تساعد في إثارة جوانب متعددة من الأساطيل التجارية.

لما حظ الأسطول الحربي الأندلسي في متون المصنفات السالفة الذكر قليل جدا. فإن ذكرت إشارات حوله فهي عامة، بحيث لا تكاد تتجاوز عتبة إبراز فوائد هذا الأسطول. وذكر العروات والحمولات البحرية وأهميتها السياسية والعسكرية بالنسبة للسلطة أو القوى التي قادت تلك الحملات. وأحيانا كثيرة يغطي الخلط ما بين الأسطول التجاري والحربي. ونساسة الأسطول الحربي الأندلسي خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة (X / XI م). يجب تتبع ورصد المادة والإشارات المصدرة المرتبطة به في مجال الغرب الإسلامي. بيان مرحلة الدراسة. إن من شأن هذه المادة المتناثرة في مظان مختلفة أن تفيد في تبين أهمية دور صناعة الأسطول الحربي والمواد التي تدخل في صناعة أنواع السفن الحربية. وكذا دور رحل الأسطول الحربي وأسلحتهم وألبستهم ومراتبهم ورواتبهم إلى غير ذلك. نعتقد بضرورة معالجة المادة المصدرة المتوفرة لمحاولة النظر في البنيات الداخلية

(1) - ابن النحاس (بويعاس أحمد بن إبراهيم): مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، (مثير الغرام إلى دار السلام). مخطوط الخزائن العامة، الرباط ص. 75، 84 وما بعدها.

الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط 592 ق... 88 - وما بعدها.

عن لائحة كتب الجغرافيا والرحلات التي اهتمت بالتجارة البحرية انظر:

الطاهري (1) - لائحة تجارية لألسية من خلال كتب التراجم والطبقات، في: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف، الدار البيضاء، لمطبعة الجديدة، 1993، ص. 55، 75.

(2) - محمد بن عمر (ابن يوسف بن عمر الكندي الأندلسي): كتاب أكرية السفن والنزاع الإسكندري، المكنى أبو عبد الله (ت 310) بين أيدي تحقيق نور طاهر (مصطفى)، الكراسات التونسية، مجلد 31 عدد 123، 124، 1983، ص. 553.

عدة من كتب التي قبله حر، وهو خلف ابن أبي فراس الذي عاش بعد أبي عبد الله محمد بن عمر، (مر حر ق 4 هـ).

ولتركيبات الأساسية المكونة للأسطول الحربي الأندلسي خلال الخلافة والطوائف. وذلك لمحاولة تحاور النظرة أو التصور السائد والقائم على وصف الأسطول الحربي ومحدداته خاصة في المناسبات التي يحقق فيها انتصارات مختلفة. بحسب أيضا، إثارة العديد من القضايا والتساؤلات التي ما تزال في حاجة إلى البحث والتقصي من ذلك مثلا: حمولات سفن الحربية، والمسافات التي تقطعها، والأوقات التي تستغرقها في ذلك، وكذا الفصول والأزمنة التي تناسب تحركات الأسطول الحربي. ناهيك عن قضايا أخرى كصعوبة التمييز ما بين الأسطول الحربي والتجاري، وما بين الأسلحة البحرية والبرية إلى غير ذلك من القضايا التي أغفلت إلى حد بعيد من قبل البحث التاريخي المعاصر. إن شح المادة المصدرية بشأن بعض الجوانب السالفة الذكر يدفع إلى استشارة مصادر متنوعة⁽¹⁾ ومفيدة ولو نسبيا في إثارة الموضوع.

انطلاقا من الملاحظات السابقة يمكن تناول موضوع الأسطول الحربي الأندلسي خلال الخلافة والطوائف كالتالي:

- الرباطات البحرية.
- دور الصناعة ومواد الإنشاء.
- السفن الحربية: الأنواع والأعداد والمسافات والأوقات.
- رجال الأسطول.

(1) يمكن الاستعانة بمصادر أخرى غير كتب الترخيم والتراجم والأنساب والنوادر والرحلات والجغرافية، المعروفة، كمصادر أساسية تثير في كثير من النشء من الأساطيل الحربية والحروب البحرية في مناسبات عدة كما يتضح من موسوعات لاسه وندوب لتعزية كالتفح والدخيرة للمعري وابن سنام، أو ديوان بن حميس وديوان الأعمى النطنجي وسعر ابن دراج انقسطلي أو ديوان ابن هاتني الأندلسي أو سيرة حوذر القاطمي لح بحث تحت بحر وبحر من غلب خصوص الأدبية، وإن كانت مفيدة لأنها تعكس، بشكل من الأشكال، روح عصرها، فهي لا تخلو من مبهات كثيرة يصعب تصديقها. انظر ذلك في:

محمدي، عتيق، — سياسة وحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مدريد، 1987.

الفصل الأول

الرباطات البحرية

لقد سبق الحديث عن قيمة الجهاد في الثغور الأندلسية المحادية للمسيحيين⁽¹⁾، وكيف أن الخلافة الإسلامية كانت تولي اهتماماً كبيراً لجزيرة الأندلس ككل باعتبار موقعها المهم في أقصى غرب ما يُعرف بـ "بدار الإسلام"، في مقابل "دار الحرب". وقد كشف المصادر لمتوعة خاصة كتب الفقه والجهاد والنوازل والطبقات والأنساب والتراجم، وكتب لأحلاق السلطانية، وكذا كتب الفروسيّة عن الأهمية القصوى التي كانت تحظى بها شبه جزيرة الأندلس في ميدان الجهاد والرباط⁽²⁾. وإذا تأكدت أو تحققت أقوال الرسول صلى الله عليه وآله التي تذكر أن الجهاد والرباط سينقطع «إلا بجزيرة يقال لها الأندلس بالمغرب الأقصى، المرابط فيها أفضل من شهيد»⁽³⁾. وأن رباط يوم "بجزيرة الأندلس، أفضل من رباط عامين في ثغور غيرها"⁽⁴⁾؛ فإنه يلزم في اعتقادنا إعادة النظر فيما قيل في مفهوم الغرب الإسلامي والمغرب الأقصى⁽⁵⁾. يبدو أن المصادر قد ميّزت خصائص الجهاد والرباط على البحر، وركزت على فوائده وفضائله لاعتبارات كثيرة أهمها: موقع شبه جزيرة الأندلس وأسطقتها في مجال البحار خاصة في البحر المتوسط. ولذلك قيل: «للعزوة في البحر فضائل ليست للعزوة في البر»⁽⁶⁾. وإن «عزوة في البحر أفضل من عشرة في البر»⁽⁷⁾. وتغزو في البحار فوائد جمة في المغانم⁽⁸⁾. وقد خصص ابن أبي زمنين⁽⁹⁾ حديثاً مفصلاً لفضائل الرباط على البحر والحراسة فيه حين أوضح أن أبا هريرة قال رباط «ليلة على ساحل البحر وراء عورة المسلمين أحب إلي من أن أصادف ليلة القدر في أحد المسجدين، لمسجد الحرام، ومسجد رسول الله»⁽¹⁰⁾. ومن «رابط أربعين ليلة فقد استكمل رباط»⁽¹¹⁾. وعنى نهجه سار ابن النحاس⁽¹²⁾ في تفسير فوائد الرباط والغزو في البحر.

(1) - انظر فصل: نظام الثغور.

(2) - انظر الفرق بين الجهاد والرباط في: ابن هزيل: في الرباط والجهاد...، 5 أ.

(3) - ابن هزيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط، 7 ب.

(4) - نفسه: 8 أ.

(5) - انظر فصل: نظام الثغور، ص. 43، 44.

(6) - ابن النحاس: مزارع الأشواق...، مخطوط، ص. 75.

(7) - نفسه: ص. 76.

(8) - مجهول: كتاب في الجهاد...، مخطوط، 99 ب.

(9) - ابن أبي زمنين: فتوة الغازي...، مصدر سابق، ص. 246، 247، 249.

(10) - نفسه: ص. 247.

(11) - نفسه: ص. 249.

(12) - ابن النحاس: نفسه، ص. 75، 76.

وذهب أحد الفقهاء⁽¹⁾ إلى تعداد فضائل وأهمية غزوات النساء في البحر. وقال صاحب بدائع السلك⁽²⁾ بأن الحابطة كانوا يفضلون الجهاد في البحار عن الجهاد في البر لما يصاحبه من خطر البحر وخطر إمكانية الفرار. ودون التفصيل في سرد المعلومات الكثيرة التي ترحر بها المصادر العربية الإسلامية⁽³⁾ حول الرباط البحري، نلاحظ أن الحديث عن فضائل الجهاد والرباط البحري يعكس إلى حد كبير حقيقة تاريخية مرتبطة، فيما نرى، بتاريخ الحضارة الإسلامية منذ نشأتها. لقد اصطدم المسلمون إبان الفتوحات بالبحار وبشعوب أخرى لها علاقة بالبحر وبثقافته، مما اضطرهم إلى التعامل مع هذا الواقع الجديد، وحث المجاهدين على ركوب البحر وتعداد فوائده. لكن البداية كانت صعبة للغاية كما يتبين مما أشرنا إليه سابقاً في السؤال الذي وجهه عمر بن الخطاب إلى الولي عمرو بن العاص، حول البحر. ولذلك كانت تخصص مكافآت وحصص مهمة في الغنائم لتحفيز وتشجيع الذين يركبون البحر⁽⁴⁾. تجدر الإشارة إلى أن سكان شبه جزيرة إيبيريا وكذلك سكان الجزر خاصة تلك الواقعة في الجزء الغربي من البحر المتوسط، قد خبروا البحر ودفعتهم الضرورة إلى ركوبه واستعماله لأغراض متعددة كما تشهد بذلك كتب الرحلات والجغرافيا. يقول المقدسي⁽⁵⁾: «وَأَهْل صَقْلِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ أَخْبَرَ النَّاسَ بِهِ (البحر) وَحُدُودَهُ وَخَلْجَانَهُ لِأَنَّهُمْ يَسَافِرُونَ فِيهِ وَيَغْزُونَ مِنْهُ هُوَ يَلِيهِمْ وَفِيهِ طَرَقَهُمْ إِلَى مِصْرَ وَالشَّامِ، وَقَدْ رَكِبَتْ مَعَهُمُ الْمُدَّةُ الطَّوِيلَةُ أَسْأَلُهُمْ عَنْهُ وَعَنْ أَسْبَابِهِ، وَأَعْرَضَ عَلَيْهِمْ مَا سَمِعْتَ فِيهِ... فِيهِ رِبَاطَاتٌ فَاضِلَةٌ...». لقد انتشرت، بالفعل، الرباطات على طول السواحل الأندلسية خاصة في الوقت الذي نشطت فيه هجمات بعض القبائل الأوربية كالنورمان على سواحل

(1) - مجهول: في الوقف والأمور الجهادية...، مخطوط، 28 أ.

(2) - ابن الأثرق: بدائع السلك في طبائع الملك...، مصدر سابق، ج 1، ص. 54

(3) - انظر مثلاً:

ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 1، ص. 10؛ ابن أبي منصور (صفي الدين): الرسالة، نشر جبريل ديني، القاهرة، معهد فرنسي للأثار الشرقية، 1986، ص. 7، 52، 76؛ الصنفوري (عبد الرحمن الإمام): نزهة المجالس ومختب نفائس، مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، ج 693، 15 وما بعدها؛ ابن المناصف: الأنجاد في أحكام الجهاد...، مخطوط نسخة خزانة ابن يوسف، مراكش، رقم ي 216، ص. 62 وما بعدها.

(4) - مجهول: كتاب الجهاد...، مخطوط سابق، 78 ب.

MORABIA (Alfred). Le Gihad dans l'Islam médiéval Le «Combat sacré» des Origines au XIIe siècle, Paris AL Michel, 1993, p. 207, 225, 243.

(5) - المقدسي: أحسن التقاسيم...، مصدر سابق، ص. 10.

لأنس. يؤكد الغنري⁽¹⁾ أن ألمرية « ليست بأولئة العماره، إنما احدها لعرب رافضات
وكت فيها محارس، وكان الناس يرابطون فيها ولا عمارة فيها يومئذ، لا سكي. عني
سور صحر منيع بباد الناصر أمير المؤمنين سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة». وشمير
نحميري⁽²⁾ لاحقاً إلى أهمية رباط ألمرية الذي اتخذه العرب كمحرس بسحور فيه للرافض.
ويدو أن منطقة بحاة ألمرية كانت منذ وقت مبكر نشطة على الساحل، فهي حسب التقسيم
الجغرافي القديم اسم لميناء روماني إيبيري يدعى URCI⁽³⁾، قلده الأمير عبد الرحمن الثاني
فصاعة من اليمينية مقابل حراسة السواحل المجاورة ضد الهجمات المتعددة التي كانت
تستهدفها، واستغلال أراضي الإقليم ولذلك سميت المنطقة عرش اليمن⁽⁴⁾.

إلى جانب بجانة ألمرية تحدثت المصادر⁽⁵⁾ عن حصن سهيل بإقليم ريه. ويعتبر ثرحا
نمراقبة على البحر لأن كل مار يرى بسهولة. وذكر الإنريسي⁽⁶⁾ رباطات هامة في
سواحل البحر الشامي قائلا: «لومنه (نهر إيره) إلى رابطة قشتالي عربا إلى البحر سنة
عشر ميلا، وهي رابطة حصينة منيعة، على نحر البحر الشامي يسكنها قوم أخيار،
وبالقرب منها قرية كبيرة...». وأضاف بصدد رابطة ما بين مرسية وألمرية: «ومن هذا
لحصن (بيرة) إلى عقبة شقر، وهي عقبة صعبة المرقى لا يقدر أحد على جوازها
ركا... ومن العقبة إلى الرابطة مرحلة، وليس هناك حصن ولا قرية وإنما بها قصر فيه
قوم حراس تطريق...»⁽⁷⁾. وإلى الشرق من مدينة ألمرية وجد رباط ساحلي عرف بالقباطة.
وصح. بروفتال⁽⁸⁾ أنه يقابل الموضع المعروف اليوم ب: (CAP de Gata). ورباط آخر
بعصب نهر إيره سمي بقشتالو، وقيل إنه (SAN Carlos de la Rápita)⁽⁹⁾. وربما هو

(1) - الغنري: ترصيع الأخبار...، ص. 86.

(2) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 537.

(3) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne..., op cit. T 1, p 351
CHALMETA (P), Concesiones territoriales ..., op cit, p 33, 43

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne - op cit, p 351 CHALMETA (P), Al-Andalus - Sociedad
feodale? - op cit, p 180 et sv

(5) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 99، مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 68.

(6) - الإنريسي: نزهة المشتاق...، ص. 555.

(7) - نفسه: ص. 562.

(8) - LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne - op cit, T 3, p 11, 112

(9) - VALLVÉ (J B), El califato de Córdoba, Madrid, MAPFRE, 1992, p 128, 129

رابطه قشتالي التي تحدث عنها الإدريسي سلفا. واعتمادا على بعض الرحالة والجغرافيين الذين راروا الأندلس كشف L. Torres Balbás⁽¹⁾ عن مجموعة من المراكز اشتهرت على نيا رابطات كعمروس قرب ألمرية⁽²⁾، والنينول (Albunol) بالقرب من إقليم البشارات. ونمت الإشارة إلى رابطات بحرية هامة بجهة الشرق الأندلسي كرباط (Guardamar de Segura) غير بعيد عن مدينة القنت⁽³⁾ (Alicante)، وآخر بالقرب من مركز مربلة⁽⁴⁾، ورابطه كسكي⁽⁵⁾ أو كسكلي⁽⁶⁾ الواقعة بين بلنسية وطرطوشة، وهي مشهورة ببركتها⁽⁷⁾. وفي الجنوب الأندلسي تذكر رابطه روطه غير بعيد من مدينة قادس. وقد أشار أحد الفقهاء إلى أنها معطمة ومن رابط فيها صائما غفرت ذنوبه⁽⁸⁾. وفي جهة العرب نشطت عدة مراكز في الجهاد والرباط كما هو الشأن في مدينة شلب⁽⁹⁾ ومراكز أخرى⁽¹⁰⁾.

لم تقتصر الرباطات على السواحل، بل نشطت أيضا بجانب بعض الأنهار الكبرى خاصة تلك الواقعة في أقاليم الثغور المواجهة للإفرنج كأنهار إيريه ودويره⁽¹¹⁾، وشقر⁽¹²⁾ (الزيتون)، وغيرها⁽¹³⁾، أو في بعض الأنهار الداخلية كما هو الحال في الوادي الكبير الذي لعبت إشبيلية في مصبه دورا هاما في صد الهجمات المسيحية المتكررة على

(1) - TORRES BALBÁS (L). Rabitas I hispanomusulmanas, dans Al Andalus, vol. XIII, fasc. 2 Madrid-Granada, 1948, p 445, 491.

(2) - تكرر الإشارة إلى أن مجموعة من الأبحاث الميدانية الأركيولوجية والطبوغرافية قد بينت أهمية العديد من المواقع المحصنة على طول السواحل الأندلسية كما هو الحال في قادس وطرطوشة ومالقة وألمرية والقنت وغيرها، انظر الحصون والقصبات والأسوار في الباب الثاني.

(3) - AZUAR RUIZ (R); Las técnicas constructivas en el-Andalus.. op cit, p. 130 et sv.

(4) - نفسه: ص. 132.

(5) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 90، 103.

(6) - نفسه: هامش (2)، ص. 90.

(7) - نفسه: ص. 103.

(8) - نفسه: ص. 90.

(9) - TORRES BALBÁS (L); Rabitas Hispanomusulmanas, op. cit, p. 485

(10) - HERNÁNDEZ CRUZ (Miguel) El Islam de Al-Andalus Historia y estructura de su realidad social Madrid, A E C I, 1996, pp. 266, 345

(11) - انظر أهمية نهري دويره وإيريه في الرازي: وصف الأندلس، ص 42 وما بعده

BELEN SANCHEZ PRIETO(A). Líneas cristianas y ejes musulmanas de fortificación en la rivera senana del Duero (Siglos IX-X) Revista de las Armas y servicios N.º 621 - op cit p 56-58

(12) - الرازي: نفسه، ص 74. الفاسي (محمد) الإعلام الجغرافية الأندلسية...، مرجع سبق، ص. 121

(13) - سائر أسماء نهر في المرافقه المسجلة خلال النوايف (سو هود)

المقري: النفع...، ج 3، ص. 266.

سواحل الأندلس منذ بداية القرن الثالث الهجري⁽¹⁾. وقد كان المرابطون يسمون الطلائع والمحارس⁽²⁾ والأبراج لمراقبة الإبحار التجاري والعسكري.

يتضح من الأمثلة السالفة الذكر أن الرباطات في الأندلس مؤسسات لم تقتصر على لعب الدور العسكري فحسب بل جمعت ما بين الوظيفة الدينية والعسكرية. لقد سبق القول أن كتب الأحكام الفقهية والجهاد والنوازل، وكتب الأخلاق السلطانية قد فصلت الحديث عن حقوق وواجبات المجاهدين في الثغور الأندلسية، بل وذكرت صنفاً من الرجال العلماء والقضاة والأدباء الذين ينقطعون في مراحل محددة من حياتهم للجهاد⁽³⁾. إن هذه المصانير تحدثت أيضاً عن جوانب مختلفة من حياة المرابطين والمجاهدين في مختلف الرباطات الأندلس. إنهم كانوا يمارسون حياة يومية قائمة على التقشف والاقتصاد على ضروريات الحياة إلى جانب مزاوله مهمة الحراسة. ولذلك ينعتون أحياناً بالسُّحار أو العسائر⁽⁴⁾ (العسر) لأنهم كانوا يسهرون الليالي في أبراجهم وطلائعهم لمراقبة ورصد تحركات الأعداء.

فكيف يتم الاتصال والتنسيق ما بين الرباطات المختلفة عبر السواحل الأندلسية؟ يبدو أن أحد وسائل مراقبة العدو عبر رباطات جهة من الجهات في السواحل هي الأبراج العالية التي يستخدم فيها المرابطون حركات أو أصوات معينة نهاراً؛ كما يندرون بالنيران ليلاً إذا أحسوا بخطر يهددهم أو يهددهم. وقد يجوز بناء بعض الأبراج على صوامع المساجد لاستطلاع أخبار النصارى⁽⁵⁾ كما جاء في إحدى الفتاوى يسأل فيها أهل قرية، بشرى نبي حربها العدو وبقي جامعها قائماً. و«بناء قامة على الصومعة المذكورة، تكون عوناً لأهل بشرى، وأهل الأرحى والنوتية الهابطين، إلى البحر، وفيها خير كثير تنس...»⁽⁶⁾. وتذكر بعض الإشارات المصدريّة أن إيقاد النار في بعض الأبراج

(1) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 99.

(2) - BASSOLS (Sergi), Una Linea de Torres Vigas musulmanas: FRIDIA-TORTOSA-AL-QANTARA. Rev. de Estudios árabes, Vol. XI e Fase, I, Madrid, 1990, p. 127, 254.

(3) - انظر فصل: نظام الثغور.

(4) - الوائلي: المعيار...، ج 7، ص. 236.

ARCAS CAMPOY (Marta) Teoría jurídica de la guerra Santa. EL LIBRO «QIDWAT AL-GAZI» من أبي زانان: Al-Andalus MAGREB. Estudios árabes e Islámicos, N.º 1. Universidad de Cádiz. 1993. p. 65, 68.

(5) - الوائلي: المعيار...، المصدر السابق، ج 7، ص. 148.

(6) - نفسه: ص. 149.

تخصصه لذلك بعد وسيلة ناحية من وسائل الاتصال بين المرابطين في السواحل خاصة في نشر. نشر الأندلسي⁽¹⁾ إلى أن الطريق الساحلي الذي يبدأ من المربة إلى آخر الحور مروراً بقرية الحاس وبرة ودلاية فيه برج مبني بالحجارة، "مصنوع لوقيد النار فيه عند ظهور العدو في البحر سنة أميال". لا يعرف بالضبط تاريخ استخدام النار في الأسراج الأندلسية كوسيلة أساسية للاتصال. ويبدو أنها استخدمت في المشرق منذ وقت مبكر. يقول أحد اندلسيين⁽²⁾ اعتماداً على المقدسي إن الإنذارات النارية قد استعملت في المجال الأمني حصّة في السواحل منذ القرن الثالث الهجري على الأقل. وأضاف آخر⁽³⁾ أن الإتصال ما بين الرباطات المختلفة كان يتم بواسطة عملية إيقاد النار أو بالأصوات أو بواسطة ما يعرف بالانعكاسات الشمسية، أو علم المرايا المحرقة⁽⁴⁾ التي تستعمل لحصار العدو وإيقاده عبر استغلال الخطوط الشعاعية المنعكسة أو المنكسرة مع أشعة الشمس.

إلى جانب الأعمال العسكرية، كان المرابطون يزاولون حياة دينية، أمكن التعرف على بعض جوانبها من خلال كتب التشريع الفقهي والنوازل التي واكبت ظاهرة الرباطات وعكست بامتياز بعض قضايا وهموم القائمين بها مثل روايتهم بالطعام أو آثار ذكر الله ورفع الأصوات بالقرب من العدو وغيرها من الأمور التي تشكل جزءاً من الحياة اليومية التي يعيشها المرابط. يرى ابن رشد⁽⁵⁾ في ميدان الرواتب أنه «لا يجوز للجنّد من المرابطين وغيرهم بيع الطعام المرتب لهم على خدمتهم وعملهم... إلا بعد أن يقبضوه ويستوفوه...». وقيل في طريقة مزاوله المرابطين للعبادة والصلاة والذكر أن الإمام مالك أفتى في بعض المسائل التي تهم الأصوات واللهو في الرباط. فأجاز ما له علاقة بذكر الله من التهليل والتكبير ونفر ممّا له علاقة بالتطريب أو بإزعاج الآخر. قال «(...) سئل مالك عن القوم يكونون في الرباط يهتلون ويكبرون على الساحل ويطربون بأصواتهم،

(1) - الإبريسي: نزهة المشتاق...، ص. 563.

(2) - حركات (1) نشاط اقتصادي إسلامي في العصر الوسيط، الدار البيضاء، دار إفريقيا والشرق، 1996، ص. 206.

(3) - BASSOLS (Sergi), Una Lnea de Torres , op cit, p 142

(4) - حاجي خليفة (مصحف من عند الله) كتب الطلوع في أسامي الكتب والفنون، الامانة، مطبعة العلم، 1310 هـ، ج 2، ص. 416.

(5) - ابن رشد: الفتاوى، ج 3، ص. 1453، 1454.

قَالَ، أَمَا التَّطَرُّبُ وَلَا يُعْجِبُنِي، وَأَمَّا أَنْ يَهْلِلُونَ وَيَكْبُرُونَ... فَلَا أَرَى بِهِ بَأْسًا...»⁽¹⁾. يَتَضَحَّ
مِنْ الْأُمُتَةِ السَّائِقَةِ أَنَّ الْقَائِمِينَ بِالرِّبَاطِ الْحَرِيِّ بِالْأَنْدَلُسِ كَانَتْ انْشِعَالَاتُهُمُ الْيَوْمِيَّةُ تَتَوَرَّعُ
مَا بَيْنَ الْأَعْمَالِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْجِهَادِيَّةِ وَالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ.

||| - بَنِي تَحْدَس...: مَرْغَاسُ بَوَاقٍ، مَخْطُوطٌ ص. 84، 85؛ الْوَنُشْرِيْمِيُّ: الْمَعْيَار...، مَصْدَرٌ سَابِقٌ، ج 11، ص. 105.

خلاصة

يسر من خلال ما أمكن الاطلاع عليه من معلومات مصدرية حول تخطيط البحرية، هذا الأخير، شأنه شأن الجهاد في الثغور، قد بدأ بالاندلس منذ ما قبل الخلافة. لقد سعى الثغور في الخلافة الإسلامية كانت تولى أهمية خاصة للمغرب والاندلس منذ الفتح الإسلامي. بعددهما موقعا بالغ الأهمية في أقصى غرب دار الإسلام. أضف إلى ذلك أن المعسكر⁽¹⁾ أشار إلى أن الأندلسيين المحاطين بالسواحل قد اضطروا لتركيب البحرية واحسارها في المجالات التجارية والعسكرية. ولا غرابة إذا ظهرت مراكز جهادية على طول سواحلها منذ عهد الإمارة على الأقل مثل، المرية/ بجانة وروطة، وسهين، ونقطة، والقت وغيرها. وإلى جانبها، أمكن الحديث عن رباطات أخرى نشطت بجوار بعض الأنهار الكبرى عبر الأندلسية. لقد كشفت المعلومات المصدرية، المتنوعة خاصة كتب الفقه والجهاد والنوازل عن تفاصيل دقيقة تعكس طبيعة الحياة بالرباط. وبخلاف ما يمكن أن يميز عند الثغور أو الرجال الذين يجاهدون في الثغور عموماً، فإن المرابطون كانوا يزاوون أنشطة دينية وعسكرية في الآن نفسه.

يمكن القول إن الرباطات البحرية، كالجهاد في الثغور، قد انتشرت بالاندلس في أوقات محددة. ونعتقد أن لانتشارها علاقة مباشرة بطبيعة السلطة السياسية والعسكرية القائمة. ويبدو أن نشاط الرباط كان إبان أزمات السلطة وضعفها. وقد سبق القول أن العلماء والفقهاء والقضاة كانوا يأخذون المبادرة ويقدمون إلى الثغور للجهاد خاصة في أوقات يشعرون فيها بفتور السلطة السياسية والعسكرية وعدم القيام بواجبها في صد المسيحيين⁽²⁾. إن تفصّل ظاهرة الرباطات البحرية خلال عصر الخلافة (IV هـ) له كذلك علاقة بقوة سلطة الخلافة التي اهتمت بإرساء بنيات اقتصادية وعسكرية جديدة. وتعتبر الأساطيل الحربية ودور صناعتها جزءاً هاماً من البنيات السالفة الذكر.

(1) - المقدسي: أحسن التقاسيم...، مصدر سابق، ص. 10.

(2) - انظر فصل: نظام الثغور.

الفصل الثاني

دور الصناعة ومواد الإنشاء

أ. دور الصناعة

تعد دور الصناعة وقواعد الأسطول التجاري والحربي جزءاً أساسياً من البنية الاقتصادية والعسكرية بأندلس الخلافة والطوائف. إن موقع شبه جزيرة إيبيريا على مساحات بحرية شاسعة دفع بالسلطة السياسية بقرطبة وفي الأقاليم إلى الاهتمام بحماية السواحل وإبعاد كل الأخطار الخارجية المحدقة بها. لاشك أن إخضاع السواحل كان يتطلب بنية صناعية متينة وسلطة سياسية وعسكرية حازمة وقادرة على تحقيق ذلك. نلاحظ أن شروط بناء أسطول حربي قوي قد توفرت في عصر الخلافة أي إبان القرن الرابع الهجري (X م)، واختلت إلى حد كبير خلال عصر الطوائف (القرن الخامس هـ) (XI م) نظراً للتجزؤ السياسي والانقسامات الإقليمية التي حالت دون توسيع بنى الأسطول.

ما هي الظروف العامة التي دفعت بالخلافة إلى الاهتمام بدور صناعة الأساطيل الحربية؟ نون الغوص في تفاصيل نهم الكيفية التي نجحت بها سلطة قرطبة في الخروج من الصراعات والأزمات التي شهدتها الأندلس خلال النصف الثاني من عصر الإمارة خاصة في مجالين الاقتصادي والسياسي، ونجاحها في إقامة بنى اقتصادية وإدارية⁽¹⁾ مكنتها من تركيز نفوذها وقوتها داخلياً وخارجياً، والاتجاه نحو إرساء قواعد تتناسب وهيبتها في العديد من مجالات خاصة في مجال الأسطول؛ نكتفي بالقول إن الخلافة في قرطبة واجهت على المستوى الخارجي قوى متعددة ومتباينة في طبيعتها وأهدافها منذ البداية. وقد حاولت التغلب عليها بكل الوسائل، والأسطول الحربي إحدى الوسائل في ذلك. إذا كانت ظاهرة القرصنة البحرية قد ضعفت نسبياً منذ عصر الإمارة⁽²⁾، فإن الخلافة عملت على مواجهة الحملات العسكرية النورمانية المتكررة على سواحل الأندلس من جهة، وحملات الممالك المسيحية الأخرى في

(1) انظر بعض التفاصيل المرتبطة بانشاء بنى اقتصادية وإدارية هامة خلال عصر الخلافة في

الطاهري (أ) : عامة قرطبة...، مرجع سابق، ص. 14 وما بعدها.

(2) - كتبت العديد من الأبحاث العربية والأجنبية حول القرصنة في البحر المتوسط منذ نظرية هـ. بيرس المشار إليها في المقدمة، من تلك الأبحاث نذكر:

BOUCHARD (J) Services féodaux, milices et mercenaires dans les Armées en France aux X^e et XI^e siècles dans *Ordinamenti militari in Occidente*, op cit, p 131, 169

GUICHARD (P), L'Europe et le monde musulman au Moyen Age ..., op cit, p 65, 105

تُغور من جهة ثانية، والقوى المصادرة لها في شمال إفريقيا والمتمثلة في الفاطميين النسبة من جهة ثالثة. وإذا صح القول أن الخلافة واجهت نجاح الممالك المسيحية شمالاً والفاطميين جنوباً، فإن التحركات النورمانية على سواحل الأندلس كانت بشهادة جميع المصادر أحد الأسباب الرئيسية والمباشرة التي أدت بسلطة قرطبة إلى الانشغال بالأسطول الحربي وبناء مراكز تطويره منذ وقت مبكر. يذكر ابن القوطية⁽¹⁾ وغيره⁽²⁾ أن سبب الاعتناء بإسبيلية وبنيتها الدفاعية هو «تعلب المجوس عليها عند دخولهم سنة 230هـ... وذعر الناس وفروا... ميّنا إلى قرمونة وإلى جبل إسبيلية...». وكان أولئك المجوس يتوفرون على مراكب⁽³⁾ تجعلهم متفوقين. مما يكثف الخطر على المدن الساحلية كإسبيلية التي «لا يؤمن عليها من قبل البحر»⁽⁴⁾.

لأنك أن حماية المدن الساحلية كان أول الأمر بواسطة بناء وترميم الأسوار خاصة من جهة البحر. ومن الأسوار إلى محاولات في إنشاء وبناء السفن والمراكب. تشير المصادر⁽⁵⁾ إلى أن الأمير محمد أمر سنة 266 هـ «...» بإنشاء المراكب بقرطبة ليتوجه بها إلى البحر المحيط... فلما كملت المراكب بإنشاء قُدّم عبد الرحمن بن مغيث إليها، فلما دخل البحر تقطعت المراكب كلها وتفرقت».

يتضح من الإشارات السابقة أن الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (الإمارة)، كانت تفتقد لبنية بحرية وأسطول حربي من شأنه مواجهة أخطار النورمان وهجمات الخاطفة التي لم تتردد في مباغثة الأندلس لاقتناص الغنيمة والأرباح. قبل الحديث عن الكيفية التي أسست بها الخلافة دور صناعة الأسطول الحربي، نتساءل عن أهمية النورمان أو الأردمانيون أو النورمانديون أو المجوس كما تتعتهم المصادر العربية⁽⁶⁾، والقادمون من أوروبا نحو السواحل الغربية للبحر المتوسط؟ ودون

(1) - ابن القوطية: تاريخ فتح الأندلس، ص 78، 79.

(2) - البكري: حفرية الأندلس، ص 112، المقري الفنجي، ج 1، ص 350، 351.

(3) - نفسه: ص 351.

(4) - ابن حيان: المسكن، ج 5، ص 80.

(5) - ابن عذاري: المسكن، ج 2، ص 103، 104؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، قسم المغرب، ص 109؛ ابن خلدون: كتاب العبر، القسم الثاني، م 4، ص 286.

(6) - انظر معلومات عامة حول النورمان في:

ابن القوطية: تاريخ فتح الأندلس، ص 114، 110، وما بعدها؛ ابن عذاري: البيان، ج 2، ج 3، أماكن متعددة.

الحوض في تفاصيل قد تبعدنا عن الموضوع، نكتفي بالقول إن الهجرات النورمانية قد كُتبت عنها الكثير منذ بداية القرن العشرين، مع التركيز على الحوانب الحديثة السياسية والعسكرية. ورغم أن جل الأبحاث الأوروبية المعاصرة التقليدية اكتفت بسرد الأحداث السياسية والعسكرية لقبائل النورمان، فإن قسماً من الباحثين حاول إعادة قراءة تاريخ تلك المجموعات القبلية من زوايا إبتلوجية وأنتربولوجية مفيدة⁽¹⁾. في حين ظلت أغلب الدراسات العربية المعاصرة⁽²⁾ أسيرة التصورات التي طغت على المصادر المختلفة التي ألقت خلال العصر الوسيط. وبالتمعن قليلاً نلاحظ أن النورمان من القبائل الأوروبية التي اقترنت حياتها بالبحار معيشة وركوباً، حتى أنهم نعتوا عن حق بـ «بدو البحر»⁽³⁾. إن ملازمة هؤلاء للبحر معناه الخبرة والممارسة اليومية في ركوبه وثقافته. فإذا لم تتمكن نتائج البحث الأركيولوجي البحري، حتى الآن، من التدقيق في إبراز طبيعة المراكب والسفن التي صنعوها لركوب البحار والأنهار، فنعتقد أنهم من الزاوية الحضارية اكتسبوا تقنيات هامة في مجال صناعة المراكب التي وظفوها بالقوة، إن اقتضى الحال، للبحث عن أرواقهم. ففوة النورمان بالأسطول والتقنيات، لم تدفع بالمسلمين في الأندلس منذ عهد الإمارة، إلى محاولة صناعة الأسطول والمراكب لمواجهةهم فحسب، بل اضطروا في فترة من الفترات إلى تقليد أسطولهم وصناعة مراكب تشبه مراكبهم حتى يتسنى لهم مواجهتهم حاح. وهذا ما حدث حين أمر الخليفة الحكم الثاني سنة 355 هـ « (...) ابن فطيس بـ «قمة الأسطول بنهر قرطبة واتخاذ المراكب فيها على هيئة مراكب المجوس أهلكتهم الله، تأملاً لركوبهم إليها...»⁽⁴⁾.

(1) - انظر مثلاً:

DU MEZIL (G) *Hier et Malheur du Guerrier - Aspects mythique de la fonction guerrière chez le Indu* - Paris, Flammarion, 1985

GODELIER (M), *L'ideal et le materiel - Pensée, economies, sociétés*, Paris, Fayard, 1984

JOHNSON (I), *La Face cachée du Moyen Age*, Paris, la Brèche, 1988

(2) - صر مثلاً

عقود سعيد ع. شاح - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1972؛ العريفي (اليزابيث)، تاريخ أوروبا عصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1968.

EL HAJJALI (Abderrahman) *The Andalusian diplomatic relations with the Aghlabid Emirate during the period, (138/366 AH) (755/976)*, *Hesperis Tamuda*, Vol. VIII, Rabat, 1967, p. 67, 105

(3) - العروبي (ع): *مجلد تاريخ المغرب*، ج 2، ص. 96.

(4) - ابن عسري: *سير*، ج 2، ص. 239.

إن محاولة تقليد أسطول النورمان يَن إلى حد كبير أهميته وخطورته بالنسبة للأندلس. لكن سائر إلى القول إنه لا ينبغي المعالاه في جعل العامل الخارجي (النورمان) هو الدافع أو المحدد الأساسي الذي دفع بسلطة الخلافة إلى الاهتمام ببنيات الأسطول. فهناك قضايا أخرى داخلية لا تقل أهمية، مرتبطة بالبنيات الاقتصادية والعسكرية والسياسية أيضاً. فإلى جانب حظر النورمان يمكن الحديث عن خطر آخر هدد الخلافة داخلياً ونعني به حركة ابن حفصون. إنها ثورة خطيرة⁽¹⁾ لم تتردد في استغلال مراكز على البحر المتوسط للاتصال بالعدوة المغربية بحثاً عن الميرة والتموين. يعكس ابن حيان⁽²⁾ خطورة حركة ابن حفصون حين أوضح أنها كانت تستخدم المراكب والسفن في الجزيرة الخضراء بحثاً عن علاقة بـ شمال إفريقيا. ولا غرابة أن يقدم الخليفة عبد الرحمن الناصر بنفسه إلى الجزيرة الخضراء مع مطلع القرن الرابع الهجري 301هـ/914م، ليطلع عن كثب على خطورة ثورة ابن حفصون. لقد كان في ساحلها للمارد ابن حفصون وأصحابه عدة من المراكب البحرية يسفرونها إلى أرض العدو في المير والتجارات، ويقضون بها الحاجات، فيشبعون بها أعظم التوسعة.. فأخرج الناصر لدين الله الحشم لطلبها وأخذها، وقد كان الفسقة نجوا بها في البحر. فأخذ الجند خلفهم، وقبض عليها، فقيدت بأزمته إلى ضفة البحر، وأحرق جميعها بين يديه⁽³⁾. لاشك أن سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر التي قطعت الطريق لإمدادات ابن حفصون في البحر المتوسط كانت تهدف كذلك إلى إخضاع المناطق الهامة في شمال إفريقيا وكبح جماح أخطار التشيع الفاطمي بالمهدية. وقد نجح في ذلك لما أمر رجال البحر «التجول في السواحل كلها، وألا تجري في البحر جارية إلا لأهل الطاعة فقط، فملك البحر منذ هذا الوقت وأحكم شأنه»⁽⁴⁾.

(1) - للمزيد من تفصيل عن حركة ابن حفصون، ضعفتها وأهدافها وصرعاتها مع قرطبة يمكن العودة إلى ابن حيان: النفس... ج 5، أماكن متعددة: ابن عذاري: نفسه، أماكن متعددة.

الطبيبي (من بونق) قيام عمر بن حفصون وبنيه بـبستار (Bubastro) على الإمارة الأموية بقرطبة، (267 هـ - 315 هـ 880 م - 928 م) في "دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس...، مرجع سابق، ج 1، ص 120، 150. بوتشيس القادري: أثر الإقصاع...، مرجع سابق، ص 270 وما بعدها.

(2) - ابن حيان: المقتبس... ج 5، ص 87، 88.

(3) - نفسه: ص 87.

(4) - نفسه: ص 88.

وبعد انقلب على النورمان وحركة عمر بن حفصون اتجه الاهتمام نحو بناء وتوسيع دور صناعة الأسطول الحربي على امتداد السواحل الأندلسية. لقد تعبرت التطورة تحاشا لمرسطات البحرية في عصر الخلافة كما سلف القول بانتهاج عبد الرحمن الناصر سياسه كثر واقعية تميزت بنوع من "العصرنة" التي واكبت التطورات التي شهدتها مختلف النيات في عهد الخلافة.

1 - في الجنوب

أ- المرية: لقد أرست الخلافة دعائم الأسطول التجاري والحربي عبر بناء وتوسيع وتطوير دور الصناعة⁽¹⁾ والإنشاء. وقد كانت مدينة المرية قاعدة ذلك الأسطول خلال الخلافة وبعدها؛ بل يمكن اعتبارها «مقرا للقيادة العامة للأسطول» بتعبير اليوم، لأنها كانت مقر أمراء البحر أو قواد الأساطيل. تتفق المصادر على أن مدينة المرية أكبر دار لصناعة الأساطيل الحربية والتجارية بامتياز، وربما هي الأكبر في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري (X م). يذكر الحموي⁽²⁾ أن بالمرية «يكون ترتيب الأسطول الذي للمسلمين ومنها يخرج إلى غزو الإفرنج». ويؤكد العذري⁽³⁾ أنها «فُتِمت على قسمين فالقسم الواحد فيه المراكب الحربية والآلة والعدة، والقسم الثاني فيه القيسارية». وفي المعنى ذاته يقول ابن غالب⁽⁴⁾: «بالمرية دار الصنعة. استقرت فيها العدة والآلات تنسى ونما يقوم به الأسطول». ويؤكد الرشاطي⁽⁵⁾ نالق المرية حتى فترة ما بعد الخلافة، أي إلى الطوائف والمرابطين. لقد بنى الخليفة عبد الرحمن الناصر دار صناعتها سنة 344 هـ. «وهي الآن سنة 527 هـ أمر دار في الدنيا... فيها من الآلات البحرية والعدد

(1) - سبّرت كلمة "دارالصناعة" و "دار الاشياء" حتى أصبحت تُستعمل في اللغات الأوربية كالقول: (Darsena)

(Atarazana) (Arsenal): انظر:

VALLEÉ (J B) . La Industria en el Andalus dans ALQANTARA Fasc 1-2 Madrid 1980 pp 229-238

DOZA (R), ENGELMANN (W H), Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe (Bruxelles) 2^e Edition, 1974

(2) - الحموي ياقوت: معجم البلدان . ج 5، ص. 119.

(3) - العذري: ترصيع الأخبار . ص. 86، مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 77.

(4) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس . ص. 283.

(5) - الرشاطي: الأندلس في اقتبلان الأنوار...، ص. 59، 60.

الحربية ما لم تجمع دار قط»⁽¹⁾ المذكور. وأشار الزهري⁽²⁾ بدوره إلى أن المرية «لم يكن في بلاد الأندلس أعظم منها أجفانا وحركة في البحر، وقد انتهت أجفانها، وبلغت المائة، ولم تبلغ مدينة ما بلغت في هذا الفن». لكن ابن الخطيب⁽³⁾ رفع من أعداد قطع أسطول المدينة بقوله إن الخليفة الحكم أشرف على شؤون المرية ونظر إلى أسطولها «وعدته يومئذ ثلاثمائة قطعة». وأضاف في وصف المدينة «قلت فمدينة المرية؟ قال: المرية هنية مرية بحرية، برية أصيلة سرية، معقل الشموخ، والاباية، ومعدن المال وعنصر الجباية، وحبوة الأسطول»⁽⁴⁾، أي قاعدة الأسطول.

يتضح من مختلف الإشارات السالفة الذكر أن المرية تعد دار الصناعة النموذجية خلال الخلافة. منها كانت تنطلق أغلب الحملات البحرية سواء ضد المسيحيين شمالاً أو ضد شمال إفريقيا⁽⁵⁾. ولا غرابة إذا انصرفت جهود الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى العناية بها، يقول ابن حيان في أحداث عام 321هـ، إن الناصر كلف أحد قواده الكبار أحمد بن عيسى بن أحمد بن أبي عبدة الوالي الجديد على بجانة والبيرة، «وعهد إليه بإصلاح الأسطول المستقر لديه، بدار الصناعة بالمرية، وتهذيبه والزيادة فيه، وإعداد آلاته وجميع ما يحتاج إليه»⁽⁶⁾. إن الزيادة في وحدات الأسطول بالمرية كان يقتضي توسيع بنى المدينة. ذلك ما تؤكد بعض الأبحاث المعاصرة ذات الصبغة الأركيولوجية والطبونيمية⁽⁷⁾

(1) - نفسه: ص. 59، 60.

(1) - يذكر الرستاقى أن لخليفة الناصر بنى دار صناعة المرية عام 344 هـ. ويتناسب ذلك مع ما أورده الغزري حين أسر أن الناصر بنى سورها الصخري المنيع عام 343 هـ أما المدينة فقد اتخذ الناس مركزها الأول رباطاً قبل الخلافة. (ترصيع الأخبار... ص. 86). مما يبين عكس ما ذهب إليه فوزي عيسى حين أوضح أن المرية مدينة ساحلية بناها عبد الرحمن الناصر. انظر: رسائل أندلسية...، مصدر سابق، هامش 259.

(2) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 101.

(3) - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة...، م 1، ص. 479.

(4) - نفسه: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي، شبانة (محمد كمل)، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977، ص. 56.

(5) - LIROLA DELGADO (J) - El poder naval de Al Andalus en la época de Califato Omeya Granada 1993, p. 320 et sv.

لقد نافست دانية المرية في الحملات البحرية خلال عهد مجاهد العامري (انظره لاحقاً).

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 232.

(7) - BAZZANA (A), CRESSIER (P), GUICHARD (P), Les châteaux ruraux d'Al Andalus - op cit p.107, 108.

ANCIEN ALMANSA (M) ; La fortificación en Al Andalus... op cit, p.7, 36 Sobre la función des Husun en el sur de Al Andalus, op. cit., p. 265 et sv

لتي أفادت في إبراز بعض المواقع والمعالم التاريخية التي تعرضت للتلف من قبل الإنسان والطبيعة في ألمرية⁽¹⁾.

أجرى الباحث L. Torres Balbas⁽²⁾ دراسات ميدانية بألمرية استنتج منها أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أنشأ قصبة المدينة الدفاعية ومسجدها الكبير، ووسع حينها البحري. تميزت القصبة بكونها تقع في مرتفع ضيق لكنه طويل، مما سمح بتطور عدد السكان طيلة القرن الرابع الهجري خاصة في اتجاه الجهة الغربية للمدينة التي اتسعت حتى شملت 21 هكتاراً.

ب . مالقة والمنكب والجزيرة الخضراء : لم تهتم الخلافة الأموية بألمرية وحدها،

بل عملت على توسيع وتطوير مراكز أخرى لإيواء الأسطول الحربي. من هذه المراكز نذكر مالقة التي اعتبرت داراً للأسطول⁽³⁾، والمنكب القريب من مدينة غرناطة الذي يعتبر مرفأ السفن بعدته⁽⁴⁾. ثم مركز الجزيرة الخضراء الذي يتمتع بموقع استراتيجي هام على البحر المتوسط. لقد سبق القول إن الخليفة عبد الرحمن الناصر انتقل بنفسه إلى هذا المرسى مع مطلع القرن الرابع الهجري (301هـ) لأنه كان يرغب في قطع الطريق على الإمدادات والمؤونة التي كانت تصل عمر بن حفصون من شمال إفريقيا، ومراقبة الخطر السيعي في شمال إفريقيا. إلى جانب ذلك اعتبرت مدينة الجزيرة الخضراء أقرب نقطة للعدوة المغربية، و«مرساها أحسن المراسي للجواز»⁽⁵⁾. ولذلك بنى بها الخليفة عبد الرحمن لناصر داراً هائلة لصناعة الأساطيل الحربية⁽⁶⁾. تأكدت أهمية مرسى الجزيرة الخضراء خلال الطوائف والمرابطين من خلال ما تضمنته المصادر من إشارات هامة حول الاتصالات المختلفة التي كانت تُجرى بين أمراء الطوائف خاصة المعتمد بن عباد بإشبيلية والمرابطين في سبخ

(1) - سبق تحديث عن الاختلافات أو الخلاف القائم بين اتجاهات البحث التاريخي المعاصر في إسبانيا حول دور الحصرة الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا وأهمية البحث الميداني الأثري الذي ساهم إلى حد كبير في الكشف عن جوانب مادية هامة من تلك الحضارة. انظر، الفصل الأول من الباب الثاني.

(2) - TORRES BALBAS (L.), Ciudades Hispano Musulmanas de nueva fundacion - op. cit. p 781-803

(3) - العمري: مسالك الأبصار... وصف إفريقيا والأندلس...، مصدر سابق، ص. 47.

(4) - ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار...، ص. 54؛ القلقشندي: صبح الأعشى - ج 5، ص. 18، 219.

(5) - ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 320.

(6) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 90.

يوسف بن تاشفين. لقد طلت هذا الأخير، بل ألزم المعتمد بن عباد على إخلاء الجزيرة لحصراء قصد اتخاذها قاعدة أساسية لإطلاق القوات المرابطية نحو الشمال أو العودة إلى العدو⁽¹⁾.

2 - في الغرب

أ - إشبيلية: ومن الجزيرة الخضراء في اتجاه الغرب اشتهرت مدن ومراكز متعددة في إيواء أو صناعة الأسطول الحربي كإشبيلية المدينة ذات الموقع الهام قبيل مصب نهر الوادي الكبير، والتي اهتمت بالأسطول منذ عصر الإمارة. وقد سبق القول إنها كانت مستهدفة من قبل الهجمات النورمانية التي لم تكن تجد صعوبات في التوغل في الأندلس عبر مصب الوادي الكبير، ولذلك أمر الأمير عبد الرحمن بن الحكم بإقامة دار صناعة بإشبيلية، وأنشأ المراكب واستعد برجال البحر...»⁽²⁾.

ب - شنتمرية الغرب وشلب وقصر أبي دانس: إلى جانب إشبيلية ذكرت المصادر مراكز أخرى اعتبرت قواعد هامة للأسطول الحربي في الغرب الأندلسي منها: أكتونية أو شنتمرية الغرب التي اعتبرت داراً لصناعة الأساطيل أيام المسلمين حسب ابن سعيد⁽³⁾، وشلب المركز الذي عرف في مجال بناء السفن⁽⁴⁾، وقصر أبي دانس⁽⁵⁾ الذي اشتهر بإنشاء الأساطيل الحربية خلال الخلافة، خاصة في عصر المنصور بن أبي عامر الذي كان يحيز منه الأسطول لقتال المسيحيين وضرب عاصمتهم الدينية شانت ياقاوب.

(1) - ابن بلقين: السيل ، ص 122 وما بعدها؛ مجهول: الحلل الموشية، ص. 38 وما بعدها؛ المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم حقي (مدوح)، الدار البيضاء، د.ت، ص 203 وما بعدها.

(2) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 82.

(3) - ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 320.

(4) - ابن الأبار: الحلة السيرة...، ج 2، هامش 203.

LIBROLA DELGADO (J) El poder naval... op cit, P. 316

LOMBARD (M) : Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane VII. Les succès dans Espaces et réseaux du Haut Moyen Age..., op cit, p 107, 150.

(5) - ابن عذاري: النور...، ج 2، ص 295.

LIBROLA DELGANDO (J) ; op cit, p 317

LOMBARD (M) ; op cit, p 123

3 - في الشرق

أ. دانية ولقنت:

وفي الجهات الشرقية من الأندلس اشتهرت مدن مثل لقنت (Alicante) التي هي مدينة عامرة لها «قصة منيعة عالية جدا في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة، وهي أيضا مع صغرها تُنشأ بها المراكب السفرية والحراريق»⁽¹⁾. وتقع مدينة دانية على البحر مشهورة⁽²⁾. وبها «دار إنشاء السفن .. وبها ينشأ أكثرها ومنها يخرج الأسطول للغزو»⁽³⁾، وقد شهدت دانية نشاطا بحريا هاما خلال الطوائف⁽⁴⁾. وقد أتم الحميري⁽⁵⁾ كلام الإدريسي بصدها حين أشار إلى أن دانية لها «قصة منيعة والسفن واردة عليها وصادرة عنها، منها يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأنها دار بنيانه». وقد سبق القول إن ألمرية كانت مقرا للأسطول الحربي الخلافي، ونافستها دانية في صناعة الأساطيل خاصة في عهد مجاهد العامري⁽⁶⁾ الذي أنشأ أسطولا كبيرا رابط في دانية والجزائر حتى «غدت دانية في عصره وعصر ولده علي أعظم مركز للأساطيل الأندلسية»⁽⁷⁾.

ب. طرطوشة: وجمعت مدينة طرطوشة ما بين توفير الأخشاب⁽⁸⁾ وصناعة

الأسطول في الوقت نفسه. لاحظ الإدريسي⁽⁹⁾ أن بها تُنشأ «المراكب الكبار من خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ». ويبدو أن قرب طرطوشة من مناطق إنتاج الأخشاب دفع بالخلافة إلى تنشيط دار صناعتها منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري حسب إحدى النقائش الحجرية⁽¹⁰⁾ التي تذكر أن قائد عبد الرحمن الناصر عبد الله ابن كليب بنى بها دارا بحرية لإنشاء السفن والعناية بالأسطول.

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 558.

سالم (عبد العزيز)، العبادي (أحمد المحار): تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ج 2، ص. 161.

(2) - ابن سعيد: نفسه، ج 2، ص. 401.

(3) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 557.

(4) - VIGUERA (M J) ; Y OTROS, Los reinos de Taifas ... op cit ... pp 193, 225

(5) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 232.

(6) - LÉVI-PROVENÇAL (E), L'Espagne musulmane... op cit, pp 154, 155

(7) - عثان (عبد الله): دول الطوائف منذ قيامها، مرجع سابق، ص. 190.

(8) - ابن غالب: تعليق منتقى...، ص. 285، 286

(9) - الإدريسي: نفسه، ص. 555.

(10) - LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Inscriptions arabes... op cit, p 83.

ابن الكريديوس: تاريخ الأندلس...، ص. 100.

4 - في الجزر وعلى الأنهار الكبرى

أ . **الجزر:** إلى جانب المدن والمراكز السابقة الذكر اشتهرت بعض الحرر في لاهر في صناعة الأساطيل، مثل الجزائر الشرقية⁽¹⁾ التي عرفت على غرار دالية خاصة في يد المجاهد العامري، وجزيرتي ميورقة ومنورقة⁽²⁾. لقد نشطت هذه الجزر خاصة في الفترة اللاحقة للطوائف، أي أيام المرابطين والموحدين الذين أهاب أسطولهم الأوربيين لمدة⁽³⁾.

ب . **الأنهار:** لقد لعبت الأنهار الأندلسية دورا لا يُستهان به في بناء الأسطول الحربي. أو على الأقل إيوائه وإعداده خلال الحملات العسكرية. وقد تصدت الأنهار القريبة من السواحل لهذا الدور، كما هو الشأن في الوادي الكبير بجهة إشبيلية⁽⁴⁾؛ ونهر قرطبة الذي كان محطة لإقامة وتجهيز السفن الحربية كما يتضح من كلام ابن عذاري⁽⁵⁾. في أحداث سنة 355 هـ لما «أمر الحكم لابن فطيس بإقامة الأسطول بنهر قرطبة واتخاذ المراكب فيها». وفي جهات الشمال تميزت أنهار ذات مواقع هامة كالتاج⁽⁶⁾، وإيره⁽⁷⁾ ودويره⁽⁸⁾، وتلك القريبة من المسيحيين في محور لاردة طرطوشة⁽⁹⁾.

(1) - ابن خلدون: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 353.

(2) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 567.

(3) - نفسه: ص. 567.

(4) - LIBROLA DELGADO (J), El poder naval..., op. cit, p. 319

الطاهري (أ): عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 325 وما بعدها.

(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 239.

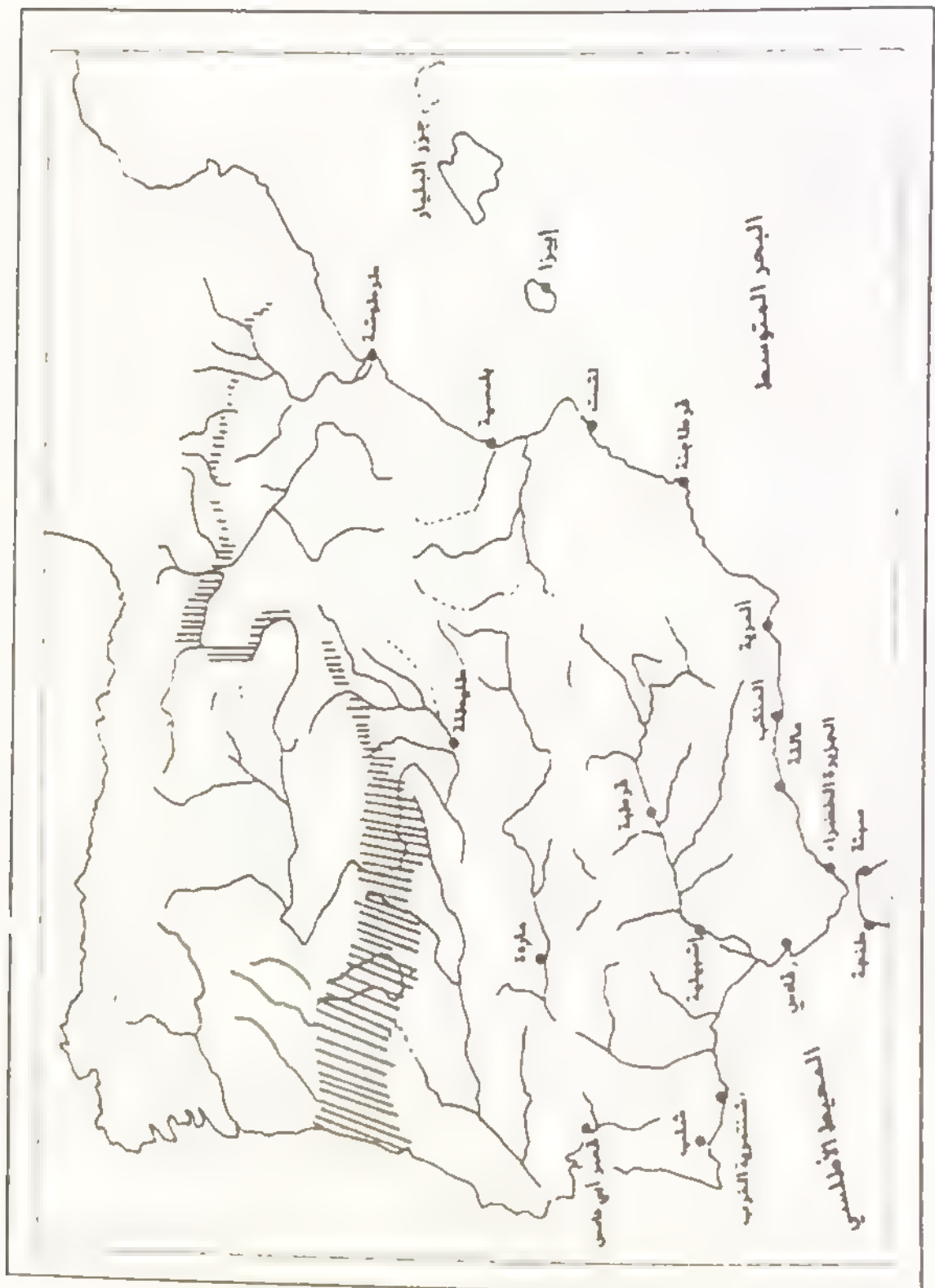
(6) - LÉVI-PROVENÇAL (E), L'Espagne musulmane..., p. 155

(7) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 285، 286.

(8) - BASSOLS (Sergi); Una Inca de Torres viga musulmanas..., op. cit et sv, p. 137

(9) - نفسه: ص. 137 وما بعدها.

الموانئ ودور الصناعة الأندلسية



لم تكتف الخلافة الأموية بقرطبة خلال القرن الرابع الهجري بإنشاء دور صناعة الأساطيل الحربية على طول السواحل الأندلسية، بل تعدت المجال الأندلسي نظراً لنفوذها وقوتها، وحاولت إخضاع مراكز أخرى هامة في شمال إفريقيا خاصة في العدوّة المغربية. لكن من الملاحظ أنها لم تهتم إلا بمراسي شمال المغرب المتوسطية والأطلسية، وذلك لاعتبارات أساسية مرتبطة بقرب العدوّة من الأندلس أولاً ثم تأمين المجال القريب منها ودرء كل الأخطار التي يمكن أن تواجهها من جهاتها الجنوبية وعلى رأسها الخطر الشيعي الذي كان يهدد قوتها ونفوذها داخليا وخارجيا. وهكذا تعاضم شأن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما ملك البحر بعدوتيه⁽¹⁾. لقد كان الهدف هو ربط الجزيرة الخضراء أقصى نقطة في جنوب الأندلس، «وأحسن المراسي للجواز»⁽²⁾، بأقصى شمال العدوّة أي بسبّة وطنجة. انطلاقاً من هذه الاعتبارات أغزى الناصر سبّة سنة 319 هـ/931م، وأخضع مدينة طنجة عام 323 هـ/935م، ومليية عام 314 هـ/927م، وأصيلا عام 322 هـ/934م⁽⁴⁾. وهكذا سهل احتلال العدوّة بعد اجتياز مرسى الجزيرة الخضراء⁽⁵⁾. اتجهت أنظار الخلافة أيضاً إلى موانئ أخرى كوهرا⁽⁶⁾، وبنزرت وسوسة⁽⁷⁾، إذ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر مولاه غالب بالتوجه في أسطول مهم إلى إفريقيا عام 345 هـ/956م. وقد وصل هذا الأسطول بالفعل إلى نواحي بنزرت وسوسة حسب معلومات ابن عذاري⁽⁸⁾. لقد تابع الخليفة الحكم المستنصر سياسة أبيه الناصر الهادفة إلى

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 289.

(2) - ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 320.

(3) - ابن حيان: نفسه، ص. 312.

(4) - LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., op. cit, p. 197

فيلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص. 148 وما بعدها.

(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 205.

LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., p. 197.

HERNANDEZ CRUZ (Miguel); El Islam..., p. 359

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 306.

(7) - ابن عذاري: نفسه، ص. 221؛ فلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية...، ص. 176.

(8) - ابن عذاري: نفسه، ص. 221.

إخضاع العدو المغربية. وانتهج الحاجب المنصور بن أبي عامر السياسة ذاتها محاولاً الإبقاء على دور الصناعة وقطع الأسطول الخلافي في تلك المناطق⁽¹⁾. لكن بسقوط الخلافة انهار نفوذها داخليا وخارجيا، وتقلص دور الأسطول الحربي بل جُمِدَ دور الصناعة والإنشاء، وذلك تبعا للصراعات وتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية التي شهدتها الأندلس خلال القرن الخامس الهجري (الطوائف). فإذا كان الأسطول الحربي قويا بقوة دور الصناعة خلال عصر الخلافة وذلك بشهادة أعداء الخلافة أنفسهم⁽²⁾، بحيث كان أسطول الخلافة يجول مياه المتوسط شرقا وغربا ويفرض غلبته فيها، فقد فقد قوته وتقلص نفوذه لأن الدويلات الطائفية خاصة الساحلية منها، اكتفت، في أحسن الأحوال بإرت الخلافة في هذا المجال. ونعني بذلك أن قوة الأسطول ظلت نسبيا بيد إشبيلية بني عباد⁽³⁾، والمريّة بني صمادح⁽⁴⁾، ودانية والجزر الشرقية عهد مجاهد العامري⁽⁵⁾. لا شك أن عدم قدرة دول الطوائف على تطوير الأسطول الحربي وتوسيع قواعده، وعدم تمكن المرابطين بدورهم، وهم القادمون من الجنوب أي الصحراء من تطوير الأسطول الأندلسي بدورهم نظرا لانشغالاتهم المتعددة؛ قد جعل المنافسة ورد الفعل المسيحي في البحار قويين⁽⁶⁾.

ونشير في هذا الصدد إلى أن ضعف الأسطول الحربي الأندلسي بعد سقوط الخلافة، لا يعزى إلى التشرذم السياسي والصراعات الطائفية وحدها، وإنما يمكن القول - فيما نرى - إن القرن الخامس الهجري (XI م) قد شهد تحولات كبرى وعميقة في أطراف العالم الإسلامي برمته وخاصة في أوربا الفيودالية المتوسطة التي انقلبت الأوضاع لصالحها في ميادين متعددة: الاقتصادية والبشرية والبحرية. لقد استفاقت من سلبياتها المتعددة وصارت تبحث عن النفوذ والغلبة والسيادة في المجال الخارجي كما كان الأمر

(1) - LÉVI-PROVENÇAL (E); L'Espagne musulmane..., p. 155

(2) - النعمان: كتاب المجالس والمسائرات...، مصدر سابق، ص. 164.

(3) - VIGUERA (M. J) ; Y OTROS, Los reinos de Taifas ... op. cit..., p 196

الطاهري (أ): عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 325 وما بعدها.

(4) - VIGUERA (M. J) ; op. cit..., p. 196.

(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 155، 156.

(6) SENAC (Ph), Musulmans et Sarrasins dans le sud de la Gaule du VIIIe à XIe siècle, Paris, Le Sycomore, 1980, p 80.

ارشبالد (ل): القوى البحرية والتجارية...، مرجع سابق، ص. 314 وما بعدها.

بالنسبة للخلافة لما كانت في أوجها خلال منتصف القرن الرابع الهجري⁽¹⁾. إن التطورات الاقتصادية والبشرية والعسكرية⁽²⁾ التي عرفت أوربا منذ مطلع القرن الخامس الهجري (XI م)، وظف جزء منها في العالم الخارجي كما يتجلى في الحروب الصليبية المعروفة ضد المشرق، وفي حركة 'إعادة التعمير'، التي توغلت بواسطتها أوربا في العمق الأندلسي.

(1) - نشير في هذا الصدد إلى أن قوة الأسطول الحربي في عهد الخلافة قد تزامن مع تطورات مهمة شهدتها القرن الرابع الهجري في الأندلس في المجالات الاقتصادية والبشرية والإدارية والفلاحية. انطلاقاً من ذلك نقول، بدون تردد، إن الأندلس قد سبقت أوربا الفيوصلية في العديد من المجالات وليس العكس، كما يتبادر إلى العديد من الأذهان. انظر بعض التفاصيل في:

حناوي (محمد): الأدوات الفلاحية الأندلسية...، مرجع سابق، ص. 116، 117.

(2) - كل الدراسات والأبحاث المعاصرة خاصة المنوغرافية منها والتي أنجزت في المدرسة التاريخية الأوربية، تؤكد تطور أوربا الفيوصلية في ميادين مختلفة منذ بداية القرن الخامس الهجري. انظر مثلاً:

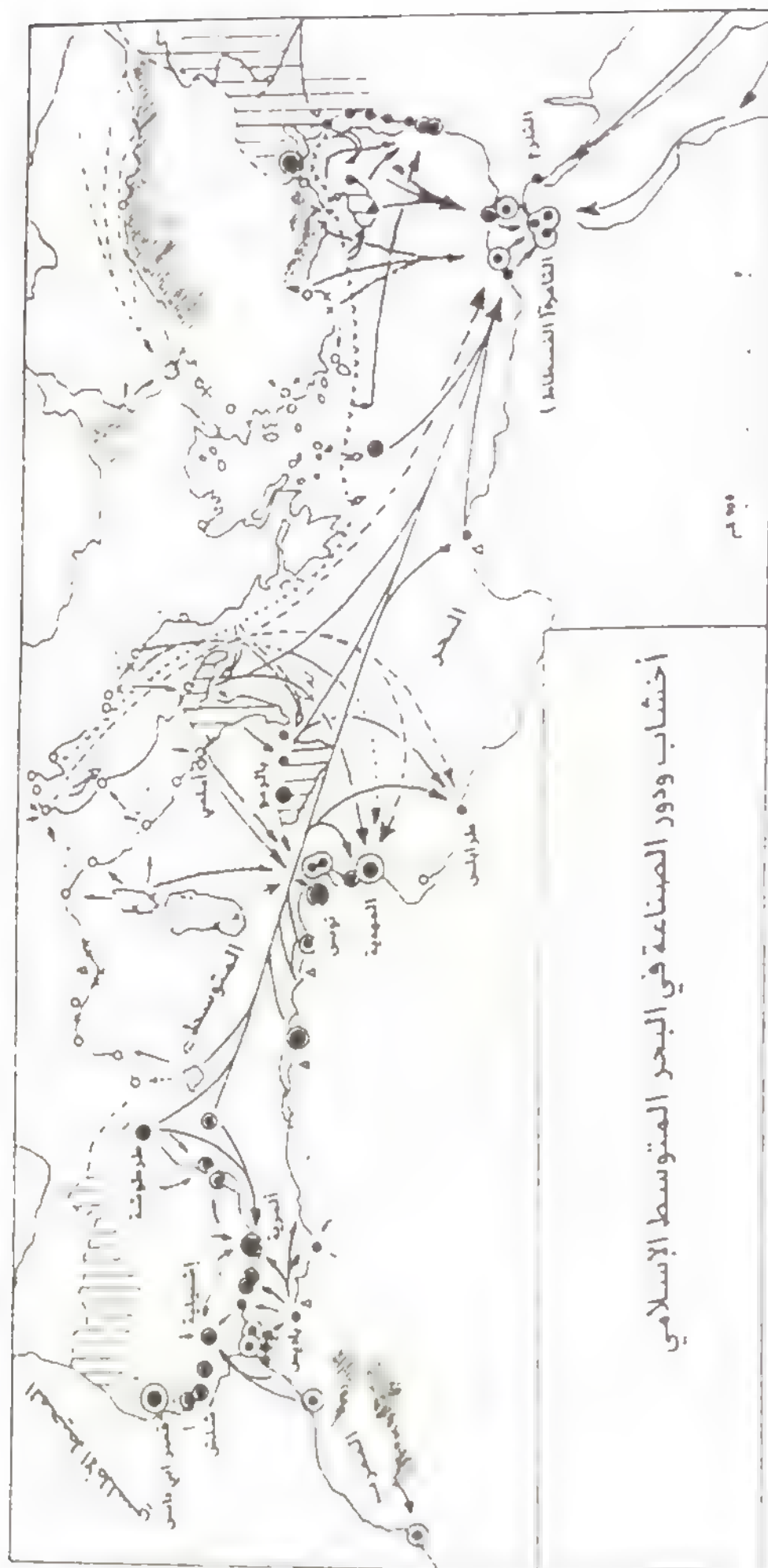
DUBY (G) ; Guerriers et paysans..., op. cit, p. 180 et sv.

FOSSIER (R) ; Enfance de l'Europe..., op. cit, T. 2, p. 620 et sv

CONTAMINE (Ph) ; L'économie médiévale. ., op. cit, p. 141 et sv.

BOIS (G) ; La mutation de l'an mil..., op. cit, p. 151 et sv.

ROUX (Simone); Le monde des villes au Moyen Age, XI-XVè siècle, Paris, Hachette, 1994, p. 93



المصدر : LOMBARD (M) : « ARSENAUX ET BOIS DE MARINE DANS LA MEDITERRANEE. VII-XI SIECLE »

ب . مواد صناعة الأسطول: كيف تمكنت الخلافة الأموية بقرطبة من بناء الأسطول وتوسيع قواعده. وما هي الإمكانيات والوسائل التي استغلتها من أجل توفير أسطول تجاري وحربي ساهم في دعم سلطتها ونفوذها؟

لقد سبق القول إن الأندلس عرفت خلال القرن الرابع الهجري استقراراً سياسياً وانتعاشاً اقتصادياً هاماً، استغلته قرطبة و عملت على تطوير بنىات صناعية في ميادين متعددة. ودون الدخول في تفاصيل التطورات المختلفة التي شهدتها الأندلس على امتداد القرن الرابع للهجرة، نكتفي بالقول إن الخلافة الأموية وظفت الموارد الاقتصادية والبشرية والمحلية لتطوير صناعة أساطيلها التجارية والحربية. ويتضح من خلال المعلومات المصدريّة أن الأندلس غنية بالمواد الأولية الطبيعية المرتبطة بالصناعة البحرية كالمعادن والأخشاب. لا غرو فقد توفرت مواد الحديد والأخشاب خاصة الصنوبر، والزفت والقطران والألياف وما إلى ذلك من المواد التي تُوظف مباشرة في دور صناعة الأساطيل. يؤكد ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر أمر القائد صاحب الشرطة أحمد بن نصر بالتوجه إلى كورة جيان «للمشاركة ما كان يتقاضاه محمد بن عبد الملك عاملها من الرعية أهلها عن الخشب والزفت والقطران اللاتي كان العهد قد نفذ إليهم بإعداد الأعداد المحدودة لهم منها واحتمالها إلى إشبيلية ثم إلى الجزيرة الخضراء للأساطيل المصنوعة فيها»...⁽¹⁾.

يبدو من كلام ابن حيان أن الأخشاب والزفت والقطران كانت تُفرض على سكان إقليم جيان الذين يتكفون بنقلها من مواطن إنتاجها إلى حيث تُوظف في صناعة الأساطيل. وهذا ما أشار إليه ابن غالب⁽²⁾ بقوله إن إقليم جيان مهم في إنتاج الأخشاب التي تُنقل منه لِنَعْم الأندلس. إلى جانب كورة جيان تزود مدينة طرطوشة وإقليمها دور صناعة الأساطيل بالأخشاب الجيدة. ذلك ما عبر عنه ابن غالب⁽³⁾ مكرراً حين وصف طرطوشة بقوله «...».

(1) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 101.

LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., p.297.

VALLVÉ (J B) ; La Industria en el Andalus..., p. 209, 238

(2) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 284.

(3) - نفسه: ص. 285، 286.

(3) مكرراً - شجر البقس: شجر كالأس ورقاً وحباً. يسميه الإسمان (el boj). انظر: لسان العرب، مادة بقس.

VALLVÉ (J.B) ; La Industria..., p. 221.

أنافت على نهر إبره، وقربت من البحر الثاني الذي ينصب فيه هذا النهر، وهي شرق من بلنسية، وشرق قرطبة... وبها شجر البقس، وخشب الصنوبر». ويوضح الإدريسي⁽¹⁾ أن المراكب الكبار تنشأ بطرطوشة من خشب الجبال المحيطة بها. إنه «خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ومنه تتخذ الصواري والقرى، وخشب الصنوبر الذي بجبال المدينة أحمر صافي البشرة، دسم لا يتغير سريعاً، ولا يفعل فيه السوس ما يفعل بغيره»⁽²⁾ مكرر. ويُنتج الصنوبر في جهات أخرى غير طرطوشة، كما هو الأمر في جهة قلصة التي تعتبر من الحصون المنيعة، تتصل بها «أجبال كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير، ويقطع بها الخشب ويُلقى في الماء ويُحمل إلى دانية وإلى بلنسية في البحر... وتسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر، ومن جزيرة شقر إلى حصن قلييرة، وتفرغ هناك على البحر، فملاً منها إلى راكب وتحمل إلى دانية، فتنشأ منها السفن الكبار، والمراكب الصغار، ويُحمل إلى بلنسية منه إن كان عريضاً فيصرف في الأبنية والديار»⁽³⁾. وللصنوبر كذلك أهمية كبرى بجزر البليار خاصة في يابسة التي يستغل الجيد منه في بناء الأساطيل⁽⁴⁾. إلى جانب أخشاب الصنوبر الجيدة تذكر المصادر أنواعاً أخرى تدخل في صناعة الأسطول التجاري والحربي، كالأرز والبلوط الذي يستعمل كذلك في أغراض أخرى تهم الحياة اليومية كالبناء والنجارة والحرق وغير ذلك.

(1) - الإدريسي: نزعة المشتاق...، ص. 555.

(2) - نفسه: ص. 555.

(2) مكرر الصواري: صاري، صَيْر (māi)، وليس السواري (الساري). كما جاء عند شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج 1، ص. 107.

الصاري هو لخشب المعترضة في وسط السفينة، وعليه يوضع الشراع. كان يُصنع في الجزيرة العربية من النخيل أو من شجر حوز الهند. وفي بعض المناطق المغربية يطلق الصاري أيضاً على عمود أو قضيب من حديد يحدث التوازن في بعض آلات الأوزان. انظر:

أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، يناير 1979، ص. 86.
الكافي (محمد بشير): قاموس المصطلحات البحرية، فرنسي - عربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، مادة (ص)، ص. 45: القرى: القرايا (القرية بتسديد الياء)، هي العود الذي يشد إليه الشراع.
يدو أن تقنيات الصواري والقرايا والمجاديف قد تعممت في المشرق والمغرب والأندلس، وكذلك في أوروبا. لكن لا ندري بالضبط كيف تعممت وما هي التطورات التي لحقت بها. للمزيد من التفصيل حول الصواري والقرايا انظر: الجزيري: المتصدد المحمود، مخطوط سابق، 88 أن 99 ب: الجوزري: سيرة لأستاذ جؤذر، مصدر سابق، ص. 119.

(3) - الإدريسي: نزعة المشتاق...، ص. 560.

(4) - ابن سعيد (المغربي): رايات المرزوين وغايات المميزين، تحقيق الداية (محمد رضوان)، دمشق، 1987، ص. 229.

ن الحديث عن صناعة الحطب واستخدامه في ميادين متعددة خاصة في الأسطول
يُفَصِّي توفر أو إعداد بحارين محترفين يتكفون بالبناء الدقيق والمضبوط لأجزاء السفن
و نمراك. ونذكر كتب العقود والحسبة الشروط الضرورية التي يلزم توفرها في التجارين
وذلك نلاحظاً للعش الذي يمكن أن يُسبَّب فيه بعضهم حين مزاولة أعمال النجارة خاصة في
محال الأسطول. ناهيك عن التقاعس أو التكاسل الذي يلتجئ إليه بعضهم من أجل ربح
انوقت. يوصي ابن عبدون⁽¹⁾ في هذا الباب المحتسب كي يشدد المراقبة على النجارين
للحطب ويأمرهم أن «يحدوا مناشيرهم قبل وقت الشروع في العمل.. فإن منهم من يغشُ
بأن يجلس لذلك ويُطيل المدة ليستريح ويعمل ثلاثة أيام في شغل يومين». وتحدث
الجزيري⁽²⁾ بدقة متناهية عن الشروط التي يلزم توفرها عند صناعة قارب أو سفينة من
حيث المواد وطبيعة الصناعة. ويمكن القول دون خطر المبالغة، إنها شروط تنعدم في
وقتنا الحالي، ليس في ميدان صناعة الأسطول فحسب، وإنما في طرق تحرير عقود
البيع والشراء عامة. يقول: «ابتاع فلان من فلان سفينة، وإن شئت قلت قارباً أو حرقاً أو
دُغِيصاً سفرياً أو زورقاً، يذكر اسمه بجميع عدته وآلته التي بجريه وإرسائه، وهي صار
وقلاع ورجلان، وإسباطة، وسبعة مقاذيف وثلاثة... حديد وقفة عدة بما فيها من آلة
النجارة، وكوب وشعثول وصفو وكذا حصيراً من حلفاء وكذا وكذا... وبجميع حباله، بعد
أن وقف المبتاع المذكور على القارب المذكور مجروراً فوق البحر بساحل مدينة كذا..
وقلته من داخله وخارجه وعرف محمله، ودرع طوله وعرض قاعه وارتفاعه وحذاءه
إنشائه أو قدم إنشائه، واختبر عوده..»⁽³⁾. وأضاف في عقد معاملة آخر في النجارة
وصناعة الأسطول: «عامل فلان فلانا النجار أن يُنشئ له قارباً قرلياً طول له كذا وكذا
ذراعاً وعرض وسط قاعه كذا شبراً، وارتفاعه، كذا ذراعاً بذراع الإنشاء، تكون قرابيسه
وأفغاله وقوسيه من عود البلوط، والوجه من عود الأرز، ويمكن إنشاؤه ونجارته بما يحتاج
إليه من المسامير إلى حد الجلفطة وعلى ما أمر النقش وزفت التسبيك، بكذا وكذا دينار
قبضها فلان أو قبض منها كذا وبقي كذا...»⁽⁴⁾.

(1) - ابن عبدون: في آداب الحسبة، ص. 81.

(2) - الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط، 88، 99، 99 ب.

(3) - نفسه: 88 أ.

(4) - نفسه: 99، 99 ب.

إن من شأن تطبيق الشروط التي ذكرها الجزيري في مجال صناعة الأسطول أن تجنب أو على الأقل تقلص النزاعات المحتملة حدوثها في هذا الباب. كما ستعمل على بناء أسطول حربي قوي يصمد في البحر وفي وجه الأعداء.

لاشك أن الصرامة اللازمة في إنجاز أو صناعة قطع الأسطول تطبق أيضاً في المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي كما يتبين من إحدى الرسائل (الوثيقة) التي وجهها أحد الخلفاء العباسيين خلال القرن الرابع الهجري إلى أحد قواد البحر يطلب منه مراقبة المواد التي تدخل في صناعة الأساطيل. تقول الرسالة: « (.) أن يُنظر في صناعة المراكب نظراً تكشف به الاتها من الخشب والحديد والمثاقفة، والزفت وغيرها حتى يحكمها، ويجيد بناء المراكب، وتأليفها

وقلفطتها وتركيبها ويستجيد المقاديف ويتخيرها وينتقي الصواري والقلوع، وينتخبها، ويميز النواتية، ويعتمد من له الحذق والمهارة والدربة والحكمة...» (1) مكرر. تحدر الإشارة إلى أن توفر الأخشاب المتنوعة كالصنوبر والأرز والبلوط وغيره، في الغابات الأندلسية، سَهَّلَ إلى حد كبير عملية استعمالها محلياً في الأساطيل. وقد صدرت كميات منها في فترات محددة إلى شمال إفريقيا (2). وأحياناً حدث العكس، أي أن أخشاب الشمال الإفريقي خاصة أخشاب شمال المغرب (جبال غمارة) كانت تصل إلى الأندلس (3). إن وفرة المواد الأولية في الأندلس، لم يكن يكف الخلفة الأموية في قرطبة كثيراً. وعلى العكس من ذلك عانى الفاطميون، رغم نفوذهم البحري، من نقص في الأخشاب التي تدخل في صناعة أساطيلهم مما دفعهم إلى استيرادها من أماكن متعددة (4). وقد يلتجئون في

(1) - انظر نص الرسالة مفصلاً في:

أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 105.

(1) مكرر - المثاقفة: أنواع من الآتواب أو الكتان تستخدم في أسلحة الأسطول خاصة في إفاد النيران.

(2) VALLVÉ (J B) , La Industria en, El Andalus..., p 221.

(3) - ابن سعيد المغربي) كتب الحمرا، تحقق العربي (اسماعيل)، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970، ص

139

LOMBARD (N) , Arsenaux de bois de marine..., op. cit, p. 119

(4) - على تفصيل من نفس في مادة الخشب في الفترة المشرقية لأن مصر كانت يزورها تعتمد على أحساب لبنان وسوريا وكريت وصقلية ثم أحساب المحيط الهندي عبر البحر الأحمر LOMBARD op cit, pp. 132, 133 تحدث لومبارد تحليل شامع مبين أن إحصاءات القيمة السطت بشكل مكثف عائدات الحبوب وفي عصر الموط عادت الراحة البيولوجية إلى نعت نكر مع توحش الأساطيل، وعلى امتداد القرون اللاحقة إلى حدود القرن الخامس الهجري (XI م)، استمرت لعائدات في الحوض العربي المتوسط لقد استغلت الخلافة الأموية أخشاب هضاب السواحل والجرب والغرب الأطلسي، وشرق الأندلس ومنشأ فضولياً وحرر البحر، في الصاعات المختلفة وخاصة في الأساطيل، ثم اتجهت إلى تأمين الأخشاب ولو بالعزو في جبر المتوسط أولاً مثل ماردب وكريت وقرص وكورسيكا ثم إيطاليا وبروفانس أو أفريقية نفسها لكن هذه الوضعية لم تدم لأن الحاجيات الكثيرة دفعت إلى البحث عن مناطق إنتاج ولو بعيدة كإلهند أو التعامل مع العالم الأوربي المسيحي.

LOMBARD (M), Le bois dans la Méditerranée, op. cit, p 153, 176

بعض الأحيان إلى الخواص الذين يعملون على توفيرها. يقول أحدهم في هذا الصدد: «() ولما أنشئت المراكب الحربية بالمهدية، وأعجز عن تمامها الأطراف التي كمالها بالصواري والفرايا، وما أشبه ذلك، وكانت عند الأستاذ في مخزنه أعواد حسان، فتقرب بها إلى أمير المؤمنين . ووقف مولانا على ما كتب به فضرب إليه الجواب وهو: «لا والله يا جؤذر ما نحب أن نخلي مخزنك من مثل هذا العود، فدعه عندك ذخيرة لنا...»⁽¹⁾. ولما وصلت إحدى السفن من صقلية تحمل الأخشاب تقرب بها صاحبها إلى المعز لدين الله الفاطمي حين علم أن دار صناعته في حاجة إليها. وقد أجابه الخليفة بالقول: «قد قبلنا منك ما تبرعت به فاكتب إلى نصير بقبضه واستعماله إن شاء الله»⁽²⁾. لا شك أن الفاطميين الذين حاولوا منافسة الخلافة بقرطبة في مجال البحار قد عمدوا إلى استيراد المواد الأساسية التي كانت تعوزهم في صناعة الأساطيل. ولا غرابة إن نشط الخواص الذين ساهموا بدورهم في تطوير الأساطيل التجارية والحربية في البحر المتوسط. تفصح بعض وثائق الجنيزة⁽³⁾ عن ملكية بعض الأغنياء للسفن خاصة السلاطين أو الحكام المحليين أو القضاة أو كبار التجار. في حين لا نكاد نعثر على إشارات لذلك في الأسطول الأندلسي، مما يبين تحكم السلطة المركزية في بنائه وتوجيهه. فالمصادر تتحدث عن الإشراف المباشر لقرطبة على الأسطول عبر قواد الأساطيل (انظر رجال الأسطول). لكن نشير إلى أفراد ابن حيان بذكر بعض الإشارات التي تفيد بمشاركة بعض الخواص في إحدى الحملات البحرية التي نظمها الأسطول الأندلسي من بجانة ألمرية إلى أرض العدو عام 319هـ/931م. يقول النص: «أغزى الناصر الأسطول إلى أرض العدو في أنم عدة وعدة وأكمل عتاد وآلة... وغزا فيه من وجوه أهل بجانة وألمرية تطوعا في مراكبهم تسعة رجال...»⁽⁴⁾. يمكن تفسير كلام ابن حيان حول مشاركة الخواص وتطوعهم في حملة الأسطول الخلافي إلى المغرب، بكون المشاركين من وجوه وأعيان إقليم بجانة أي من أغنيائه الذين ربما استطاعوا شراء أو صنع قطع من الأسطول على حسابهم. كما نعلم كذلك أن بجانة ألمرية من المناطق الغنية، بل وإحدى القواعد الكبرى

(1) - الجوزري: سيرة الأستاذ جؤذر...، مصدر سابق، ص. 119.

(2) - نفسه: ص. 121.

(3) - انظر بعضها في:

GOITEIN (Schelomo D) . Le commerce mediterraneen avant les croisades quelques faits et problemes Diogenes N° 59, Paris, Gallimard, 1967, p.52, 58.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 312، 313.

LIBROLA DELGADO (J), El poder naval ..., p 186.

لأسطولين التجاري والحربي في الآن نفسه. ناهيك عن أن هذا التطوع تَراعى مع بداية عصر الخلافة (319 هـ)، أي مع مرحلة كانت فيها سلطة قرطبة ما تزال في طور تأسيس نفوذها وتطوير بنياتها في مجالات مختلفة. لقد كانت تتخذ الإجراءات الكفيلة بتوسيع دور إنشاء الأساطيل وإعداد الرجال المتخصصين في ذلك. إذا كانت الأخشاب والمواد الأخرى التي تدخل في صناعة الأساطيل، متوفرة بالأندلس أيام الخلافة والطوائف، وفي مناطق وجهات مختلفة، كما هو الحال في طرطوشة وشلب وقادس وجيان وفي بعض الجزر كالبلبار وغيرها؛ فإن نقلها من أماكن إنتاجها إلى أماكن تحويلها وتصنيعها كان يتطلب وسائل وإمكانات متعددة.

لقد تحدثت المصادر عن أهمية النقل البحري والنهري ودوره في توزيع الأخشاب عبر شبكة تربط ما بين دور صناعة الأساطيل. ويعكس قول الإدريسي هذا الأمر حين تحدث عن حصن قلصة وجباله التي يُقطع بها الأخشاب وتُلقى في المياه إلى «(...) دانية وإلى بلنسية في البحر، وتسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر، ومن جزيرة شقر إلى حصن قلييرة، وتفرغ هناك على البحر فتملأ منها المراكب وتحمل إلى دانية فتتأ منها السفن الكبار والمراكب الصغار، ويُحمل إلى بلنسية منه إن كان عريضا فيصرف في الأبنية والديار»⁽¹⁾. يبدو أن عملية تعويم الأخشاب تتم عبر الأنهار المهمة في الأندلس سواء المتوسطية منها أو الأطلسية، أو النقل بالمراكب بواسطة المساحلة (Cabotage)، وهي ظاهرة تنطلق من مناطق شرق الأندلس نحو دور الصناعة في الجنوب، ومن الغرب نحو إشبيلية بمصب الوادي الكبير. لقد اشتهرت هذه المدينة في مجال الأسطول وغيره حتى قيل إنها حازت البر والبحر⁽²⁾. ولعب نهر إيره في نواحي طرطوشة دورا هاما في نقل حسب ابن غائب⁽³⁾. وقد تقاسمه المسلمون والمسيحيون لفترة، وظل بدون منازع طريقا للاتصال سكنته السفن المسيحية التي جلبت بدورها الأخشاب من تخوم جزر الأسور إلى حدود مدينة طرطوشة⁽⁴⁾. وإلى جانب إيره نعت الأنهار الواقعة في المحور

(1) - الإدريسي: نزعة المشتاق...، ص. 560.

(2) - ابن غائب: تعليق منتقى...، مصدر سابق، ص. 293؛ المقرئ: الفتح... ج 1، ص. 208.

(3) - ابن غائب: نفسه، ص. 285.

(4) - AZZANA (A) - Guichard (P) - SENAC (Ph) : La frontière dans l'Espagne médiévale... op.cit. p. 58.

المشهور بين لاردة وطرطوشة⁽¹⁾ أدوارا هامة في النقل والتواصل. رغم ما قيل حول شبكة الأنهار الأندلسية وأهميتها في نقل وتعويم الأخشاب، وهي، مما لا شك فيه، تقنية غير مكلفة كثيرا، فهي محدودة النشاط والأهمية نظرا لطبيعة أنهار البحر المتوسط عموما.

ولذلك يُستعان أيضا بالنقل البري الذي يعتمد الدواب بالدرجة الأولى لكن يظل محدودا أيضا نظرا لطبيعة الأرض الأندلسية⁽²⁾. ثم إن الأخشاب كثيرة وثقيلة وربما تحتاج إلى وسائل وتقنيات أرقى. إلى جانب الأخشاب تذكر المصادر مواد أخرى تدخل في صناعة الأساطيل كالحديد والكتان والقطران والزفت وغيرها. فالحديد ينتج في مناطق أندلسية متعددة، وبأنواع مختلفة من الجيد إلى الرديء. وقد يستخرج بالقرب من مناطق إنتاج الأخشاب أو بالقرب من دور الصناعة نفسها، مما يضيف ميزة أخرى للصناعات البحرية. فنجد مثلا في ألمرية وغرناطة وطليلة وشلطيش⁽³⁾ وغيرها. بعد تحويل الحديد وتكييفه يُستعمل في أغراض متعددة كتصفيح الدواب وصناعة الأسلحة⁽⁴⁾ وفي النجارة وصناعة الأساطيل. إن استغلال الحديد في أغراض يومية مختلفة دفع بالمصادر خاصة كتب النوازل والحسبة إلى الحديث عن أهميته، بل خصصت له فصولا كاملة في الموازين والأكيال⁽⁵⁾، تناولت أوزانه وكمياته وجيده ورديئه، وأوصت المحتسب بالتشدد والضرب على أيدي الغشاشين فيه. تحدث السقطي⁽⁶⁾ معتمداً على إحصاء دقيق عن كميات الحديد والمسمار التي تدخل في صناعة مركب أو سفينة لكن دون ذكر حجم هذه السفينة. يقول: «وَيَدْخُلُ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الْقِطْعِ الْبَحْرِيَّةِ أَرْبَعُونَ رُبْعاً مِنَ الْمَسْمَارِ الْمَنْوُوعِ مِنْ أَلْفِ مَسْمَارٍ فِي الرَّبْعِ، وَخَمْسَمِائَةٍ فِي الرَّبْعِ، وَيَدْخُلُ فِيهَا مِنْ مَسْمَارِ التَّقْرِيطِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفاً

(1) - BASSOLS (S); Una Lnea de Torres..., p. 134

(2) - LOMBARD (M) ; Arsenaux et bois de marine..., op. cit, p. 108

انظر النقل البري وطرق المواصلات في فصل: خطط وأساليب القتال، (الباب الأول).

(3) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 542.

(4) - انظر الباب الأول فصل الأسلحة.

(5) - السقطي: في آداب الحسبة...، ص. 29 وما بعدها؛ الونشريسي: المعيار...، ج 5، ص. 260.

(6) - السقطي: نفسه، ص. 88.

ورقة كل عدة تسع أواق، ومن القربط الكبير ألفا بل ورر لعنة منه ربع وعشر من
وقية وينخر فيها من لياض ثلاثون ريعاً ومن انكر تسعة أرباع»⁽¹⁾.

يظهر من تعمل الحديد والمسمار في الأسطول عمية عادية ومثوبة في الأسفل
والبحر المتوسطي على الخصوص⁽²⁾. وذلك عكس ما يحدث في بحار ومحيطات أخرى،
حيث لا يصحح مع مياهها استخدام الحديد والمسمار نظراً للعامل الملوحة. يتضح ذلك من
حالة نص دافع الأهمية عند المسعودي⁽³⁾ مكر يذكر فيه أنه في «البحر الرومي مما يلي
حريزة قريضة أنواح المراكب السباح المثقبة المخيطة بليف النارجيل من مراكب قد
عُثفت ففقدت بها الأمواج من مياه البحار (الإبحار) وهذا لا يكون إلا في البحر الحشي
لأن مراكب البحر الرومي والعرب كلها ذوات مسامير، ومراكب البحر الحشي لا يثبت
فيها مسامير الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف، فتحد
هنا خيطة بالتليف بدلاً منها، وظليت بالشحم والوردة». وفي المعنى نفسه تحدث ابن
خلدون⁽⁴⁾ نوع من التفصيل عن التحارة والأحشاش والسفن وأشار إلى الأحشاش التي تلحم
لنساتر حين قال: «إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدُسُر»⁽⁵⁾. استعمل ابن خلدون
كلمتي دساتر ودُسُر، واستعملت أيضاً كدسار ودوسر⁽⁶⁾؛ والصواب ربما هو الدُسُر
وحمعها دُسُتر أي المسمار. وقد ذكرت في القرآن الكريم: {وحملناه على ذات ألواح
وشواجل⁽⁷⁾}. وعلى غرار ما ذكره المسعودي حول عدم صمود الحديد والمسمار في
سفن ومراكب البحر الحشي، لمؤرخه أورد التجيبي⁽⁸⁾ السبتي معلومات مفيدة وهو يصف
عصر السفن المصرية الضعيفة والتي لا تصمد في وجه الرياح والعواصف مبيّناً أن

(1) - نفسه: ص. 88.

(2) - الجزيري: المقصد المحمود، مخطوط 188.

(3) - المسعودي: مروج الذهب ومعين جوهر، تحقيق بيلا (شرق)، بيروت، 1965، ج 1، ص 193، 194.

(4) - أنورة: مادة تستخرج من الحجر الذي يحرق ويتج منه لكس لسفن العرب، مادة نور.

(5) - ابن خلدون: المقدمة، ج 2، ص. 590.

(6) - نفسه: ص. 590.

(7) - قرطبي: التفسير الكبير، تفسير السجدة الطرية، دوسر وهي كلمة قديمة معناه
رأسين، يضم به كل اللوحين، إلى آخره، وهو أيضاً خليط من ليف تشد به الواح السفينة.

آلة والأداة، مرجع سنو، ص. 99.

(8) - الآية 12 سورة القمر.

(9) - التجيبي السبتي: مسمار حرجه وألواح، تحقيق منصور (عبد الحليم)، مصر، 1976، ص 181.
مصر، 1976، ص 181، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 312، 313، 314، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 373، 374، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 382، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389، 390، 391، 392، 393، 394، 395، 396، 397، 398، 399، 400، 401، 402، 403، 404، 405، 406، 407، 408، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 415، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 422، 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430، 431، 432، 433، 434، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 442، 443، 444، 445، 446، 447، 448، 449، 450، 451، 452، 453، 454، 455، 456، 457، 458، 459، 460، 461، 462، 463، 464، 465، 466، 467، 468، 469، 470، 471، 472، 473، 474، 475، 476، 477، 478، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 485، 486، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 523، 524، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 532، 533، 534، 535، 536، 537، 538، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 550، 551، 552، 553، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 563، 564، 565، 566، 567، 568، 569، 570، 571، 572، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 581، 582، 583، 584، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 594، 595، 596، 597، 598، 599، 600، 601، 602، 603، 604، 605، 606، 607، 608، 609، 610، 611، 612، 613، 614، 615، 616، 617، 618، 619، 620، 621، 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628، 629، 630، 631، 632، 633، 634، 635، 636، 637، 638، 639، 640، 641، 642، 643، 644، 645، 646، 647، 648، 649، 650، 651، 652، 653، 654، 655، 656، 657، 658، 659، 660، 661، 662، 663، 664، 665، 666، 667، 668، 669، 670، 671، 672، 673، 674، 675، 676، 677، 678، 679، 680، 681، 682، 683، 684، 685، 686، 687، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700، 701، 702، 703، 704، 705، 706، 707، 708، 709، 710، 711، 712، 713، 714، 715، 716، 717، 718، 719، 720، 721، 722، 723، 724، 725، 726، 727، 728، 729، 730، 731، 732، 733، 734، 735، 736، 737، 738، 739، 740، 741، 742، 743، 744، 745، 746، 747، 748، 749، 750، 751، 752، 753، 754، 755، 756، 757، 758، 759، 760، 761، 762، 763، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 771، 772، 773، 774، 775، 776، 777، 778، 779، 780، 781، 782، 783، 784، 785، 786، 787، 788، 789، 790، 791، 792، 793، 794، 795، 796، 797، 798، 799، 800، 801، 802، 803، 804، 805، 806، 807، 808، 809، 810، 811، 812، 813، 814، 815، 816، 817، 818، 819، 820، 821، 822، 823، 824، 825، 826، 827، 828، 829، 830، 831، 832، 833، 834، 835، 836، 837، 838، 839، 840، 841، 842، 843، 844، 845، 846، 847، 848، 849، 850، 851، 852، 853، 854، 855، 856، 857، 858، 859، 860، 861، 862، 863، 864، 865، 866، 867، 868، 869، 870، 871، 872، 873، 874، 875، 876، 877، 878، 879، 880، 881، 882، 883، 884، 885، 886، 887، 888، 889، 890، 891، 892، 893، 894، 895، 896، 897، 898، 899، 900، 901، 902، 903، 904، 905، 906، 907، 908، 909، 910، 911، 912، 913، 914، 915، 916، 917، 918، 919، 920، 921، 922، 923، 924، 925، 926، 927، 928، 929، 930، 931، 932، 933، 934، 935، 936، 937، 938، 939، 940، 941، 942، 943، 944، 945، 946، 947، 948، 949، 950، 951، 952، 953، 954، 955، 956، 957، 958، 959، 960، 961، 962، 963، 964، 965، 966، 967، 968، 969، 970، 971، 972، 973، 974، 975، 976، 977، 978، 979، 980، 981، 982، 983، 984، 985، 986، 987، 988، 989، 990، 991، 992، 993، 994، 995، 996، 997، 998، 999، 1000.

الواحد تُجمع بمادة الفسار، وهو ليف يُنتج في الهند وتُصنع منه الحبال التي تقاوم ملوحة البحر. أما المركب فيدهن بدهون بعض الأسماك كالفرش، والشراع مصنوع من شجر المفز، وهو محل برّي، والصواري تتخذ من قصب الهند أيضاً. وفي المعنى نفسه أشار الباحث أنور عبد العليم⁽¹⁾ اعتماداً على السيرافي أن مادة شحم الحوت كانت تستخدم خلال القرن الرابع الهجري (X م) كطلاء للسفن والمراكب. لا شك أن الدهون السميكية التي تطلى بها المراكب والسفن يقابلها الزفت والقطران بالنسبة للأندلس. وقد سبق القول إن هذه المواد تنتج في الأندلس بشهادة ابن حيان⁽²⁾ الذي ذكر أن الخليفة الحكم المستنصر أمر أحد قواده سنة 362 هـ كي ينظر في كميات الزفت والقطران والأخشاب التي تنتج بكورة جيان وتحمل إلى الجزيرة الخضراء وإشبيلية حيث صناعة الأساطيل. إن مادتي الزفت والقطران تلعبان دوراً هاماً في الإخراج النهائي للمراكب والسفن. فبعد إعدادها يقوم البحارة المتخصصون بطلائها أو جلفطتها⁽³⁾ كي لا تتضح أو ترشح وتتسرب المياه إليها وقت الإبحار والقتال. كما أن مادتي الزفت والقطران تصبغان اللون الأسود القائم على المراكب والسفن، ولذلك تنعت عادة بالأغربة أو الغراب لوجه الشبه بينهما. وقد نجد هذا الوصف في النصوص الشعرية التي تواكب الحملات العسكرية البحرية وتصف السفن في حالات الانتصار. يقول ابن هانئ الأندلسي⁽⁴⁾ واصفاً سفن المعز لدين الله الفاطمي:

وسُقْنُ إذا ما خاضت اليمَّ زاخراً

جلت عن بياض النصر، وهي غرابيبُ

تُسبُّ لها حمراء، قان أوارُها

سبوح لها ذيل، على الماء مسحوبُ⁽⁵⁾.

(1) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 84.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، الحجى، ص. 101.

(3) - جلفط الحلفاط السينة والمركب، طلاها بالزفت والقطران وقد أدخلت الكلمة ذات الأصل البزنطي إلى اللغة العربية، انظر ابن منكلى: الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، مخطوط، ص. 20؛ المعجم الوسيط، ج 1، مادة جلفط، ص. 131.

DOZY (R), Supplément aux dictionnaires arabes..., op. cit, T. 1, p 238

(4) - ابن هانئ (الأندلسي): ديوان ابن هانئ، تحقيق البستاني (كرم)، بيروت، دار صادر، 1952، ص. 25.

(5) - غرابيب: سود مطلية بالزفت والقطران، أوار: دخان ينبعث من المراكب.

خلاصة

يتضح من استعراض المعلومات المصدرية المرتبطة بدور صناعة الأساطيل ومود صياغتها أن الخلافة الأموية بقرطبة استهجت سياسة واقعية قائمة على إرساء سياس اقتصادية وسياسية وعسكرية، اعتبرت دور صناعة الأسطول الحربي أحد أسس تلك السياسة. لقد زاد الأسطول الحربي من نفوذ وهيبة الخلافة داخليا وخارجيا على امتداد القرن الرابع الهجري. وقد حاولنا فهم الظروف العامة التي دفعت بقرطبة إلى الاهتمام بالأسطول مبيّنين أهمية وضرورة حماية السواحل الشاسعة التي تحيط بالأندلس، والتي كانت، باستمرار، عرضة للهجمات النورمانية (المجوس). وهكذا رصدنا المادة المصدرية المتنوعة والمرتبطة بإنشاء وتطوير دور الصناعة الأساسية عبر الأندلس مثل ألمرية المركز الأول للأسطول الخلافي، ومالقة والجزيرة الخضراء القريبة من العدو والشمال الإفريقي عامة، وإشبيلية، وشلب وقصر أبي دانس، ولقنت وطرطوشة ودانية والجزر الشرقية وغيرها، إضافة إلى بعض الأنهار التي استغلت لتطوير الأسطول الحربي كنهر إيره ودويره والوادي الكبير وغيره. ولاحظنا أن الخلافة الأموية لم تكف بتطوير وتوسيع دور الصناعة بالأندلس، بل اتجهت أنظارها إلى إخضاع مراسي ومراكز في شمال إفريقيا وخاصة في شمال المغرب كمراسي طنجة وسبتة ومليلية وأصيلا وغيرها، ثم وهران وبنزرت. لقد تبين أن الخلافة الأموية كانت تهدف إلى إخضاع شمال إفريقيا القريبة والهامة اقتصاديا وبشرى من جهة، وإلى تطويق أو على الأقل التضيق على أعدائها الشيعة من جهة أخرى. لكن رغم ما سبق أي مواجهة النورمان من الشمال والفاطميين الشيعة من الجنوب لاحظنا أن هذه العوامل والأسباب الخارجية وإن كانت مهمة في تفسير أسباب اهتمام سلطة قرطبة بالأسطول الحربي فهي غير كافية في فهم سياسة الخلافة في مجال الأسطول. لقد وضعنا التحولات الكبرى التي شهدتها الأندلس خلال القرن الرابع الهجري، وفي إطارها أسست الخلافة بنيات جديدة في مجالات مختلفة، وما دور الصناعة والأساطيل الحربية إلا وجها من وجوها. أما ما يتعلق بالإمكانيات أو الوسائل التي سخرتها الخلافة في بناء الأسطول، فأتضح أنها استغلت ما توفر في الأندلس أولا من عادات وأخشاب إلى جانب المعادن المختلفة كالحديد والنحاس والزفت والقطران وغير

ذلك من المواد التي تنتج محليا. إنها كانت توفر للسلطة عناء البحث عنها بتكلفة خارج الأندلس كما حدث لأعدائها الفاطميين. لقد وظفت الخلافة كل الوسائل الممكنة والمتاحة بما في ذلك اللجوء إلى تقنيات مهمة كالنقل النهري والبري والمساحلة قصد الاستفادة من المواد السالفة الذكر. وبناء على ذلك أسست الخلافة أسطولاً حربياً قوياً أهابت به القوى الخارجية المسيحية والفاطمية. لكن ضعف هذا الأسطول وتراجع بمجرد أفول نجم الخلافة وانهيارها وقيام الطوائف. لقد حاولت بعض الإمارات الطائفية الاحتفاظ أو الحفاظ على بعض القطع من الأسطول كما حدث مع بني عباد بإشبيلية، وبني صمادح بالمريّة، ومجاهد العامري وبنيه ببعض الجزر الشرقية ودانية، لكن الانقسامات والصراعات السياسية المختلفة حالت دون متابعة تطوير دور صناعة الأساطيل. ويجب انتظار العصر الموحدى للحديث من جديد عن أهمية وقوة الأسطول الحربي، ليس في الأندلس وحدها، وإنما في مجموع الغرب الإسلامي.

الفصل الثالث

السفن الحربية:

الأنواع والأعداد والأوقات والمسافات

إن دراسة الأسطول الحربي في العرب الإسلامي، قطعته وأنواعها وحمولاتها والمعدات التي تقطعها من الصعوبة مكان، لأسباب متعددة، لعل أهمها التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي. ولا عراية أن يقع العديد من الدارسين المعاصرين في هذا الخلط خاصة بالنسبة لفترة ما قبل القرن السادس للهجرة (XII م).

يذكر ابن عداري⁽¹⁾ في أحداث عزو طارق بن زياد وحنده للأندلس أن بوليان مسعده ودليله كان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس. ولا يشعر أهلها بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار. إذا كانت المصادر شحيحة أحياناً في الإشارات وللمعلومات حول جوانب محددة تيم الأسطول التجاري، فإنها تلتزم انصمت فيما يتعلق بالمعلومات التي ترتبط بالأسطول الحربي الذي كان ينسب عنه ربما لأسباب أمنية بالدرجة الأولى.

تتأكد صعوبة التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي حين نستعرض فيما من لأسماء والألفاظ والمصطلحات التي تزخر بها المصادر المتنوعة. فلفظ الأسطول⁽²⁾ نفسه ليس ونبذ عنصر الوسيط الذي بحر بصدده، وإنما هو كلمة يودائية قديمة، ارتبطت به أسماء أخرى كثيرة يصعب حصرها في لائحة محددة.

أ. الأنواع: فالمصادر على اختلافها تذكر على سبيل المثال: القوارب والسفن والمراكب، والتسوني، وقطائع وسورج، والأحفاة والأغربة، والحراريق، والطرائد وغيرها من الأسماء والألفاظ التي يحتفظ فيها التجاري والحربي. إن بعض هذه الألفاظ كسفن ونفك ومراكب قديمة أيضاً إذ وردت في أميات المصادر الإسلامية القديمة. فيكتفي بعودة إلى الأدب الحائفي وخاصة بصوصه الشعرية المعروفة للتأكد من ذلك. - حيث عن ذكره في القرن تكميم نفسه في آيات متعددة وفي مناسبات مختلفة. يقول

(1) - ابن عداري: البيان، ج 2، ص. 6.

(2) - الأسطول كلمة يونانية (STOLOS) وتعني طاعة من السفن الرصافي: الآلة والأداة، ص. 18.

نعني في نفسه: «فأنجيناه وأرحاه السفينة وجعلناها آية للعالمين»⁽¹⁾. «فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها»⁽²⁾. «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر. فأردت أن أعينها وكان وراءهم ملك، يأخذ كل سفينة غديها»⁽³⁾.

ويقول تعالى في الفلك: «وادمع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنيهم مغرقون»⁽⁴⁾. «وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره»⁽⁵⁾.

تجدر الإشارة إلى أن السفينة ذكرت أيضا في التراث المسيحي القديم لما أمر الله نوحا في الكتب المقدس أي التوراة أن يصنع سفينة من خشب صمغى طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا، وعلوها أو ارتفاعها ثلاثون ذراعا⁽⁶⁾. يمكن للدارس تتبع ورصد تطور دلالات ألفاظ الأسطول في كتب التراث الإسلامي والمسيحي منذ القديم نظرا لأهمية وطرافة الموضوع. ومن شأن ذلك أن يُفيد في وضع لائحة مضبوطة ما أمكن لتلك الألفاظ والتطورات التي لحقت بها عبر العصور. وفي انتظار أبحاث مفيدة في هذا الشأن نكتفي بإبرار أهمية وطبيعة قطع الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف.

يمكن للوهلة الأولى، الفيام بنوع من التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي⁽⁷⁾. انطلاقا من الألفاظ المستعملة نفسها، ثم من خلال التدقيق في النصوص التي تصف أجزاء من السفن والقطع، مع العلم أن أغلب المصادر تقف عند الأسماء المعروفة كما سلف

(1) - سورة العنكبوت، الآية: 14.

(2) - سورة العنكبوت، الآية: 70.

(3) - سورة الكهف، الآية: 78.

(4) - سورة الكهف، الآية: 37.

(5) - سورة إبراهيم، الآية: 34.

(6) - انظر:

LA BIBLE. IV. 14.

LE ROBERT Dictionnaire alphabétique et analogique de la Langue française, Paris 1980 p 980.

(7) - ندو ان الأسطول عموما والحربي خاصه كان منظمًا بواسطة "ديوان البحر" أو ديوان أسعال البحر بالأندلس، وعادة ما يتكلف به أمير البحر أو قائد البحر.

انظر ما بين هذا المعنى في اس القوطية، ناريخ افتتاح الأندلس ص. 83، 82. وللمقارنة مع الفاطميين نذكر انهم انتسبوا دورا للبحر أو حرس البحر، أو ديوان الجهاد أو ديوان العسائر انظر الجوذري: سيرة الأستاذ جوذر ص. 137، 102.

يقول، مثل السفن والمراكب والقوارب⁽¹⁾ في وضعها للأسطول البحري. وقد تصف صفات أخرى تميزها أكثر لقطع ذلك الأسطول مثل المراكب السريعة⁽²⁾. أما الأسطول البحري فعادة ما يطلق على قطعه أسماء أخرى مثل الحراريق⁽³⁾ والاعربة⁽⁴⁾ والاجفان⁽⁵⁾ والرافير⁽⁶⁾ والشواي⁽⁷⁾، وما إلى ذلك من النعوت المميزة له. ومن المصادر ما تحدث عن المراكب الحربية⁽⁸⁾ أو القطائع البحرية⁽⁹⁾ الخ. لا شك أن أنواع وأعداد قطع الأسطول البحري الأندلسي قد تطورت منذ عصر الإمارة لتبلغ الأوج خلال عصر الخلافة. حصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300هـ - 350هـ). يقول ابن حبان⁽¹⁰⁾ في هذا المعنى أن الناصر أغزى الأسطول سنة 319هـ إلى "أرض العدو في أتم عدة وعده وكم عتاد واثرة، وكان أضخم أسطول أجراه ملك وقرّ عليه نظره، وتكاملت قطعه...". وفي عام 321هـ عين الخليفة قائدا جديدا على بجانة وعهد إليه بإصلاح أمور أسطول ألمرية و"تهذيبه والزيادة فيه وإعداد آلاته"⁽¹¹⁾.

إن توسيع دور صناعة الأسطول والزيادة في أعداد قطعه وتنويعها يصعب معه صط طبيعة تلك القطع وأنواعها وأحجامها دون الاستعانة بمصادر متنوعة وموسوعات ومعاجم متخصصة.

- 1- نخري: ترصيع لأحضر، ص 81، 98؛ ابن حبان: المقتبس، ج 5، ص 323، 87؛ ابن عذاري: البيان، ج 2، ص 239، 103، 96، 89، 87؛ المسعودي: مروج الذهب، ج 1، ص 194، 193، 129، 124، 130؛ الحموي: ياقوت؛ معجم - ج 5، ص 119؛ الجزيري: المعجم الممهور، مخطوط، 88، أ، 99 ب؛ الونشريسي: المعيار، ج 8، ص 309، 64.
- (2) - الجزيري: نفسه، 88 أ؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 558.
- (3) - ابن حبان: نفسه، ص 366.
- (4) - ابن نكريوس: تاريخ الأندلس، ص 57؛ ابن أبي زرع: الانيس المطرب، ص 364، 368.
- (5) - الزهري: كتاب الجغرافية، ص 101؛ الونشريسي: المعيار...، ج 2، ص 218.
- (6) - الزهري: نفسه، ص 92.
- (7) - نخري: ترصيع الأخبار، ص 82، 83؛ ابن سعيد: رايات المبرزين...، ص 213؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 24، 32.
- (8) - ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني): الكامل في التاريخ، بيروت، 1966، ج 8، ص 512، 513.
- (9) - ابن بلقين: البيان، ص 113؛ ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة...، ص 136.
- (10) - ابن حبان: المقتبس، ج 5، ص 313، 312.
- (11) - نفسه: ص 323.

1 - الشواني والأغربة

تتحدث المعلومات المصدرية عن الشواني أو الشينات باعتبارها قطعاً حربية بالدرجة الأولى. يذكر ابن حبان⁽¹⁾ أن ابن يونس ركب البحر "في عشرة مراكب غربية وخمسة شواني تامة الشحنة والعدة يريد بلد إفرنجة". ويشير البكري⁽²⁾ إلى أن صاحب طرطوشة أوصل سنة 446 هـ، نفراً من الناس في الشواني إلى نربونة. وتحدث العذري⁽³⁾ عن أهمية الشواني الحربية خلال عصر الخلافة مبيّناً أن محمد بن رماحس غزا إلى إفرنجة، عام 331 هـ، بمعية غالب بن عبد الرحمن وسهل بن أسيد في ثلاثين مركباً حربية وستة شواني. ولم يغفل ابن حوقل⁽⁴⁾ الحديث عن الحربيات والشينات التي تجوب بحر الروم. وعائين المقدسي⁽⁵⁾ بنفسه حرب الروم في الشواني. ووصف ابن حمديس⁽⁶⁾ حرب الشواني مخاطباً الحسن بن علي أحد أمراء بني زيري قائلاً:

أنشأت شواطني طائرة * وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها * في شم شواهاقها قننا
ترمي ببروج إن ظهرت * لعدو محرقه بطنا
وبنقط أبيض تحسبه * ماءً وبه تذكا السكنا

يبدو أن الشواني تستخدم أكثر في القتال والجهاد⁽⁷⁾. إنها مراكب كبيرة وطويلة تقام عليها أبراج وقلاع للدفاع. كما أنها تجذف بأكثر من مائة مجذاف⁽⁸⁾ أو بمائة وأربعين

-
- (1) - ابن حبان: المقتبس...، ج 5، ص. 323.
 - (2) - البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا...، ص. 98.
 - (3) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 82، 83.
 - (4) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 117.
 - (5) - المقدسي: أحسن التقاسيم...، ص. 24، 32.
 - (6) - ابن حمديس: ديوان ابن حمديس، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1960، ص. 513.
 - (7) - ابن سعيد: رايات المبرزين...، ص. 213؛ ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 610.
 - (8) - الرفاعي (أنور): النظم الإسلامية، دمشق، دار الفكر، 1973، ص. 161.

محدثاً⁽¹⁾. ولمقارنة مفيدة قال ابن منكلي⁽²⁾ في الشواني العاطمية العرواية انها طراند مفتوحة من الخلف، وذلك لتسهيل الصعود والنزول منها. ونعتقد كذلك أن الشواني نعرف أيضاً بالأغربة أو الغربان⁽³⁾ لأنها تشبه الغراب في اللون الأسود الذي يطلى به. وقد استعمل لفظ الأغربة بعموم دار الإسلام. ذكر ابن الكردبوس⁽⁴⁾ أن الأندلس عرفت سعمانة غراب على عهد الحكم بن هشام وابنيه عبد الرحمن ومحمد. وأشار صاحب فيض الغباب⁽⁵⁾ وصاحب منطق الطير⁽⁶⁾ إلى رواج الأغربة في المغرب خاصة بعد المرابطين. وهو ما أكدته ابن زكريا الأندلسي⁽⁷⁾ بقوله "كنت بمدينة إشبيلية وتولعت بالسفر في البحر المحيط، فسافرت فيه مراراً، ثم سافرت في السفن الكبار المسمون بالقلمونية بالعجمية، في هذا البحر، فتلاقينا بإحدى عشر غراباً". ومن المرجح أن تكون كلمة "الغراب"، كلفظ الأسطول، نفسه، قديمة وقد تكون ذات أصل قرطاجني⁽⁸⁾ انتشرت في العديد من المناطق واسمها لغات كثيرة كالإسبانية تحت اسم (GARAPAS)⁽⁹⁾. وقيل أيضاً إن الغراب سفينة شراعية صغيرة من طبقة واحدة، وذات صار أو صاريين. وتستخدم عادة في أغراض مستعجلة⁽¹⁰⁾. ولذلك يطلق عليها اسم corveta و corvette أو GURAPA⁽¹¹⁾.

يُجمع الدارسون أن الأغربة تطلى بمواد كالزفت والقطران مما يزيد من صلابتها

- (1) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 111.
- (2) - سالم (عبد العزيز) العبادي (محمد مختار): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 133.
- (3) - DUFURCQ (Charles-Emmanuel), La vie quotidienne dans les ports mediterraneens au Moyen Age Provence-Languedoc Catalogne, Paris, Hachette. 1979, p. 61
- (4) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط، ص. 20.
- (5) - سالم (عبد العزيز) العبادي (محمد المختار): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 132.
- (6) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 57؛ ابن أبي دينار: كتاب المؤنس...، ص. 97.
- (7) - ابن الحاج: فيض الغباب...، ص. 108.
- (8) - ابن أبي حجلة: منطق الصير - مخطوط الحراة الحسية، الرباط، رقم 1910، أماكن متعددة.
- (9) - ابن زكريا (ابراهيم بن احمد بن عاتم بن محمد بن زكريا الأندلسي): كتاب في صنعة الأمور الحربية، مخطوط، الخزائن العامة، الرباط، رقم د 1342 ورقة 150.
- (10) - مكرر - القلمونية/ قلموني، قلمونة: ذات شكل شبه دائري.
- (11) - DOZY (R), Supplément ..., op cit, T. 2, p. 408
- (8) - حركات (أ): النشاط الاقتصادي...، ص. 185.
- (9) - ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة...، هامش ص. 253.
- (10) - ابن الكردبوس: نفسه، تعليق هامش ص. 121.
- (11) - LIROLA DELGADO (J), El poder naval...، op cit, p. 303

DOZY (R) ; op cit, T 2, p. 204, 205

وتلاحمها وتماسكها على الماء. فهي تطلّى بالفار ولها قلع بيضاء، وهي، بذلك تشبه العراب⁽¹⁾، أو أن مقدمتها تشبه إلى حد كبير رأس غراب⁽²⁾. ولها أيضا جناحان بيضاوين تحركها القلع والمجاذيف⁽³⁾. يقول فيها ابن الأبار⁽⁴⁾:

يا جندا من بنات الماء * تطفو لما شب أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غربانا بأجنحة ال * حمام البيض للاشراك ترزؤه

2 - الحراقات

أما الحرايق أو الحراقات⁽⁵⁾ فهي نوع من السفن والمراكب المتخصصة في الحروب كما يبدو من إسمها. يقول ابن حيان⁽⁶⁾ إن الخليفة عبد الرحمن الناصر غز الأسطول إلى بلد الفرنجة عام 323 هـ بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة. "وكانت عدة مراكبه أربعين مركبا، عشرين حراقات فيها الثَّقَط، والآلات البحرية. وعشرين فيها الرجالة المقاتلة". ويبدو أن مجموعة من دور الصناعة في الأندلس كانت متخصصة في إنشاء هذا النوع من السفن. يقول العمري⁽⁷⁾: وبالمريّة "دار صناعة لإنشاء الحرايق لقتال العدو". وبمدينة مالقة كذلك "دار صناعة لإنشاء الحرايق"⁽⁸⁾. والحرايق "سفن للضرب بالثَّقَط خفيفة للهجوم في البحر المتوسط"⁽⁹⁾. وذكر الإدريسي⁽¹⁰⁾ في المعنى نفسه أن مدينة لقنت بشرق الأندلس "مع صغرها تنشأ بها المراكب السفريّة والحرايق". واضح إذن، مما سلف، أن الحراقات تزود بمجانيق لرمي أو إلقاء النفط

(1) - سالم (ع) العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 132.

(2) - الرفاعي (أنور): النظم الإسلامية...، ص. 162.

(3) - المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص. 110.

(4) - أورده الباحثان سالم والعبادي، المرجع السابق، ص. 132.

(5) - بقولون في جمع حراقة: حرايق، والصواب حراقات، قال الخليل هي سفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر.

اللخمي (ابن هشام): المدخل إلى تفويم اللسان وتعليم لبيان، تحقيق: بيريث لافارو خوسي، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1990، ج 2، ص. 103؛ الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط، 88 أ.

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 366.

(7) - العمري: مسالك الأبصار...، (وصف إفريقية والأندلس)...، ص. 46.

(8) - نفسه: ص. 47.

(9) - نفسه: (إفريقيا ناقص مصر)...، ص. 237.

(10) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 558.

والشيران⁽¹⁾. وعاده ما يرسم على شكل صور الحيوانات كالأسد والفيل والعقاب والفرس.
وقد عرفت بالآندلس ولدى الأغالبة والفاطميين⁽²⁾.

3 - أنواع أخرى

وتسير المصادر إلى أنواع أخرى من قطع الأسطول الحربي كالأحفان (الحف). قال
الزهري⁽³⁾ في حديثه عن مدينة المرية "وهذه المدينة لم يكن ببلاد الآندلس أعظم منها
أحفاناً وحركة في البحر. وقد انتهت أحفانها، وبلغت المائة ولم تبلغ مدينة ما بلغتها في هذا
نفس". وأضاف صاحب ذكر بلاد الآندلس⁽⁴⁾ بصدد الأسطول الآندلسي في عهد الخليفة
الحكم المستنصر أن هذا الأخير أمر عام 354 هـ، بجعل "الأحفان الغزوانية في جميع
سواحلها". وتحدث ابن الخطيب⁽⁵⁾ عن الأحفان الغزووية أو الغزوانية التي استخدمت في
الصراعات التي دارت بين المرابطين وبني صمادخ خلال القرن الخامس الهجري. تحذر
الملاحظة إلى أن الأحفان قد تأخذ أسماء أخرى ربما حسب المناطق أو حسب طرق
صناعتها والمهام التي تقوم بها. ويظهر أيضاً أنها من السفن ذات الأحجام الكبرى لأنها
كانت في الغالب تحمل الرجال والمؤونة. يرى أحد الدارسين⁽⁶⁾ أن الصنّدل مركب حربي
كبير ومسطح يحمل المقاتلين والسلاح والمؤونة. والكلمة لاتينية الأصل يسميها العرب
الشلندي (سُلنديات). ويُطلق عليها في الآندلس إسم الأحفان الغزووية أو الغزوانية. أما
المسطح فهي سفينة كبيرة الحجم، تحمل الأسلحة للأسطول وتسمى في الآندلس الحمالة⁽⁷⁾.
وقد ذكر ابن حيان⁽⁸⁾ بالفعل لفظ الحمالة، لكن دون الوقوف عند دورها أو حجمها. ويبدو
من ناحية توازي المسطحات في الأسطول الفاطمي وهي مخصصة لحمل السلاح

(1) - لغوي: ورقت ، ص 114 - حركات: سبط لأفندي ، ص 185

(2) - الرفاعي: نظم إسلامية ، ص 162

(3) - الزهري: كتاب جارية ، ص 101

(4) - مجهول: ذكر بلاد الآندلس ، ص 171

(5) - ابن الخطيب: عن الأندلس ، ص 192

(6) - الرفاعي: النظم الإسلامية...، ص 161.

(7) - نفسه: ص 161.

(8) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص 313.

للأسطول خلال المعارك البحرية⁽¹⁾. أما الشلندي فنوع من قطع الأسطول عُرف كذلك لدى البريطانيين. إنها سفينة على شكل مسطح يأخذ المقاتلون الغزاة أماكنهم على ظهره، ويكون الحذافون في أسفله⁽²⁾. ويظهر أيضاً أن الشلندي من المراكب الكبيرة الحجم والمتسعة، مسطحة من أعلاها، وتتنقل المؤن والذخائر وتعادل الشونة والحراقة يبلغ طولها 195 قدماً، وعرضها 33 قدماً وحمولتها 600 شخص⁽³⁾. والصندل (الشلندي) عُرف أيضاً لدى الفاطميين⁽⁴⁾.

إلى جانب هذه الأنواع تشير المعلومات المصدرة إلى استخدام الأندلسيين لسفن أخرى مختلفة ومتنوعة الأحجام خاصة تلك التي تتكلف بمساعدة الأسطول الحربي إبان المعارك. لقد أعد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأسطول عام 319هـ لإخضاع أرض العدو ورافقه " (...) الحمالة والفتاشة وقوارب الخدمة" ⁽⁵⁾ مكرر. وتحدث العذري⁽⁶⁾ عن الفتاشة والشواني. وأشار ابن الأبار⁽⁷⁾ إلى العشاري بقوله وركب تميم "في عشاري تتبعه أربعة زوارق وأكثر مملوءة فاكهة وطعاماً". وإلى ذلك تضاف القراقير⁽⁸⁾ مكرر والطرائد⁽⁹⁾ والبوارج⁽¹⁰⁾ وغيرها.

(1) - سالم، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 136.

(2) - نفسه: ص. 135.

(3) - عثمان (محمد عبد العزيز): البحرية العربية في الأندلس، المورد، م 12 عدد 4، بغداد، 1983، ص. 71، 72.

(4) - الجوزري: سيرة الأستاذ جؤنر...، ص. 98.

(5) - ابن حيان: المقابس...، ج 5، ص. 313.

(5) مكرر - يبدو أن الفتاشة قطعة حربية تستعمل لنقل الإشارات وحراسة السواحل ومداخل الموانئ، وهي توازي السيطي أي السفينة التي تحذف بثمانين مجذافاً. إنها ذات طبيعة استطلاعية تأتي بالأخبار لروساء الغربان.

LIROLA DELGADO (J): El poder naval... op. cit., pp. 302, 303

المونوي: ورقات...، ص. 110.

(6) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 81، 82.

(7) - ابن الأبار: الحلة السيرة...، ج 1، ص. 297.

(8) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 92.

(8) مكرر - القرفور من السفن الكبرى التي تتكلف بحمل الزاد للأسطول وأصلها إسباني: كاراكا (CARAQUE).

الرفاعي (أ): "نظم الإسلامية، ص. 161؛ حركات (J): النشاط الاقتصادي، ص. 185؛ الكافي (محمد بشير):

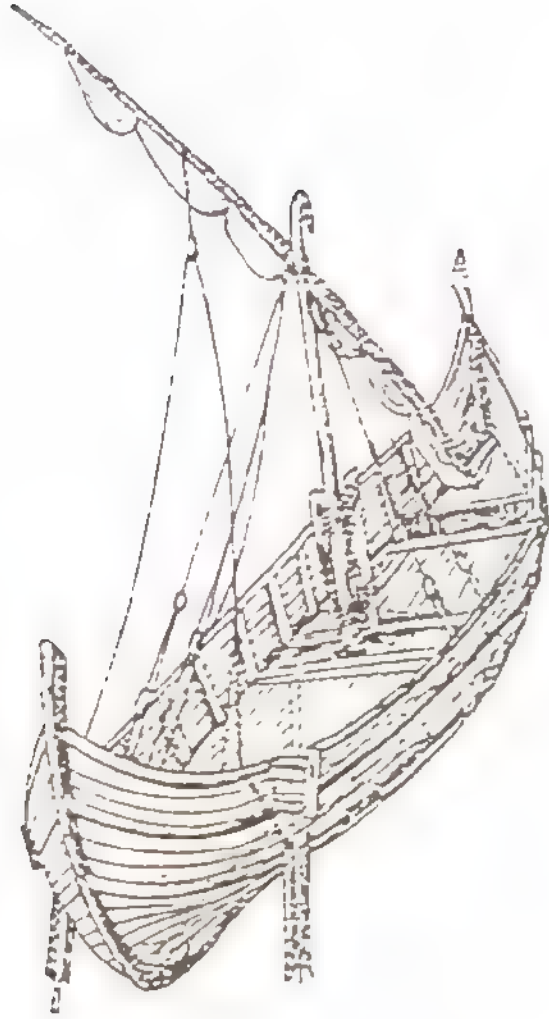
قاموس المصطلحات البحرية...، ص. 18.

(9) - الطرائد/ طريدة: من السفن الصغرى السريعة تستخدم لنقل الفرسان والخيل، وعدة ما تفتح من الخلف ليسهل النزول منها والصعود.

(10) - البوارج (برجة): سفينة حربية قال الطبري: "دخل البصرة عشر سفان بحرية تسمى البوارج".

تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار القلم، د. ت، ج 6، ص. 112.

مركب عربي من القرن التاسع الميلادي



المرجع : EL PODER NAVAL P : 301

إطلاقاً من الأسماء والألفاظ المتنوعة الواردة في ثنايا المصادر عن قطع الأسطول الحربي، يمكن تأكيد أهمية هذا الأسطول خاصة خلال القرن الرابع الهجري (X م). لقد كان بلا شك، الأداة الناجعة والفعالة التي استعملتها الخلافة الأموية بقرطبة، إلى جانب الجند البري (جند الحصرة)، لتوسيع نفوذها وتأكيد هيبتها في الأندلس وخارجها. لقد أمكن، من خلال استعراض المادة المصدرية المرتبطة بالأسطول الحربي الأندلسي، التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي، وذلك عكس ما ادعته العديد من الأبحاث⁽¹⁾ التي تعتقد بصعوبة التمييز في هذا الميدان قبل العصر الموحيدي. لقد وقفت المصادر المعاصرة لفترة الخلافة والطوائف عند إشارات متعددة أمكن من خلالها إبراز خصائص ومميزات الأسطول الحربي. وتتفق مع ملاحظة أحد الدارسين⁽²⁾ حين يقول إن السفينة الحربية تتميز عادة عن التجارية بالطول والسرعة واستعمال المجاذيف القوية بدلاً من الأشرعة.

ب . الأعداد: كم كانت أعداد قطع الأسطول الحربي الأندلسي خلال الخلافة والطوائف؟

تجدر الإشارة إلى أن السلطة السياسية الأندلسية قد اهتمت بأعداد قطع الأسطول الحربي، وذلك بشكل موازي لما وسعته وطوّرت من دور صناعة الأساطيل. لقد كان ذلك إحدى ركائز سياستها في مجال الصناعة البحرية. لكن يصعب الخوض في تحديد أعداد وحدات الأسطول الحربي لاعتبارات كثيرة منها أولاً اختلاف المصادر بشأنها، وعادة ما تتحدث عن الأعداد بنوع من التضخيم إن لم نقل الانبهار⁽³⁾ خاصة في المناسبات كالانتصار في معارك معينة، أو احتلال منطقة من المناطق الاستراتيجية. وقد يتم الحديث عن أعداد قطع الأسطول الحربي في دار من دور الصناعة دون أخرى. ناهيك عن الخلط أحياناً ما بين الأسطول الحربي والتجاري. قال ابن حيان⁽⁴⁾ في تعداد بعض وحدات

(1) - LEVI-PROVENÇAL(E), Histoire de l'Espagne ..., op cit, T.3, p 109

DU FOURCQ (Ch. Fm), Commerce du Maghreb medieval avec l'Europe chretienne et marine musulmane, 1er congrès d'Histoire et de la civilisation du maghreb, Tunis, 1979, T 1, p. 161, 192

(2) - LIROLA DELGADO (J); El poder naval ..., op cit, p 302

(3) - لا شك أن بعض المصادر ذات الطابع الأدبي التي واكبت أحداث الخلافة والطوائف، كالخيرة لابن ساسم، و...، وسنت المناسبات الحربية الأندلسية في بعض المعارك، لكن بنوع من المبالغة والمغالاة مما يصعب معه تصديق الأوصاف أو الأعداد التي تعتمد عليها في مجال الأسطول.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، مكي، ص. 144؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 89.

الأسطول الحربي أن الأمير عبد الرحمن أغزى سنة 234 هـ "أسطولا من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزيرتي ميورقة وميورقة لنفضهم العهد وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين". وفي عام 319 هـ وجه الخليفة عبد الرحمن الناصر أسطولا لغزو المغرب. وكان "أضخم أسطول أجراه ملك... وانتهى عدد قطعه إلى مائة وعشرين قطعة مع الحمالة والفتاشة وقوارب الخدمة"⁽¹⁾. كما خرج الأسطول لمواجهة الفرنجة سنة 323 هـ، بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حماسة، وكانت مراكبه "أربعين مركبا، عشرين حرافات فيها النفط... وعشرين فيها الرجال..⁽²⁾". وفي إطار حديثه عن كورة البيرة لم يفت العدري⁽³⁾ ذكر أعداد وحدات الأسطول التي قادها محمد بن رماحس وهي عشرة مراكب حربية ومركبين واصلين من ألمرية وأربعة شوابي وفتاشين. وغزا ابن رماحس ذاته بالأسطول إلى العدو عام 333 هـ وعدد وحداته "خمسة عشر مركبا حربية وشينين وفتاش"⁽⁴⁾. وأشار الزهري⁽⁵⁾ إلى أن مدينة ألمرية قد "انتهت أجفانها وبلغت المائة، ولم تبلع مدينة ما بلغتيا". وذكر ابن خلدون⁽⁶⁾ أن عدد قطع الأسطول على عهد عبد الرحمن الناصر بلغ مائتي مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية (الفاطمي) كذلك مثله أو قريبا منه⁽⁷⁾. وذكر ابن الخطيب⁽⁸⁾ أسطول ألمرية مشيرا إلى أن الحكم بن عبد الرحمن أشرف على شؤون المدينة واهتم بأسطولها، "وعدته يومئذ ثلاثمائة قطعة". وأشار في مكان آخر إلى "مائة وأربعين جفنا غزويا"⁽⁹⁾. ورفع العدد بشكل مبالغ فيه أو على الأقل فيه خلط بين الأسطول الحربي والتجاري، إلى ستمائة قائلا: "بويع الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله سنة 350 هـ (و) ظهرت المجوس على المسلمين في بحر الجوف، فحرك إلى ألمرية فأوقع نيم وأنشأ الأسطول لغزوهم فكان عدده ستمائة جفن بين غروي

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 312.

(2) - نفسه: ص. 366.

(3) - الغزوي: ترصيع الأخبار...، ص. 81.

(4) - نفسه: ص. 82.

(5) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 101.

(6) - نفسه: ج 2، ص. 691.

(7) - نفسه: ص. 691.

(8) - ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 479.

(9) - نفسه: اللحة البدرية...، ص. 105.

وعبره⁽¹⁾. نلاحظ أن ابن الخطيب تحدث عن عصر الحكم المستنصر الذي تجمع المصادر على أنه حافظ على الأسطول الحربي الذي أنشأ معظمه أبوه عبد الرحمن الناصر. وقد يبدو رأي ابن أبي دينار⁽²⁾ مقبولا حين ذكر أن الأسطول الأندلسي بلغ سبعمائة عراب في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. وأشار ابن الكردبوس⁽³⁾ إلى العدد نفسه أي سبعمائة عراب لكن في عهد الحكم بن هشام وابنيه عبد الرحمن ومحمد. وبين ابن عذاري⁽⁴⁾ أن مجاهد العامري "غزا سردينيا في مائة وعشرين قطعة كبار وصغار". وانطلق هذا الأسطول من دانية والجزائر سنة 406هـ/1015م بقيادة أمير البحر أبو خروب⁽⁵⁾.

تبيّن مختلف النصوص المصدرية المرتبطة بأعداد قطع الأسطول الحربي أنه من الصعوبة بمكان الارتكان إلى الأعداد التي تقدمها المصادر. إنها، كما سلف الذكر، لا تعدو أن تكون إحصائيات عامة تخص مرحلة تاريخية بعينها أو تقف عند فترات دون غيرها أو عند أمير أو خليفة دون آخر، أو عند وحدات دار صناعة محددة ومشهورة كما هو الحال بالمرية⁽⁶⁾. كما أن المصادر قد تكتفي بإيراد الأعداد انطلاقا من غزوات بحرية معينة. ولا يخلو ذلك من مبالغات خاصة إذا تعلق الأمر بتمجيد أسطول والخط من قيمة آخر. ناهيك عن صعوبة التمييز أحيانا في الأعداد ما بين القطع التجارية والحربية. ورغم ذلك يمكن للدارس أن يقف عند مختلف تلك النصوص المصدرية المتنوعة ليستشف منها الخصائص العامة التي تميز فترة تاريخية وسلطة سياسية عن أخرى. إن النصوص التي أمكن الاطلاع عليها تكشف بما لا يدع مجالا للجدال، قوة ونفوذ الخلافة الأموية خلال القرن

-
- (1) - نفسه: أعمال الاعلام...، ص. 41.
 - (2) - ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص. 97.
 - (3) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 57.
 - (4) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 116.
 - (5) - عنان (محمد عبد الله): دول الطوائف...، مرجع سابق، ص. 190.
 - (6) - تحدثت بعض الأحداث المعاصرة بمعالجة زائدة عن أعداد وحدات أسطول المرية وحدها بالقول أنها فاقت 60 قطعة. انظر مثلا: طویل (مريم قسم) مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 443 هـ/ 484 هـ ببيروت، الدار البيضاء، 1994، ص. 13؛ أبو الفضل (محمد أحمد) تاريخ مدينة المرية الاندلسية في العصر الاسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996، ص. 66 وما بعدها.

لرابع البحري في مجال صناعة الأسطول الحربي وتطوير أعداد وحداته معاً لتتد
وتطوير البنية التحتية البحرية. (دور الصناعة).

ولاشك أن الوضعية قد اختلفت بل ضعفت، ولو بشكل تدريجي خلال القرن الخامس
البحري، نظراً لعدم قدرة الدول الطائفية (بعضها على الأقل)، على الحفاظ على المكاسب
التي تحققت في عصر الخلافة في مجال الأسطول الحربي وغيره.

ج. الأوقات والمسافات

إذا سبق القول بصعوبة تحليل طبيعة قطع الأسطول الحربي، فما عسى قولنا في
أحجامها وحمولاتها والمسافات التي تقطعها، وفي أي وقت من أوقات السنة أو اليوم أو
الليل يختار قواد الأسطول شن الهجمات على الأعداء؟

إن هذا الموضوع، المغامرة، ما يزال يكتفه الغموض وذلك لأسباب كثيرة منها ما هو
مرتبط بجوانبه التقنية والإحصائية، ومنها ما يتعلق به كموضوع عسكري لم ينل حظه من
البحث أسوة بالأسطول التجاري.

تحتار الإشارة إلى أن التأليف في علوم الفلك والنجوم والأنواء والطب والجغرافيا
وترجمات وغيرها، قد ازدهر ونشط فيه العلماء العرب والمسلمون عبر القدامى، وبقوا
نتج تلك العلوم عبر الأندلس⁽¹⁾ إلى أوروبا المسيحية التي استفادت منها في ميادين متعددة.
وتون الدخول في تفاصيل متشعبة نكتفي بالقول إن كتب المسالك والمسالك كالتي وصعب
المغربي والأصخري والبكري وغيرهم، وكتب الأنواء والفلك والنجوم⁽²⁾، وكتب الجغرافيا
وترجمات كالتي ألفها الرازي وابن حوقل والمسعودي وياقوت الحموي والزهرري وابن سبي
والأندلسي وغيرهم. قد أفادت كثيراً في الأوقات والمسافات كذكر الفصول (الصوائف

(1) - كل يعقد في فترة قريبة من الاتصالات الحضرية ما بين الإسلام والمسيحية قد تمت في المشرق خلال الحروب
الصليبية، أي لاتصل لحضري عبر الصراعات العسكرية لكن تم تجاوز هذا الاعتقاد من قبل الأوربيين أنفسهم
وليس عرفت من الأسس وصفية كانت الفكرة الأساسية التي انتقلت عنها العديد من العلوم والتقنيات إلى أوروبا
مثلاً: SOURNIA (J Ch), Medecins arabes anciens ..., op cit, p 13 et sv.

BONNASSIE (P), Les 50 mots clefs de l'histoire medievale, ..., p 63 et sv.

GUICHARD (P), L'Espagne et la siecle musulmanes aux XI-XIIIe siecles - Presses Universitaires de Lyon - 1990

(2) - انظر لانتحتها مفصلة في:

FORCADA NOGUÉS (M), Mqat en los Calendarios andalusies - ALQANTARA Vol. XI fasc I 1990 - p 59-60

و نسوي). و الرياح و النيل و النيل، و لمسات كالمراحل و الفراسخ و الميل إلخ. لكن كما سبق ذكره، يلاحظ أن كل معلومات هذه المصادر تهتم الأساطيل التجارية و الرحلات البحرية. ومع ذلك يمكن استغلال و توظيف بعضها في الأسطول الحربي وإن في سبيل التنبيه إلى الموضوع وأهميته.

1 - الأوقات

لجمع مصادر⁽¹⁾ على اختلافها بضرورة تجنب السفر و الخوض في البحار في فصل نساء ووقف هبوب الرياح القوية، لأن من شأن ذلك أن يكون كالعُدو يحطم السفن. إن الأصل في قاتل البحر هو معرفة الرياح واتجاهها وقوتها واعتدالها⁽²⁾. ذكر عريب بن سعد⁽³⁾ أن الرياح تكون شديدة خلال شهر مارس ولذلك لا يدخل البحر خلاله. وفي شهر أبريل تهب رياح شرقية يخاف منها على المراكب أن تعطب في البحر. أما نونبر ففيه، على مذهب ركاب البحر، يكون نوء حنيس فينغلق البحر وترتفع السفن⁽⁴⁾.

نقد بدأنا الحديث في باب الأسطول بإيراد نص بالغ الدلالة من مراسلة جرت بين عمر بن الخطاب ووالده عمرو بن العاص في مصر، يكشف عن انعدام تجربة المسلمين في انبحار مع بداية الفتوحات وتخوفهم من أهوال تلك البحار. ويظهر أن ذلك التخوف ظل قائماً مع فتح الأندلس وإلى عهد الإمارة ذاتها كما يتبين من قرائن متعددة منها: خطاب وجهه موسى بن نصير إلى طارق بن زياد بوصيه فيه بعدم السير بالسفن إذا لم يستعن برحل يعرف مهور السريانيين أو شهور العجم. "شهر يُقال له بالعجمية مارس فإن كان يوم أحد وعشرين منه فاشحن على بركة الله كما أمرتك"⁽⁵⁾.

(1) - محمد بن عمر: كرية السن وسراع بين أهلها، مصدر سابق. أماكن متعددة؛ الجزيري: المقصد لمحمود...، مخصص 95 - مجهول: رسالة في أوقات السنة، تحقيق: نافرو أنخيلس، عرناطة، معهد الدراسات العربية، 1990. مجهول: كتاب جهنم، مخصص 78 ب، عريب بن سعد: تقويم قرطبة...، ص. 55، 69، 167. ابن قتيبة (أو محمد بن سعد) كتاب الإمامة والسياسة، القاهرة، مطبعة الفتوح الأدبية، د. ت، ص. 59؛ أبو حامد الغرناطي: شعرب عن بعض عادات العرب، تحقيق وترجمة: INGRID Bejarno، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1991، ص. 11، 13.

(2) - محمد بن عمر: كرية السن...، فصل الرياح والشدء، الجزيري: المقصد لمحمود...، 95 - أبو حامد الغرناطي: المغرب عن بعض عجائب...، ص. 13.

(3) - عريب بن سعد: تقويم قرطبة...، ص. 56، 69.

(4) - نفسه: ص. 69، 167.

(5) - ابن قتيبة: كتاب الإمامة والسياسة...، ص. 59.

وتذكر المعلومات المصدريّة⁽¹⁾ أن الأمير محمد أمر سنة 266 هـ بإنشاء المراكب سير قرطنة ليندل بها إلى البحر المحيط ويأتي حليقة من ورائها، ولما تمّ إشاؤه وحرّت في البحر أصابها الرياح وانقطعت. لا شك أن فصل الشتاء ووقت هبوب الرياح ليوحاء وانعواصف البحرية قد شكّل عائقاً كبيراً بل هو بمثابة عدو أساسي للأساطيل البحرية والبحرية على حد سواء. ولا عراية أن تشعل المصادر بذلك وتعكسه بامر. بوصى ابن حبل⁽²⁾ بانتظار الأوقات المناسبة جداً لركوب البحر أثناء العرو، يقول بصدد السؤل الذي حرّده الخليفة عبد الرحمن الناصر لغزو المغرب أنه يحب النظر "في نحر الحنود بالحنود لميقات معلوم ووقت محدود، وأن يستكثر من جميع المراكب... تحبير الأساطيل المؤيدة في وقت إجازتها، وعند إمكان البحر لها السير"⁽³⁾.

ويستفاد من كلام ابن بسام⁽⁴⁾ ما سبق تأكّده في أوقات الإبحار حين تحدث عن سفينه صحبة ندها المعتمد بن عباد وأهداها لاحقاً لسلطان المرابطين. و"ظهر كأنما ندها على نده صرحد ممرداً وأخذ بها على الريح ميثاقاً مؤكداً ووجهها على مدينة طنجة". ويرحر كتب نسخة⁽⁵⁾ والنوازل بفيض من المعلومات المرتبطة بأوقات الشحن والإبحار. ومن مؤلفيها من يستر صراحة إلى ضرورة تدخل القاضي أو المحتسب أو صاحب المدينة قصد حماية المرسى والموانئ ومراقبة النواتية في الإشحان خاصة أوقات الرياح ونعواصف. وأكثر من ذلك أمر بعض الفقهاء بالتدخل قصد فسح عقود ركوب البحر في فصل شتاء تغزو وخوف من نعرق والرياح⁽⁶⁾. وقد أوصى ابن سينا⁽⁷⁾ في إطار قابونه الطبي بضرورة مراعاة أوقات الأكل والشرب والنوم والحركة وتدبير الفصول والسفر سوء في لبر و نحر أو في القر وانحر. وقال في شؤون البحر على شكل إنبات شعريه

(1) - ابن عثاري: البيان... ج 2، ص. 96؛ ابن خلدون: كتاب العبر...، مصدر سابق، م 4، ص. 286.

(2) - ابن حبلان: المعقب... ج 5، ص. 306.

(3) - نفسه: ص. 306.

(4) - ابن بسام: حيرة في محاسن من الحرية... ج 2، ص. 262؛ مجهول: مدح السرر (سجل بروقتال)، ص. 34. (نسخة محمد يعلى)، ص. 198.

(5) - ابن سينا: في شؤون الحسة... مصدر سابق، ص. 96، 97؛ ابن الأخوة: معالم الفقه في أحكام الحسة... مصدر سابق، ج 1، ص. 64، 300، 306، 309، 310، 311.

(6) - الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط، 95 أ، 95 ب.

(7) - SOURNIA (J Ch), Medecins arabes ... op cit, p 216

من كان منهم راكبا في البحر
أو كان يوماً ذاهباً في البر
إمنعهم الركوب في الشتاء
في البحر والمسير في الأنواء⁽¹⁾.

وفي المعنى نفسه صدرت وثيقة صارمة من أحد خلفاء بني العباس خلال القرن الرابع للهجرة إلى أحد المسؤولين عن الأسطول يأمره بالإشراف المباشر على قطع الأسطول خاصة "ما كان منها في الموانئ ويرفعها من البحر إلى الشاطئ في المشاتي، وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها"⁽²⁾.

يتضح إذن إجماع المصادر حول ضرورة تفادي إبحار الأسطول التجاري والعسكري خلال فصل الشتاء الذي يعتبر بدوره عدواً للأسطول وللعاملين فيه⁽³⁾. ولذلك قال بروديل⁽⁴⁾ بأن الملاحة كالفلاحة لها فصول تصلح وأخرى لا تصلح والرياح تتحكم إلى حد بعيد في أنشطة الأساطيل.

2 - المسافات

إذا اتفقت المصادر، كما سلف القول، على الأوقات والفصول التي تصلح لنشاط وتحرك الأسطول الحربي، فماذا نقول بصدد المسافات التي تقطعها وحدات الأسطول الحربي؟

يمكن القول بشح المادة المصدرية إلى حد السكوت عن موضوع المسافات في الأساطيل الحربية. إن الإشارات المتوفرة لا تعدو أن تكون تقريبية، وتتسم بالطابع العمومي. إن لم نقل بالغموض أحياناً. إن المنطق يقتضي أن تكون وحدات الأسطول

(1) - نفسه: ص. 216، 217.

(2) - انظر نص الوثيقة في: أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 105.

(3) - انظر التفاصيل في:

DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne dans les ports..., p.79

GATEAU (A). Quelques observations sur l'intérêt du voyage d'Ibn Jubayr pour l'histoire de la navigation en Méditerranée au XII^e s. Hespéris Tamuda, T. XXXIII, Rabat, 1949, p.289, 312

(4) - BRAUDEL (F), La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II Paris - A Colin, 1985 T 1, p 227

لحربي أكثر سرعة من وحدات الأسطول التحاري؛ لكن اختلاف أحجام قطع الأسطول ونوع أدوار ووظائف كل قطعة يجعل المسافة التي يمكن أن تقطعها كل سفينة يختلف حسب حجمها وحمولتها ومهمتها. فالوحدات التي تتكلف بنقل الخيل والفرسان والمؤوبة تكون أيضاً من القطع المتوسطة أو الصغرى المكلفة بمهام المراقبة والاستطلاع أو مساعدة الوحدات الكبرى السالفة الذكر. يقول العذري⁽¹⁾: "والمسافة بين بر الجزيرة ومدينة سبتة قريبة جداً يرى الناس سورها ودورها، ويرون بياض ثبات القاصرين بها. وتتحرك سفينة من مرسى الجزيرة عند بزوغ الشمس، فلا ترتفع قدر رمحين إلا وقد رست مدينة سبتة". وأشار صاحب مفاخر البربر⁽²⁾ إلى المسافة ذاتها بنوع من التحديد قائلاً: "(...) ورد ابن أبي عامر واضحاً ولياً على المغرب.. وقفل عبد الملك وخلف معطه لحد مع واضح بفاس، فاحتل سبتة مدينة المجاز يوم السبت، وكانت أيام ارتجاج فتلوم على سكون البحر، ثم ركب على توقع وهيبة لأربع ساعات من يوم الثلاثاء... فوصل إلى مية لجزيرة في أول الساعة الثامنة منه، فقطع البحر في ثلاث ساعات على أنها لحلات، وتلود على عبوره أصحابه أياماً قوي فيه ارتجاج البحر فطال التعجب من يُمن طرده ووصل إلى قصره بالزاهرة وسط النهار من يوم الثلاثاء لليلتين بفيما من السنة المذكورة" (385 هـ).

لأن النص تحدث بنوع من الدقة في تحديد عدد الساعات التي أمكن استغراقها في قطع المسافة ما بين سبتة والجزيرة الخضراء؛ لكن يصعب تصديق إمكانية عبور مضيق ذلك، ونو في ظروف مناخية وبحرية ممتازة، في ظرف ثلاث ساعات. وتحدث نكري⁽³⁾ عن مسافة بين مائة بحنة ومرسى النكور بشمال المغرب مُبيناً إمكانية حبره في ليلة واحدة. وهو ما فعله أبناء سعيد بن صالح لما "(...) ركبوا البحر من ذلك الموضع في ليلة واحدة ووقت واحد وريح واحد، فوصل أصغرهم... إلى مرسى نكور من نينته...". وأشار ابن أبي زرع⁽⁴⁾ بشكل غير مباشر إلى المسافة لما عر

(1) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 118.

(2) - مجهول: نسخة يعلى، ص. 169، 170.

(3) - البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب...، مصدر سابق، ص. 96، 97.

(4) - البكري: المغرب...، المصدر السابق، ص. 97.

(5) - ابن أبي زرع: روض القرطاس...، ص. 145.

يوسف بن سفيان إلى الرلافة عام (479 هـ - 1086 م) قائلا: "فكان حواره في نهـد
الحنس عند الروال في منتصف ربع الأول سنة 479 هـ، ونزل بالحريرة الخصر،
فصلى بها صلاة الطير من يومه ذلك". يسعد من مختلف الإشارات المصدرية السفة
والى نهم المسافات في الأسطول أن عملية الإبحار كانت تتسم بالبطء، نساء، خلال
العصر الوسيط. فال بروديل⁽¹⁾ الذي خير ثقافة البحر المتوسط، متأثراً بأفكار ابن خلدون
في هذا المجال أن يوماً واحداً من الإبحار بوارى حوالي مائتي كلم (200). وأوضح
الباحث SÉNAC⁽²⁾ أن العبور والإبحار كان بطيئاً إلى حدود القرن الخامس الهجري (١١م)،
بحيث يلزم ستة أيام من أجل اجتياز المسافة ما بين مدينة دانية وسواحل إفريقية وأسبوعاً
كاملاً ما بين تلك السواحل والمريّة. وكانت المسافة ما بين مباد دانية والجزائر، وسردانية
تصل إلى ثمانية أيام⁽³⁾.

ولاحظ أحد الدارسين⁽⁴⁾ أن قياس الزمن والأوقات في المسافات كان يخضع لنظروف
المحيطة بالرحلات وطبيعة المسافات. فالرحلة مثلاً، قد تستغرق عشرين يوماً من مديـه
مرسيليا الفرنسية إلى مصر، وتدوم أربعين يوماً من المدينة نفسها إلى سوريا، ولا تتجاوز
ثمانية أيام من مدينة برشلونة إلى صقلية. وتختلف المسافات اليومية لتتراوح بين أربعين
ميلاً وإثنان وسبعين (72) ميلاً⁽⁵⁾ وذلك خلافاً لما ذهب إليه بروديل. وقد مدّد الباحث
الطاهري⁽⁶⁾ المسافة التجارية من الأندلس نحو المشرق، اعتماداً على الرشاطي، لتصل
إلى واحد وتسعين (91) يوماً. نضيف أن تلك المسافة تتحكم فيها الحمولات والأحجام
والظروف المناخية وغيرها. وخلافاً لما سبق قال أحدهم⁽⁷⁾ إن سفن البحر المتوسط أكبر
من سفن المحيط، تحمل بضعة آلاف من الرجال وتقطع البحر من غربه إلى شرقه في
سنة وثلاثين يوماً. نعتقد أن المسافات المشار إليها وضعت، على العموم، قياساً بالأسطول
التجاري. ولاشك أنها خاضعة للتغيير، إن لم نقل إنها تقلص إلى النصف على الأقل حين

(1) - BRAUDEL (F), La Méditerranée..., op. cit, T. 1, p. 329.

(2) - SÉNAC (Ph), Musulmans et sarrasins..., op. cit, p. 96.

(3) - عنان (محمد عبد الله): دول الطوائف...، المرجع السابق، ص. 190.

(4) - DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne..., p 80.

(5) - نفسه: ص. 80.

(6) - الطاهري (أ): عامة إشبيلية...، مرجع سابق، ج 1، ص. 356.

(7) - الرفاعي (أ): النظم الإسلامية...، مرجع سابق، ص. 160.

نُحْدِثُ عَنِ الْمَسَافَاتِ فِي الْأَسْطُولِ الْحَرْبِيِّ، نَطْرًا لِلظُّرُوفِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَمُقَارِنَةً كَذَلِكَ بِمَا يَجْرِي فِي الْمَسَافَاتِ الْبَرِّيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْحَنْدِ وَالْبَرِيدِ الْمُسْتَعْجِلِ⁽¹⁾ مِنْهَا. فَالْحَنْدِيُّ الَّذِي يَقْطَعُ 25 كُلَّ يَوْمٍ إِبَانِ الْحَمَلَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ، يَقْطَعُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ⁽²⁾، إِذَا انْتَحَا إِلَى مَا يُعْرَفُ فِي الْمَصَادِرِ "بِجَادَةِ السَّيْرِ".



(1) - نَظَرُ الْمَسَافَاتِ وَالضُّرُوقِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَرِيدِ الْعَسْكَرِيِّ فِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ.

(2) - CHALMELTA (D) Las campañas calitales en el V. Guerra, fortificación et habitat
3. , op cit, pp 33, 42

خلاصة

سبق القول بصعوبة دراسة الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف من حيث أنواع وحداته وخصائصها، والأوقات التي تحارب فيها وكذا المسافات التي تقطعها، لأسباب عديدة منها: قلة المادة المصدريّة المهيّمة بالأسطول الحربي، وكثرة الألفاظ والأسماء التي تطلق على قطع الأسطول عموماً ممّا يصعب معه التمييز ما بين التجاري منه والحربي. لكن تبين من خلال رصد وتتبع الإشارات المختلفة الواردة في الأسطول أنه أمكن إبراز بعض الخصائص التي تميز وحدات الأسطول الحربي. لقد تحدثت المصادر عن القطائع والشواني والبوارج والأجفان والأغربة والحراريق والطرائد وغيرها من الأسماء التي تعكس تنوع وأهمية وحدات الأسطول الحربي الأندلسي. وبينّا أن كل لفظ من هذه الألفاظ يعكس خصائص محددة من حيث الحجم والحمولة والمهام إبان الحملات البحرية ولذلك لا نتفق مع ما ذهب إليه الباحث SÉNAC⁽¹⁾ حين لاحظ، انطلاقاً من بعض الاكتشافات المحدودة في مجال الأركيولوجية البحرية، أن أحجام وحدات الأسطول الإسلامي كانت صغيرة. إنه رأي جزئي اعتمد عينات محدودة، في حين ينبغي الانطلاق أولاً من النصوص المصدريّة لإجراء جرد واسع، ما أمكن، لمختلف الإشارات الواردة في الأسطول.

لقد اتضح أن الخلافة الأموية بقرطبة والتي اهتمت طيلة القرن الرابع الهجري بتوسيع بنيات الأسطول التجاري والحربي، أي دور الصناعة والإنشاء⁽²⁾، قد اهتمت في الآن نفسه بتتويج وحدات أو قطع الأسطول وزيادة في حجمه وأعداده نظراً لما كانت تفرضه أوضاعها الداخلية والخارجية. وقد نجحت في ذلك لأنها تحكمت في السواحل الشاسعة المحيطة بجزيرة الأندلس، ونجحت في صد المسيحيين شمالاً والشيعة الفاطميين جنوباً. لكن رغم تطوير أعداد قطع الأسطول الحربي لاحظنا صعوبة ضبط تلك الأعداد نظراً لاختلاف المصادر بصدها. فمهما ما تحدثت عن الأعداد في عهد خليفة معين أو

(3) - SÉNAC (Ph); *Musulmans et sarrasins...*, op. cit, p 96

(1) - انظر دور الصناعة والإنشاء في الفصل السابق.

أمير دون سواه؛ ومنها ما فضل الاكتفاء بإحصاء القطع الحربية في دار صناعة مشهورة كما حدث في ألمرية في مناسبات عديدة، ومنها ما أثر ذكر الأعداد في مناسبات الغزو البحري والحملة التي تنظم من حين لآخر. ناهيك عن الخلط الذي يقع بين الأسطول التجاري والحربي.

أما قضايا الأوقات والمسافات والحمولات في الأسطول الحربي الأندلسي فموضوع نعتاه بالمغامرة لأنه دقيق وغير مطروق فيما نعلم. لقد تمت الاستفادة من مادة مصدرية متناثرة في ثنايا مظان مختلفة ككتب المسالك والممالك، والرحلات التجارية والجغرافية، وكتب الفلك والنجوم والأنواء، وكتب الفقه والنوازل والحسبة وغيرها، وبيننا الاتفاق الحاصل بين مختلف المصادر في القول بتجنب فصل الشتاء وأوقات هبوب الرياح العاصفية حين الاستعداد لخوض المعارك البحرية. في حين اتضح شح المادة المصدرية المرتبطة بالمسافات التي تقطعها وحدات الأسطول الحربي. ورغم ذلك خلصنا إلى أن الأسطول الحربي يتميز بالسرعة أكثر من نظيره التجاري، كما تميز بخصائص أخرى تمت الإشارة إليها أمكن من خلالها الحديث عن أسطول حربي في الغرب الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري (X م)، وليس بعد ذلك.

الفصل الرابع

حمولة الأسطول المادية والبشرية

أ . الأعداد والحمولات

تَعَرَّضَ دَارِسُ رِحَالِ الْأَسْطُولِ مَحْمُوعَةً مِنْ الصَّعُوبَاتِ تَهِمُ الْأَعْدَادَ وَالْقِيَادَةَ وَالْإِنْسَانِ وَالْأَسْلِحَةَ وَالرَّوَاتِبَ وَغَيْرَهَا لِأَنَّ الْمَصَادِرَ لَا تَتَحَدَّثُ عَنْ رِحَالِ الْأَسْطُولِ الْحَرْبِيِّ إِلَّا فِي مَاسِيَاتٍ مُحَدَّدَةٍ لَا تَتَعَدَّى أَوْقَاتِ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْحَمَلَاتِ وَالْغُرُوءِ، أَوْ الْإِنْتِصَارِ فِي الْمَعَارِكِ الْبَحْرِيَّةِ وَاحْتِلَالِ مَوَاقِعٍ مُعَيَّنَةٍ. وَلَا يَكَادُ الدَّارِسُ يَعْثُرُ عَلَى مَعْلُومَاتٍ تَحْصِلُ الْحَيَاةَ الْيَوْمِيَّةَ لِرِحَالِ الْبَحْرِ فِي دَوْرِ الصَّنَاعَةِ، حَتَّى فِي أَوْقَاتِ السَّلَامِ. مَعَ ذَلِكَ يُمْكِنُ تَحْلِيلُ حَوَائِبَ مِنَ الْمَوْصُوعِ انْطِلَاقًا مِنَ الْمَادَّةِ الْمَصْدَرِيَّةِ الَّتِي تَهِمُ رِحَالِ الْأَسْطُولِ الْحَرْبِيِّ بِشَكْلِ عَامٍ.

ذَكَرَ ابْنُ حَيَّانٍ⁽¹⁾ فِي أَحْدَاثِ سَنَةِ 319 هـ أَنَّ الْخَلِيفَةَ النَّاصِرَ أَغْزَى الْأَسْطُولَ إِلَى الْعُودَةِ بِرِجَالٍ كَثِيرِينَ، إِذْ كَانَ «(...) عِدْدٌ مِنْ رُكْبِهِ سَبْعَةُ أَلْفٍ رَجُلٍ. خَمْسَةُ أَلْفٍ مِنَ الْبَحْرِيِّينَ وَأَلْفٌ مِنَ الْحِثْمِ...»، إِضَافَةً (سَقَطَتِ الْأَلْفُ الْآخَرَى مِنَ النَّصِّ)، إِلَى «تَسْعَةُ رِجَالٍ مَتَطَوِّعِينَ فِي مَرَاكِبِهِمْ... وَهُمْ مِنْ وَجْهِ أَهْلِ بَجَانَةَ وَالْمَرْيَةِ»⁽²⁾. يَتَضَحُّ مِنْ كَلَامِ ابْنِ حَيَّانٍ أَنَّ حَمُولَةَ السَّفِينَةِ الْحَرْبِيَّةِ هُوَ 58 شَخْصًا تَقْرِيبًا. وَيَقُولُ فِي أَحْدَاثِ سَنَةِ 323 هـ أَنَّ الْأَسْطُولَ الْخِلَافِي غَزَا بِلَادَ الْفَرَنْجَةِ بِقِيَادَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي حَمَامَةَ. وَ«كَانَ عِدْدُ مَرَاكِبِهِ أَرْبَعِينَ مَرْكَبًا عَشْرِينَ حَرَاقَاتٍ فِيهَا النِّفْطُ وَالْأَلَاتُ... وَعَشْرِينَ فِيهَا الرِّجَالُ الْمُقَاتِلَةُ... وَكَانَ عِدْدُ رُكْبِهِ مِنَ الْجُنْدِ أَلْفٌ رَجُلٌ وَالْبَحْرِيِّينَ الْفَيْنِ...»⁽³⁾. وَفِي السَّنَةِ الْمَوَالِيَّةِ أَيْ 324 هـ انْتَقَلَ الْأَسْطُولُ الْأَنْدَلُسِيُّ إِلَى الْعُدُوءِ لِنَصْرَةَ مُوسَى بْنِ أَبِي الْعَافِيَةِ وَ«كَانَتْ عِدَّةُ مَرَاكِبِهِ أَرْبَعِينَ قِطْعَةً، وَعِدْدُ رُكْبِهِ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ رَجُلٍ، فِيهِمْ مِنَ الْحِثْمِ خَمْسَةُ مِائَةٍ»⁽⁴⁾. يَلَاظُ أَنَّ مَعْدَلَ مَا حَمَلَتْهُ السَّفِينَةُ الْحَرْبِيَّةُ فِي الْحَالَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ هُوَ 75 شَخْصًا. وَلِلْمُقَارَنَةِ مَعَ مَعْلُومَاتِ ابْنِ حَيَّانٍ نَرَى أَنَّ أَمْرًا لَا يَقِلُّ أَهْمِيَّةً لِابْنِ حَوْقَلٍ⁽⁵⁾ يَقُولُ فِيهِ «وَبِمَدِينَةِ سَبْتَةِ الْمُحَازِيَةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ لِمَدِينَةِ جَبَلِ طَارِقٍ، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ بِتَجْزِيرَةِ الْحَصْرِ، وَالَّذِي بِهَا مِنَ الْمَرْجَانِ... وَلِلتَّجَارِ بِهَا أَحْوَالٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَقْطَارِ

(1) - ابْنُ حَيَّانٍ: الْمُقْتَبَسُ... ج 5، ص 312، 313.

(2) - نَفْسُهُ: ص 313.

(3) - ابْنُ حَيَّانٍ: الْمُقْتَبَسُ... ج 5، ص 366.

(4) - نَفْسُهُ: ص 382.

(5) - ابْنُ حَوْقَلٍ: صُورَةُ الْأَرْضِ... ص 75.

نوحى... ويعرض في كثير من المؤلفات في إثارة المرحبان الحصون قارباً، وما راد على
 نت مما في القارب العشريون رجلاً إلى ما راد وبفص...». أما ابن الخطيب فنحدث عن
 الأعداد في عروات محاهد العامري للروم في جبهة مردينية وذكر أنه «عزا إلى مردنيش
 الروم وفيها ملوك أربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة، افتتحها في مائة وعشرين
 مركباً حمل فيها ألف فارس»⁽¹⁾. أي بمعدل ثمانية (8) أشخاص لكل مركب. وذكر
 المقري⁽²⁾ أن طريف النبري دخل الأندلس في مائة فارس، وأربعمئة راحل، حاز البحر
 في أربعة مراكب، أي بمعدل 125 شخصاً للمركب الواحد. وفي إطار سرد الأحداث
 الواقعة في ولاية الأمير تميم بن المعز بن باديس، ومحاولته إخضاع صقلية مع آخر
 القرن الحامس الهجري، تحدث الباجي⁽³⁾ عن قدوم أسطول من جنوة في ثلاثمائة
 مركب تحمل ثلاثين ألف مقاتل، أي حوالي مائة (100) فرد لكل مركب. وللمقارنة المعبدة
 مع المشرق قال الطبري⁽⁴⁾ مكرر: «دخل البصرة عترة سفائن بحرية تسمى البوارج، في
 كل سفينة اثنيان، وثلاثة نفاطين ونجار وخباز وتسعة وثلاثون رجلاً من الجاذفين
 والمقاتلة، فذلك في كل سفينة خمسة وأربعون رجلاً». وحتى تكتمل الصورة بورد
 مقارنة مع أوروبا أو مع الأسطول الحربي النورماني الذي هاجم الأندلس عام 355 هـ/
 966م وعام 360 هـ/971م بثمانية وعشرين مركباً وكل مركب يحمل حوالي ثمانين
 رجلاً أي بمجموع المهاجمين البالغ عددهم 2240 فرداً⁽⁵⁾.

انطلاقاً من المعطيات السالفة الذكر، ومن الأرقام الواردة عند ابن حيان ذهب أحد
 الباحثين⁽⁶⁾ إلى القول إن معدل ما تحمله سفينة حربية عادية إبان عصر الخلافة هو حوالي
 مائة (100) شخص. وحثّ باحث آخر⁽⁷⁾ النصوص المصدرة المرتبطة بمعركة الرلافة
 497 هـ/ 1086م وقارب الأعداد المرباطية التي عبرت المضيق، واستنتج أن عملية

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام... ص. 219.

(2) - المقري: النفع... مصدر سابق، ج 1، ص. 229.

(3) - الباجي: ... خلاصة نفسه في إراءه، تونس، 1323 هـ، ص. 49.

(4) - الطبري: تاريخ الأمم والملوك... مصدر سابق، ج 6، ص. 112.

(4) مكرر - إشتيام: هو رئيس الركاب لسان العرب، ج 12، ص. 119.

(5) - LIROLA DELGADO (J), El poder naval... op cit, p 257

(6) - نفسه: ص. 288.

(7) - LAGARDÈRE (V), Le Vendredi de Zill à qa... op cit, p 43 et sv Esquisse de l'organisation militaire... op cit p 90 et sv

لعمور كان منه بمعدل 500 رحل في كل رحلة لكن دول سنل عدد لقطع التي كات مخففه
بحمل تلك الأعداد.

يبدو ان الرقم المشار اليه سلفا أي مائة شخص كمعدل ما تحمله السفينة، قد يكون
صحيحاً في بعض الوحدات، وقد لا ينطبق في أخرى؛ مع العلم اننا سلفاً لاحظنا
لحاصنة في أنواع وأحجام السفن الحربية. ولذلك يصعب الحديث عن قدرات
واحصائيات محددة ودقيقة. ولناكد ما ذهبت إليه يكفي الاستناد الى مجموعته من الأسفنة
نوردة في أنواع وأحجام بعض وحدات الأسطول الحربي. فالسفن التي تنوع طولها
عشرين متراً، وعرضها سبعة وعشرون متراً وعمقها ثلاثة أمتار، وطول الصاري
الأممي 24 متراً، والذؤسط 22 متراً؛ انحيت من الإسكندرية إلى الأندلس بحمولته تنوع
حوالي 200 شخصاً⁽¹⁾. إنه نوع استثنائي يلزمه ثلاثين فرداً من الربان⁽²⁾. يبدو ان سر
جبر شاهد وعابن خلال رحلته سفناً كبيرى وقد ركب في إحداها إلى الأندلس ووصف
الأسواق والمواد التي تنوع فيها نظراً لكبرها⁽³⁾. ولاشك ان الأسطول الأوربي كان يتسوفر
بنوره على وحدات كبيرى. فعلى غرار المثال السابق تذكر بعض المعلومات⁽⁴⁾ أن سفينة
تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، بلغ طولها 33.75 متراً وعرضها 9.50 متراً
وعوها 5 أمتار، كانت مجهزة بصاريين بعلو بلغ 20 متراً، وبأشرعة مثثة⁽⁵⁾. وتحمل ما
بين 150 إلى 200 طن في الحد الأدنى و500 طن في الحد الأقصى. كما أن هناك سفناً
حرى مزودة بصاري واحد ولا تتعدى حمولتها عشرين طناً⁽⁶⁾. واضح إذن ان الأعداد
وحمولات تختلف باختلاف الأحجام، فسفينة شراعية كبيرة تحمل قرابة مائة (100)
رحل، ونسبة كبيرة تصل حمولتها إلى ما بين 200 و300 فرد مع العلم أن أكثر من

(1) - GATEAU (A). Quelques observations sur l'interet du voyage d'Ibn Jubayr... op. cit. p. 208.

(2) - نفسه: ص. 298.

(3) - حرکات (1): النشاط الاقتصادي... مرجع سابق، ص. 185.

(4) - DUFOURCQ (Ch. Em). La vie quotidienne... p. 57-58.

شاهد ما يكون الأسرعة منه في نفس، وأشراع المثلث أو المثلث (Lateen) كان سلفاً في محطته بهر
وغيره من السفن التي كان يحمل ان يكون الأسرعة ثلاثة أمتار في كل ساعة
تغريبية إلى البحر المتوسط، انظر التفصيل في:

LOMBARD (M). Arsenaux et bois de marine... op. cit. p. 112.

أنور (عبد العظيم): الملاحة وعلوم البحار... مرجع سابق، ص. 86.

(6) - DUFOURCQ (Ch. Em), op. cit. p. 61.

نُشئ هؤلاء حذافون⁽¹⁾. ويبدو أن بعض السفن كانت حمولتها ضخمة للغاية بشهادة أحد الفسائسة الذي عاينها قبيل آخر القرن التاسع الميلادي، وهي محملة بالعبيد مارة من إيطانيا والأندلس في اتجاه المشرق وذكر أن ستة سفن كانت تحمل 9000 رجل أي 1500 لكل واحدة منها⁽²⁾ مكرر. وذهب أحد الدارسين⁽³⁾ إلى القول، بنوع المبالغة، إن الشتلندي في الأسطول الحربي الأندلسي يعادل الشونة أو الحراقة، وطوله 195 قدماً وعرضه 33 قدماً وحمولته 600 شخص.

يتضح من مختلف الأرقام السابقة الذكر أن الحديث بنوع من الدقة والضبط عن أعداد رجال الأسطول الحربي وحمولات وحداته، أمر صعب للغاية. فمن البديهي إذن التسلح بالحذر والحيلة عند التصدي لدراسة الموضوع.

إذا صعب تحديد أعداد رجال الأسطول الحربي وحمولات قطع هذا الأسطول فماذا يمكن قوله بصدد الأعمال اليومية التي يزاولها رجال الأسطول. هل يلزم هؤلاء دور الصناعة والإنشاء في حالة السلم أن يقومون بأشغال أخرى ويُستعدون إبان الاستعداد للغزو والحمالات؟

يمكن القول إن المصادر لم تقف عند الجانب التنظيمي لرجال الأسطول الحربي. ونقصد بذلك انعدام المادة المصدريّة المهمة بشكل مباشر بمهام ودور "ديوان الأسطول" أو "ديوان البحر"⁽⁴⁾، وكيف يلحق رجال الأسطول بذلك الديوان على غرار ما تمّ مع الجند البري⁽⁵⁾، أو مع رجال البحر الفاطميين⁽⁶⁾.

(1) - نفسه: ص. 64.

(2) - GUICHARD (P): L'Europe et le monde musulman..., op. cit, p. 79.

(2) مكرر. يبدو أن الشهادة التي أدلى بها القس برنار Bernard حول الأعداد يطبعها نوع من المبالغة. لكن قد يبدو الأمر طبيعياً إذا علمنا أن العبيد يُنظر إليهم في أوروبا الفيودالية على أنهم سلعة من السلع وتقول بعض النصوص بأنهم سلعة ناطقة ليس إلا. فلا غرابة أن تُكّث هذه "السلعة البشرية" في السفن لأنها موجهة إلى عالم المال والتجارة.

(3) - عثمان (محمد عبد العزيز): البحرية العربية في الأندلس...، ص. 17.

(4) - سبق الحديث عن إحداث ديوان الأسطول في الأندلس. انظر الفصل الثالث، ص. 16.

(5) - انظر ديوان الجند (جند الحضرة) في الفصل الثالث من البال الأول.

(6) - لقد أنشأ الفاطميون داراً "للبحر" أو ديوان الجهاد أو العمانر حسب الجوزري. سيرة الأستاذ جودر...، مصدر سابق، ص. 102، 103.

وقال أحدهم اعتماداً على المقريري في الحطط إن جريدة قواد الأسطول الفاطمي كانت تزيد على خمسة آلاف مدونة من البحريين.

سالم (ع) العبادي (محمد مختار): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 129.

ب . القيادة

ما هي التراتبية التي كانت سائدة في صفوف رجال الأسطول الحربي، وما هي المياد التي كانوا يقومون بها على ظهر السفن الحربية؟ إذا كانت الحلافة الأموية قد أرسيت بنية تحتية هامة تمثلت في إنشاء العديد من دور الصناعة والإنشاء على طول السواحل الأندلسية، فإن الاهتمام انصب كذلك على القيام بشؤون تلك الدور وتعيين قواد بحريين يديرونها. لقد أوضحنا سلفاً أن مدينة ألمرية كانت بمثابة المقر العام لقيادة الأساطيل، وبها كان استقرار أمير البحر على عهد الخلافة. ويعتبر أمير البحر أو قائد الأساطيل من الشخصيات النافذة في الدولة نظراً لاعتماد الخليفة بقرطبة على خدماته، إلى جانب قائد الثغر الأعلى وقاضي القضاة⁽¹⁾. بل يمكن القول إن قائد الأسطول كان في الواقع يتقاسم السلطة مع الخليفة: واحد في الأرض وآخر في البحر.

يعتبر غالب مولى الناصر من أشهر الموالى الذين اعتنقهم الخلافة وقربتهم واعتمدت على خدماتهم، انتقل في مناصب مختلفة وتقلب في خطط الدولة الأموية بقرطبة والأقاليم والشغور. واكتسب بذلك تجربة كبيرة حتى أنه خدم الخلفاء الثلاثة عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني وهشام المؤيد، ونال لقب "صاحب الوزارتين"⁽²⁾ و "شيخ الموالى". عيّن قائداً عاماً للأسطول الخلافي بألمرية عام 345 هـ/ 965 م⁽³⁾، بعد أن كان مقيماً بالشغور. وفي العام 361 هـ/ 972 م⁽⁴⁾ اتجه نحو شمال إفريقيا لإخماد ثورات حسن بن قُئون الحسني أمير الغرب⁽⁵⁾.

ساهمت شخصيات أخرى، إلى جانب غالب مولى الناصر، في قيادة أسطول الحلافة في فترات ومناسبات محددة. من هؤلاء القواد نذكر عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة الذي أغراد السلطان إلى العدو عام 322 هـ⁽⁶⁾. وفي السنة الموالية 323 هـ عرأ

(1) - ELVI-PROVENÇAL (I), L'Espagne musulmane - op. cit. pp 85-86 Histoire de l'Espagne - op. cit. I 3, p 109

(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 265.

(3) - نفسه: ص. 265.

(4) - نفسه: ص. 221.

انظر التفاصيل حول وظائف غالب مولى الناصر في:

MEOUAK (M), La Biographie de Galib ., op. cit. pp 95, 112

(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 244

(6) - ابن حيان: المسكن...، ج 5، ص. 347

الأسطول إلى بلد القرحة وقائده عند الملك بن سعيد بن أبي حماسة⁽¹⁾. وذكر ابن حيان⁽²⁾ في أحداث عام 321 هـ بأن الخليفة عبد الرحمن الناصر عزل «عبد الملك بن سعيد المعروف بابن أبي حماسة عن مدينة بجاية، وولى مكانه أحمد بن عيسى بن أحمد بن أبي عنده مصافوا إلى ما كان يتقلده من كورة البيرة، وعهد إليه الناصر لدين الله بإصلاح الأسطول المستقر لديه بدار الصناعة بالمدينة...». وفي سنة 347 هـ أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازياً في الأسطول إلى بلد الشيعي⁽³⁾. وقبل ذلك أي في عام 333 هـ غزا محمد بن رماحس على الأسطول إلى العدو⁽⁴⁾. وأمر الخليفة الحكم قائده في البحر المتوسط ابن رماحس لجمع الأسطول ضد المحوس⁽⁵⁾. واستنهر عبد الرحمن بن رماحس⁽⁶⁾ في عهد الحكم الثاني وهشام الثاني، وجمع ما بين قيادة الأسطول وولاية أقاليم بجاية والبيرة لكنه فشل في التعامل مع الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي قتله سما⁽⁷⁾ سنة 369 عـ/980 م. ولما لم يعترف حسن بن كنون بسلطة الأمويين عبرت قوات الأسطول المضيق عام 361 هـ/972 م بقيادة قائد الحشم محمد بن قاسم بن ضمر، لكنه انهزم، وأرسل مكانه قائد الثغر الأعلى غالب مولى الناصر عام 362 هـ/973 م⁽⁸⁾.

إلى جانب هذه شخصيات المشهورة في قيادة الأساطيل الحربية الأندلسية، تشير معلومات نصيرية إلى قواد آخرين أقل درجة يساعدون في إعداد الأسطول والعناية به، من يترفعون على سير العمليات التدريبية. يقول ابن حيان⁽⁹⁾ بأن الخليفة عبد الرحمن الناصر حين «حملة من المراكب البحرية من مالقة وإشبيلية وغيرها من مدن الطاعة...

(1) - نفسه: ص. 366، 368.

(2) - نفسه: ص. 323.

(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 221.

(4) - العنري: ترصيع الأخبار...، ص. 82.

(5) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne ., T. 2, p 170

(6) - ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 691؛ المقرئ: النفع...، ج 1، ص. 384.

(7) - ابن عذاري: نفسه، ص. 262.

(8) LIROLA DELGADO (J); El poder naval ., p 207

(9) - ابن حيان: المقرئ...، ج 5، ص. 87.

وتحت صنوف النسخة والعدد... وأدخل فيها ركانها من عرفاء البحريين والنواسة أفراد
سوان "نحر". يبدو أن العريف البحري كمثله في البر⁽¹⁾ يكون مسؤولاً عن مسؤولية
من لمرأة، يستدعيهم ويراقبهم أثناء استعراض الحشد أو إبان الحملات العسكرية. من
نوائيه أو الحزبون فهم يتكفون بأعمال مختلفة على ظهر وحدات الأسطول. ويظهر من
كلام من حين أنه يقصد صنفاً من النواتية الذين يعرفون شؤون البحر في العادة
والاتجاهات إلى غير ذلك.

نسير في هذا المجال إلى أن المعلومات المصدرية تذكر أسماء محدثه من البحارة والوثاية سواء الذين ينفذون السفن أو الذين يقاتلون فحد مثلا رايس⁽²⁾ (رئيس) السفينة، فث الوثاية استياد في المشرق حسب الطري⁽³⁾، الحذف، إلخ. أورد ابن خلدون⁽⁴⁾ نصا يمنع الدلالة لأنه يحدد بدرجة كبيرة مهمات ومهام بعض المكلفين بالأسطول الحربي. يقول: «يرجع نظره (الأسطول) إلى قائد من الوثاية يدير أمر حربه وسلاحه، ومقاتلته، ورئيس يدير أمر حربه ناشريخ أو بالمحاذيف وأمر إرسائه في مرفئه...». تنصيح هما قصية تصد وتوزيع مهام بين مسؤولين أساسيين في سفينة واحدة. فالقائد يتكلف بالحارب العسكري لمحص أي كثير شؤون السلاح والقتال، والرئيس يدير شؤون السفينة من ناحية الإبحار وتجهيزه فحسب، ولا ينفذ بها بحري من الراوية العسكرية⁽⁵⁾. يظهر النصا أن وحدات الأسطول الحربي لا تقتصر على ما سبق ذكره من القادة، بل تصمم كذلك لحديث تدير هم، في وقع الأمر محارب ووقوف السفينة بتعبير العصر، إتهم بالأسطول يوما بعضا منهم كي تتحج عمليات الإبحار ولا عرايه إذا أصابهم أمر أص «كاسحل وهو مرض يتدع أي لحذف بصبب التينس والرحل بالعمل بالمحاذيف»⁽⁶⁾. وإلى جانب

١. حضر في مؤتمر في مدينة عرند في نجد في ١٠ من شهر ربيع الثاني ١٣٤٠ هـ

(2) - ابن خنوز: النسخة... ج 2، ص. 691.

(3) - اشتيم هوريس التركاب. انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك... ج 6، ص. 112.

(4) - ابن خنوز: ص 691.

١٠ - مطبوعة عند - من المديرة العامة للمطبعة في مصر

بحوانی 330 بحر۱.

DU FOIRREQ (Ch. 1 m), La vie quotidienne, op. cit., p. 72

(6) - ابن منكئ: الأحكام الملوكية...، مخطوط، ص. 20.

الحدافين تذكر المصادر رجالا اخرين يُحسبون في الأسطول الحربي كالثفاطين والتجارين والحتارين⁽¹⁾. يفصح ابن منكلي⁽²⁾ عن معلومات دقيقة بل جديدة لأنها لم ترد في المصادر المغربية والأندلسية فيما نعلم، يقول: «ينبغي أن يكون في الغراب الغزواني الكامل عشرة ممّن يسوسونه، منهم رايّس وماسك ونقيبّان وحكيم وجلفاط، وثلاثون جلاسا من أهل الزعامة والشهامة، وأربعون راميا، وأكبر الغريان تجد به مائة وثمانون جذافا، والزورق من أربعة إلى ثلاثين». يكشف ابن منكلي هنا، بدقّة عن أنواع الرجال المقاتلة على ظهر أنواع أخرى محددة من سفن القتال (الغراب الغزواني). ويشرح مهمة كل مسؤول من الرجال المحمولين على ظهر وحدات القتال. ويعتبر هذا النص، من حيث دقّته وأهميته تكملة لما قاله الطبري⁽³⁾ حين أشار إلى السفن أو البوارج التي دخلت مدينة البصرة، وفي كل واحدة منها «استيّام (رئيس)، وثلاثة نفاطين ونجار وخباز وتسعة وثلاثون رجلا من الجذافين والمقاتلة، فذلك في كل سفينة خمسة وأربعون رجلا».

تقدم هذه النصوص، بما لا يدع مجالا للشك، إمكانية أخرى للفرز والتمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي ورجالاته. وهذا التمييز أشار إليه بنباهة الباحث الإسباني LIROLA DELGADO⁽⁴⁾ حين بيّن أن الرجال في الأسطول التجاري ينعتون بالنوائية أو البحريين، ويوصفون بالمقاتلة أو الجند والحشم في الأسطول الحربي. والتمييز يمكن ملاحظته في السفينة نفسها، إذ أن الحربية تضم قسما حربيا معقدا لا يوجد في القطعة التجارية، وقسما نوتيا ضروريا في كل السفن الحربية وغير الحربية. ثم إن السفن الحربية تتميز عن التجارية بالطول والسرعة، وغالبا ما يستعمل رجالها المجاذيف بدلا من الأشرعة السائدة في الوحدات التجارية. رغم أهمية ملاحظات LIROLA Delgado⁽⁵⁾ لا نتفق معه خاصة في نعته رجال الأسطول التجاري بالبحريين أو النواتية ورجال الأسطول الحربي بالمقاتلة أو الجند أو الحشم. فلفظ "البحريين" أو "النواتية" يتسم بالعمومية وقد بيّنا

(1) - LIROLA DELGADO (J); El poder naval..., p. 283.

(2) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط، ص. 20.

(3) - الطبري: تاريخ الأمم والملوك...، ج 6، ص. 112.

(4) - LIROLA DELGADO (J); op.cit..., p. 284.

(5) - نفسه: ص. 284، 302.

سلفاً أن النواتية يشكلون أيضاً جزءاً من رجال الأسطول الحربي. أكثر من ذلك لا يستبعد
بعت رجال الأسطول الحربي بالحد أو الحشم لأن هؤلاء وإن استعس بهم في مناسبات
عديدة في الأسطول، كانوا يشكلون النواة الأساسية في الحشد البري أو جند الحصار
بقرطبة.

أفادتنا معلومات ابن منكلي السالفة الذكر لأنه انفرد بإشارة حول الحكيم أو الطبيب
الذي يرافق رجال الأسطول الحربي لعلاج أمراضه خاصة مرض المجل⁽¹⁾ الذي يصيب
الحذافير نظراً لكثرة حركات أيديهم وأرجلهم. نشير في هذا الصدد إلى أننا لم نعثر على
إشارات في المصادر بما فيها المخطوطة، تتعلق بالأطباء أو القضاة الذين كانوا يرافقون
الجند في البحر أو البر، وكيف كانوا يشتغلون أثناء الحملات العسكرية. وللمقارنة مع
أوروبا نذكر أن القضاة كانوا خلال الحملات العسكرية البحرية يطبقون العقوبات الصارمة
منها مثلاً أن كل شخص هرب من السفينة وقبض عليه تقطع رجله أو يشنق. وإذا نزل
البر دون إذن يحد بمجرد عودته إلى السفينة ويقطع من رقبته⁽²⁾.

ج - المؤونة والرواتب

نعيد لمعلومات المصدريّة أن رجال الأسطول الحربي كانوا يحملون معهم المؤونة
والذخيرة والأسلحة وأدوات أخرى. ولا شك أن المؤونة في الأسطول الحربي تتشكل
بالدرجة الأولى من الضروريات اللازمة للمقاتلة أثناء الحملات أو طيلة مدة الإبحار. وقد
سبق الإشارة إلى دور الحبّازين الذين يتكفّلون بإعداد الخبز لرجال الأسطول، والتجار
الذين يصنعون أدوات مختلفة أو يرممون قطع الأسطول. وإذا لم تسعف الإشارات
لمصدريّة المتوفرة في تكوين صورة واضحة عن الكيفية التي اشتغل بها هؤلاء، فإننا
نصور أن المؤونة عادة ما يتم إعدادها في البر قبل الإبحار كما هو الحال في
الحروب البرية أي إبان حملات الصوائف والشواتي⁽³⁾. ويحمل من الزاد ما حلف وما
يقود تار لسقر. ذكر المقرئ⁽⁴⁾ أن المنصور بن أبي عامر كان، خلال حملاته المتكررة

(1) - ابن منكلي: ماحك منوكية . ص 20

(2) - DU FOURCQ (Ch. Fm), La vie quotidienne . p 67

(3) - انظر الفصل الرابع من الباب الأول.

(4) - المقرئ: النفح... ج 1، ص 414.

عنى مدسه نبت دقوب في عالسبا، بحمل معه المؤونة والأطعمة والأقوات والميرة. وحـ أحد تدارسين⁽¹⁾ طبيعة تلك المؤونه بقوله إن «المراكب تحمل المؤون والقواكه وتحم المحفف والأسماك المحففة ما يكفي مدة الحملة». لكن من يتكلف بإعداد تلك الأقوات قبل الإبحار وكيف توزع؟ ألا تعتبر تلك المؤونة وذلك الزاد جزء من الراتب و هو الراتب نفسه لرحل الأسطول مقابل مهمته البحرية العسكرية؟ تجدر الإشارة، في هذا الصدد، إلى أننا نجهل كل شيء عن رواتب رجال الأسطول الحربي نظراً لصمت المصادر المطبق بصدها.

أورد ابن منكلي⁽²⁾ مكر إشارات هامة في رواتب رجال الأسطول الفاطمي المعاصرين للخلافة الأموية بالأندلس، نلاحظ من خلالها التدرج في الأهمية والامتيازات. يقول: «(...) وكان منها أيام الفاطميين نحو مائة مركب منها خمسة وسبعون شينياً وعشرة مسطحات وعشرة حمالة، كان جريدة رجالها الذين ليس لهم شغل غيرها أكثر من خمسة آلاف بحري مدونة جامكية، أعيان عشرة جامكية، كل واحد منهم عشرين ديناراً إلى 15 ديناراً ثم إلى عشرة دنانير ثم إلى خمسة ثم إلى دينارين، ولهم إقطاعات تعرف بأبواب الغزاة». ويُعطى المقدم مائتي ديناراً والرايس مائة دينار⁽³⁾. يؤكد المقرئزي⁽⁴⁾ بعض تلك الرواتب موضحاً أن قواد الأسطول تصل جامكية أكبرهم إلى عشرين ديناراً وأقلهم دينارين؛ ناهيك عن الإقطاعات والامتيازات الكبرى التي يستفيد منها كبار رجال الأسطول. ولتكمّل الصورة نشير إلى أن المصادر المسيحية تبين أن البحار يتلقى يومياً راتباً يضم قطعة من الخبز الصلب وبعض النقود⁽⁵⁾. وقد بلغ راتب بحار عادي بمدينة مرسيليا مع بداية القرن الثالث عشر للميلاد حوالي 15 فلساً شهرياً، أما راتبه في المرسى أي في مراكز الاتصال بالأرض (البر) فيكون أقل نقداً، ولا يستفيد من الزاد الذي يوزع في

(1) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.

(2) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط، ص. 41.

(2) مكر - انظر تعريف الجامكية في الفصل الثالث من الباب الأول (أرزاق الجند).

(3) - ابن منكلي: نفسه، ص. 44.

(4) - صردي: سالم (عبد العزيز)، العبادي (محمد المحتر). تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 129.

(5) - DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne ..., p. 72

لنفسه⁽¹⁾. يعتقد أن كبار رجال الأسطول الأندلسي، وإن سكنت المصادر تصدد رؤسهم، كانوا يستفيدون من امتيازات محبلة كالإقطاعات وغيرها. وقد سلف القول أنهم كانوا في عدة يُعبون من قبل الحلفاء على الأقاليم التي تقع فيها دور صناعة الأساطيل، كما هو الحال في المربة العية والتي قال فيها ابن الخطيب⁽²⁾ « (...) المربة هي مربة بحرية برية أصلها مربة، معقل أشموح والإبانية، ومعدن المال وعصر الحباية، وحنوة الأسطول ». أما صغر رجال الأسطول فتصور أنهم كانوا يتقاضون ما يسد قوتهم اليومي على عرار صغر أحد في البحر. يقول النوويري⁽³⁾ إن رجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرون درهما مستمرة دائمة جاءوا من كل فج عميق وهم رجال معروفون بالهدف والقتال.

د. الأصول الاجتماعية لرجال الأسطول

من يمكن الحديث عن الأصول الاجتماعية لرجال الأسطول الحربي؟ إن الموضوع لا يفر صعوبة عن المواضيع السابقة الذكر، إذ يتعدى شتى ورصد أصول فئات رجال البحر. فبستثناء بعض التفاصيل المرتبطة حياة بعض الفئات، فإن المصادر على تنوعها لا تقدم معلومات كافية في الموضوع. نكتسب من خلال ما توفر من النصوص ونشرات القوات الأساطيل نيسوا مكونين منذ البداية في مجال البحرية والأساطيل، و غير حربي نيسوا رجالاً محترفين في البحرية، وإنما قائد الأسطول كفائد الحند في البحر مصابري وسياسي يحصص لفئات والظروف التي تجتازها السلطة السياسية في فرضة. إن قادة الأساطيل الحربية عرفوا عادة في الخطط الإدارية والعسكرية التي اشتملوا فيها، وكثروا بحرب ومهارات جعلت سمعهم ومناصبهم معروفة عمومًا قبل قيادة الأساطيل. فالحرية في ميدان معينة والخدمة والإخلاص للسلطة المركزية هي المحدد والمتحكم الأساسي في تلك الخطط والمناصب. يلاحظ كذلك أن القوات في الأسطول الحربي الأندلسي تنحصر في عنيده، كالمحاص وليس كاسر معروفة مرتبطه بالأسطول

١ - نفسه: ص 73 - سري حاد - عليه في فصول ما قبله 500 بعد من لمؤلفه أي ما بعده 16 إلى 16 قبل بعد من مؤلفه. سري حاد - عليه حاد 500 بعد من مجموع فوه شرحه سبع 47. غير من - هـ - نفسه: ص 73

(2) - ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار...، ص 56.

(3) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص 107.

كما هو الحال مثلا خلال المرابطين مع أسرة بني ميمون أو بني عائشة. انطلاقا من ذلك ليس بالأمر البين رصد وتنوع الأصول الاجتماعية لقادة الأساطيل خلال الخلافة والطوائف. وإذا استثنينا غالب مولى الناصر، فلا نكاد نعرف شيئا سوى أن عبد الرحمن بن رماحس مثلا قد ورث أباه محمد في قيادة الأسطول الحربي الأندلسي⁽¹⁾. أما القائد غالب فقد سبقت الإشارة إلى أصوله المملوكية، وإجماع المصادر على عتقه من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي ارتبط بإسمه. وقد تقلد مناصب عدة إلى أن بلغ الأوج لما أسندت إليه "خطة الوزارتين" حسب ابن عذاري⁽²⁾. وقد ساعدته تجاربه وثقة السلطة فيه في قيادة الأساطيل الحربية الأندلسية إلى جهات متعددة.

وفيما يتعلق بالأصول الاجتماعية لرجال البحر "العاديين" والذين تقوم على أكتافهم المهمات الصعبة في الأسطول كالجذف والقتال، فيبدو أنهم ينتمون إلى أصول اجتماعية متباينة. لقد اكتسبوا تجارب مهمة ومختلفة في مجال البحار، وارتبطوا بدور صناعة الأساطيل، وعادة ما يلتحقون بديوان الجند، كما هو الشأن في رجال جند الحضرة. ويبدو أن هؤلاء يعززون برجال آخرين ينتمون إلى فئات أخرى من الجند البري كما يفهم من كلام ابن حيان⁽³⁾ حين أشار إلى أن حملة الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى العدو سنة 319هـ، بلغ عدد رجالها سبعة آلاف رجل من البحريين والحشم. وبغض النظر عن الأصول الاجتماعية أو العرقية لرجال الأسطول، فعادة ما يستدعى للبحرية رجال يتصفون بالشجاعة والتجربة⁽⁴⁾. ولإدراك هذا الأمر لا داعي للتذكير بدور العنصر البشري الصقلي أو السوداني أو البربري في الجند الأندلسي عامة، أو دور العنصر الصقلي نفسه أو المغربي في الأسطول الفاطمي بالمشرق كما تؤكد ذلك المصادر الفاطمية ذاتها⁽⁵⁾.

(1) - سالم (عبد العزيز)، العبادي (محمد مختار): تاريخ البحرية...، ج 2، ص. 181.

(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 265.

(3) - ابن حيان: المعقب...، ج 5، ص. 313.

(4) - تصف إحدى الوثائق المسيحية بعض مظاهر حياة البحارة بالقول إن سفينة من مرسيليا كانت تحمل حوالي ثمانين رجلا. ستون منهم عمرهم يفوق العشرين سنة، و 14 منهم تتراوح أعمارهم ما بين 15 و 20 سنة. أما الستة الآخرون فيقل سنهم عن 15 سنة. والأغلبية تبدأ العمل في 16 سنة وتنتهي في 55 سنة. أما في إنجلترا فيتم توظيف رجال الأسطول بطرق مختلفة منها مثلا أن يفرض على بعض المدن الساحلية تأدية واجبات معينة، إذ أن كل مجموعة من 300 شخص يلزمها توفير طاقم سفينة تكون حمولتها 60 مقاتلا وجذاذا وسلاحا.

DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne..., p. 66 et sv

CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., p. 138.

(5) - الجوزري: سيرة الأستاذ جوذر...، المقدمة؛ ديوان ابن هاني: مصدر سابق...، المقدمة؛ سالم (ع)، العبادي (م): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 130.

ج - ألبسة وأسلحة رجال الأسطول

لا سلك إلا إشارات مصدرية بادرة عن ألبسة وسلاح رجال الأسطول، مقارنة بما توفر من معلومات حول ألبسة وسلاح الحند الذي⁽¹⁾. قال أحد الدارسين⁽²⁾ بصدده رجال الأسطول الحربي الموحدى: «لا نعرف هل اتخذوا لباساً مميزاً عن لباس الحيش». ولاحظ⁽³⁾ أن المقاتلة في الأسطول كان لهم زي خاص في وقت الراحة، وزي آخر للقتال، لكن لم يوضح نوعية وطبيعة ذلك اللباس. أما عن السلاح في الأسطول فقد سبق تحليل ضيعة السفن العزوانية والحراريق أو الحراقات ودورها في حمل المؤونة والسلاح. ويصح من لفظ الحراقة أن الأمر يتعلق بسفن متخصصة في الضرب بالنفط، إنها كانت تحيز بمرامي نيران للهجوم على الأعداء⁽⁴⁾. ذكر ابن حيان⁽⁵⁾ أن وحدات الأسطول الأندلسي كانت تضم «عشر حراقات فيها النفط والآلات الحربية». وأشار ابن لقوطية قبله إلى مادة سبط⁽⁶⁾ كما ذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم «(...) استعد برحلات لبحر من سواحل الأندلس (و) استعد بالآلات والنفط». من المؤكد إذن أن الأندلس عرفت هذه المادة استعمالاً في القتال البحري منذ عهد الإمارة أي القرن الثالث الهجري على الأقل. فما هو هذا النفط وكيف يصنع؟

تتحقق المصادر على أن النفط مادة قديمة تصنع من الأصماغ والقطران والأذهان وعمل التدخين والإحراق واللعب بالنار وطفئ النفط وطبخه وتلوينه⁽⁷⁾. خصص الطرسوسي⁽⁸⁾ باباً كاملاً للنفوط وأنواعه والمواد التي تدخل في صناعته كالزيت والنورة. قل في المزار نفط: «تؤخذ من الأترج الأشباه وهو أترج صغير وطعمه مر... ويترك إلى أن ينش ويغلى ويغلى غلياً كثيرة، ثم يطبخ على النار إلى أن يغلى غلياً كثيرة

(1) - انظر الفصل الرابع من الباب الأول.

(2) - عمر موسى (عربي) الموحدين في المغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، بيروت، دار العرب الإسلامي، 1991، ص. 268.

(3) - أنور (عبدالعليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.

(4) - الرصافي: الآلة والأداة...، ص. 83؛ أنور (عبدالعليم): نفسه، ص. 111.

(5) - ابن حيان: المختار...، ج 5، ص. 323.

(6) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 82، 83.

(7) - الطرسوسي: كتاب البحر وفتح تونس وحفظ ندوب...، محصور، دار صناعة الكتب.

(8) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، مصدر سابق، ص. 20 وما بعدها.

(8) - البلسان: حب البلسان أو تمر البشام حسب نعت أصحاب الأعشاب، وقيل عصيره.

بصاف إليه... دهن بلسان ويستعمل فانه من العجائب». واضاف في نبط يمشي على ناء
ويصلح لحرق المراكب: «(...) قطران جزء كبريت معدني وهو النفط... مثله كبريت صفر
حرء تسحق ما يحب سحقه، ويرفع القطران على النار.. فإذا على بصاف إنه السندروس
ويصر به إلى أن يحتلط ثم يلقى عليه.. الكبريت المعدني... تتسعل فيه نارا وترسله على
الماء إلى ما اردت من المراكب، فإبه تحرق إحراقا عظيما، ويمشي على الماء ولا
ينطفئ» (1) مكرر.

هل النفط البحري الذي تحدث عنه الطرسوسي مبينا المواد والكيفية التي يصنع بهب
هو ذلك النفط البحري الذي عرف منذ القديم في وادي الفرات أم هو النفط المعروف بالنار
الإغريقية⁽²⁾ (Feu Grégeois) الذي عُرف لدى البزنطيين، وظل مجهولا لمدة طويلة نظر
لفعاليته الفصوى في الحروب البحرية؟ ذكرت بعض الأبحاث⁽³⁾ أن النفط كان معروفا عند
العرب القدامى (السوريون) في المشرق، وكان يُركب، كما جاء عند الطرسوسي السابق
الذكر، من القطران والكبريت ومواد أخرى شديدة الالتهاب و«يطلق من آلة من النحاس و
الحديد تعرف بالنفاطة، وكثيرا ما يقذف النفاطون النفط بالسهام والنشاب وأحيانا
بالمجانيق»⁽⁴⁾. ويعتقد أحد الدارسين⁽⁵⁾ أن هذا النفط يقابله عند البزنطيين النار اليونانية
وهي زجاجات أو أنابيب تملأ بالنفط ومواد أخرى ملتهبة تنفجر حالما تسقط على ظهر
وحدات الأسطول. وقد يطلق من أسطوانات نحاسية مستطيلة تُشد في مقدم السفينة على

(1) - الطرسوسي: نفسه، ص. 20، 21.

(1) - السندروس: بحر فيه نوع من الهندي وهو الأجود، والسبتي إنه من الأشجار الدائمة الخضرة ترمه اسود و
بنفسجي، يستعمل في الضلاء.

DOZY (R), op. cit., T. 1, p. 693

انظره في الفصل الثالث من الباب الثاني.

(2) - النار الإغريقية تتخذ من مواد شديدة الالتهاب كمسحوق الحرب (poudre de guerre) أو ما يُعرف بـ
(salpêtre) ستمت خلال القرن السابع الميلادي من قبل البزنطيين في حروبهم البحرية وحققوا بها انتصرت
حسمة على عدايمهم، ولذلك اهتموا بعنابه كبيرة على أسرارها ليضمّنوا التفوق البحري. انظر:

Le Grand Dictionnaire de la langue française, Paris, 1989, T. 3, p. 2306

قيل في مادة مسحوق الحرب (salpêtre) أن أحد علماء النبات الأندلسيين مات بسوريا في منتصف القرن الذي
عشر (1248 م) سنى تلك المادة "البحر الصيني" وكانت تسمى في بزطة "بالملاح الصيني"، ويبدو أن أصل تلك
المادة من الصين انظر:

Contamine (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit., p. 259.

(3) - أنور (عبد العظيم) الملاحة وعلوم البحار، ص 114، 115، الرفاعي (أ): النظم الإسلامية...، ص 164، 165

(4) - أنور (عبد العظيم) نفسه، ص 115 عثمان (محمد عبد العزيز) البحرية الإسلامية...، ص. 72.

(5) - أنور (ع): نفسه، ص. 115.

شكر كرات تشعل أو قطع الكتان الملوث بالنفط⁽¹⁾. لاشك أن بعض السفن الحربية
أندلسية خاصة الحراقات منها، كانت تستخدم هذا النفط في الحروب، كما كشفت عن ذلك
معلومات المصدريّة، نظرا لفعاليته في قتال العدو، وقد عبر أحدهم⁽²⁾ عن تلك الفعالية
حين قارنه ((بالسلاح النووي المعاصر)). ولذلك تعد السفن المعرضة لهذا النوع من
السلاح إلى وسائل مختلفة لصدّه والدفاع عن نفسها، كان تُحاط من الخارج «بجلود أو لبود
ملونة بالحل أو الماء أو السّب والنطرون لنفع أذى النفط»⁽³⁾.

إلى جانب النفط البحري تستعمل أسلحة أخرى في البحر كما هو الحال في البر،
كالقوس والنشاب والمجانيق والرماح والسيوف وغيرها. ومن السلاح أيضا ما هو
كسيف خاص بالبحر كالكلاليب واللبام والسلاسل أو الباسليقات والحجارة وغيرها.
والكلاليب من الخطاطيف الحديدية تُلقي عند الاقتراب من أسطول العدو لإيفافه أو جذبه⁽⁴⁾.
والباحات تشبه القوس محددة الرأس، أسفلها مجوف، تدخل في خشبة، تُطعن بها
المراكب ليغمرها الماء⁽⁵⁾.

أما الباسليقات فسلاسل تنتهي في رؤوسها برمانة من الحديد تستخدم للقتال على ظهر
المراكب⁽⁶⁾. ويذهب الباحث عثمان عبد العزيز⁽⁷⁾ إلى القول إن الأسطول الحربي
أندلسي كان يقاتل أحيانا بوابل من الحجارة والأوظاف. لقد اعتمد إشارة واردة عند ابن
نقوشية⁽⁸⁾ تذكر أن الأندلسيين قتلوا المجوس الذين اكتسحوا سواحلهم بالأوظفة التي هي
عظام البعير. يبدو أن هذا الكلام غير ذي معنى لأن البعير حيوان قل في الأندلس. وإن

(1) - الرفاعي (1): النعم الإسلامية...، ص. 164. اضف انه من اختراع السوريين القدامى ويعلمه البرصيون وليس
لعكس.

(2) LIROLA DELGADO (J), El poder naval , p 344

(3) - الرفاعي: نفسه، ص. 165.

(4) - أنور (ع): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.

(5) - الرفاعي: نفسه، ص. 164.

(6) - أنور (عبد العظيم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.

(7) - عثمان (عبد العزيز محمد): البحرية الإسلامية في الأندلس...، ص. 66.
(8) - ابن النقوشية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 80، 81.

و قنوس وغيره
CONTAMINE (Ph): La guerre au Moyen Age - op. cit pp 138-139

(7) - عثمان (ع. العزيز محمد): البحرية الإسلامية في الأندلس...، ص. 66.

(7) - ابن النقوشية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 80، 81.

وحد في بعض المناطق كالهضاب الداخلية فكيف يمكن جمع عظامه لاستعمالها في القتال البحري⁽¹⁾؟

إلى جانب الأسلحة السالفة الذكر عُرفت أشكال من التمويه والتكتيك في القتال والمعارك البحرية. يقول ابن عذاري⁽²⁾ بأن الخليفة الحكم المستنصر أمر عام 355 هـ. بأن يقام الأسطول بنهر قرطبة وتتخذ المراكب «على هيئة مراكب المجوس تاميلاً لركوبهم إليها». وبلتجى رجال الأسطول الحربي إلى إسدال قلع زرقاء بلسون البحر على سفنهم كي لا تظهر للعدو⁽³⁾. وقد يستخدم رئيس الأسطول فانوساً تهدي به السفن ويقتدي به قواد الأسطول، يقتلعون باقتلاعه ويرسون بإرسائه⁽⁴⁾. إضافة إلى عمليات التمويه يعمد رجال الأسطول إلى أشكال أخرى من التكتيك⁽⁵⁾ منها مثلاً، عند النقاء سفينتين حربيتين تستعمل ألواح خشبية ليمر عليها المقاتلون كي يدور القتال على ظهر السفن. ولإغراق السفن تقذف اللجام السائقة الذكر قصد إحداث ثغرات بها، أو ترمى بالقوارير النفطية حتى تشتعل فيها النيران.

(1) - نرد كلمة الانفاض في بعض المصادر، وتعمل لفدق البارود، لكنها متأخرة لأنها مرتبطة باحتراع البارود نفسه. انظر:

ابن الحاج: فتح سبب، مصدر سابق، ماكن متعددة، المنوني: ورق، مرجع سابق، ص. 80.

(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 239.

(3) - عثمان (محمد عبد العزيز): البحرية الإسلامية...، ص. 71، 72.

(4) - سالم (ع)، العبادي (م) تاريخ البحرية، ج 1، ص. 129؛ الرفاعي (أ) النظم الإسلامية...، ص 165.

(5) - للمزيد من التفصيل عن التكتيك الحربي في الأساطيل انظر:

جمال محفوظ: فن الحرب عند العرب، مرجع سابق، ص 100 وما بعدها؛ الجنابي (حالد جاسم): تنظيمات

الجيش العربي، ص 161 وما بعدها؛ العسلي (سام): فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والامويين،

بيروت، دار الفكر، 1974، ص. 193 وما بعدها.

خلاصة

حاولنا في هذا الفصل النظر إلى دور رجال الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف من زاوية الأعداد والحمولات والقيادة والأسلحة والرواتب. وتبين أن المعلومات المصدريّة المتوفرة، وهي قليلة، لا تكشف النقاب عن أعداد الرجال في الأسطول وأعداد القطع فيه إلا في مناسبات محدّدة كالانتصار في معركة بحريّة أو الاستعداد لها. وبفضل لمّ إشارات متعدّدة تهم أنواع وحدات الأسطول الحربي أمكن إبراز أهميّة أحجام بعضها وتقدير حمولتها في الرجال والأسلحة دون إغفال مقارنة ذلك مع الأنواع والحمولة في الأسطول الفاطمي أو الأوربي.

وبالنسبة للقيادة والأصول الاجتماعيّة لمكونات رجال الأسطول اتضح أن المعلومات المصدريّة المتوفرة لم تتعدّ الحديث عن كبار رجال الأسطول أي القادة الذين يشرفون على دور الصناعة وتوجيه المعارك البحريّة، والاستفادة من امتيازات عديدة على غرار أمثالهم في الجند البري. أما صغار رجال الأسطول الذين يزاولون الأعمال الكبرى والمختلفة في الأسطول كأعداد الأسلحة والجذف وغير ذلك، فلا نكاد نعرف شيئاً عن حياتهم في الأسطول. وتعدّ المؤونة والألبسة والأسلحة في الأسطول الحربي من المواضيع الهامة التي ما تزال بكراً. ولذلك حاولنا طرح مجموعة من القضايا والتساؤلات بصددّها. لقد اتضح أن رجال الأسطول كانوا يعتمدون ما يضمن لهم الصمود والانتصار في اللباس والمؤونة والسلاح. ففي السلاح مثلاً تبين أن رجال الأسطول كانوا يعتمدون على بعض الأسلحة التي استخدمها رجال البر. لكن كشفت النصوص المصدريّة أن رجال الأسطول الحربي الأندلسي استخدموا خلال عصري الخلافة والطوائف سفن "الحراقات" في القتال ولذلك صنعوا سلاح النقط الذي استعملوه بشكل واسع إلى جانب أسلحة أخرى متعدّدة. ومن هنا أمكن تجاوز الرأي القائل⁽¹⁾ بعدم التمييز في السلاح ما بين الأسطول والجيش البري.

(1) - عمر موسى (عز الدين): الموحّدون في الغرب الإسلامي...، مرجع سابق، ص. 268.

خاتمة

استعرضنا في الفصول السابقة المخصصة للرباطات البحرية ودور الصناعة وأنواع السفن والوحدات الحربية ومواد الصناعة فيها، ورجال الأسطول بأعدادهم وأسلحتهم وألبستهم، أهم القضايا التي تهم الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف. فبفضل ما تم رصده من المادة التاريخية في المظان المختلفة حول القضايا السالفة الذكر، تبين إجماع المصادر حول أهمية الرباطات البحرية بالأندلس باعتبارها ثغرا هاما من ثغور "دار الإسلام". ورغم ما حظي به الرباط البحري من اهتمام في المصنفات القديمة لاحظنا أن البحث المعاصر لم يعره الاهتمام اللازم وبذلك يظل في حاجة إلى البحث والتقصي انطلاقا من مجموعة من أمهات المصادر التي ما تزال مخطوطة. إن المتمعن في المادة المصدريّة المرتبطة بالرباط يلاحظ أن ازدهاره بالأندلس كان له ارتباط واضح بطبيعة السلطة السياسية والعسكرية. فقد نشطت الرباطات البحرية كما هو الشأن بالنسبة لجهاد العلماء والفقهاء والقضاة⁽¹⁾ بالثغور الشمالية، إبان أزمنة السلطة، في حين تقلصت الرباطات لما تقوت السلطة السياسية والعسكرية المركزية بقرطبة خلال القرن الرابع الهجري واتجهت أنظارها إلى إرساء بنيات اقتصادية وعسكرية جديدة تمثلت في إقامة دور لصناعة الأساطيل على طول السواحل الأندلسية والعناية بجيش الأسطول. لقد تتبّعنا بفضل المادة المصدريّة المتوفرة، كيفية بناء سلطة قرطبة للعديد من دور الصناعة كالمرية ومالقة والجزيرة الخضراء وإشبيلية، وشلب وقصر أبي دانس، ولقنت وطرطوشة ودانية والجزائر الشرقية وغيرها. إن إقامة هذه البنية الصناعية الحربية تأتت بفضل الإمكانيات المادية والبشرية التي حظيت بها الأندلس واستغلّتها الخلافة بشكل مباشر، إذ استفادت من المواد الطبيعية المتمثلة في الغابات والأخشاب المختلفة وكذا المعادن كالنحاس والزفت والقطران وغيرها. كما استفادت من الأودية وغيرها في محال النقل. كل ذلك وفر إمكانيات ضخمة مكنت من بناء أسطول تجاري وحربي قوي ضاهت به الخلافة أعداءها داخليا وخارجيا. حاولنا أيضا تتبّع أنواع

(1) - انظر الفصل المخصص لنظام الثغور.

الوحدات التي تشكل منها الأسطول الحربي الأندلسي وطريقة اشتغالها والمسافات التي تقطعها وحمولاتها باعتبار تلك القضايا غير مسبقة، فيما نعلم، في البحث العربي المعاصر. واتضح أن قراءة متأنية في المصادر تسمح بالقول إن وحدات الأسطول الحربي الأندلسي تطلق عليها ألفاظ تكشف عن طابعها العسكري مثل الأغرابة والأجفان والشواني والحراقات وغيرها، إلى جانب ذلك فهي تمتاز بالخفة والسرعة في القتال، رغم اختلاف أحجامها وحمولاتها. كل ذلك يدفعنا إلى القول بإمكانية التمييز ما بين الأسطول الحربي والتجاري منذ القرن الرابع الهجري على الأقل وليس القرن السادس الهجري (العصر الموحيدي) كما ذهب إلى ذلك العديد من الدارسين الذين أشاروا إلى أن أكبر الأساطيل الحربية في الغرب الإسلامي كانت على عهد الموحدين. فإذا، كان بالفعل، الأسطول الموحيدي، كما يبدو للوهلة الأولى، أكبر قوة هجومية في الغرب الإسلامي، فما هو في واقع الأمر إلا إرث أندلسي مرابطي⁽¹⁾.

تجدر الإشارة إلى أن أسس وقواعد الأسطول في الغرب الإسلامي، ونقصد بذلك البنية التحتية للأسطول أي دور الصناعة والإنشاء ووحدات الأسطول، والإمكانات المادية والبشرية المسخرة في ذلك، قد وضعت، بلا جدال، كما تشهد بذلك المصادر، في عصر الخلافة أي طيلة القرن الرابع الهجري (X م)، وبالتحديد خلال عهد الخليفة الناصر 300هـ — 350 هـ (961 م). أما بعده مباشرة أي خلال عصر خلفه الحكم المستنصر، والمنصور بن أبي عامر، ثم الطوائف، فتكاد تتفق المصادر أن الزعماء وإن حاولوا الزيادة في عدد وحدات الأسطول أو توسيع دور صناعته فإن بعضهم خاصة خلال الطوائف احتفظ بما شُيّد سابقاً. وبخصوص رجال الأسطول الحربي، حاولنا إثارة ما يتعلق بأسلحتهم وألبستهم ورواتبهم باعتبارها قضايا ما تزال في حاجة إلى البحث والعباية.

لأشك إذن أن الخلافة الأموية بقرطبة تمكنت من بناء أسطول حربي قوي سمح بإشعاع نفوذها السياسي والعسكري داخل الأندلس وخارجها. فعلى المستوى الخارجي واجهت سلطة قرطبة المسيحيين شمالاً والفاطميين الشيعة جنوباً. ففي التوجيه الأندلسي أجمعت المصادر على قوة الخلافة عبر مختلف الحملات البحرية التي نظمتها ضد

(1) - انظر ملاحظات العروي في هذا الاتجاه: مجمل تاريخ المغرب...، مرجع سابق، ج 2، ص. 96.

المسيحيين الذين لم يتمكنوا من الغلبة في البحار قبل القرن الحادي عشر الميلادي. أما في الواحة الجنوبية فيمكن القول إن الخلافة لم تتوان في استعمال الأسطول الحربي ضد الفاطميين سواء في شمال إفريقيا أو في مصر. لقد احتد الصراع بينهما بعد إعلان الخلافة بقرطبة ومحاولة عبد الرحمن الناصر الدفاع عن هذا اللقب وكما قال أحد الدارسين⁽¹⁾، إن إضفاء صفة الجهاد على حملات الأسطول هو في الواقع محاولة لإثبات شرعية الحكم واللقب. ولذلك اكتسب الصراع أيضاً طابعاً سياسياً وإيديولوجياً. وقد عكست المصادر الفاطمية والأموية الأندلسية⁽²⁾ تلك الصراعات بامتياز. يقول أحد الفقهاء هو أبو الحسن الخفاف⁽³⁾ «إن قتال الفاطميين أفضل من قتال المشركين». و«محاربة القواطم فرضاً واجباً على كل مسلم». وقد رد الفاطميون بالقساوة نفسها على الأمويين بالأندلس كما يتضح من أمثلة متعددة منها مثلاً: أن العزيز بالله ابن المعز لدين الله الفاطمي صعد المنبر لأول ولايته فوجد أبياتاً في ورقة تقول:

إنما سمعنا نسباً منكراً

يتلى على المنبر الجامع

إن كنت فيما تدّعي صادقاً

فأذكر أبا بعد الأب السابع

ورد العزيز إلى صاحب الأندلس كتاباً سبّه فيه وهجاه، لكن الأموي أجابه بالقول: «أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك»⁽⁴⁾. أكثر من ذلك نزلت الخلافة الأموية بكل ثقلها في مجال الأسطول ضد الفاطميين، بل تحالفت مع البيزنطيين الأقوياء في البحر ضد الفاطميين. كما أنها استدعت قوادها المشهورين من الثغور، أي من الواحة المسيحية وكلفتهم بقتال الفاطميين وإخضاع شمال إفريقيا. انطلاقاً مما سبق نعتقد أن مقولة "دار الإسلام"، و "دار الحرب" لم تعد تشغل الأذهان ووجب مراجعتها لأن التحالفات السياسية والاقتصادية والعسكرية أقوى منها.

(1) - العروي (ع): مجمل تاريخ المغرب...، ج 2، ص. 96.

(2) - النعمان القاضي: كتب المجالس والمسائرات...، مصدر سابق، أماكن متعددة؛ ابن العربي (أبو بكر القاضي المالكي): العواصم من القواصم، تحقيق: الخطيب (محي الدين)، القاهرة، دار الكتب السلفية، 1405 هـ، ص، 271؛ ابن حيان: المقتبس، ج 5، أماكن متعددة؛ ابن عذاري: البيان، ج 2 و 3، أماكن متعددة.

(3) - أورده فيلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية...، مرجع سابق، ص. 176.

(4) - ابن العربي: العواصم من القواصم...، ص. 271.

رغم ذلك يمكن القول إن الخلافة بالأندلس شيدت أسطولا حريبا هاما ساهم في تطوير بنياتها في مجالات متعددة. لكن نعتقد أن حوائب من هذا الأسطول ما تزال في حاجة إلى مجهودات الباحثين لإنارتها. وقد يعول على نتائج البحث الأركيولوجي البحري في تعويض النقص الذي يطال المادة المصدرية، قصد تطوير البحث المرتبط بالأسطول عموما.



الخاتمة

ما هي الخلاصات أو النتائج الأساسية التي توصل إليها هذا البحث الذي اهتم بتحليل النظام العسكري الأندلسي، باعتباره وجها من أوجه الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي عرفتيا الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف؟

لقد أمكن القيام بجرد واسع لمادة مصدرية غنية ومتنوعة متناثرة في متون المطان المختلفة، أسعفتنا في التدقيق في الكثير من القضايا الأساسية التي تدخل في فهم النظام العسكري الأندلسي خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة. اعتمادا على هذه المادة المتوافرة حاولنا دراسة الكور المجدة عبر رصد وتتبع مكوناتها البشيرية والعرقية ومناطق استقرارها بالأندلس منذ البداية باعتبارها النواة الأولى التي تأسس عليها الجند الأندلسي. وأهم نتيجة توصل إليها هذا البحث في هذا الصدد هي أن الكور المجدة لم تنته مع سقوط الإمارة وقيام الخلافة، كما يعتقد العديد من الدارسين، بل استمرت في عهد الخلافة خاصة خلال عصري عبد الرحمن الناصر وخلفه الحكم المستنصر، إلى أن قضى على أسسها الحاجب منصور بن أبي عمر لما طبق الإصلاح العسكري الذي اعتمد فيه على العناصر البربرية بالدرجة الأولى.

إن إرساء الخلافة الأموية وبناء دولة أو سلطة سياسية مركزية قوية ونافذة، وإقصاء على ظاهرة التحزب السياسي والعسكري الذي عم الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. دفع بهذه السلطة المركزية إلى عدم الاكتفاء بالقوى العسكرية التي تقدمها الكور المحددة بالأقاليم، فقدمت على إنشاء جند مركزي عرف بجند الحضرة، كان يتخذ من قرطبة قاعدته الأساسية. لقد اعتمدت الخلافة هذا الجند واستخدمته كأداة قوية وفعالة ساهم إلى حد كبير في بسط نفوذها داخليا وخارجيا. وبفصل ما تم الاطلاع عليه من مادة مصدرية متنوعة أمكن تحليل مكونات هذا الجند. وتبين أن الخلافة الأموية كانت قاعدتها العسكرية مبنية بدرجة الأولى على الأرستقراطية العربية من جهة والصفالية من جهة

أخرى إلى جانب عناصر أخرى لها أهميتها كـ"الحشم" أو البربر" وغيرهم. ومن الخلاصات الأساسية في هذا الباب أن جند الحضرة الذي اعتمدته الخلافة، وإن تشكل من خليط من العناصر أو من القوى البشرية والاجتماعية، كان مبنياً على نوع من التوازن الذي راهنت عليه الخلافة. ونعني بذلك، التوازن القائم على ثنائية الأرسقراطية العربية و"البيروقراطية" الصقلية النافذة، وإن العناصر الأخرى كانت تساهم أو تتدخل من حين لآخر قصد الحفاظ على ذلك التوازن ما أمكن. وقد نجحت الخلافة بقرطبة عبر وسائل متعددة منها تحديد أرزاق وأعطيات الجند عن طريق "ديوان الجند"، في ضبط جند الحضرة واستعماله في أغراض متعددة سواء في الداخل أم في الثغور وفي شمال إفريقيا كذلك. وبصدد الثغور أمكن استغلال مادة مصدريّة غنية مما كشف عن خصوصياتها المتعددة لأن الخلافة كانت تعتبرها مناطق حربية دائمة. وسلكت تجاهها أيضاً سياسة قائمة على نوع من الازدواجية. لقد شجعت في بداية الأمر الاستقرار البشري والعسكري بها، كما عينت فوادة عسكريين كباراً يمثلونها هناك. وعمدت في مرحلة أخرى، وتحت ضغط ظروف متعددة، إلى "التسجيل" لعائلات كبرى مشهورة، أي تشجيع استقرار تلك العائلات في أقاليم الثغور بواسطة امتيازات متعددة اقتصادية وعسكرية. وقد تبين من خلال المعلومات المصدريّة المتوافرة أن سياسة الخلافة أدت إلى تجذر الملكيات الكبرى إن لم نقل "الإقطاعيات" في الثغور والتي كانت تورث في الأسر السالفة الذكر. وقد أوضحنا أن هذه السياسة ساهمت في ضعف الثغور وسهلت التغلغل المسيحي بأشكال مختلفة في عمق الأندلس.

إن إمعان النظر في النصوص المصدريّة المختلفة أدى إلى تسليط الأضواء على التحولات الكبرى التي أحدثها المنصور بن أبي عامر فيما بنته الخلافة من قبل. وقد سمحت النصوص المتعددة بإثبات مجموعة من الملاحظات والخلاصات، إن لم نقل بناء تصور أكثر دقة ووضوحاً فيما يُعرف بالإصلاح العسكري العامري مما يسمح - في اعتقادنا - بمراجعة ما قيل وكتب في هذا الإصلاح من قبل الدراسات العربية والأجنبية إلى الآن. لاشك أن

المنصور بن أبي عامر قد نجح إلى حد بعيد في إلغاء الكور المحنّدة وقلب التوازن العسكري الذي أرسّته الخلافة قبله في مكونات جند الحضرة. لقد أقدم على فتح باب الأبدل على مصراعيه لاستقبال الجند البربري بمختلف مكوناته، الزناتي والصنهاجي والبربري وغيره، من العدو المغربي أساساً، ومنحه كل الامتيازات الممكنة، بل أخذ تدريجياً مكان الأرسنقراطية العربية والصقلية. وأكثر من ذلك باشر إصلاحاً اقتصادياً واكب به التغييرات في أسس جند الحضرة. لقد أعفى الفلاحين من "الجندية" ودفع بهم إلى ملازمة الأرض والإنتاج من أجل توفير ضرائب سنوية تكون بمثابة إعطيات وأرزاق للجند المتخصص الذي بناه. لكن تمّ الكشف عن ثقل وكثرة الضرائب بما فيها غير الشرعية، التي يؤديها المنتجون دون معرفة مقاديرها ولا مقادير ما يتقاضاه الجند من الديوان رغم إجماع المصادر على أن ثلث الإنتاج كان يخصص للجند. أكثر من ذلك بيّنا أن الإصلاح العسكري العامري كان يهتم — في المقام الأول — الجند البربري الذي اصطنعه المنصور بن أبي عامر شخصياً، وكذا الفلاحين المنتجين. ولم يمس كثيراً أصحاب الامتيازات الكبرى. انطلاقاً من ذلك اعتبرنا أن الإصلاح العسكري العامري الذي أغرى العديد من الدارسين، خاصة في جانبه التنظيمي، قد نجح بالفعل في تغيير أو قلب الدعائم البشرية المكونة للهرم العسكري الذي ساد من قبل. لقد نحّح في رفع الجند البربري إلى قمة الهرم وتهميش المكونات الأخرى أي الأرسنقراطية العربية والصقلية. وهكذا حول الصراع من صراع ثنائي خطير إلى آخر ثلاثي أقل خطورة قادّه المنصور نفسه بزعامة الجند البربري. ومن هذا المنظور تأكد أن الإصلاح العسكري العامري لم يكن البنية بنيوياً. لقد كان مشروعاً ظرفياً أو شخصياً محدود الفعالية السياسية والاقتصادية. بدليل كاشف تجلّى في فشله بمجرد موت صاحبه. لقد انهار البناء العسكري غير الصلب الذي بناه المنصور بن أبي عامر مع مطلع القرن الخامس الهجري. وحدثت نصراعات عسكرية القاتلة إلى الواجهة وتحكمت فيها الحسابات والنعرات القبلية والعرقية العربية والبربرية والصقلية وغيرها.

وبفضل ما أمكن الاطلاع عليه من معلومات مصدرية متنوعة، وكذا الاستفادة من نتائج العديد من الأبحاث والدراسات الأثرية والطبوغرافية المعاصرة، تمّ تحليل ما يعرف بالسكن المحصن أو العمارة الحربية في الأرياف والمدن الأندلسية، والمتمثلة في الحصون والقصبات والأبراج والقصور والأسوار وغيرها. وبقراءة متأنية فيما تمّ جمعه من المادة العلمية بهذا الصدد تجاوزنا النظرية أو التصورات التقليدية التي سادت في أغلب الأبحاث العربية المعاصرة التي تقول بشح المادة المصدرية المتداولة وعموميّتها واقتصادها على سرد جوانب متعددة من التاريخ العسكري باعتباره يركز على الأحداث السياسية والبطولية التي تقف في معظمها عند المعارك والأعداد المشاركة فيها والشخصيات النافذة فيها إلخ...

لقد حاول البحث النظر إلى العمارة الحربية من زاويتين أساسيتين تتعلق الأولى بالتوثيق المصدري الذي يهدف إلى القيام بجرد واسع، ما أمكن، وإعداد لوائح بأسماء الحصون والقصبات أو المواقع السكنية المحصنة عبر الأرياف والمدن، وهي كثيرة ومتنوعة، وذلك في أفق ضبطها والمساهمة في توطئتها، الشيء الذي يؤدي إلى إبرازها والتقليل من عملية طمسها بفعل عوامل طبيعية وبشرية متعددة.

وفي المحور الثاني قراءة توظيفية للعمارة الحربية، أي محاولة فهم أدوار ووظائف الحصون والقصبات وغيرها من خلال ربطها بمجموعة من المعطيات الاقتصادية والبشرية والسياسية. وبتعبير آخر تمّ ربط وظائف التحصينات بثالث السلطة والمجال والإنسان. مما سمح برصد وتتبع أهمية العمارة العسكرية ووظائفها، التي لا تقتصر على الجانب العسكري الصرف، بل تعدت الوظائف لتشمل المساهمة في تأطير المجال اقتصادياً وسياسياً وبشرياً⁽¹⁾. لقد حاولنا بناء تصور جديد حول العمارة الحربية خلال عصري الخلافة والطوائف نستند إلى مراحل مختلفة تتدخل أو تتحكم فيها العوامل السياسية والاقتصادية والبشرية حسب الظروف.

(1) - لم نخف التأثير المبهجي الذي مارسه البحث الأوربي المعاصر حول السكن المحصن في الفئودالية الأوربية على هذه الدراسة كما يتضح من خلال عقد مجموعة من المقارنات التي تفرصها قضايا محددة. مع الإشارة إلى الالتزام بالحيدة والحذر لأن المقارنات، رغم أهميتها، لا تصلح في كل القضايا.

ويعتقد أن وظائف التحصين قد حصصت لمرحلة استقلالية تزامنت مع بداية عصر الخلافة التي اُسِّمَت بالصراعات المختلفة. ففي إطار البحث عن الاستقرار السياسي والعسكري فرضت عمدة الخلافة في شخص عبد الرحمن الناصر إلى الهدم المظم والممنهج لأغلب الحصون والقصور، لكن لم يتردد، في الوقت نفسه، في بناء أخرى بل وبنى أخرى من أجل محاصرة وإزالة المعارضين. إن هذه السياسة كان يفودها هاجس الأمن والبحث عن الاستقرار وإحصاع المحال الطبيعي والشرعي. وذلك ما تحقق بالفعل في مرحلته ثالثة تزامنت مع أوج وقوة الخلافة بقرطبة. تميزت هذه المرحلة بانشاء حشد الحصاره الاداه العسكرية المركزية الثابتة، والاستقرار واستكمال إحصاع المحال. إن التحكم في الحصاد الاقتصادي والسياسي أدى إلى تحاور نظرة الحاكم الأممي والعسكري التي ضعت المرحلة الأولى الاستقلالية، وصارت العمارة الحربية تساهم في تأطير المحال اقتصادياً وسياسياً وعمرانياً. ولم تكف الخلافة الأموية بذلك، أي بإحصاع المحال داخلياً، بل وضعت إلى مراقبة المحال الخارجي سواء في الواحية المسيحية أم في شمال إفريقيا. ومن هنا يمكن الحديث عن مرحلة أخرى في العمارة العسكرية التي سميها بالحصون الثكنات التي أسسها الخلافة في مناطق استراتيجية على شكل خط طولي يمتد جنوباً من حصن ضريبة المقر بمصيق إلى حصن عرماح (عرماح) في إقليم صوريا شمالاً، مروراً بحصون حبل وعفة لنقر في الوسط. إنها حصون المراقبة العسكرية التي كانت شاهداً على قوة وفود السلطة السياسية المركزية بقرطبة. أما القصبات والأسوار في المدن فعلمنا أنوارها السكنية والعسكرية الدفاعية.

وبسبب ضعف ثقل الحارس البحري وسقوط الخلافة، انهارت المراحل السابقة لفتح المحال لمرحلة أخرى حدثت فيها تحولات عميقة في وظائف العمارة العسكرية، وذلك سبباً في ضامرة الحروب السياسية والأقليمية الذي طال الأمد كلها. وهكذا عاد هاجس الأمن الذي وضع المرحلة الأولى إلى الواحية. وصار تأطير المحال اقتصادياً وشرعياً يمر عبر عملية انصراف على كسب المواقع المحصنة، وبناء الحصون والقصبات أو ترميمها.

وبذلك أصبحت العمارة الحربية إطاراً ضرورياً لمختلف الأنشطة العمرانية والبشرية والاقتصادية. وقد قدمنا نماذج وحججاً لذلك من خلال معلومات المصادر المعاصرة لتلك الأحداث.

إن الجمع ما بين المادة المصدرية التوثيقية ونتائج البحث الأثري والطبوغيمي المعاصر، أفاد كثيراً في إعادة قراءة وظائف العمارة العسكرية الأندلسية خلال عصري الخلافة والطوائف. كما أفاد أيضاً في الكشف عن طبيعة مواد البناء وطرق البناء والأشكال الهندسية المتبعة في العمارة. ولاشك أن الفائدة الأولى لهذه العملية تكمن في فتح آفاق جديدة للبحث، وإتاحة إمكانية قراءات جديدة في وظائف العمارة الأندلسية عامة ووظائف السكن المحصن بالدرجة الأولى، وذلك في فترات تاريخية مختلفة.

وفي إطار استكمال التصور عن النظام العسكري الأندلسي عالج البحث الأسطول الحربي. لقد حاولنا استقصاء نصوص دالة تبحث في قضايا دقيقة تهتم دور الصناعة ومواد إنشاء الأساطيل. ناهيك عن ما يهم رجال الأسطول في الأسلحة والعادات الحربية واللباس والرواتب وأوقات تحرك الأسطول للقتال، وحمولات السفن إلى غير ذلك من القضايا التي تساهم في فهم طبيعة الأسطول الحربي. ومن خلال المادة المصدرية المتوافرة أمكن الانتهاء إلى خلاصات أساسية منها على سبيل المثال تجاوز الاعتقاد السائد حول عدم التمييز ما بين الأسطول الحربي والتجاري قبل القرن السادس (VI هـ) الهجري (XII م)، أو أن أكبر وأول أسطول حربي في الغرب الإسلامي عرف على عهد الموحدين. لقد أثبتت الدراسة من خلال استعراض نصوص مصدرية دقيقة، معطيات هامة تقدم إمكانية التمييز ما بين قطع الأسطول الحربي وسفن الأسطول التجاري منذ عصر الخلافة. لقد كشفت المصادر عن خبرة الأندلسيين في ميدان البحار منذ القرن الرابع الهجري مما أكسبهم أسطولا قويا أبهروا به الأوربيين، قبل أن يغلب ميزان القوى لصالحهم في البحار خلال القرن الخامس الهجري (XI م).

إلى جانب هذه القضايا الكبرى تصدى البحث لمجموعة من المواضيع الحزنية التي لا تقل أهمية في فهم جوانب متعددة من النظام العسكري الأندلسي. من ذلك مثلاً اعتماد بعض النصوص الجديدة خاصة في المصادر المخطوطة للنظر في قضايا الحند مثل حفظ الحند وأساليب القتال وخطط الخيل والمراتب العسكرية، والقيادة، ولغة التواصل، والتموين، والمسافات العسكرية. ناهيك عن مواضيع أخرى جزئية لكنها حاسمة، أعفها البحث المعاصر، وترتبط بالجانب التقني الذي يحدث أحياناً ثورة في مجالات محددة كما هو الحال في وظائف بعض الأسلحة والألبسة العسكرية كالسروج ولوازمها والصفائح وغيرها من الأدوات القتالية الهامة.

إن الاطلاع على متون المصادر العربية المتنوعة، والاستفادة من المصادر المسيحية أيضاً، دفعنا إلى عقد مجموعة من المقارنات التي لا تخلو من فائدة سواء بالشرق العربي أم بالمغرب، أم بأوروبا الفيودالية؛ مما سهل إعادة النظر في العديد من المقولات والنظريات الجاهزة التي تعتقد بتفوق أوروبا عن العالم الإسلامي في الكثير من الميادين. ورغم ذلك نبادر إلى القول إن التاريخ العسكري أو تاريخ الحروب في الغرب الإسلامي وفي الأندلس، باعتباره وجهاً من وجوه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ورغم ما شاع حوله من آراء وتصورات ما يزال، في اعتقادنا، في حاجة إلى البحث والتقصي. إن من شأن البحث الجزئي العميق في ميادين العمران والسكن والسكان، والاقتصاد وغير ذلك، أن يفيد في خلق تراكم معرفي هام وضروري، يوفر شروطاً أفضل لعقد مقارنات واسعة وبناء الأدوات المنهجية والمصطلحات التي تساهم في إنجاز أبحاث أكثر دقة وإفادة علمية في المجال العسكري أو غيره.

المصادر

لا يدعى البحث الإمام بكل المصادر والأنحاء المعقدة في الموضوع. لكن شئنا أن
أن اللانحة المعتمدة لا تضم إلا ما تمت الاستفادة منه بشكل مباشر.

أولاً، المخطوطات

- إبراهيم (برهان الدين المصري الحنفي)، إجارة الإقطاع. مخطوط، الحرة.
الحسنية، الرباط، رقم 2/216.
- ابن أبي حجة (يوسف)، رعاية الرعية. مخطوط، الخزائن الحسنية، الرباط، رقم 6795.
- ابن أبي حجة، منطق الطير. مخطوط، الخزائن الحسنية، الرباط، رقم 1910.
- ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام. ت 399 هـ)، منتخب
الأحكام. مخطوط، الخزائن العامة، الرباط، د 1730.
- ابن أبي النور (إبراهيم عبد الواحد بن أبي النور)، سياسة الأمراء ولاة الحنة.
مخطوط، الاسكوريال (مدريد)، رقم 719.
- ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن الحاج)، النوازل. مخطوط، الخزائن العامة.
الرباط، رقم ج 55.
- ابن رضوان (أبو عبد الله محمد)، مطلع النمن والإقبال في استيفاء ما للخيل من
الأحوال. مخطوط، الخزائن العامة، الرباط، د 3640.
- ابن رضوان (أبو عبد الله محمد)، كتاب في صفة الأمور الجهادية. مخطوط.
الخزائن العامة، الرباط، د 1342.
- ابن زكريا (إبراهيم بن أحمد بن عاتق بن محمد بن زكريا الأندلسي)، كتاب في
صناعة الأمور الجهادية. مخطوط، الخزائن العامة، الرباط، د 1342.
- ابن زكون (أبو علي حسن)، اعتماد الحكام في مسائل الأحكام. مخطوط، الحرة.
نعماء، الرباط، ق 413 (مجموع).
- ابن سهل (عيسى بن يونس)، الأحكام الكبرى. مخطوط، الخزائن العامة، الرباط، د 838.

- ابن المناصف (أبو عبد الله محمد بن عيسى)، الانحاء في أحكام الجهاد. مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم، رقم 748.
- حزاة بن يوسف، مراکش، رقم 216.
- ابن منكلي (محمد بن محمود المصري)، الأحكام الملوكية والصواب المأمونية. مخطوط، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1950. نسخة ذ. محمد المعراوي.
- ابن النحاس (أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن النحاس الدمشقي)، مشارع الاشواق الى مصارع العشاق (مثير العرام إلى دار الإسلام). مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 2366.
- ابن هذيل (علي عبد الرحمن الأندلسي. 763 - 1361 م)، تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس. مخطوط، الاسكوريال، (مدريد)، رقم 1652.
- ابن هذيل، في الرباط والجهاد. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1108. الاسكوريال، 904.
- أبو الحسن (محمد بن الحسين الأهوازي)، الفوائد والقلائد، قلائد السلوك فيما يحتاج إليه الملوك. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، 6481.
- أبو عبيد الله (محمد بن يوسف الأخباري)، كتاب الإيضاح في علم الرمي. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 1867، (مجموع).
- أبو الوليد (هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي)، المفيد للحكام فيما يُعرض لهم من نوازل الأحكام. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ق 805.
- البرزلي، اختصار فتاوي البرزلي (مسائل الجهاد)، جمع ابن أبي زيد الأندلسي. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ك 826.
- البطريق (يحيى أبو إسحاق)، كتاب السياسة في تدبير الرئاسة. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 94 (مجموع).
- التدميري (أبو العباس أحمد وليد بن محمد)، كتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فصل الخلافة. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم 1033.
- التميمي (أبو عذرة معمر المتني)، كتاب الخيل وما ورد فيها. مخطوط، الخزانة العامة، د 1312.

- الجزيري (ابو الحسن علي بن يحيى بن القاسم الحريري)، المقصد السعيد في تلخيص العقود. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 592 ق.
- السخاوي (شمس الدين)، القول النام في فصل الرمي بالسهم. مخطوط، مكتبة الاسكوريال، (مدريد) 765.
- السملالي (علي السوسي)، عانة الاستعانة بحكم التوظيف والمعونة. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 480.
- السيوطي (جلال الدين)، جر النيل في علم الخيل. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 175.
- الصفوري (عبد الرحمن الإمام)، نزهة المجالس ومنتخب النفائس. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، ج 693.
- طيبيغا (الأشرفي)، كتاب بغية المرامي وغاية المرام للمعاني في علم الرمي. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1867 (مجموع).
- عباس بن إبراهيم، الإمتاع بأحكام الإقطاع. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم د 13.
- الغزالي (أبو حامد الإمام)، التبر المسبوك في نصيحة الملوك أو (نصيحة الملوك والوزراء والولاة). مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1193.
- الكردودي (محمد بن عبد القادر)، سياسة حربية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 2071 (مجموع).
- مجهول، آثار في الرماية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1314.
- مجهول، إحارة الإقطاع. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 216 (مجموع).
- مجهول، البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ق 32 (مجموع).
- مجهول، الجهاد والسلاح. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1184.
- مجهول، في علم الرمي وفضل القوس والوتر والنشاب ومعرفة أصول ذلك وسفاهة السلاح المهلكة. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم 64.
- مجهول، في الوقف والأمور الجهادية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ك 2125.
- مجهول، كمثل الصناعة في الفروسية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفيم،

- مجهول، كتاب الحيداد. الخزانة العامة، الرباط، 2125 (مجموع).
- مجهول، كتاب الحيداد. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ك 104.
- مجهول، كتاب الخيل. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1312.
- مجهول، كتاب علم الرمي وصفاته ومقاديره ومداراته، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1867 (مجموع).
- مجهول، كتاب في الفروسية والمعرفة بالدواب وأحوالها. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، 6101.
- مجهول (المراكشي؟)، سيرة أحواد الأنجاد في مراتب الجهاد. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، 5917.
- الخزانة العامة، الرباط، ج 94 (مجموع).
- الناصري، كتاب الحيل في الحروب. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم، 2216.

ثانياً: المصادر المطبوعة

- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي. ت 658 هـ / 1260م)، الحلة السيرة. تحقيق مؤنس (حسين)، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1963.
- الجزء الأول — الجزء الثاني.
- ابن الأبار، ديوان ابن الأبار. تحقيق الهراس عبد السلام، الدار التونسية للنشر، 1985.
- ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم. تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983.
- ابن أبي زرع (علي الغسي. ت 726 هـ / 1325 م)، الأنيس المطرب بروض قرطس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
- ابن أبي الخصال (عبد الله الغافقي. ت 539 هـ)، الرسائل. (رسائل ابن أبي

- (الخصال). تحقيق الداية محمد رضوان، دمشق، دار الفكر، 1987.
- ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيي القرواني. ت 110 هـ / 1698 م)، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. تونس، 1286 هـ.
- ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام. ت 399 هـ)، فتوة العاري. تحقيق السليماني عائشة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989.
- ابن أبي منصور (صفي الدين)، الرسالة. نشر ديني جريل، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1986.
- ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد السبياني. ت 630 هـ / 1233 م)، الكامل في التاريخ. بيروت، 1966، ج 8.
- ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي. ت 729 هـ)، معالم القرية في أحكام الحسبة. تحقيق فائد عبد الحميد، بيروت، دار الحداثة، 1990. الجزء الأول. الجزء الثاني.
- ابن آدم (يحيى القرشي. ت 203 هـ / 817 م)، كتاب الخراج. تحقيق شاكراً أحمد محمد، القاهرة، مكتبة دار التراث، د. ت.
- ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد بن علي الغرناطي الأندلسي. ت 896 هـ / 1491 م)، بدائع السلك في طبائع الملك. تحقيق النشار علي سامي، بغداد، وزارة الثقافة، 1977. الجزء الأول. الجزء الثاني.
- ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني. ت 542 هـ / 1147 م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، ليبيا — تونس، الدار العربية للكتاب، 1975-1981.
- بن بشكوال (أبو القاسم جف بن عبد الملك بن مسعود الأنصاري القرطبي. ت 578 هـ / 1182 م)، كتاب نضلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وفعيلتهم. تحقيق الحسيني عزت نضار، القاهرة، 1955. الجزء الأول. الجزء الثاني.
- ابن بريقين (عبد الله الأسمر. حنغ سنة 483 هـ)، كتاب التمداد. تحقيق الطاهر الأسمر، الرباط، دار عكاظ، 1995.
- بن تميمية (أحمد نسح. ت 728 هـ / 1328 م)، الجهاد. تحقيق عمره عبد

الواحد، بيروت، دار الجيل، 1991. — الجزء الأول. — الجزء الثاني.

— ابن جزي (عبد الله بن محمد بن حزي الكلبي الغرناطي. ق 8 هـ)، كتاب الحيل: مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال. تحقيق الخطابي محمد العربي. بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986.

— ابن الحاج النميري (ابراهيم بن عبد الله بن محمد الغرناطي، كان حياً عام 768هـ/1367 م)، فيض العباب، وإحالة قذاح الاداب، في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب، تحقيق ابن شقرون محمد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

— ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. ت 456 هـ/ 1064 م)، جمهرة أنساب العرب. بيروت، دار الكتب العلمية، 1983.

— ابن حزم، للرسائل. تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.

الجزء الأول. الجزء الثاني.

— ابن حمديس، ديوان ابن حمديس. تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1960.

— ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي. ت 367 هـ/ 977 م)، صورة الأرض. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1971.

— ابن حيان (أو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي. ت 469 هـ/ 1076 م)، المقتبس من أخبار بلد الأندلس. تحقيق الحجي علي عبد الواحد، بيروت، دار الثقافة، 1965.

— ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، القسم الثالث. تحقيق أنطونية ملشور. م، باريس، المكتبة الشرقية، 1937.

— ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقيق مكّي محمد علي، القاهرة، 1971.

— ابن حيان، المقتبس. الجزء الخامس، تحقيق شالميطا (ب)، كورينطي (ف)، صبح (م)، مدريد، المعهد الإسباني العربي، 1979.

— ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي. ت 529 هـ/ 1134 م)، قلاند العقيان في محاسن الأعيان. تحقيق ابن عاشور محمد الطاهر، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990.

- ابن خرداذبة (أبو القاسم عند الله بن عبد الله الفارسي. ت 300هـ / 912 م)، المسالك والممالك. نشر دي خوية، لندن، بريل، 1985.
- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد السلماني من نخطيب. ت 776 هـ / 1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عثمان محمد عبد الله، القاهرة، دار المعارف، 1956. القاهرة، مكتبة الحاحي، المجلد 1، 1973. المجلد 2، 1974. المجلد 3، 1975. المجلد 4، 1974.
- ابن الخطيب. الإشارة إلى أدب الوزارة، تلخيصها مقامة في السياسة. تحقيق شبانة محمد كمال، الرباط، 1980.
- ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام. نشر، ز. بروفنسال، دار المكشوف، (الكشوف)، 1956.
- ابن الخطيب، رقم الحل في نظم الدول. تحقيق عدنان درويش، دمشق، 1997.
- ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد الديار، دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي، شبانة محمد كامل، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977.
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. ت 808هـ / 1406م)، المقدمة. تحقيق وافي عبد الواحد، القاهرة، بيروت، 1401هـ. الجزء الأول. الجزء الثاني. الجزء الثالث.
- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958، القسم الثاني، المجلد الرابع.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. ت 681 هـ / 1281م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته العين. تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971، ج 7.
- ابن دراج القسطلي، ديوان ابن دراج، تحقيق مكي محمود علي، المكتب الإسلامي، 1369هـ.
- ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي. ت 520 هـ / 1126 م)، الفتاوي (فتاوي ابن رشد). تحقيق التليلي المختار بن الطاهر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.

الجزء الأول. الجزء الثاني. الجزء الثالث.

— ابن رشد، كتاب المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية و التحصيلات المحكمات الشرعية الأمهات مسائلها المشكلات، القاهرة، مطبعة السعادة، د. ت.

— ابن رضوان (أبو القاسم ابن رضوان المالكي. ت 783 هـ)، الشهب اللمعة في السياسة النافعة. تحقيق النشار علي سامي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984.

— ابن الزبير (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير النقي العاصمي الجباني. ت 708 هـ/ 1309 م)، صلة الصلة: ذيل للصلة البشكولية في تراجم أعلام الأندلس. تحقيق ل. بروفنسال، باريس، 1937.

— ابن سعيد (علي بن موسى بن عبد الملك العنسي الغرناطي. ت 637 هـ/ 1274 م)، بسط الأرض في الطول والعرض. تحقيق خنيس فرنيط (خ)، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958.

— ابن سعيد، رايات المبرزين و غايات المميزين. تحقيق الداية محمد رضوان، دمشق، 1987.

— ابن سعيد، كتاب الجغرافيا. تحقيق العربي إسماعيل، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970.

— ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب. تحقيق ضيف شوقي، القاهرة، دار المعارف، ط 3، 1978 — 1979. الجزء الأول. الجزء الثاني.

— ابن سلام (أبو عبيد القاسم الأزدي. ت 224 هـ/ 838 م)، كتاب الأموال. تحقيق الفقي محمد حامد، القاهرة، د. ت.

— ابن سلام، كتاب السلاح. تحقيق الضامن حاتم فتحي، المورد، عدد 4، المجلد 12، 1983، ص ص 223 — 253.

— ابن سهل (عيسى بن أصبع عبد الله الأسدي. ت 486 هـ)، في شؤون الحسبة. مسخصة من مخطوط الأحكام الكبرى، خلف محمد عبد الوهاب، القاهرة، 1985.

— ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي)، المخصص. بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت، عدة أجزاء.

— ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن صاحب الصلاة. ت 594 هـ/ 1198 م)، تاريخ لمر بالائمة على المستضعين بأن جعلهم لله أئمة وحلهم الوارثين. تحقيق

التازي عبد الوهاب، بغداد، 1979.

— ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري. ت 257هـ - 871 م)، فتوح إفريقية والأندلس. تحقيق الطباع أنيس عبد الله، بيروت، 1964.

— ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي. ت 328 هـ / 939 م)، العقد الجديد. تحقيق أمين أحمد، الزين أحمد، الأبياري إبراهيم، القاهرة، 1965. ج 1، ح 4.

— ابن عبدون (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي من أهل ق 5 هـ)، كتاب الحسنة. نشر ل. بروفنسال، المجلة الآسيوية، 1934.

— ابن عذاري (أحمد بن محمد المراكشي. ت/ ق 7 هـ / 13 م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق كولان (ج. س)، ل. بروفنسال، بيروت، دار الثقافة. الجزء 1. 2. 3، 1980. الجزء 4، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1980.

— ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين. تحقيق الكتاني محمد إبراهيم وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء دار الثقافة، 1985.

— ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي القاصي. ت 542 هـ / 1147 م)، العواصم من القواصم، تحقيق الخطيب محيي الدين، القاهرة، دار الكتب السلفية، 1405 هـ.

— ابن العريف (أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى ابن عطاء الله الصنهاجي. ت 536 هـ / 1141 م)، محاسن المجالس. ضبط وتعليق أنين بلانيوس، باريس، المكتبة الشرقية، 1933.

— ابن العطار (محمد بن أحمد الأموي. ت 399 هـ)، كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق سالميطة (ب)، كورينطي (ف)، مدريد، المعهد الإسباني للثقافة، 1973.

— ابن العوام (أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي. من أهل ق 6 هـ / 12 م)، كتاب الفلاحة. تحقيق وترجمة بنكيري أ. ي)، مدريد، طبعة 1992.

الجزء الأول. الجزء الثاني.

— ابن العوام، كتاب الفلاحة، القسم البيطري بعنوان:

Le Livre d'Agriculture d'Ibn ALAWAM L'Etable, l'ecurie, La Basse-cour

سرحمة وتعليق: Clément-Mullet (J.J) ; Tunis, ed. Bouslama, 1977.

— ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي. ت 1089هـ/1678م).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت، د. ت، 3 ج.

— ابن غالب (محمد بن أيوب بن غالب الحافظ الأندلسي)، تعليق منتقى من فرحة
الأفصر في تاريخ الأندلس، (قطعة من الكتاب). تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة
المخطوطات العربية، الجزء الثاني، المجلد الأول، القاهرة، 1955، ص. 281.
310.

— ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي القرطبي.
ت (403هـ/ 1013 م)، تاريخ علماء الأندلس. تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت.
دار الكتاب اللبناني، 1983.

— ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني)، كتاب البلدان. نشر دي
خويه، ليدن — بريل، 1885.

— ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم. ت (276هـ/ 889 م)، كتاب
الإمامة والسياسة. القاهرة، مطبعة الفتوح الأدبية، د. ت.

— ابن قتيبة، عيون الأخبار. القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر، 1964، أربعة (4) أجزاء.

— ابن القطان (أبو علي حسن بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي المراكشي.
ت (628هـ/ 1230 م)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. تحقيق مكي
محمود علي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

— ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر. ت (367هـ/ 927 م)، تاريخ افتتاح الأندلس.
تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982.

— ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي أيوب. ت 752هـ).
الفروسية. تحقيق الحسيني عزت العطار، القاهرة، 1994.

— ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري. من أهل القرن 6 هـ)،
تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط. نسان جديان، تحقيق العبادي محمد مختار،
مريد، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1971.

— ابن المقفع (عبد الله بن المقفع)، الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة.

تحقيق أبو حنيفة يوسف، بيروت، مكتبة البيان، 1964.

— ابن المناصف (محمد بن عيسى بن المناصف. ت 620 هـ) تنبيه الحكام على محد الأحكام. نشر منصور عبد الحفيظ، تونس، دار التركي للنشر، 1988.

— ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم)، لسان العرب. إعداد حياط يوسف مرعشلي نديم، بيروت، دار لسان العرب، 1970، عدة أجزاء.

— ابن منكلي (محمد بن محمود المصري. ت 784 هـ/1382 م). التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية. تحقيق صادق الحملي محمود، لمورد، عدد 4، م 12، 1983، ص. 319، 378.

— ابن هاني (الأندلسي)، ديوان ابن هاني. تحقيق البستاني كرم، بيروت، دار صادر، 1952.

— ابن هذيل (علي عبد الرحمن الأندلسي)، حلية الفرسان وشعار الشجعان. بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 1997.

— ابن هذيل، حلية الفرسان وشعار الشجعان. تحقيق حسن محمد عبد الغني، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر، 1951.

— أبو حامد الغرناطي (عبد الرحيم سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب. تحقيق العربي إسماعيل، بيروت، دار الافاق الجديدة 1993.

— أبو حامد الغرناطي، المغرب عن بعض عجائب المغرب. تحقيق وترجمة INGRID Bejarano، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1991.

— أبو الخير الإشبيلي (ت بعد 499 هـ)، عمدة الطبيب في معرفة النبات. تحقيق محمد العربي الخطابي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1990، الجزء الأول.

— أبو الخير الإشبيلي، كتاب الفلاحة. نشر القاضي التهامي الجعفري، فارس، المطبعة الجديدة، 1358.

— أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم القاضي. ت 258 هـ/871 م)، كتاب الحراج. المكتبة السلفية، القاهرة، 1352 هـ.

— الإدريسي (الشريف الإدريسي محمد أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسني السني. ت 560 هـ/1164 م)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. نابولي، روما، السفر الخامس، 1975.

— الإصطخري (أبو إسحاق إبراهيم محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي. ت 339 هـ)، المسالك والممالك. تحقيق الحيني محمد جابر، عبد العز محمد غربال، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1961.

— الأصفهاني (العماد الإصفهاني أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الملقب بآبي الورير. ت 597 هـ/1200م)، خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق المرزوقي محمد، العروسي المطوي محمد، الحيلاني بن الحاج يحيى، تونس، الدار التونسية للنشر، 1973.

— الباجي (أبو عبد الله محمد السعدي)، الخلاصة النقدية في أمراء إفريقية. تونس. 1323هـ.

— الباجي (أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي. ت 474 هـ)، فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام. تحقيق الباتول بن علي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1990.

— البكري (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي. ت 487 هـ/1094م)، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك. تحقيق الحجي علي عبد الرحمن، بيروت، دار الإرشاد، 1968.

— البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. نمشر ذي سلان، باريس، 1965.

— البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود. ت 248 هـ)، فتوح البلدان. تحقيق الطباع أنيس عبد الله، الطباع محمد أنيس، بيروت، مؤسسة المعارف، 1987.

— التجيبي (القاسم بن يوسف السبتي. ت 730 هـ/1329م)، مستفاد الرحلة والاعترااب. تحقيق منصور عبد الحفيظ، طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1975.

— التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بالأعمى. ت 520 هـ/1126 م)، يوان الأعمى التطيلي. تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963.

— ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب. تحقيق ونشر ل. بروفنسال، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

— ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي.

— كتاب الأنساب لابن الحليم، القرن 8 هـ/14م.

كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول.

كتاب شواهد الجلة لأبي بكر ابن العربي. ت 543 هـ / 1143 م.

تحقيق يعلى محمد، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1996.

— الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الحاحظ. ت 255 هـ / 868 م)، النسا والنس.

تحقيق هارون محمد عبد السلام، القاهرة، 1964. أربعة أجزاء.

— الجاحظ، الرسائل، تحقيق هارون محمد عبد السلام، القاهرة، 1964.

— الجاحظ، الحيوان. تحقيق هارون محمد عبد السلام. بيروت، دار الفكر العربي. 1969. ثلاثة أجزاء.

— الجوزري (أبو علي منصور العزيزي)، سيرة الأستاذ جؤذر وبه نوفيغات الأئمة الفاطميين، تحقيق كامل حسين محمد، شعيرة عبد الهادي، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.

— حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله التركي الملقب بكاتب شلبي. ت 1067 هـ / 1657 م)، كتف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. الاسنائة، مطبعة العالم، 1310 هـ.

— الحموي (سهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي. ت 626 هـ / 1228 م)، كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعا. د. ت.

— الحموي، معجم البلدان. بيروت، دار صادر، 1955.

— الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي. ت 488 هـ / 1095 م)، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس. القاهرة، دار المصنعة للأنيف والترجمة، 1966.

— الحميري (محمد بن عبد المنعم السبتي. ت. أواخر القرن التاسع الهجري)، الروص المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975.

— الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني. ت 361 هـ / 971 م)، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية. تحقيق الحسيني عزت العطار، القاهرة، بغداد، 1372 هـ.

— الداودي (أبو جعفر أحمد بن نصر الإمام. ت 402 م)، كتاب الأموال. تحقيق سحادة

- رضا محمد سالم، الرباط، مركز إحياء التراث المغربي، 1988.
- الداودي (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد. ت 945 هـ)، طبعات المفسرين. تحقيق عمر علي محمد، القاهرة، 1972.
- الرازي (أحمد بن محمد بن موسى الرازي. ت 344 هـ)، وصف الأندلس. تحقيق ل. بروفسل، محلة الأندلس، المجلد XVIII، 1953، ص ص. 51، 108.
- الرشاطي (أبو محمد. ت 542 هـ، وابن الخراط الإشبيلي. ت 581 هـ). الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار. تحقيق مولينا إيميليو بوش بيللا خاينو. مدرين المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1990.
- الزجالي (أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي. ت 694 هـ / 1294 م). أمثال العوام في الأندلس. تحقيق بن شريفة محمد، منشورات وزارة الثقافة والتعليم الأصيل، فاس، 1971. الجزء الأول والجزء الثاني.
- الزردكاش أرنبغا، الأنيق في المجانيق (المناجيق). تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981.
- الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري الأندلسي. كان حياً عام 546 هـ / 1151 م)، كتاب الجغرافية، تحقيق صادق محمد حاج، القاهرة، مكتبة الثقافة، د. ت.
- السقطي (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالكي الأندلسي. القرن 6 هـ). في آداب الحسبة. تحقيق الزين حسن، بيروت، 1987.
- السلفي (أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة أبو طاهر صدر الدين. ت 576 هـ / 1180 م)، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر. تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطي. ت 911 هـ / 1505 م)، السماح في أخبار الرماح. تحقيق القيسي فوزي حمودي، المورد، عدد 4 المجلد 12، 1983، ص 79-90.
- الشونجي (الفرحاني)، فضل الفوس العربية. تحقيق الجنابي أحمد نصيف، عبودي فتوح حبري، المورد عند 4 م 12، 1983، ص 253، 304.
- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي. ت 599 هـ / 1203 م)، بغية

الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. محريط، 1884.

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير. ب 310 هـ / 923 م)، تاريخ الأمم والملوك. تحقيق أبو الفضل محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1966، ج 5.
- الطرسوسي (مرصى بن علي بن مرصى الطرسوسي)، تنصرة ارباب الألب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء. تحقيق كاهن كلود، بيروت، (محلة الأبحاث شرفة)، 1948، ص. 1-24.
- الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد الفهري. ب 520 هـ / 1126 م)، شرح الملوك. تحقيق فتحي محمد أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، 1994، الجزء الأول. الجزء الثاني.
- الغزري (أحمد بن عمر بن. نس الغزري المعروف بابن الدلائي. ب 478 هـ / 988 م)، ترصيع الأحبار. تنويع دثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك. تحقيق الأهواني عبد العزيز، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1965.
- عريب بن سعد (أبو الحسن القرطبي ق 4 هـ / 10 م)، نفوهم قرطبة (961 م). نشر دوزي (ر)، لندن - بريل، 1961.
- العمري (سهب الدين أحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله القرشي الدمشقي. ب 749 هـ / 1348 م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق فؤاد سيد أيمن، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1985.
- العمري، مسالك البصار، إفريقيا باقص مصر (أقسام إفريقيا الشمالية والأندلس). ترجمة فرنسية جود فروديمومين Gaudetfroy-Demonbynes، باريس. المكتبة الشرقية، 1927.
- العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وصف إفريقيا والأندلس. تحقيق حسر حسني عند الوهاب، تونس، 1920.
- عياض القاضي (القاضي عياض أبو الفضل بن موسى بن عياض ليحصني السني)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. الربط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الجزء الرابع. الجزء السابع.
- الغساني (محمد بن عبد الوهاب)، رحلة الوزير في افتكاك الأسير. نشر السدي، طنجة، 1940.

- فهارس الخزانة الحسنية، المجلد الثاني: الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، تصنيف الخطابي محمد العربي، الرباط، 1982.
- القرآن الكريم، مصحف المدينة، قراءة ورش عن نافع، 1409 هـ.
- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود. ت 682 هـ / 1383 م)، أثار البلاد وأخبار العباد. بيروت، دار صادر، 1969.
- القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي المصري. ت 646 هـ / 1248 م)، كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة، مطبعة السعادة، 1326 هـ.
- القلقشندي (أبو العباس أحمد. ت 821 هـ / 1418 م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. القاهرة، دار الكتب الخديوية، 1914. الجزء الخامس.
- القيرواني (ابن أبي زيد)، الرسالة. بيروت، دار الفكر، 1993.
- الكندي (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي. كان حيا سنة 256 هـ)، فيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتلثم ولا تكل. رسالة الكندي الثالثة، المورد، عدد 4 م 12، 1983، ص. 119 ، 171.
- اللخمي (ابن هشام)، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان. تحقيق بيريث لافارو خوسي، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، د. ت. — الجزء الأول. الجزء الثاني.
- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي. ت 450 هـ / 1057 م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية. بيروت، دار الكتب العلمية، 1978.
- الماوردي، أدب الوزير أو قوانين الوزارة وسياسة الملك. تحقيق الهادي حسن حسين، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1984.
- الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك. تحقيق السرحان محيي هلال الساعاتي حسن، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.
- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم. تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت، 1981.
- مجهول. ق 8 هـ / 14 م، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تحقيق زكار

- سهيل، زمامة عبد القادر، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979.
- مجهول، ذكر بلاد الأندلس. ترجمة وتحقيق مولنا. ل. مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1983.
- مجهول، رسالة في أوقات السنة. تحقيق نافارو أنجليس، عرناطة. معهد الدراسات الإسلامية، 1990.
- مجهول، مفاخر البربر، ألف حوالي 712 هـ/ 1312 م، نشر ل. بروفسال، الرباط، 1934.
- محمد بن عمر (بن يوسف بن عامر، الكتاني الإسكندراني المكنى أبو عبد الله. ت 310 هـ)، كتاب أكرية السفن والنزاع بين أهلها. تحقيق أنور طاهر مصطفى. الكراسات التونسية، مجلد 31، عدد 123، 124، 1983، ص. 5، 53.
- المرادي (أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي. ت 489 هـ/ 1095 م)، كتاب السيرة أو الإشارة في تدبير الإمارة. تحقيق النشار سامي علي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981.
- المراكشي ابن عبد الملك (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري. ت 703 هـ/ 1303 م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. السفر الأول. القسم الأول، تحقيق بنشريعة محمد، بيروت، دار الثقافة، د. ت.
- المراكشي، الذيل والتكملة. السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق إحسان عباس. بيروت، 1965.
- المراكشي (محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التجيبي. ت 668 هـ/ 1270 م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تقديم حقي ممدوح، الدار البيضاء، د. ت.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. ت 346 هـ/ 957 م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق بيلا شارل، بيروت، 1965، ج 1.
- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، البناء السامي البشاري. كان حيا عام ت 390 هـ/ 1000 م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. لندن - أبريل، 1906.
- المقرئ (شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني. ت 1041 هـ/ 1631 م)، فتح نضب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968. عدة أجزاء.

- المقريري (توفي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريري. ت 845 هـ / 1441 م).
- الخطط المقريرية، بيروت، دار إحياء العلوم، د. ت.
- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق الناصري جعفر، الناصري محمد، دار البيضاء. دار الكتاب، 1956، ج 9.
- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي الأندلسي. ت 776 هـ / 1374 م / "1391/793")، تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1980.
- النعمان (أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي القاضي. ت 363 هـ)، كتاب المجالس والمسائرات، تحقيق الفقي الحبيب وآخرون، تونس، المطبعة الرسمية، 1978.
- النويري (أحمد بن عبد الوهاب النويري. ت 732 هـ / 1332 م)، نهاية الأرب فنون الأدب (قسم المغرب). تحقيق أبو ضيف أحمد مصطفى، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1984.
- الونشريشي (أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. ت 914 هـ / 1508 م)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. تحقيق حجي محمد وآخرون، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981. 13 جزء.
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح. ت 284 هـ / 897 م)، كتاب البلدان. النجف، المطبعة الحيدرية، 1957.

ثالثا، الدراسات العربية والأجنبية

أ. الدراسات العربية

- أبو الفضل (محمد أحمد)، تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996.
- أرسلان (الأمير شكيب)، الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت،

منشورات دار الحياة، د. ت، ج 1.

- أرشبالد (لويس)، القوى البحرية والتجارية في حوض النهر المتوسط 500-1110 د.
الترجمة العربية، القاهرة، 1951.

- أنور (عبد العليم)، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، يناير، 1979.

- البستاني (عبد الله البستاني)، فاكهة البستان، معجم لغوي، بيروت، 1990.

- بن عبود (أحمد)، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف.
تطوان، 1983.

- بن عبود، التصورات التاريخية الأندلسية قديماً وحديثاً، دعوة الحق، عدد 34، الرباط.
1984، ص. 33 - 58.

- بن عبود، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تطوان، 1987.

- بوتشيش (إبراهيم القادري)، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف
القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة. 250 هـ - 316 هـ، الرباط، عكاظ.
1992.

- بوتشيش، "تطور ملكية أراضي الجيش في الأندلس منذ الفتح العربي حتى مطلع
عصر الخلافة"، البحث العلمي، عدد 38، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي.
1988، ص. 143-159.

- بوتشيش، "المشكل القانوني للملكية العقارية" في الأندلس من الفتح حتى مطلع القرن
الرابع الهجري، البحث العلمي، عدد 36، الرباط، 1986.

- جمال محفوظ (لواء)، فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام. تونس، دار
المعارف للطباعة والنشر، 1994.

- الجنابي (خالد جاسم)، تنظيمات الجيش العربي في العصر الأموي، بغداد، دار
الحرية للطباعة، 1986.

- حركات (إبراهيم)، النظام الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، الدار البيضاء،
دار إفريقيا والشرق، 1996.

- حركات، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، الدار البيضاء، د. ت.

— حقى (محمد)، البربر في الأندلس: دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية 92 هـ / 416 هـ (711 / 1031 م)، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1996.

— حناوي (محمد)، الأدوات الفلاحية الأندلسية من خلال المصادر: كتب الفلاحة نموذجاً، مجلة الاحتفاد، عدد 34، 35 مزدوج، بيروت، 1997، ص. 101 — 117.

— حناوي، "الأرستقراطية والفلاحون في الفيودالية الأوربية" في: جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، سلسلة ندوات 2، منشورات كلية الآداب، مكناس، 1991، ص. 84 — 96.

— حناوي، جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قبيل القرن العاشر للميلاد، ندوة: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية آداب الرباط، 1995، ص. 151 — 166.

— ديورانت (ول)، قصة الحضارة، ترجمة بدران (محمد)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ج 2.

— ذنون طه (عبد الواحد)، تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي، في: دراسات في التاريخ الأندلسي، بغداد، 1987، ص. 37-88.

— الراجي (التيامي الهاشمي)، نظم وإدارة بني أمية بالأندلس من خلال المقتبس لابن حيان، المظاهر، عدد خاص 29، الرباط، 1984، ص. 3 — 64.

— الرصافي (معروف)، الالة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهندات، تحقيق الرشودي (عبد الحميد)، بغداد، دار الرشاد، 1980.

— الرفاعي (أنور)، النظم الإسلامية، دمشق، دار الفكر، 1973.

— سالم (عبد العزيز السيد)، أضواء على مشكلة تاريخ بناء أسوار إشبيلية، مجلة العهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 8، مدريد، 1974، 1975، ص. 1-25.

— سالم (عبد العزيز السيد)، العبادي (أحمد المختار)، تاريخ البحرية في مصر واندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ج 1.

— سالم، العبدى، تاريخ البحرية الإسلامي في المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ج 2.

- سحر (عبد العزيز سالم)، "ملابس الرجال في الأندلس"، ندوة الأندلس: ندوة و التاريخ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعة، 1994، ص. 240 - 274.
- سعدون (عباس نصر الله)، دولة المرابطون في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1985.
- الطاهري (أحمد)، الرحلة التجارية الأندلسية من خلال كتب التراجم و لطائف، في: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف، دار النهضة، المطبعة الجديدة، 1993، ص. 55-75.
- الطاهري (أحمد)، الطب والفلاحة في الأندلس، منشورات كلية الآداب، المحمدية، 1997.
- الطاهري، عامة إشبيلية في عصر بني عباد، أطروحة الدولة، كلية الآداب، مكس، 1995، ج 2.
- الطاهري، عامة قرطبة في عصر الخلافة، الرباط، عكاظ، 1989.
- طويل (مريم قاسم)، مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 443 هـ - 484 هـ، بيروت، الدار البيضاء، 1994.
- الطيبي (أمين توفيق)، الأصيل في كتاب الجراحة لأبي القاسم خلف الزهرلوي (ت 404 هـ / 1013 م)، في: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1997، ج 2، ص. 9 - 47.
- الطيبي (أ. ت)، "حمام الزاغل: عرض تاريخي حول استعماله في المرممات السريعة في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، في: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا، تونس، 1984، ج 1، ص. 106-119.
- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1972.
- عثمان جاد الرب (عبد القادر)، الوضع السياسي والاجتماعي لعراطة في نشر الحامس الهجري، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، كلية الآداب، الرباط، 1997، ج 2.
- عثمان (محمد عبد العزيز)، "البحرية العربية في الأندلس"، تاريخ، م 12، ص 4، بغداد، 1983.
- العروى (عبد الله)، محمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، بيروت، 1994، ج 2.

- العريني (البار السبد)، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1968.
- العسلي (بسام)، فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، بيروت، دار الفكر، 1974.
- العلام (عز الدين)، السلطة والسياسة في الأدب السلطاني، الدار البيضاء، دار إفريقيا والشرق، 1991.
- عمر (موسى عز الدين)، الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999.
- عنان (محمد عبد الله)، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، مكتبة الخانجي، طبعة 1988.
- الفاسي (محمد)، الأعلام الجغرافية الأندلسية، وحي البنية، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1970.
- فيكرا (م. خ)، التأثير الحربي العربي في إسبانيا، 1975.
- فيلالي عبد العزيز)، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب العربي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
- القبلي (محمد)، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الرباط، 1997.
- الكافي (محمد بشير)، قاموس المصطلحات البحرية، فرنسي - عربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.
- محمد علي (نصر الله)، تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، بيروت، 1982.
- مقر (محمد)، اللباس المغربي خلال عهدي المرابطين والموحدين، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1996.
- المنوني (محمد)، ورقات عن حضارة المرينيين، الرباط، 1996.
- موريز (!)، مدخل إلى التاريخ العسكري، تعريب ديري (أكرم)، الأيوبي (الهيثم)، بيروت، 1970.
- مورينوجوميث (مانويل)، الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي حتى نهاية

المرابطين، ترجمة لطفي (عبد الديع)، سالم (عبد العزيز السيد)، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1995.

– الموسوعة العسكرية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ج 2.

– مؤنس(حسين)، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، طبعة 1985.

– هوبكنز(ج. ن. ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تحقيق الطيبي أمين توفيق، ليبيا – تونس، الدار العربية للكتاب، 1980.

ب. الدراسات الأجنبية

- ACIÉN ALMANSA (M); « La fortificación en al-Andalus », Arqueología Medieval, XXII, 1985, p.7, 36.
- ACIÉN ALMANSA (M); Sobre la función des Husún en el sur de Al-Andalus. La fortificación en el Califato. Coloquio Hispano Italiano de Arqueologia medieval, Granada, 1992, p. 263, 273.
- ANDERSON (P); Les Passages de l'Antiquité au féodalisme, Paris, Maspero, 1977.
- ARCAS CAMPOY (Maria); Teoría jurídica de la guerra Santa: Elkitab « Qidwat Al-Gázi », dans: Al-Andalus-Magreb. Estudios árabes E Islamicos, Nº1, Universidad de Cádiz, 1993, p. 51, 65.
- AZUAR RUIZ (R); Castellología medieval alicantina área meridional. Alicante, 1981, p. 213, 226.
- AZUAR RUIZ(R); Denia Islamica. Arqueología y poblamiento, Alicante. 1989.
- AZUAR RUIZ (R); Las técnicas constructivas en al-Andalus. El origen de la Sillería y del Hormigón de Tapial.
- Semana de Estudios medievales. Májera:1-5de Agosto1994. Instituto des Estudios Riojanos, 1995, p.125,142.
- AZUAR RUIZ (R);«Una interpretación del «llisn» musulman en el ambito rural». dans: Revista del Instituto de Estudios alicantinos, Nº37,1982, p.33,41.

- **BARCELÓ (C)**; « Toponymie tribale ou familiale et organisation de l'espace dans l'aire valencienne à l'époque musulmane ». dans : Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée (R.O.M.M.), 1986, p. 29, 38.
- **BASSOLS (Sergi)**; Una Línea de Torres vigia musulmanas Lérida-Tortosa. dans: Al-QANTARA, Vol. XIIè, Fasc. 1, Madrid, 1990, p. 127, 154.
- **BAZZANA (A)**; Eléments d'archéologie musulmane dans Al-Andalus: Caractères spécifiques de l'architecture militaire arabe de la région valencienne. dans: Al QANTARA, N° 1, 1980, p. 339, 363.
- **BAZZANA**; Problèmes d'architecture militaire au levant espagnol: Le château d'Alcalá de chivert. Château Gaillard. Etude de Castellologie médiévale, N° 8, 1976, pp. 21, 46.
- **BAZZANA; GUICHARD (P); CRESSIER (P)**; Les châteaux ruraux d'al Andalus. Histoire et archéologie des Hùsun du Sud-Est de l'Espagne, Madrid, Casa de Velázquez, 1988.
- **BAZZANA; GHICHARD (L); SÉNAC (Ph)**; « La frontière dans l'Espagne médiévale », dans Frontières et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age. Castrum 4, Madrid, Rome, 1992, p. 35, 59.
- **BELÉN SANCHEZ PRIETO (A)**; Lineas cristianas y ejes musulmanas de fortificación en la rivera oriana del Duero. Siglos (X-XII). dans: Revista de las Armas y servicios N° 6?1, Ejercito octubre, 1991, p. 56, 65.
- **BLOCH (M)**; La société féodale. Paris, A. Michel, 1968.
- **BOIS (G)**; La Mutation de l'an mil : Lou-nand, village mâconnais de l'Antiquité au féodalisme. Pari, Fayard, 1989.
- **BONNASSIE (P)**;« Idéologie tripartite et révolution féodale ».dans : Le Moyen Age, N° 2, 1980, p.251,273.
- **BONNASSIÉ**; La Catalogne du milieu du X^e à la fin du XI^e siècle: Croissance et mutations d'une société.L'Université de Toulouse-Le MIRAIL,1975,1976,2 vol.
- **BONNASSIE**; Les50 mots clefs de L'Histoire médiévale,Toulouse-Privat, 1981.
- **BONNASSIE**; « Survie et extinction du régime esclavagiste dans l'occident du haut Moyen Age ». (IV- XI^e siècles). dans: Cahiers de Civilisation médiévale, N°4 oct, dec, 1985, p. 307, 343.

- BOSCH VILA (J). Algunas consideraciones sobre Al-tágr en al Andalus y la division politico-administrativa. dans: Etudes d'Orientalisme dédiées à la memoire de Levi - Provençal. Paris, Maisn - La Rose, 1962, T1, p. 23, 33
- BOUCHARD (J). Services feodaux, milices et mercenaires dans les Armées en France aux X-XI^e siècles. dans: Ordinamenti militari in occidente: centro italiano de Studi Sall'alto medioevo, Settemane de Studio, T. XV, Spolète, 1968, p. 131, 169.
- BOU TRUCHE (R). Seigneurie et féodalité. Paris, Aubier, 1970, 1971, 2 vol.
- BRAUDEL (F): La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. Paris, A. Colin, 1985, 2vol.
- BURGUIÈRE (A): Dictionnaire des sciences Historiques. Paris, P.U.F, 1986.
- CAZELLES (R): « La Jacquerie fut-elle un mouvement paysan »? dans: Comptes rendus de l'académie des inscriptions et Belles lettres, 1979.
- CHALMETA(P): Al-Andalus: Société féodale? Dans:Etudes d'Ethnographie historique du Proche-Orient. Hommage à M. Rodinson, Paris- Maisonneuve - La Rose, 1982, p.179, 190.
- CHALMETA; Concesiones territoriales en Al-Andalus hasta la llegada de los Almoravides. dans: Cuadernos de Historia: Anexos de la Revista Hispánica N°6 Madrid, 1975, p. 1, 87.
- CHALMETA; Las Campanás Califales en al-Andalus. Dans : Guerre-fortification et habitat dans le monde Méditerranéen au Moyen Age, Castrum 3 Madrid, 1988, p. 33,42.
- CHAUNU (P): Histoire quantitative, Histoire sérielle. Paris, A. Colin. 1978.
- CIRLOT(victoria);Techniques guerrières en catalogne féodale, le maniement de la lance. dans: Cahiers de Civilisation médiévale N°1, Jany, Mars, 1985, p.35, 43.
- CLOT(André);L'ESPAGNE musulmane:VIII-XV^e siècle, Paris, Perrin, 1999.
- CONTAMINE (Ph): La guerre au Moyen Age, Paris, P.U.F, 1980.
- CONTAMINE; «Le combattant dans l'occident médiéval » dans:Le combattant au Moyen Age, Paris- Sorbonne, 1995, p.15, 23.
- CONTAMINE et autres; L'économie médiévale, Paris, A. colin, 1993.

- **CONTAMINE**; L'Histoire militaire et l'Histoire de la guerre dans la France médiévale depuis trente ans Dans : Tendances, perspectives et méthodes de l'Histoire médiévale actes du 100 congrès des Sociétés Savantes, T1, Paris, 1977, p.71, 93.
- **COWDREY** (J. E); « The peace and the truce of Gad the eleven century ». dans: Past and Present, N° 46, 1970, p.42-67.
- **CRÉSSIER** (P); « Fonction et évolution du réseau castral en Andalousie orientale: Le cas de l'Alpujarra ». dans : Guerre, fortification.. *Castrum* 3, p.123. 134.
- **CRÉSSIER**; «Le château et la division territoriale de l'Alpujarra médiévale. Du Hisn à la Tá à», dans: Mélanges de la Casa de velázquez, XX, p.115, 144.
- **DALLIÈRE-BENELHAJ** (V); Le château en al-Andalus: un problème de terminologie. dans: habitats fortifiés et organisation de l'espace en Méditerranée médiévale », Lyon, Maison de L'orient, 1983, p. 63, 67.
- **DICTIONNAIRE ENCYCLOPÉDIQUE**. Quillet, Paris, 1975, T.10.
- **DOCKÈS** (P); La libération médiévale, Paris, Flammarion, 1979.
- **DOMMANGET** (M); La jacquerie, Paris, Maspero, 1971.
- **DOZY**(R); **ENGELMANN** (W.H); Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe, Beyrouth, éd. 1974.
- **DOZY**; Supplément aux dictionnaires arabes, Beyrouth, 1968, 2 vol
- **DUBY** (G); Guerriers et paysans: VII-XII^e siècle, premier essor de l'économie européenne, Paris, Gallimard, 1973.
- **DUBY**; La société chevaleresque: Hommes et structures du Moyen Age, Paris, Flammarion, 1988.
- **DUBY**; L'Economie rurale et la vie des Campagnes dans l'occident médiéval Essai de synthèse et perspectives de recherche, Paris, Aubier, 1962, 2 vol.
- **DUBY**; Les Trois ordres ou l'Imaginaire du féodalisme, Paris, Gallimard, 1978.
- **DUFOURCQ** (Ch. Emm); Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane. 1^{er} Congrès d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb, Tunis, 1979,T.1, p.161, 192.

- DUFOURCQ, La vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Age, Provence-Languedoc- Catalogne, Paris, Hachette, 1979.
- DUMÉZIL(G), Heur et Malheur du Guerrier. Aspects mythique de la fonction guerrière chez les Indo-Européens, Paris, Fayard, 1985.
- EL HAJJI ALI (Abderahman), The Andalusian diplomatic relations with the vikings during the Umayyad period, (138-366 H.), dans Hesperis Tamuda, Vol, VIII, Rabat, 1967, p.67, 105.
- EPALZA (M de); « Funciones ganaderas de las albacares en las fortalezas musulmanas Sharq al-Andalus », dans: Estudios arabes, I, 1984, p. 47, 55
- ESCO (C); GIRALT (J); SENAC (Ph); Arqueología islámica en la Marca superior de Al-Andalus, Madrid, 1987, p.7,38.
- ESCO (C); SÉNAC (Ph); « Un Hisn de la Marche supérieure d'al-Andalus. Piraces (Huesca), Mélanges de la Casa-de Velázquez, T. XXIII, 1987, p.125,150.
- FLORI (J); « Encore l'usage de la lance: La technique du combat chevaleresque vers l'an 1100 », dans : Cahiers de Civilisation médiévale, N°3, Juillet-Sept, 1988, p.232, 248.
- FLORI, L'idéologie du Glaive Préhistoire de la chevalerie, Geneve, Librairie Droz, 1983.
- FLORI; « Un problème de méthodologie. la valeur des nombres chez les chroniqueurs du Moyen Age. Dans: Le Moyen Age, N°3,4,1993,p.400, 422.
- FOSSIER(R); Enfance de l'Europe. Aspects économiques et sociaux, Paris, P.U.F, 1982, 2vol.
- FOURNIER(G); Le château dans la France médiévale: essai de Sociologie monumentale, Paris, Aubier, 1978.
- FOURQUIN(G); Les soulèvements populaires au Moyen Age, Paris, P.U.F., 1972.
- GAIER(C); « Technique des combats singuliers d'après les auteurs bourguignons », dans: Le Moyen Age, N° 1, 1986, p. 5, 40.
- GRANSHOF (F. L); L'Armée sous les Carolingiens », dans: Ordinamenti militari in Occidente, centro italiano de Studi Sall'alto medioevo Settemane de Studio, T. XV, Spolète, 1968, p. 109, 130.

- **GARCIA GOMEZ** (Em); *AL'HAKAM II y los Bereberes segun un texto inédito de Ibn Hayyan*, dans: AL ANDALUS, Vol. XIII, Fasc. 1, Madrid, 1948, p. 209, 226.
- **GATEAU** (A); « Quelques observations sur l'intérêt du voyage d'Ibn Jubayr pour l'histoire de la navigation en Méditerranée au XII^e siècle ». Hespéris Tamuda, T. XXXIII, Rabat, 1949, p. 289, 312.
- **GAUTIER-DALCHÉ**(J); « Châteaux et peuplement dans la Péninsule ibérique (X-XIII siècles). Flaran 1: Châteaux et peuplement en Europe occidentale du X^e au XVII^e siècle, Flaran, Gers, 1979, p.93, 107.
- **GAUTIER-DALCHÉ**; « Islam et chrétienté: Espagne au XII^e siècle: contribution à l'étude de la notion de frontière ». dans: Hespéris Tamuda, T. XLVII, 1959, p. 183, 217.
- **GLICK** (Thomas F); *Cristianos y musulmanes en la España medieval, 711. 1250*, Madrid, Alianza, Universidad, 1991.
- **GODELIER** (M); *L'Ideal et le Materiel, pensée, économies, sociétés*, Paris, Fayard, 1984.
- **GOITEIN**(Shelomo.D), *Le commerce méditerranéen avant les croisades: quelques faits et problèmes*, Diogène, N° 59, Paris, Gallimard, 1967, p.52, 68.
- **GUERREAU**(A); *Le féodalisme:un horizon théorique*, Paris, le Sycomore, 1990.
- **GUICHARD** (P); *Château et communauté rurale dans l'Espagne musulmane du XII^e siècle. Les Textes et l'archéologie*, dans: L'Espagne et la Sicile... op. cit, p.193, 201.
- **GUICHARD**; *Château et pouvoir politique*, 1^{er} congreso Internacional Fortificaciones en al-Andalus, Algeciras: Noviembre-Diciembre, 1996, Pub. 1998, p. 25, 31.
- **GUICHARD**;«L'Europe et le monde musulman au Moyen Age», dans: Hespéris Tamuda, vol. XXXV, Fasc.2, 1977, p. 67, 102.
- **GUICHARD**; *L'Espagne et la sicile musulmanes aux XI-XII^e siècles*, Presses. Universitaires de Lyon, 1990.
- **GUICHARD**; *Les Musulmans de valence et la Reconquête, XI-XIII^e siècles*, Damas, 1991, 2 T.

- **GUICHARD(J)**, Structures sociales «Orientales» et «Occidentales» dans l'Espagne musulmane, Paris, La Haye-Mouton, 1977.
- **HEERS (J)**, La ville au Moyen Age en occident Paysages, pouvoirs et conflits, Paris, 1990.
- **HERNANDEZ CRUZ (Miguel)**; El Islam de al-Andalus. Historia y estructura de su realidad social, Madrid, A.E.C.I., 1996.
- **IZQUIERDO BENITO (R)**; Las alcazabas en al-Andalus. Sentido y funciones dans: Fortificaciones en al-Andalus... op. cit, p. 103, 110.
- **JEHEL (G); RACINET (Ph)**; La ville médiévale de l'occident chrétien à l'orient musulman, V-XV^e siècle, Paris, A. Colin, 1996.
- **JOHSUA (I)**; La Face cachée du Moyen Age, Paris, La Brèche, 1988.
- **LAGARDÈRE (V)**; Campagnes et paysans d'al-Andalus, VIII-XV^e siècles, Paris, Maisonneuve-La Rose, 1993.
- **LAGARDÈRE**; Esquisse de l'organisation militaire des Murabitún à l'époque de Yūsuf B. Tāsfīn, 430 H (1039) à 500 H (1101), dans: Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, N°27, Sep, 1979, p.99, 114.
- **LAGARDÈRE**; Histoire et société en occident musulman au Moyen Age. Analyse du Mī'yār d'al-Wansārīsi, Madrid, Casa de velázquez, C.S.I.C. 1995.
- **LAGARDÈRE**; Le Vendredi de Zellaqa 23octobre 1086, Paris, L'Harmattan, 1989.
- **LAGARDÈRE**; Les Almoravides jusqu'au règne de Yūsuf B. Tāsfīn (1039, 1106), Paris, l'Harmattan, 1989.
- **LAGARDÈRE**; Structures étatiques et communautés rurales:Les Impositions légales et illégales en al-Andalus et au Maghreb:XI-XV^e siècles. Dans : Studia Islamica, T. 80, Paris, 1994.
- **LE GOFF (J)**; «Note sur société tripartite, idéologie monarchique et renouveau économique dans la chrétienté du IX au XII^e siècle », dans: Annales, Economies, Sociétés, Civilisations, A.E.S.C, 1968, p. 80- 90
- **LE GOFF (J); BIRABEN (J. N)**; «La peste dans le Haut Moyen Age». Dans . Annales. E.S.C; N° 6, 1969, p.1481, 1510.

- **LE GOFF (J), NORA (P)**; Faire l'Histoire, Paris, Gallimard, 1974, 3 vol.
- **LEMGELLE (M)**; L'Esclavage, Que sais-je, N° 667, Paris, P.U.F, 1992.
- **LE ROBOT** : Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Paris, 1980.
- **LETOURNEAU(R)**; L'occident musulman du milieu du VII siècle à la fin du XV^e siècle ». dans: Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Alger, 1958, p.147, 176.
- **LÉVI-PROVENÇAL(E)**; Inscriptions Arabes d'Espagne, Paris, La Rose-Leiden, Brill, 1931.
- **LÉVI-PROVENÇAL**; L'Espagne musulmane au X^e siècle, Institutions et vie sociale, Paris, La Rose, 1932.
- **LÉVI-PROVENÇAL**; Histoire de l'Espagne musulmane,
- T. Premier: La conquête et l'Emirat Hispano-Umayade, (710,912).Paris, Leiden, 1950.
- T 2: Le Califat umayade de Cordoue, (912, 1031).
- Paris, Maisonneuve, Leiden (Brill),1950.
- T 3: Paris, Maisonneuve, 1953.
- **LIROLA DELGADO (J)**; El poder naval de Al-Andalus en la época del Califato Omeya, Granada, 1993.
- **LOMBARD (M)**; Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane, VII-XI^e siècle. dans: Espaces et réseaux du Haut-Moyen Age, Paris, La Haye-Mouton, 1972, p. 107, 153.
- **LOMBARD**; « Le bois dans la Méditerranée musulmane, VII-XII siècles, un problème de cartographie », dans: Espaces et réseaux... op. cit, p.153, 176.
- **LOMBARD**; « Mahomet et Charlemagne. Le problème économique ». dans: Espaces et réseaux... op. cit, p. 31-45.
- **MALPICA CUELLO(Antonio)**; « Un Hisn en las Memorias del Rey Abdellah: QABRIRA. dans: Revista del centro de Estudios Historicas de Granada y su Reino. N°1, Granada, 1987, p.53, 67.

- MANZANO MORENO(I d), La Frontera de al-Andalus en la epoca de los Omeyyas, Madrid, C.S.I.C,1991.
- MANZANO MORENO, El Asentamiento y la organizacion de los yunds Serios en al Andalus dans Al-QANTARA,Vol XIV, Fasc 2, Madrid, 1993, p 327, 359
- MAQUEDA JIMENEZ(D),« Algunas precisiones cronologicas sobre las murallas de Sevilla » dans Fortificaciones en al-Andalus – op cit, p 333, 339
- MARTINEZ-GROS(Gab); L'idéologie omeyyade la construction de la legitimite du califat de Cordoue (X-XI^e siècles), Madrid, Casa de velazquez, 1992.
- MAZZOLI-GUINTARD(Ch); Châteaux et rebelles. L'exemple d'al-Andalus a la fin du IX^e siecle dans châteaux, nobles et aventuriers 3^e rencontre internationale d'archéologie et d'Histoire en Perigord, Perigueux 27-29 sep,1996, Bordeaux, 1999, p.19, 49.
- MAZZOLI-GUINTARD, Villes d'al-Andalus. L'Espagne et le Portugal a l'epoque musulmane, VIII-XV^e siecles, Presses universitaires de Rennes, (P.U.R), 1996.
- MEOUAK (M), La Biographie de Galib; haut fonctionnaire andalou de l'epoque califale: Carriere politique et titres honorifiques Dans Al QANTARA, Vol XI Fasc 1, Madrid, 1990, p 95, 112.
- MORABIA (Al), Le Gihad dans l'Islam médiéval, « Le combat sacre », des origines au XII^e siècle, Paris, Al Michel, 1993.
- MOUTON (D), « L'édification des Mottes castrales de Provence, un phenomene durable, X-XIII^e siècles », dans : Château Gaillard – op cit, p 309,321
- PIRENNE (Henri); Mahomet et Charlemagne, Paris, P.U F, 1970.
- POLY (J. P), BOURNAZEL (E); La mutation féodale X-XII^e siecle, Paris, P.U F, 1980.
- **Problèmes de Stratification sociale**, Colloque international, Paris, 1966, P.U.F, 1968.
- PUÑAL FERNANDEZ (Tomas),« Las rutas militares del Henares (arama en la edad Media », dans Revista de las Armas Ejército, N 621, op cit p.66,73.

- **RADHI BASHIR** (Hassan); El ejército en la época del califato de Al-Andalus. Tesis Universidad Complutense, Madrid, 1989-1990, 2^o 1.
- **ROMAN** (Yves); Le Haut-Empire romain, Paris, Ellipses, 1998.
- **ROSS** (D.J.A); L'originalité de « Turolus », le maniement de la Lance. dans. Cahiers de Civilisation médiévale, N° 2, Avril-Juin 1963, p.127, 138.
- **ROUX** (Simone); Le monde des villes au Moyen Age, XI-XV^e siècle, Paris, Hachette, 1994.
- **SÉNAC**(Ph); La Muralla islamica de Huesca. dans:2^econgreso de Arqueología medieval española, Madrid, 1987, p. 590, 601.
- **SÉNAC**; « Les Husun du Tagr Al aqsa: A la recherche d'une frontière septentrionale d'al-Andalus à l'époque Omeyyade ». dans : Frontière et peuplement Castrum 4, op. cit, pp. 75, 84.
- **SÉNAC**; Musulmans et Sarrasins dans le Sud de la Gaule du VIII à XI^e siècle, Paris, Le Sycomore, 1980.
- **SÉNAC**; Note sur les Husun de Lérida. Dans : Mélanges de la Casa de velázquez, T. XXIV, Madrid, 1988, p.53, 59.
- **SÉNAC**; **ESCO** (C); une forteresse de la Marche supérieure d'al-Andalus. Le Hisn de SEN et MEN Province de Huesca. Annales du Midi, T. 100, N° 181, Jan-Mars 1988, Toulouse, Privat, 1988, p.17, 33.
- **SOLER** (Alvaro); **ZOZAYA** (J); « Castillos omeyas de planta cuadrada: Su relación funcional », dans: III Congreso de Arqueología medieval Española, Oviedo 1989, p. 265, 274.
- **SOURNIA** (J. Ch); Médecins arabes anciens X-XI siècles, Paris, Conseil international de la langue française, 1986.
- **SOUTO** (J.A); Sistemas defensivos andalusies: notas acerca de la defensa militar de la Zaragoza Omeya. III Congreso de Arqueología medieval española, Oviedo, 1989, p. 275, 285.
- **TAHIRI** (A); Problemas de una reconstrucción urbana en al-Andalus: El ejemplo de la Sevilla abbadi », dans: Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb-occidental, Madrid, Casa de velazquez, C.S.I.C, 1998, p. 219, 227.

- **TORRES BALBÁS (I)**; Ciudades Hispanomusulmanas, Madrid, Segunda ed, 1985.
- **TORRES BALBÁS**, Ciudades Hispanomusulmanas de nueva fundacion dans, Etudes d'Orientalisme dédiées à la Mémoire de Lévi-Provençal (F), Paris, Maisonneuve-La Rose, 1962, p. 781, 803.
- **TORRES BALBÁS**; Rábitas Hispano musulmanas. Dans : Al-Andalus, Vol XIII, Fasc 2, Madrid-Granada, 1948, p. 445, 491.
- **TOUBERT (P)**; Les structures du Latium médiéval, Ecole fr. de Rome, 1973, 2 vol.
- **VALLVÉ (J. B)**; La division territorial de la Espaná Musulmana, Madrid, C.S.I.C, 1986.
- **VALLVÉ**; La Industria en al-Andalus. dans: Al-QANTARA, Fasc 1-2, Madrid, 1980, p. 209, 238.
- **VALLVÉ**, El Califato de Córdoba, Madrid, MAPFRE, 1992.
- **• VALOR-MAGDALENA (P)**; La Arquitectura militar y Palatina en la Sevilla musulmana, Sevilla, 1991.
- **VIGUERA (M.J)**; y otros; Los Reinos de Taïfas: Al-Andalus en el siglo XI, Madrid, Espasa Calpe, 1994, p.193, 225.
- **WHITE (L)**; Technologie médiévale et transformations sociales, trad. fr, Paris, 1969.
- **ZOZAYA (J)**; Evolución de un yacimiento. El Castillo de Gormaz (SORIA), dans: Guerre, fortification... Castrum 3... op. cit, p.173, 178.

فهرس املوضنوعات

المقدمة

الباب الأول: الكور المجندة وجند الحضرة ونظام الثغور وخيل القتال

21

تقديم

22

الفصل الأول: الكور المجندة وجند الحضرة

25

1 - الكور المجندة.

29

2 - جند الحضرة.

30

أ - الصقالبة.

35

ب - الحشم.

37

ج - البربر.

39

د - الطنجيون.

50

خلاصة.

53

الفصل الثاني: نظام الثغور

71

1 - رباط العلماء والفقهاء والقضاة في الثغور.

77

خلاصة.

79

الفصل الثالث: أعطيات وأرزاق الجند

81

1 - وضعية الأرض ونصيب الجند منها.

96

2 - الضرائب.

121

خلاصة.

123

الفصل الرابع: خطط الجند وأساليب القتال.

125

1 - مراتب الجند.

126

أ - القيادة.

127

1 - العرفاء.

128

2 - خطة الخيل.

130

3 - الخيل والبغال والجمال بالأندلس.

130

أ - الخيل.

133

ب - البغال.

136

ج - الجمال.

137

4 - البيطرة.

140

5 - الحملات العسكرية.

- 140 أ - الصوائف والشوائف.
- 144 ب - الطرق والمسافات العسكرية.
- 148 ج - التّموين والنقل العسكري.
- 152 د - الجواسيس والبريد ولغة التواصل بين الجند.
- 152 (1) الجاسوسية.
- 154 (2) البريد والدليل والحمام الزاجل.
- 156 (3) لغة التواصل بين الجند.
- 158 ح - التعبئة وأساليب القتال خلال المعارك: الكمائن والكر والفر والزحف.
- 162 1 - الأعداد في المعارك.
- 163 خلاصة.
- 166 خاتمة.

الباب الثاني، الحصون والقصبات والأسوار والأسلحة.

- 173 تقديم:
- 179 الفصل الأول: الحصون في الأرياف: العمران والوظائف.
- 184 1 - حصون الثغور.
- 192 2 - حصون الوسطة والغرب.
- 199 3 - حصون الجنوب والشرق.
- 200 4 - وظائف الحصون.
- 204 أ - وظائف حصون الثغور.
- 206 ب - وظائف حصون الخلافة.
- 208 ج - وظائف حصون الطوائف.
- 212 خلاصة.
- 215 الفصل الثاني: القصبات والأسوار في المدن.
- 217 أ - الأصول.
- 224 ب - المواقع.
- 226 1 - المدينة المرتفعة أو المعلقة.
- 226 2 - المدينة التقليدية المحصنة في جزئها الأعلى.
- 226 3 - مدينة الهضبة.
- 226 4 - مدينة السهل المحاطة بحزام من المياه.
- 226 5 - المدينة القنطرة.
- 228 ج - الأسوار والخنادق والأبواب.
- 229 1 - أسوار سرقسطة.
- 230 2 - سور وشقة وبربشتر.

231	3 — سور سمورة.
231	4 — أسوار طرطوشة وطليلة ووادي الحجاره وقلعة رباح
231	5 — أسوار يابرة.
232	6 — سور بلطيوس.
233	7 — سور ماردة.
233	8 — سور لبلة.
234	9 — سور إشبيلية.
237	10 — أسوار وخنادق قرطبة.
239	11 — أسوار استجة وبلنسية.
240	12 — أسوار ألمرية ومالقة.
242	د — مواد البناء.
247	خلاصة.

الفصل الثالث: الأسلحة والألبسة الحربية: الأنواع والوظائف.

256	1 — السيوف.
260	2 — أسلحة الرماية الخفيفة والطعن (القسي والنبال، الرماح والمزاريف)
268	3 — المجانيق والعرادات والدبابات.
270	4 — الألبسة والشارات الحربية: الدروع والجواشن والدرق والتراس والسروج والطبول والرايات والألوية.
271	أ — الدروع والجواشن.
273	ب — التراس والدرق والخوذ والعمائم.
280	ج — السروج والركاب واللجم.
284	د — الطبول والرايات والألوية.
287	خلاصة.
289	خاتمة.

الباب الثالث، الأسطول الحربي.

297	تقديم
301	الفصل الأول: الرباطات البحرية.
310	خلاصة.
311	الفصل الثاني: دور الصناعة ومواد الإنشاء.
313	أ — دور الصناعة.
317	1 — في الجنوب.
317	أ — ألمرية.
319	ب — مالقة والمنكب الجزيرة الخضراء.
320	2 — في الغرب.

أ - إشبيلية.

ب - شنتمرية الغرب وشلب وقصر أبي دانس.

3 - في الشرق.

أ - دانية ولقنت

ب - طرطوشة.

4 - في الجزر وعلى الأنهار الكبرى.

أ - الجزر.

ب - الأنهار.

ب - مواد صناعة الأسطول.

خلاصة.

الفصل الثالث: السفن الحربية: الأنواع والأعداد والأوقات

والمسافات

أ - الأنواع.

1 - الشواني والأغربة.

2 - الحراقات.

3 - أنواع أخرى.

ب - الأعداد

ج - الأوقات والمسافات.

1 - الأوقات.

2 - المسافات.

خلاصة.

الفصل الرابع: حمولة الأسطول المادية والبشرية

أ - الأعداد والحمولات.

ب - القيادة.

ج - المؤونة والرواتب.

د - الأصول الاجتماعية لرجال الأسطول.

ح - ألبسة وأسلحة رجال الأسطول.

خلاصة

خاتمة

الخاتمة.

قائمة المصادر.

فهرس الموضوعات.

هذا الكتاب

إن البحث في التاريخ العسكري الأندلسي هو، في واقع الأمر، دراسة في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لأن المجتمع والسلطة والاقتصاد مقولات لها وجه عسكري يعكس، بشكل من الأشكال، مستوياتها وأهميتها. لذلك لا تقف دراسة النظام العسكري عند الجوانب «الحدثية» أي المعارك وتعدادها وأعداد الجند والانتصارات والهزائم. إنها دراسة تحاول التعمق في قضايا أساسية مرتبطة بالمقولة الثلاثية التي يتقاطع فيها الملك (السلطة السياسية)، والجند (أداة السلطة)، والاقتصاد (البنية المادية للسلطة والجند).

المؤلف :



- من مواليد أيت اعتبار، إقليم أزيلال.
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الوسيط الأوربي من جامعة تولوز (فرنسا) عام 1985.
- حاصل على دكتوراه الدولة في التاريخ الأندلسي من جامعة الحسن الثاني بالمحمدية عام 2000.
- شارك في مؤتمرات وندوات وطنية ودولية.
- له أبحاث منشورة في دوريات علمية متخصصة.
- يعمل أستاذا محاضرا بجامعة الحسن الثاني (المحمدية).

9954 - 423 - 23 - 0

